

لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com
المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
ميراث الترجمة
سبارتاكوس
"ثورة العبيد"
تأليف: هوارد فاست
ترجمة: أنور المشرى
مراجعة: محمد بدران
تقديم: خيرى دومة
1341



فى الذاكرة التاريخية للبشر قصص خالدة، يعودون إليها، يستلهمونها، يستعيدونها فيمتلئون بالأمل من جديد، أو يمسهم طائف من الأسى واليأس لكثرة ما تكررت القصص وتكرر فشلها. تلك هى قصص الأنبياء والقديسين والأبطال التى صاغتها ذاكرة البشر مرات لا تحصى، وأعطاها خيالهم معانى وألوانًا لا تنفد.

وقصة "سپارتاكوس" واحدة من هذه القصص : عبد يونانى تراقى لا يملك أسباب القوة، استطاع أن يجمع من حوله جيشًا من العبيد المقهورين ينتمون إلى أجناس ولغات مختلفة: أفارقة ويهود ويونانيين . .إلخ، وأن يقودهم إلى التمرد والثورة على روما ومظالمها، بعد أن جمعتهم روما من بقاع العالم، وحولتهم بغناها وحضارتها اللاهية، إلى جنس آخر أدنى من البشر وأقرب إلى الحيوانات. وهكذا صار اسم سپارتاكوس رمزًا لطلب الحرية فى أقسى الظروف.

ولم يكن الروائى الأمريكى هوارد فاست Howard Fast بطبيعة الحال، أول - ولن يكون آخر - فنان التفت إلى قصة سپارتاكوس الخالدة، لكنه من غير شك كان أبرز من صاغها فى إطار رؤية جديدة وخاصة للتاريخ الإنسانى.

رسوم: توم ڤان ساندت   تصميم الغلاف: عمرو الكفراوى

سپارتاكوس
ثورة العبيد

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب
– العدد : ١٣٤١
– سبارتاكوس (ثورة العبيد)
– هوارد فاست
– أنور المشرى
– محمد بدران
– خيرى دومة
– ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية :

SPARTACUS

by: Howard Fast

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٤٥٤٢٦ فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
Tel. : 273545424 - 27354526 **Fax :** 27354554

سپارتاكوس

(ثورة العبيد)

تأليف : هوارد فاست
ترجمة : أنور المشرى
مراجعة : محمد بدران
تقديم : خيرى دومة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فاست، هوارد (١٩١٤ - ٢٠٠٣)
سپارتاكوس (ثورة العبيد)/تأليف : هوارد فاست؛
ترجمة: أنور المشرى؛ مراجعة : محمد بدران؛ تقديم : خيرى دومة
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٥١٦ ص ، ٢٤ سم
١ - القصص الإنجليزية
٢ - القصص التاريخية
(أ) المشرى ، أنور (مترجم)
(ب) بدران ، محمد (مراجع)
(جـ) دومة ، خيرى (مقدم)
(جـ) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٧٨٨٨
الترقيم الدولى I.S.BN 978. 977 - 479 - 147 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتــويات

المقدمة

"الذاكرة : متعة البشرية ومصدر أساها".

خيرى دومة

فى الذاكرة التاريخية للبشر قصص خالدة، يعودون إليها، يستلهمونها، يستعيدونها فيمتلئون بالأمل من جديد، أو يمسهم طائف من الأسى واليأس لكثرة ما تكررت القصص وتكرر فشلها. تلك هى قصص الأنبياء والقديسين والأبطال التى صاغتها ذاكرة البشر مرات لا تحصى، وأعطاها خيالهم معانى وألوانًا لا تنفد.

وقصة "سبارتاكوس" واحدة من هذه القصص : عبد يونانى تراقى لا يملك أسباب القوة، استطاع أن يجمع من حوله جيشًا من العبيد المقهورين ينتمون إلى أجناس ولغات مختلفة: أفارقة ويهود ويونانيون.. إلخ، وأن يقودهم إلى التمرد والثورة على روما ومظالمها، بعد أن جمعتهم روما من بقاع العالم، وحولتهم بغناها وحضارتها اللاهية، إلى جنس آخر أدنى من البشر وأقرب إلى الحيوانات. وهكذا صار اسم سبارتاكوس رمزًا لطلب الحرية فى أقسى الظروف.

ولم يكن الروائى الأمريكى هوارد فاست Howard Fast بطبيعة الحال، أول – ولن يكون آخر – فنان التفت إلى قصة سبارتاكوس الخالدة، لكنه من غير شك كان أبرز من صاغها فى إطار رؤية جديدة وخاصة للتاريخ الإنسانى.

خلال حياته الطويلة (١٩١٤-٢٠٠٣) كتب هوارد فاست ما يربو على الثمانين عملاً، تتفاوت فى طولها ونوعها الأدبى: من القصص القصيرة إلى المسرحيات إلى

السيناريوهات والمقالات وكتب السيرة الذاتية.. وقد حققت أعماله نجاحا تجاريا ومبيعات هائلة، واهتمت رواياته بالجريمة وبالخيال العلمى على السّواء، لكن أفضل ما سيذكره الناس من مشواره الأدبى الطويل هو رواياته التاريخية، ومنها روايته هذه "سبارتاكوس".

والحقيقة أن بعض المعلومات الأساسية فى سيرته، يمكن أن تلقى ضوءًا كاشفًا على أعماله الأدبية عمومًا وعلى "سبارتاكوس" خصوصًا؛ فقد ولد فاست عام ١٩١٤ فى نيويورك، وكان الطفل الثالث والولد الثانى لأبوين يهوديين هاجرا إلى أمريكا؛ فوالده بارنى Barney الذى وصل إلى نيويورك عام ١٨٧٨ فى عمر التاسعة، كان قد اكتسب لقبه "فاست" من موطنه الأصلى "فاستوف" Fastov فى أوكرانيا. أما والدته فيهودية من ليتوانيا تدعى "إدا" Ida، انتقلت إلى أمريكا عبر لندن، وماتت حين كان هوارد فى الثامنة من عمره. وعاشت الأسرة حياة بائسة فى ظروف الفقر والعزلة اليهودية المعتادة داخل المجتمع الأمريكى المتعدد.

نشر فاست أول قصة قصيرة عام ١٩٣٢حين كان فى الثامنة عشرة من عمره، وبعدها تتابعت قصصه ورواياته، وكان أشهرها "المواطن توم بين"[(١)] ١٩٤٣، و"طريق الحرية"[(٢)] ١٩٤٤، ثم "سبارتاكوس" ١٩٥١، و"ضحى أبريل" ١٩٦١ .

غير أن الحدث المفصلى فى حياة هوارد فاست، كان تبنِّيه للفكر الماركسى، واهتمامه بالحركات العمالية وحركات التحرر، وانضمامه رسميا إلى الحزب الشيوعى الأمريكى لمدة خمسة عشر عامًا، وحصوله على جائزة ستالين الدولية للسلام عام ١٩٥٣، وذلك قبل أن ينفصل رسميا عن الحزب الشيوعى عام ١٩٥٦، ويسجل تجربته مع هذا الحزب فى كتابه الشهير "being red".

وفى هذه الفترة الخصبة من حياته تعرض فاست لمحاكمة طويلة، بتهمة تتعلق بالعمل ضد المصالح الوطنية الأمريكية، وانتهت المحاكمة بسجنه لمدة ثلاثة أشهر أواسط عام ١٩٥٠ . وهناك فى السجن تبلورت الفكرة: أن يكتب روايته هذه عن "سبارتاكوس"؛ ففى كتابه "being red" يقول فاست:

".. من دون ذلك السجن لم أكن لأكتب رواية سبارتاكوس؛ فقد بدأ الكتاب يتبلور في ذهني خلال تلك المدة فى سجن "ميل بوينت"؛ حيث بدأت أدرك وبشكل أعمق من أى وقت مضى، العذابَ الكامل وفقدانَ الأمل لدى الطبقات الدنيا.

.. ومع ذلك فهناك فى السجن بدأت التفكير فى سبارتاكوس العبد. قرأت كل معلومة صغيرة عن سبارتاكوس استطعت الحصول عليها فى مكتبة السجن الصغيرة، قرأت كل ما وجدته عن روما، وكانت لدىّ قراءاتى فى التاريخ القديم منذ أعوام، ومن ثم كان لدى أساس راسخ، ولكنى لم أقرأ كتاباً عن ذلك التاريخ من الغلاف إلى الغلاف إلا حين خرجت من السجن إلى البيت، بخاصة المجلدين الرائعين عن تاريخ الشعوب العاملة تحت عنوان The Ancient Lowly المكتوبين فى عام ١٨٨٨ ، واللذين أعيد نشرهما فى ١٩٠٧ ، والكتابان يحتويان على ما يقرب من ألف صفحة عن تاريخ العبيد فى الأزمنة القديمة.

هناك فى هذين الكتابين، وجدت قصة سبارتاكوس، وصار من المتصور والممكن أن أحكى قصته بشكل يقارب الحقيقة. وحقيقة التاريخ ضائعة على الدوام، بل إن حقيقة كل يوم نعيشه هى أمر لا يمكن إدراكه. وأفضل ما يمكن لكاتب الرواية التاريخية أن يفعله هو أن يقع على إحساس بالزمن الذى يكتب عنه، وأن يوصل هذا الإحساس إلى قارئه" (Being Red, pp ٢٧٦-٧٧).

وفى مقدمته لفصل نشره من سبارتاكوس قبل أن يُتم كتابة الرواية، يقول:

"فى يناير عام ١٩٥٠بدأت تتبلور فى عقلى، وبدأت تتجمع مادة لكتاب عن سبارتاكوس، وعن تمرد العبيد الذى قاده. كنت فيما مضى مأخوذاً بقصة هذا العبد الذى زلزل الإمبراطورية الرومانية من أساسها، والذى صار رمزاً لا يموت للمقاومة والنضال الطبقى. لا فى ذلك الزمن البعيد فحسب، بل فى زماننا نحن أيضاً.. كان اسم سبارتاكوس عبر القرون يتردد على شفاه المقموعين والمعذبين والمناضلين فى المجتمع. قرأت الكثير، وكافحت مع المادة التى جمعتها، تماماً كما يفعل الكتاب، ثم أخيراً وفى أبريل من ذلك العام بدأت فى الكتابة.

بعدها بقليل دخلت السجن، وهناك لم أجد المكان ملائمًا للكتابة الإبداعية، غير أننى استأنفت القراءة وتجهيز خلفية قصتى. ولكن تصورى لما كنت أريد أن أفعله كان قد تغير. .. لقد تغير شكل القصة على كل حال. ومن الصعب أن أشرح العملية الإبداعية لأن بعضًا منها تَشكَّل أمام الآلة الكاتبة.. لقد بدأت أرى استمرارية مدهشة بين تلك الحرب الطبقية الأولى - كانت هناك حروب قبلها ولكن لم يكن لإحداها ذلك العمق - وكل المرات التى وقعت فيها حروب كهذه من بعد. كان هناك سُلَّم إلى النجوم، وكان الإنسان قد حارب لكى يصعد عليه منذ بدء الحضارة، ولم يضِع صعود درجة من درجات ذلك السلم، كانت معرفتنا فقط هى الناقصة. اليوم، وبعد مرور كل هذه السنين، بعد كثير من الألم، وكثير من المعاناة والبؤس والقمع، أصبح ما كان يصبو إليه ذلك السلم فى المتناول. هذا التصور، تصور وجود صلة داخلية، بين أى وكل انفجار ضد القمع، بين أى وكل سوط للقمع، أصبح موضوعًا لما أريد أن أكتب... كان الأمر أكبر وأكثر مما أحتمل.

والحقيقة أننى قررت أن أبدأ. قد تستغرق كتابة هذا كله عشرين عامًا، وقد لا تتم كتابته على الإطلاق. لم تكن تلك هى المشكلة. قد أكتب أنا بعضه، ويكتب آخرون بقيته ونحن أقرب ما نكون إلى نهاية السلم ولإنهاء الكتابة.

الجزء المنشور هنا مأخوذ من المجلد الأول من كتاب بالغ الطول. وأنا آمل أن أنتهى من هذا المجلد الأول سريعًا، كما آمل أن أنشره بنفسى فى صورة كتاب. ما يلى هو حكاية عن جانب من حياة سبارتاكوس، كما رواها باتياتوس، صاحب مدرسة المصارعين، لكاسوس المليونير الرومانى والجنرال الذى قضى على ثورة العبيد. إنها ليست تاريخًا بالمعنى الحرفى، ففى تلك الأزمنة البعيدة، والأزمنة التالية لها أيضًا، كان التاريخ يكتب بواسطة الطبقات الحاكمة ولمصلحة الطبقات الحاكمة، ونحن لا نكاد نعرف شيئًا عمن هو سبارتاكوس ولا من أين جاء؛ فالرجال الذين أحبهم وأحبوه كلهم قضوا. ولم تبق كلمة واحدة مما كتبه أحدهم عنه. لقد تصوره مؤرخو روما وفقًا

لمصالحهم واحتياجاتهم. وأنا حاولت أن أستعيده إلى الحياه بذلك المنطق للتاريخ الذى ينتمى إلى الطبقة العاملة وحلفائها".

فى هذا الحديث الطويل لفاست أمران مهمان تركا أثرهما الواضح على الرواية: الأمر الأول أن الرواية كتبت من غمار هذه الخلفية الماركسية التى كان فاست قد تشبع بها، وأنها ربما بدت فى النهاية وكأنها محاولة قراءة ماركسية لتاريخ الصراع الطبقى الممتد. والأمر الثانى هو هذا الصراع الذى يعتمل فى نفس فاست، بين منظور المؤرخ الماركسى الإيديولوجى، ومنظور الروائى الفنان الذى يدرك كنه النوع الروائى أعمق ما يكون الإدراك.

ولأن الرجل كتب روايات تاريخية متعددة وناجحة: كان من الطبيعى أن تُطلب شهادته فى موضوع الرواية التاريخية، فكتبها تحت عنوان مثير هو "History in Fic-tion". وقد رفض فى شهادته تلك، مصطلح "الرواية التاريخية" نفسه، كما رفض أن توصف رواياته بأنها روايات "تاريخية". إنها فقط "روايات"، والرواية كما يفهمها فن واسع ومتمرد ويتأبى على التصنيف والتحديد. يقول فاست فى شهادته:

"أين بالضبط تتوقف الرواية عن كونها مجرد رواية لتصبح "رواية تاريخية"؟ إن معظم الناس لن يروا فى رواية تدور أحداثها فى بداية القرن العشرين رواية تاريخية. هل التجربة التى عاشها أبى أقل تاريخية من التى عاشها جدى؟ هل هناك تاريخ معين أو عقد معين تتوقف عنده الرواية عن أن تصبح مجرد رواية؟ الحق أننى لا أعرف الإجابة، ولكن مصطلح الرواية التاريخية يجب بالنسبة لى أن يُلقَى فى سلة المهملات، ولا أستطيع أن أقول إننى أكتب روايات تاريخية ؛ إذ لا شىء مما أكتب يندرج تحت هذا العنوان.

إن الروائى يعمل على شكل من أكثر الأشكال الأدبية مرونة وتنوعًا. والرواية كشكل هى من الاتساع بحيث يستحيل تصنيفها، لأنها تتأبى على التعريف. وهذا ما

يجب أن تكون عليه. الروائى فى الأساس يعمل على الكائنات البشرية.. ووظيفتى كما أتصورها هى حكى القصص، وهناك شىء يربط بين القصص التى أحكيها: أنها جميعًا تتناول نضالات البشر من أجل الحرية. قصصى ليست دراسات تاريخية، وليست دراسات سياسية، إنما هى قصص عن البشر. بعض هذه القصص وقع منذ زمن طويل، وبعضها وقع منذ أجيال معدودة، وبعضها يحدث اليوم.

أما لماذا أكتب عن الماضى فإن فى كتبى الإجابة: هؤلاء الرجال العظام الكبار المنسيون لم يعيشوا ويموتوا لكى يذهب كل ما فعلوه هباء، لقد عاشوا وحاربوا وماتوا لكى نرث الأشياء التى أقاموها ونستخدمها، ونفس الأشياء التى واجهوها يواجهها الرجال اليوم، الجميع أصبحوا سواء.

"سبارتاكوس" إذن، قصة من تاريخ روما القديم فى القرن الأول قبل الميلاد، فماذا فعل بها هوارد فاست(٣) عند منتصف القرن العشرين للميلاد؟

لم يُتَح لسبارتاكوس فى التاريخ - وعلى عكس الأنبياء والقديسين والأبطال الكبار - من يجمع سيرته ويكتبها؛ فظلت سطوراً ممزقة منثورة فى ثنايا كتب التاريخ القديم. ليس هذا فحسب، بل إنه حتى هذه السطور جاءت مكتوبة من منظور العدو الحاكم المسيطر؛ لأن كل أتباع سبارتاكوس قضوا فى نهاية الثورة كما هو معروف، ولم يبق منهم من يروى لنا.

وبدءاً من القرن التاسع عشر صار لكفاح سبارتاكوس - الذى نظر إليه عادة باعتبار أنه كفاح بشر مقموعين مستعبدين يناضلون من أجل حريتهم، ضد أسيادهم ومالكيهم من الأرستقراط - صار له معنى جديد عند الكتاب المحدثين ، وأصبحت شخصية سبارتاكوس وثورته مبعث إلهام لكثير من السياسيين(٤) والكتاب(٥)، فصنعوا منها بطلا شعبيا قديما وحديثًا فى الوقت نفسه. ويكفى أن سبارتاكوس كان بطل ماركس المفضل، فهو بالنسبة له "أروع بطل كان بإمكان التاريخ القديم أن يقدمه: قائد عسكرى عظيم، وشخص نبيل، وممثل حقيقى للبروليتاريا القديمة".

غير أن شخصية سبارتاكوس - وفقًا لدوكسى ولكرسون - لم تكن شائعة فى الثقافة الأمريكية حين كتب فاست روايته؛ إذ يقول ولكرسون فى متابعة للرواية إبان ظهورها أوائل الخمسينيات: "إن ثورة سبارتاكوس ورفاقه من العبيد لفتت انتباه الثوريين عبر التاريخ، غير أن قصة سبارتاكوس ليست معروفة بالقدر الكافى فى بلدنا وفى أيامنا، إذ نادراً ما يشار إليها فى كتب التاريخ فى مدارسنا وجامعاتنا، وليس هناك سوى ثلاث جمل عن سبارتاكوس فى الموسوعة البريطانية التى تخصص ١٠٠ ألف كلمة للحديث عن"روما" وحكامها المتتابعين. بل إن الإشارات العابرة والنادرة لسبارتاكوس فى أدبنا رأت فى هذه الحركة الثورية مجرد انتفاضة عابرة لـ"عبيد يائسين" أو "خارجين عن القانون" أو "عصابات" أو" فلاحين معدمين".-Doxey Welker) son. "An Epic Revolt") وما من شك أن هاجس الإعجاب بشخصية سبارتاكوس، والحزن لمأساتها، والثأر ممن طمسوا تاريخها، كان حاكمًا لفاست عند كتابة الرواية. لكنه لم يترك نفسه للانفعال بحيث تتحول الرواية إلى ميلودراما، أو حتى إلى تراجيديا مبكية ومطهِّرة، ثم ينتهى الأمر. لم يبدأ الرجل فى كتابة الرواية، إلا حين تخفف من الحمل الانفعالى، ووصل إلى تلك الدرجة من البرود، التى يمكنه بها أن ينقل رؤيته لما حدث بقدر من الدقة والاحتراف.

وقد وجد فاست فى تقنيات فن الرواية المرن ما يعينه تماماً على أداء تلك المهمة. وسأركز هنا على تقنيتين أساسيتين، استخدمهما الكاتب مترابطتين:

١- المنظور، أو وجهة النظر التى تُحكى منها الأحداث ويُنظر بها إلى الشخصيات والتفاصيل.

٢- تقطيع حكاية البطل الواحد سبارتاكوس، وتوزيعها على ألسنة عدد من الشخصيات التى تحكى وتتحاور.

جمع المؤلف المادة المتاحة عن سبارتاكوس وصاغها على خلفية وعى واضح بما قام به المؤرخون القدامى المعاصرون للحدث، وهو لا يتورع عن الإشارة إلى هذا

الوعى، وعلى لسان راويه العليم الذى يتدخل أحياناً ليقطع كلام الشخصيات ويقطع الحدث بتعليق تعليمى واضح موجه إلى القراء.

وإذا كان فاست براويه قد وجد لكل حادثة من يرويها من وجهة نظره كما سنرى؛ فإنه يتوقف عند بعض الحوادث ويدعى أنه لم يكن هناك من يرويها، مثل ما دار فى مطبخ العبيد وقاعة الطعام بعد مقتل الأفريقى وقبل أن يخرجوا إلى التمرد الذى بدأت به الثورة:

"أما ما حدث فى قاعة الطعام، حيث اجتمع المجالدون لتناول وجبتهم، فلن يوجد من يعرفه أو يرويه كما حدث بالضبط؛ ذلك أنه لم يكن قد وُجد بعد مؤرخون لتسجيل مغامرات العبيد، كما أن حياتهم لم تكن تعد جديرة بالتسجيل. وعندما أصبح ما أقدم عليه عبدٌ جزءاً من التاريخ كُتبَ هذا التاريخ ودوَّنه فردٌ ممن يملكون العبيد، ويخافون العبيد، ويكرهون العبيد". (سبارتاكوس جـ ١، ص ٢٥٩).

ورغم الراوى العليم الذى يقدم لنا المشاهد، فإن المؤلف ظل من البداية إلى النهاية ملتزمًا نقل الحقائق كما رواها الآخرون. وعلى طول الرواية لم نستمع إلى صوت سبارتاكوس إلا قليلاً، وفى هذه الحالة أيضًا يأتينا صوته عبر ما ينقله الآخرون. لم يسع المؤلف قط - عبر الخيال مثلاً - إلى اختراق الحاجز الرومانى الحديدى المضروب على عالم العبيد. وإنما تكونت لدينا صورهم عبر ما رواه الآخرون، وكلهم من أعدائهم الرومان، ممن سمعوا بسبارتاكوس ورفاقه أو قابلوهم أو حتى واجهوهم عسكريا.

وقد تعدد هؤلاء الرواة الآخرون تعدداً مدهشًا فى رواية سبارتاكوس، من باتاتيوس صاحب مدرسة المصارعين (أو "المجالدين" بعبارة المترجم)، إلى الجندى الرومانى الوحيد المتبقى من المعركة الأولى مع العبيد، وقد عاد ليروى لمجلس الشيوخ تفاصيل ما رآه وسمعه، حتى كراسوس القائد العسكرى الكبير الذى تمكن فى النهاية من هزيمة سبارتاكوس ورفاقه، وأمر بصلبهم على طول الطريق من روما إلى كابوا

حتى يصبحوا عبرة، إلا أنه ظل صامتًا عما دار فى المعركة، وإن بدا فى صمته يهاب سبارتاكوس ويكن له الاحترام. وهكذا ظلت صورة سبارتاكوس ورفاقه مغلفة بالغموض، وظل فعلهم والأماكن التى سكنوها على جبل فيزوف، شيئًا أقرب إلى الأساطير التى لم تحدث.

تبدأ رواية سبارتاكوس من نقطة السكون الكامل: أى بعد نهاية ثورة العبيد، وتعليق من تبقى منهم (٦٤٠٠ عبد) على الصلبان المنصوبة فى حفل للعقاب، على طول الطريق الإبيوسى من روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية العظيمة إلى مدينة "كابوا" التى بدأت منها الثورة. وتأخذ الرواية كلها شكل رحلة عمل وترفيه على هذا الطريق من روما إلى كابوا، يلتقى فى نقطة منها (فيلا سالاريا) نخبة من كبراء روما وقادتها العسكريين وفلاسفتها وسياسييها ومثقفيها.

وفى هذه الرحلة التى تبدأ بها الرواية وإليها تنتهى، تنشأ حوارات وحكايات متنوعة، وتتفرع منها حكايات أخرى ومشاهد. ومن غمار هذه الحوارات والحكايات والمشاهد تطل شخصية سبارتاكوس بين الحين والآخر: عبدًا ومحاربًا ورجلاً وزوجًا وبطلاً أسطوريا غامضًا، يتحدث عنه الجميع، يختلفون حوله وحول ثورته، يعبرون عن كراهيتهم له وعن إعجابهم الصامت، وينقل كل منهم الجانب الذى رآه منه، بحيث يمكن أن تتجمع لدينا فى النهاية صورة لبطل غامض، وبحيث لا يكون بمقدور أحد أن يزيل عنه هذا الغموض الدال، حتى ليوشك القارئ فى النهاية أن يدرك أن سبارتاكوس ربما لم يوجد قط إلا فى الخيال.

هذا ما سيصرح به كراسوس نفسه، القائد العسكرى الذى خاض ضده حربًا ضروسًا، ودرس شخصيته قبل المواجهة، ونقل إلينا فى مشاهد كثيرة جانبًا من شخصيته؛ ففى حواره مع كايوس فى فيلا سالاريا – وهى المرة الأولى (بعد ٦٠ صفحة من الرواية) التى يتم فيها الحديث عن سبارتاكوس – سيقول كراسوس ردا على سؤال: هل تعرفه؟ أعنى هل تعرفه شخصيا؟

:"ليس تماماً، لا أعرفه حقا وإنما رسمت لنفسى صورة له، وضعت فيها هذه الصفة إلى جانب تلك، لكنى لا أعرف أن أحداً عرفه على حقيقته.. كان سبارتاكوس لغزاً لى كما هو لغز لك، فأنا لم أره مطلقًا رغم كل ما أذاقنى من عناء .. إنى كثيراً ما أسائل نفسى عن الصورة التى كان يتخيلها لى فى ذهنه. لقد نادانى فى نهاية المعركة أو هكذا يقولون، فلست أقسم أني سمعته، لكنهم يقولون إنه صاح يقول:"كراسوس انتظرنى أيها المغفل، أو شيئًا من هذا القبيل .." (سبارتاكوس ، جـ ١، ص ٥٨-٦٠).

وفى الجزء الثانى من الرواية (الرواية مقسمة إلى ثمانية أجزاء) سيعود المؤلف إلى أقدم نقطة فى حكاية سبارتاكوس؛ إذ سيحكى كراسوس مرة أخرى، لنا ولصديقه كايوس، كيف استمع - فى رحلة دراسته لعدوه خلال الحرب - إلى باتياتوس صاحب مدرسة المصارعين، وهو يحكى عن فلسفة تربية العبيد وتدريبهم، عن أصل سبارتاكوس ومن أين جاء وكيف عثر عليه، وكيف اصطاده (هو العبد بن العبد) من هناك، من مناجم النوبة التى أرسل إليها ليموت بحثًا عن الذهب فى رمال المحاجر وغبار الصحراء.

فى الفصل الثالث من هذا الجزء الثانى يرد أطول وصف فى الرواية لشخصية سبارتاكوس، وتتحول نغمة الحكى من صوت باتياتوس الانتهازى مشترى العبيد ومدربهم على المصارعة حتى الموت، إلى صوت آخر يكاد يشبه صوت المؤلف أو الراوى العليم المتعاطف مع العبيد والذى يأخذه الانفعال فوراً إلى ضمير المخاطب فيما يشبه المناجاة. وهنا يتحول الخطاب ليصبح من الكاتب الشيوعى هوارد فاست إلى قرائه المتعاطفين فى القرن العشرين، بدلاً من أن يكون من باتاتيوس إلى كراسوس فى روما القديمة.

ورغم أن الفصل السابق(رقم ٢) سينتهى بما يشير إلى تمهيد الجو لحديث باتاتيوس عن سبارتاكوس، وأن الفصل التالى(رقم ٤) سيبدأ بالمؤلف وهو يؤكد أن ما مضى فى الفصل الثالث كله من حديث، لم يكن إلا ما حكاه باتاتيوس لكراسوس حول

سبارتاكوس، فإن هذا الفصل(رقم ٣) سيبدأ بداية ويستخدم لغة ومعلومات لا يمكن نسبتها إلى عصر باتاتيوس وذهنيته:

"وهكذا حدث، قبل أن تقرر المسيحية وجود الجحيم فى الكتب المقدسة وفى الصلوات - وربما بعد ذلك أيضًا - أن كان على الأرض جحيم رآه البشر وتطلعوا إليه وعرفوه حق المعرفة؛ ذلك لأن من طبيعة الإنسان ألا يستطيع الكتابة إلا عن أنواع الجحيم التى خلقها أولاً لنفسه.

اصعد مع النيل مبتدئًا من طيبة فى شهر يوليو عندما تجف الأرض ويصبح الجو خانقًا. اصعد مع النيل حتى الشلال الأول، فتصبح فى أرض الشيطان نفسها، وانظر كيف ينكمش شريط الخضرة الممتد على جانبى النهر ويذبل، انظر كيف تتبدل التلال والهضاب الصحراوية إلى رمال ناعمة، دخان وبارود تمسها الريح فتنفجر هنا ، وتلقى بمقدماتها هناك .." (جـ٢ ،ص١٥٣-١٥٤).

إن الرجل الثانى من المقدمة هو سبارتاكوس. إنه يكاد يكون عاريًا. وعما قليل سيتعرى هو من كل شيء.. ما شكله؟ ما شكل هذا الرجل، سبارتاكوس؟ إنه فى الثالثة والعشرين، وهو يحمل سلسلته مجتازًا الصحراء، لكن مظهره لا يشى بسنه، فأمثاله لا يعرفون إلا آمادًا وأعمارًا من التعب والنصب، لا شباب، ولا رجولة، ولا شيخوخة، بل هو الكدح الذى لا ينبيء بعمر، يغمره الرمل الأبيض الناعم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، شعره ولحيته ووجهه، أما جلده المختفى تحت .. إلخ"(جـ٢، ص ١٥٧-١٨٣).

تستمر هذه المناجاة الغريبة خمسًا وعشرين صفحة كاملة، نستمع فيها إلى أدق وصف لسبارتاكوس ولحياة العبيد وأطفالهم العبيد الصغار فى مناجم الذهب، ونستكشف خصالهم النفسية التى تشكلت مع العبودية. إن حياة العبيد فى هذه المناجم أمرٌّ من الموت، وهم فيها يشعرون أنهم يبتعدون عن جنس البشر ويقتربون من جنس الحيوان: يزحفون على أربع غير قادرين على الكلام والتعبير. وهناك وهُم على هذه الحال، يصطادهم باتياتوس عائدًا إلى مجتلده.

ثم تصعد حكاية سبارتاكوس من مدرسة باتاتيوس لتدريب المصارعين فى كابوا، إلى تمرد العبيد احتجاجًا على اضطرارهم إلى قتل بعضهم البعض، إلى الثورة الشاملة وتجاوز جيش العبيد مئات الآلاف، إلى المواجهات المتتالية مع الجيش الرومانى، إلى نهاية الثورة ومقتلهم جميعًا، ثم تنتهى الحكاية (فى جزئها الثامن الصغير) بفارينيا زوجة سبارتاكوس وقد حصلت على حريتها لتربى سبارتاكوس الصغير وتتزوج من فلاح مجهول وتنجب كثيراً لتتجدد حكاية سبارتاكوس وأسطورته.

لكن هذا الخيط الأساسى للحكاية لا يروى على هذا النحو السهل، وإنما يضطر القارئ إلى تجميعه من الحوارات الممتدة والحكايات الجانبية وأشكال اللهو والبذخ والصراع بين أغنياء روما وسادتها. وفى الأغلب الأعم كان الكاتب حريصًا على أن تظل حكايته متفرقة على ألسنة الشخصيات، وأن يقوم القارئ بتجميعها لنفسه، تمامًا كما قام هو نفسه بتجميع الحكاية من أقوال المؤرخين القدامى.

قامت رؤية فاست لحكاية سبارتاكوس على مبدأين فلسفيين أساسيين لا يمكن فهم الرواية من دونهما:

المبدأ الأول هو طلب الحياة والانتصار لها والسعى إليها والحفاظ عليها. هذا هو المبدأ الذى أكده سبارتاكوس لتابعيه، وربما كان هذا المبدأ نفسه هو ما يفسر أن الرواية لا تنتهى بالموت والصلب، وإنما تنتهى بفارينيا زوجة سبارتاكوس التى تتعلم من دروسه، فتسعى إلى التحرر بعد موته بكل السبل وتتزوج وتنجب كثيراً ، لتجسد توالد الحياة وتجددها فى مواجهة الموت والقهر.

والمبدأ الثانى هو ذاكرة البشر، التى هى نعمة حين يستعيدون محتواها ويتعلمون مما فيها ويبنون عليه، وهى فى الوقت نفسه يمكن أن تصبح مصدراً للأسى واليأس حين يعاينون تكرار الظلم وتجدده، ويدركون أن الزمن يعمل ضدهم. وهذا هو المبدأ الذى يؤكده المؤلف، فى جملة نسمعها بصوته ولكن من وجهة نظر جراكوس (عضو

مجلس الشيوخ الذى أحب فارينيا وحررها). تقول الجملة: "الذاكرة متعة للبشرية ومصدر أسى لها" (سبارتاكوس جـ٥، ص ٤٠١-٤٠٢).

* * *

بقيت نقطتان أظن أننى فى حاجة إلى التذكير بهما هنا فى نهاية هذه المقدمة:

النقطة الأولى تتصل بالزمن الذى ألفت فيه هذه الرواية (والروايات الأخرى عن سبارتاكوس)، وكيف كانت هذه الروايات من ناحية جزءًا من التفكير الماركسى (معظم من ألفوا هذه الروايات انتموا إلى أحزاب شيوعية) كما كانت من ناحية أخرى جزءًا من الرد على حركة الاستعمار الأوروبى لشعوب العالم الثالث وتحويلهم إلى ما يشبه العبيد. لقد تكثف صدور هذه الروايات فى عقد الخمسينيات، حين تبلورت حركات التحرر فى مناطق متعددة من العالم الثالث المستعمَر. ولم يكن غريبًا أن تصدر الرواية فى بداية الخمسينيات وأن تترجم إلى العربية بسرعة فى بداية الستينيات فى أوج الثورة الناصرية.

لكن معنى حكاية سبارتاكوس ومعنى هذه الرواية لم يقف عند الخمسينيات، فقد ذكرنا فاست نفسه بروايته فى أوائل هذا القرن الحادى والعشرين وقبل أن يرحل بسنتين، وذلك حين حاصرت الولايات المتحدة العراق واستعبدته. يقول:

"أعتقد أنه، وبعد بضع مئات من السنين من الآن سينظر التاريخ إلينا (نحن الأمريكيين) نفس هذه النظرة البائسة؛ ذلك أننا نحارب حروبًا لا معنى لها - تمامًا كما حاربت روما - ونحن نفعل بالأمم الأخرى بعض الأشياء المزرية . نحن فى الوقت الحالى ندمر العراق، ونحن مسئولون مثلاً عن موت الآلاف من أطفاله هناك، ونحن نبرر كل هذه الخطايا، تمامًا كما كان الرومان يفعلون. نحن الآن حكام العالم، كما كانت روما، وكما كانت بريطانيا العظمى منذ مائة عام؛ ومن ثم فإنه تاريخ قديم وتاريخ معاصر فى الوقت نفسه. بحساب السنين يعود سبارتاكوس إلى تاريخ مغرق فى القدم،

ولكنه – بالحس الإنسانى – ليس مغرقًا فى القدم على هذا النحو". (Transcript of June 28, 2000 Ancient Sites chat session discussion with Mr. Fast). أما النقطة الأخيرة فتتصل بمترجم هذه الرواية الأستاذ أنور المشرى، المترجم والإذاعى الكبير، مخرج البرامج الإذاعية الغنائية التى عرفتها الإذاعة وتحلق حولها المستمعون البسطاء، مثل "عوف الأصيل" و"عواد". وقد ترجم المشرى هذه الرواية فى آخر حياته الخصبة القصيرة (١٩٢٣-١٩٦٣).

الهوامش

(١) ترجمها إلى العربية منير البعلبكى ، وصدرت عن دار الكتب العلمية فى بيروت ، ١٩٦٠ .

(٢) ترجمها إلى العربية سليم إبراهيم عبود، وصدرت فى دمشق عن دار طلاس ، ١٩٨٥ .

(٣) يقول نجيب محفوظ إن فاست فى سبارتاكوس كان من النوع الذى يصب تأملاته الفلسفية على التاريخ؛ ففى كلمته أمام ملتقى الرواية العربية فى القاهرة (فبراير ٢٠٠٥) حول الرواية والتاريخ يقول محفوظ: "إن الكتابة الروائية عن التاريخ أنواع، روائى يكتب عن التاريخ رواية من أجل أن يعود الناس إلى فترة مضت من الزمان أو شخصية عاشت من قبل . وفى هذه الحالة يكون للتاريخ أكثر من سبعين فى المائة، وللفن أقل من ثلاثين فى المائة .

وهناك الروائى الذى يأخذ من التاريخ الإطار فقط . ويقدم من خلاله بعض القضايا المعاصرة، أما النوع الثالث فيكتب عندما يصب الروائى تأملات فلسفية من خلال العودة إلى التاريخ مثلما فعل ألبير كامى مع كاليجولا (رغم أنها مسرحية وليست رواية) وما فعله هوارد فاست مع سبارتاكوس وثورة العبيد" .

(٤) فى أواخر القرن الثامن عشر استلهم الهاييتى Toussaint Louverture (1748-1803) وأتباعه من العبيد الأفارقة شخصية سبارتاكوس فى ثورتهم، حيث هزموا الجيوش الإسبانية والبريطانية والفرنسية، فأطلق عليه خصومه المهزومون "سبارتاكوس الأسود". وخلال الحرب العالمية الأولى وبعدها نشأت جماعة ألمانية ماركسية أطلقت على نفسها جماعة سبارتاكوس، وهى نفس الجماعة التى أصبح اسمها فيما بعد "الحزب الشيوعى الألمانى"، وكذلك ظهرت فى النمسا خلال سبعينيات القرن العشرين منظمة ضد الفاشية أطلقت على نفسها اسم سبارتاكوس.

(٥) عام ١٨٧٤ كتب الروائى الإيطالى رافايللو جيوفاجنولى Rafaello Giovagnoli (1838-1915) رواية تاريخية بعنوان "سبارتاكوس"، وقد ترجمت روايته فى بلدان أوروبية مختلفة. وفى عام ١٩٣٢ نشر الروائى الأسكتلندى لويس جراسيك جيبون Lewis Grassic Gibbon (1901-1935) رواية تاريخية أخرى بعنوان "سبارتاكوس"، وقد كتبها قبل أن يسيطر النازى على أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، وفى السنوات الأولى من عقد الخمسينيات نشرت روايتان أخريان عن سبارتاكوس بالإضافة إلى رواية هوارد فاست: الأولى عام ١٩٥٢ بعنوان "أبناء سبارتاكوس" The Students of Spartacus للكاتبة البولندية هالينا رودنيكا Halina Rudnicka (1909-1982)، والثانية عام ١٩٥٤ بعنوان "المصارعون" The Gladiators للكاتب المجرى أرثر كويستلر Arthur Koestler، وهى رواية تاريخية عن سبارتاكوس ورفاقه، لكنها تتحدث أيضاً عن اليسار فى أوروبا القرن العشرين.

ويمكن أن نضيف هنا ما كتبه طه حسين عن ثورة العبيد، ونشره فى مجلة "الكاتب المصرى" ١٩٤٦ ، ثم ضمه إلى ما كتبه عن "ثورة الزنج" ونشره بعد ذلك فى كتاب تحت عنوان "ثورتان". وبعد أن تحولت رواية فاست

إلى فيلم أمريكى شهير فى أوائل الستينيات ، كتب أمل دنقل قصيدته الشهيرة "كلمات سبارتاكوس الأخيرة " .

وهكذا كانت شخصية سبارتاكوس وحكايته مبعث إلهام لكتاب كثيرين من ثقافات متعددة .

(تبدأ حوادث القصة قبل عام ٧١ قبل الميلاد)

الجزء الأول

كيف رحل كايوس كراسوس على الطريق من روما إلى كابوا فى شهر مايو .

يقول التاريخ إن منتصف شهر مارس شهد إعادة فتح الطريق للسفر بين روما، المدينة الخالدة، وكابوا، التى قد تصغرها بعض الشىء؛ إلا أنها لا تكاد تقل عنها جمالاً. إلا أن ذلك لا يعنى عودة المرور على هذا الطريق إلى طبيعته فى التو. ذلك لأن الطرق فى طول الجمهورية وعرضها لم تعرف خلال الأعوام الأربعة الماضية تدفق البضائع والناس فى طمأنينة ورخاء كما يتوقع المرء على الطريق الرومانى.

فقد ساد الاضطراب بدرجات متفاوتة فى كل مكان. ولن تجافى الحقيقة إذا قلنا إن الطريق بين روما وكابوا كان مثلا لهذا الاضطراب.

وقد أصاب من قال إن حال روما من حال الطرق، فحيث تمتد الطرق، تزحف روما، وإنه إذا عرفت الطرق السلام والازدهار عرفتهما روما.

وقرأ السكان على جدران المدينة النبأ القائل إن فى وسع كل مواطن حر أن يسافر إلى كابوا إن كان لديه عمل يريد إنجازه فيها، إلا أن السفر إلى ذلك المنتجع الجميل للنزهة لم يكن يلقى تشجيعًا إلى حين. إلا أن هذه القيود قد رفعت على مر الزمن واستقر الربيع الحول الرقيق فى ربوع إيطاليا؛ وبدأت مبانى كابوا الجميلة ومناظرها الرائعة تستهوى أفئدة سكان روما من جديد.

وكان المولعون بالروائح العطرية التى كانت لا تزال تباع بأثمان عالية يجدون فى كابوا الربح الفائق والمتعة، بالإضافة إلى مباهج الريف الطبيعية فى كامبانيا. فقد كانت المدينة تضم أعظم مصانع العطور التى لا مثيل لها فى العالم بأسره. وكانت السفن تحمل إلى كابوا من كل بقاع الأرض العطور وخلاصات الزيوت العطرية، والزيوت

النفسية، كزيت الورد المصرى، وعطر الزنابق من سبأ، وزهور الخشخاش من الجليل، وزيت العنبر، وزيت قشور الليمون والبرتقال، وأوراق القصعين والنعناع، وخشب الورد والصندل وغيرها، أنواع أخرى تكاد لا تنتهى، وكانت أسعار العطور فى كابوا تقل عن نصفها فى روما. وإذا علمنا أن إقبال الرجال والنساء معًا على استعمال العطور، كان فى ازدياد فى ذلك الوقت، وأن العطور أصبحت ضرورة لكل من الجنسين أدركنا أن الرحلة إلى كابوا كانت جديرة بالتفكير والتنفيذ لهذا الغرض، إن لم تكن لغرض آخر سواه.

- ٢ -

وفتح الطريق للمرور فى مارس، وبعد شهرين من ذلك الوقت أى فى منتصف مايو، بدأ كايوس كراسوس وأخته هيلينا وصديقتها كلوديا ماريوس الرحلة إلى كابوا لقضاء أسبوع مع أقارب لهم هناك وغادروا روما صباح يوم مشرق صاف غير حار هو أصلح الأيام للسفر، وكلهم شباب لامع العينين ملىء بالسرور مغتبط بالمرح وبالمغامرات التى هو لا شك ملاقيها خلالها. وكان كايوس كراسوس شابا فى الخامسة والعشرين أضفت عليه تقاطيع وجهه المتناسقة، وشعره الأسود الملتف فى حلقات ناعمة غزيرة، الشهرة بالجمال إلى جانب الأصل العريق. وكان يمتطى جواداً أبيض عربيا أهداه له أبوه فى عيد ميلاده السابق. بينما ركبت الفتاتان فى محفتين مفتوحتين يحمل كلا منهما أربعة من العبيد رضوا على السير حتى ليستطيع الواحد منهم العدو عشرة أميال عدواً هيناً دون راحة. وكان الثلاثة ينتوون قضاء خمسة أيام على الطريق يتوقفون خلالها لقضاء الليل فى بيت ريفى لصديق أو قريب فيصلون بذلك على هذه المراحل الهينة البهيجة إلى كابوا. وكانوا يعلمون قبل البدء فى الرحلة أن رموز العقاب تقوم على جانبى الطريق، إلا أنهم لم يروا فى ذلك ما يكفى لإزعاجهم. والحق أن الأوصاف التى سمعتها الفتاتان أثارتهما إلى حد كبير، أما كايوس، فقد كان لمثل هذه الأشياء عنده رد فعل بهيج يوقظ حواسه إلى حد ما، كما كان إلى هذا فخوراً بقوة معدنه، وبأن أمثال هذه المناظر لا تزعجه إلى حد كبير.

وراح يناقش المسألة مع الفتاتين قائلاً:

- ومع ذلك، فالأفضل للمرء أن يشاهد إنساناً مصلوباً من أن يكون هو المصلوب.

فقالت هيلينا:

- سننظر إلى الأمام دائمًا.

وكانت هيلينا أجمل منظراً من كلوديا الشقراء المسترخية الشاحبة البشرة، الصفراء العينين التي كان ينطق مظهرها بالتعب الذي تغذيه هي وتزيده، وكان جسد كلوديا ممتلئًا وجذابًا. إلا أن كايوس كان يراها غبية ويتساءل عما يعجب أخته فيها - وهي مشكلة عقد العزم على حلها في أثناء هذه الرحلة، وكان قد قرر مرات كثيرة من قبل أن يغوي صديقة شقيقته، غير أن هذا القرار كان يتحطم دائمًا على صخرة ضعفها، وفتور رغباتها وهو فتور لم يكن محصوراً في شخصه، بل كان فتورا عاما في شخصيتها. فقد كانت ملولة، وكان كايوس على ثقة من أنه مللها وحده وهو ما يحول دون أن تصبح عشرتها مملة لا تطاق. أما أخته فقد كانت شيئًا آخر. كانت تثيره بصورة تزعجه؛ فقد كانت طويلة القامة مثله، كثيرة الشبه به وإن كانت تفوقه جمالاً، يراها من لا تصدهم قوتها ومضاء عزيمتها من الرجال «جميلة». كانت أخته تثيره وكان يحس وهو يعد العدة للرحلة أنه يأمل أن يضع حدا بطريقة ما لهذه الإثارة. وكانت أخته وكلوديا خليطا شاذا وإن كان يرتضيه، ومن هنا تطلع كايوس إلى أحداث مجزية خلال الرحلة.

وبدأت رموز العقاب تظهر على بعد أميال قليلة خارج روما وهي مكان يجتاز الطريق منه منطقة جرداء من الصخور والرمال تبلغ مساحتها عدة أفدنة، اختار المسئول عن عرض الرموز أن يقيم فيها الصليب الأول وعليه الشخص المطلوب، سعياً وراء إحداث الأثر النفسي المقصود. وكان الصليب من خشب صنوبر حديث القطع لا يزال يفرز عصارته الدامية القاتمة. وكانت الأرض تنحدر إلى الخلف من ورائه ، فانتصب الصليب عارياً مائلاً محدداً في سماء الصبح، شديد الضخامة والتأثير، ضخمًا مبالغًا في ضخامته، نظراً لأنه كان الأول على الطريق، فكان من العسير على المشاهد أن يميز جسد الرجل العاري المعلق عليه. وكان الصليب مقوسًا بعض الشيء شأن الأشياء الثقيلة في أعلاها، فزاد ذلك من غرابة منظره الذي شابه منظر الإنسان.

وأوقف كايوس جواده ثم سار به نحو الصليب، بينما أمرت هيلينا العبيد حملة المحفة، بضربة خفيفة من سوطها الرقيق، أن يتبعوه.

وعندما وقفوا أمام الصليب، همس العبد الذى ينظم خطوات حاملى محفة هيلينا قائلاً:

- هل نستريح يا مولاتى؟ مولاتى؟

وكان إسبانى الأصل، لغته اللاتينية رديئة ينطقها بحذر، فقالت هيلينا:

- طبعًا.

كانت هيلينا فى الثالثة والعشرين من عمرها، إلا أنها كانت قوية الرأى ككل نساء أسرتها، تحتقر القسوة التى لا معنى لها على الحيوانات سواء من العبيد أو الدواب ومن ثم هبط العبيد بالمحفتين فى رقة وقعدوا القرفصاء إلى جوارهما شاكرين.

وعلى بعد ياردات قليلة من الصليب، جلس على مقعد من القش رجل بدين، ودود، ممتاز الشخصية، واضح الفقر، تظلله مظلة صغيرة مرقعة. وكان امتياز شخصيته يتضح فى كل ثنية من ثنايا ذقنه العديدة وفى وقار كرشه الضخم. أما فقره المشوب بالكسل فكان واضحًا فى ملابسه الرثة القذرة، وأظافر يده السوداء، ولحيته المعشوشبة. وكان مظهره الودود هو القناع الذى يتخذه السياسى المحترف فى سهولة ويسر؛ ويستطيع المرء أن يدرك بنظرة سريعة أنه أمضى أعوامًا ينظف السوق ومجلس الشيوخ والعنابر، وها هو ذا الآن وقد وصل إلى الخطوة الأخيرة قبل أن يغدو متسولا لا يملك إلا حصيراً فى أحد البيوت الرومانية العامة. ومع ذلك فقد كان صوته يدوى قويا خشنا كصوت المنادى فى السوق. وراح يشرح لهم أن هذه هى تصاريف الحرب، وأن من الناس من يختار الجانب الرابح فى يسر غريب، أما هو فكان يختار دائمًا الجانب الخاسر، ولم تكن ثمة فائدة من القول بأنه لا يوجد فرق جوهرى بين الاثنين فهذا ما انتهت به الحياة إليه، ومع ذلك فهناك من أفاضل الرجال من يفضلونه لكنهم أقل منه حظا.

وقال:

– أرجو المعذرة لعجزى عن النهوض يا سيدى النبيل ويا آنستى النبيلتين، لأن القلب، القلب...

ووضع يده على كرشه الضخم عند منطقة القلب وقال:

– أرى أنكم قد بكرتم فى الخروج. ويجب أن تبكروا لأن هذا هو وقت السفر. أذاهبون إلى كابوا؟

فقال كايوس:

– نعم، كابوا.

– كابوا – طبعًا – مدينة جميلة، مدينة رائعة، مدينة ممتازة كالجوهرة الأصيلة... لزيارة أقارب، دون شك؟

فأجابه كايوس قائلاً:

– دون شك.

وكانت الفتاتان تبتسمان، فقد كان ودودًا بشوشًا، ومهرجًا كبيرًا. وزايله وقاره، فمن الخير له أن يغدو مهرجًا أمام هؤلاء الشبان. وأدرك كايوس أن طلب المال يكمن فى جهة ما وراء كل هذه الحركات ولكنه لم يجد فى ذلك بأسًا، أولاً: لأنه لم يلق من قبل رفضًا عندما كان يطلب المال الكافى لكل حاجاته أو نزواته، وثانيًا: أراد أن يبهر الفتاتين بخبرته فى الحياة. وكيف يتحقق ذلك عن طريق خير من هذا المهرج البدين الخبير بالحياة ؟

– ترانى حينًا أعمل دليلاً أو راوية أو أتولى توزيع قليل من الثواب والعقاب. وهل يفعل القاضى أكثر من ذلك؟ وهناك فارق حقا؛ إلا أن من الأفضل للمرأ أن يقبل ديناراً مع ما يصاحب ذلك من خجل، عن أن يتسول.

ولم تستطع الفتاتان أن تحولا أعينهما عن الرجل الميت المعلق فوق الصليب فقد أصبح فوقهما مباشرة. وظلتا تختلسان النظر إلى جسده العارى الذى لوحته الشمس ونهشته الطيور. وكانت العقبان تحوم حوله فى محاولات مستمرة، والذباب يزحف على جلده. وكان الجسد فى وضعه مقوسًا إلى الأمام بعيداً عن الصليب، فكان يبدو كأنه مستمر فى الوقوع وفى حركة دائمة، حركة غريبة من الجسد الميت.

وكان رأسه مدلى إلى الأمام، ويغطي شعره الطويل الأصفر ما لعله قد ارتسم على وجهه من الرعب.

وأعطى كايوس الرجل البدين قطعة من النقود فكان شكره مساويًا لها. وظل العبيد حملة المحفة جالسين القرفصاء في صمت دون أن يحاول واحد منهم اختلاس النظر إلى الصليب، فقد ثبتوا عيونهم على الأرض، لأنهم روضوا على السير عليها وأجيد ترويضهم.

وقال الرجل البدين:

– هذا رمز، إذا جاوز القول، فلا ترين فيه يا سيدتى شيئا إنسانيا أو رهيبا، فإن روما تعطى، وروما تمنع، والعقاب على قدر الجريمة. وهذا الجسد يقف وحده هنا ليلفت أنظاركم إلى ما سيتلوه أتعرفون عدد المصلوبين من هنا حتى كابوا؟

وكانوا يعرفون العدد؛ إلا أنهم تريثوا حتى يقوله هو. فقد كانت فى هذا الرجل البدين المرح، الذى عرفهم بما لا يمكن الكلام عنه، كانت فيه دقة. وكان هو نفسه برهانًا على أن ما لا يمكن الكلام عنه شىء طبيعى عادى، فهو سيحدد لهم الرقم، وقد لا يكون صحيحًا إلا أنه سيكون رقمًا محدداً. قال:

– ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون.

وتململ بعض العبيد حملة المحفات، ولم يكونوا مستريحين، بل كانوا متصلبى الأجساد. ولو أن أحداً تطلع إليهم للاحظ ذلك، لكن أحداً لم يعن بالتطلع إليهم.

وعاد الرجل البدين يقول:

- ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون.

فعلق كايوس على ذلك تعليقًا صائبًا فقال:

- كل هذا القدر من الخشب.

وأدركت هيلينا أن هذا القول فيه باطل؛ إلا أن الرجل البدين أحنى رأسه مظهراً تقديره لها، وجادوا وقتئذ بكل ما عندهم فأخرج الرجل البدين من طيات ثيابه عصًا أشار بها إلى الصليب.

وقال:

- هـــذا الــرجل - مجرد رمز. رمز لرمز، إذا جاز هذا القول. فضحكت كلوديا فى عصبية.

- لكن له مع ذلك مغزاه وأهميته. لقد وضع هنا منفصلاً بسبب هذا. فالعقل هو روما، وروما عاقلة.

وكان هذا الرجل مغرمًا بالحكم والأقوال المأثورة. وقالت كلوديا فى حماية:

- أهذا هو سبارتاكوس؟

إلا أن الرجل البدين تذرع بالصبر وأثبتت الطريقة التى لعق بها شفتيه أن موقفه الأبوى منهم لم يكن يخلو من العاطفة. وقال كايوس لنفسه:

- الوحش العجوز الفاسق.

- ليس هو سبارتاكوس يا عزيزتى.

فقال كايوس، وقد بدأ صبره ينفذ:

- لم يعثر على أثر لجسده.

فقال الرجل البدين فى زهو.

– مزقوه إربًا . مزقوه إربًا يا طفلتى العزيزة. إن عقولكم أرق من أن تتحمل هذه الأفكار المخيفة. لكنها الحقيقة.

فارتعدت كلوديا .

ولكنه كان ارتعاداً يبعث على اللذة، ورأى كايوس فى عينيها نوراً يضىء لم يره من قبل، فقد قال له أبوه يومًا: «احذر الأحكام السطحية». ولما كان أبوه معنيا بأمور أكثر أهمية من تقدير النساء فقد ثبتت صحة قوله ولم يحدث أن تطلعت إليه كلوديا من قبل كما تتطلع الآن إلى الرجل البدين الذى واصل حديثه قائلاً:

– هذه هى الحقيقة البسيطة. وهم يقولون اليوم إن سبارتاكوس لم يكن له وجود قط. ها. ها. هل أنا موجود؟ وهل أنتم موجودون؟ هل توجد أو لا توجد ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون جثة مصلوبة على طول الطريق من هنا إلى كابوا؟ هل هى موجودة؟ واسمحوا لى أن أسالكم سؤالاً آخر أيها الشباب: لم كل هذا العدد؟ إن رمز العقاب دليل على العقاب. ولكن لماذا يكون منه ستة آلاف وأربعمائة واثنان وسبعون؟

فأجابت هيلينا فى هدوء:

– لأن الكلاب يستحقون ذلك.

فرفع الرجل البدين حاجبيه فى دهشة زائفة. إنه رجل خبير بشئون الدنيا، وقد أوضح لهم ذلك، وهم، وإن كانوا أعلى منه مقاماً، فإنهم أصغر من أن يتأثروا بأقواله.

– ربما استحقوا ذلك، لكن لماذا نذبح كل هذا القدر من اللحم إذا لم يكن فى وسعنا أن نأكله؟ أنا أقول لكم : إن ذلك يبقى الأسعار على ارتفاعها ويحافظ على استقرار الأوضاع! وأهم من هذا كله، أنه يقرر بعض المسائل الدقيقة المتعلقة بالملكية. هذا هو الجواب بإيجاز.. أما هذا الجسد...

وأشار بعصاه:

– تأملوه جيداً، فهو فير تراكس من بلاد الغال. إنه عظيم الأهمية. عظيم الأهمية. رجل وثيق الصلة بسبارتاكوس. أجل. ولقد راقبته وهو يموت وأنا جالس فى مكانى هذا. راقبته وهو يموت وقد اقتضاه ذلك أياماً أربعة، فهو قوى كالثور. أوه لن تصدقوا أن فى الدنيا مثل هذه القوة. لن تصدقوا ذلك أبداً لقد أخذت مقعدى هذا من سيكتوس فى الحى الثالث. هل تعرفونه ؟ إنه سيد. سيد عظيم، يعطف على. وقد تدهشون إذا عرفتهم عدد من جاءوا لمشاهدته وهو يموت، فقد كان منظراً جديراً بالمشاهدة. ولم يكن ذلك لأنى أستطيع أن أتقاضاهم أجراً طيباً عن ذلك – بل لأن الناس يدفعون مقابل ما تعطيهم إياه: الجزاء الحق فى مقابل الجزاء الحق. فقد تكلفت أن أعلم نفسى وستدهشون للجهل العميق بحروب سبارتاكوس فى كل مكان. والدليل على ذلك أن هذه السيدة الصغيرة تسألنى: هل هذا هو سبارتاكوس؟ هو سؤال طبيعى، لكن ألا يصبح بعيداً كل البعد عن الطبيعة لمجرد كونه طبيعيا. إنكم معشر النبلاء تحيون حياة مغلقة محكمة الإغلاق، وإلا لعرفت السيدة الصغيرة أن سبارتاكوس قد مزق إرباً حتى لم يعثروا منه على شعرة أو قطعة من جلده. ولم يكن هذا ما حدث لهذا المصلوب، فقد أسروه، ومزقوا جسده بعض الشىء، حقا – انظروا هنا.

وراح يتتبع بعصاه أثر جرح غائر طويل على جانب الجثة المعلقة فوقهم – عدد من الجروح – عظيمة الدلالة. فى الجنب أو فى الصدر، إلا الظهر، وقد لا تريدون أن ألفت أنظار الغوغاء إلى مثل هذه التفاصيل، ولكنى أستطيع أن أقرر لكم حقيقة.

وكان حملة المحفات قد راحوا يرقبونه حينذاك ويصغون إلى أقواله، وقد التمعت أعينهم خلال شعورهم الطويلة المجدولة.

– حقيقة هى أن هؤلاء المصلوبين كانوا خير جنود مشوا فوق أرض إيطاليا. إن هذا الشىء جدير بالتفكير. شىء كهذا، ولنعد إلى الحديث عن صديقنا هذا. لقد تطلب موته أربعة أيام وكان خليقاً أن يستغرق وقتاً أطول من هذا لو لم يقطعوا منه شرياناً لينزفوا بعض دمه. وقد لا تعرفون هذه الحقيقة لكنها ضرورة عندما

تصلبونهم، فمن واجبكم أن تصفوا دماءهم وإلا انتفخوا كالسمكة المملحة. أما إذا ما أحسنتم تصفيه دمائهم فستجف أجسادهم ويمكن تعليقهم فوق الصلبان شهراً من الزمان دون أدنى ضرر أكثر من بعض الرائحة، كما تجفف قطعة اللحم تماماً. وأنتم فى حاجة إلى قدر كبير من أشعة الشمس لتساعد على تجفيف أجسادهم. وقد كان هذا الرجل قويا، كاملا، فيه جد كبرياء، لكنه فقد كل هذا. لقد ظل طيلة اليوم الأول الذى صلبوه فيه هنا يلعن كل مواطن جاء ليراه وهو يموت ويسبه بكلمات مخيفة قذرة. لم يكن من المستطاع إبقاء السيدات على مقربة منه كيلا يسمعنها.. هذا نتيجة عدم التربية. فالعبد هو العبد لكنى لا أحمل له حقداً، أو ضغينة. فأنا هنا وهو هناك.. فوق الصليب.

وكنت أقول له من وقت لآخر: «فى سوء مآلك حظ لى، ولئن لم تكن ميتتك أكثر الميتات راحة، فكسب معاشى ليس أكثرها راحة بأى حال من الأحوال، ولن أربح إلا النزر اليسير ما دمت تتفوقه بهذا الكلام». إلا أنه لم يبد عليه أنه تأثر بحديثى بصورة ما. وفى مساء اليوم الثانى توقف عن الكلام وأغلق فمه فى عنف كالمصيدة. هل تعرفون آخر ما تفوه به؟

فهمست كلوديا تسأل:

– ماذا؟

– قال: «سأبعث من جديد وسأصبح ملايين». هذا ما قاله وهو قول غريب. أليس كذلك؟

فتساءل كايوس قائلاً:

– وماذا يعنى بذلك؟

وكان الرجل البدين قد نسج حوله غلالة من السحر رغم أنفه، ثم قال:

- ماذا كان يعنى بذلك يا سيدى الشاب؟! لست أعلم عن هـذا إلا ما تعلمه أنت، لأنه لم ينطق بحرف بعد ذلك. ولكزته بعصاى فى اليوم التالى، لكنه لم ينطق بكلمة، بل تطلع إلىَّ بعينيه اللتين تكاد الدماء تطفر منهما، وتطلع إلىَّ كما لو كان يستطيع قتلى، لكنه لم يكن ليستطيع قتل أى شىء.

ثم قال يخاطب كلوديا من جديد:

- وهكذا ترين يا عزيزتى أنه لم يكن سبارتاكوس، بل كان واحداً من ضباطه، وكان رجلا قويا، شديد الشبه بسبارتاكوس وإن لم يكن فى قوته، فقد كان سبارتاكوس رجلاً صلبًا، صلبًا حقيقة، لا ترغبين فى لقائه على هذا الطريق، ولن تقابلينه أبدًا لأنه مات وتعفن. والآن ماذا تريدون معرفته بعد كل هذا؟

فقال كايوس، وقد بدأ يأسف على الدينار الذى منحه الرجل:

- أعتقد أننا قد سمعنا ما فيه الكفاية، وعلينا أن نمضى فى طريقنا.

- ٣ -

كانت روما فى تلك الأيام كالقلب الذى يدفع بالدماء فى الطرق الرومانية إلى كل أركان العالم. وقد يعيش شعب ألــف عــام ولا يشق إلا طريقًا من الدرجة الثالثة ليصل ما بين مدنه الرئيسة. لكن الحال لم تكن كذلك بالنسبة لروما، فقد كان مجلس الشيوخ يقول: شقوا لنا طريقًا. وكانوا يملكون الخبرة والمهارة، فيضع المهندسون الخطة ويتم توقيع العقود، ويبدأ عمال الأساس عملهم وتشق بعد ذلك فرق العمال الطريق كالسهم نحو غايته. وإذا قام جبل فى طريقهم زال الجبل، وإذا اعترضهم واد عميق شيدوا فوقه جسرًا. وإذا كان نهرًا عبروه فوق جسر، ولم يعق روما أى شىء، ولم يحل دون امتداد الطريق الرومانى شىء.

وكان الطريق الذى يسافر فوقه الشبان الثلاثة السعداء جنوبًا من روما إلى كابوا، يدعى الطريق الأبيوسى.

وكان طريقًا متينًا عريضًا مشيدًا من طبقات من الرماد البركانى والمدر بعضها فوق بعض بالتبادل ثم يغطيه الحجر. وكان مشيدًا ليبقى على الزمن، فالرومانيون عندما يشقون طريقًا لا يشقــونه لهذا العــام أو العام التالى بل يشقونه ليبقى عدة قرون. وهكذا كان الطريق الأبيوسى. فقد كان رمزًا لرقى البشر ولقدرة روما على الإنتاج ولقدرة الشعب الرومانى القائمة على التنظيم. وكان يعنى، بوضوح، أن الأسلوب الرومانى فى إنشاء الطرق خير أسلوب وضعه البشر. فهو أسلوب يقوم على النظام والعدالة والذكاء. وكانت دلائل الذكاء والنظام تتضح فى كل مكان، وكان المسافرون على طول الطرق يرون وجودها أمرًا مفروغًا منه، إلى حد أنها ما كانت لتلفت أنظارهم إلا فى القليل.

ومثال ذلك أن المسافة كانت تحدد تحديداً ولا تقدر. فكل ميل يحدده حجر من أحجار المسافات، ويحمل كل حجر المعلومات المحددة التى يحتاج المسافر إلى معرفتها، فكنت تعرف فى أية نقطة، المسافة - على وجه التحديد - بينك وبين روما وبين فورمياى وبين كابوا. وأنشئوا فى نهاية كل خمسة أميال خانًا وحظائر يجد فيها المسافر جياداً ومرطبات وسقفًا يمضى الليل تحته إذا دعت الحال. وكان الكثير من هذه الخانات فخمًا إلى حد كبير، له شرفات عريضة يتناول الناس فيها طعامهم وشرابهم. وكان فى بعضها حمامات ينعش فيها المسافرون المتعبون أجسادهم، وفى بعضها الآخر أجنحة طيبة مريحة للنوم. وكان الجديد من هذه الخانات مشيداً على طراز المعابد اليونانية، فزاد وجودها من الجمال الطبيعى للمنظر على جانبى الطريق.

وإذا كانت الأرض مسطحة، سهلاً كانت أو مستنقعًا، أحاطوا الطريق بشرفات، فيرتفع جانبه عشرة أقدام أو خمسة عشر قدمًا فوق مستوى الريف المحيط به. أما إذا كانت الأرض متكسرة أو تعترضها التلال، فكانوا يشقون الطريق فى وسطها أو يعبرون الوهاد فوق أقواس من الحجر.

وكان الطريق الرومانى دليل الاستقرار، وكانت كل عناصر الاستقرار الرومانى تتدفق فوقه، وكان الجنود الذين يسيرون عليه يقطعون ثلاثين ميلا فى اليوم الواحد، ثم يقطعون ثلاثين ميلا أخرى يومًا بعد يوم. وتتدفق عربات النقل على طول الطرق الرومانية محملة ببضائع الجمهورية... القمح والشعير والحديد الخام والأخشاب والنسيج والصوف والزيت والفاكهة والجبن واللحوم المدخنة. هذا، والمواطنون يزاولون أعمالهم المشروعة على الطريق، والنبلاء يغدون ويروحون إلى ضياعهم فى الريف، والمسافرون للتجارة، والمسافرون للنزهة، وقوافل العبيد فى طريقها من السوق وإليها، وأقوام من كل صقع وكل جنس ينعمون بنظام الحكم الرومانى وثباته.

وفى هذا الوقت، وعلى طول الطريق، غرست الصلبان على مسافات متقاربة لا تزيد على بضع أقدام، وفوق كل صليب علق رجل ميت.

ازداد دفء الصباح عما كان كايوس يتوقع، فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى بدأت رائحة الموتى تفوح وتصبح جد كريهة، فأغرقت الفتاتان مناديلهما فى العطور، وراحتا تستنشقان رائحتها باستمرار. إلا أن ذلك لم يمنع عنهما الأمواج المفاجئة للرائحة الحلوة - الكريهة التى كانت تهب على الطريق، كما أنه لم يحل دون حدوث رد الفعل لهذه الرائحة، فتقيأت الفتاتان، واضطر كايوس، فى النهاية، إلى أن يتأخر عن الركب وينتحى جانباً من الطريق ليفرغ ما فى معدته، وكاد ذلك يفسد جمال الصباح.

وكان من حسن حظ الركب أن لم يكن على الطريق صلبان مسافة نصف ميل قبل الخان الذى وقفوا عنده لتناول طعام الغداء. وهم وإن كانوا قد فقدوا شهيتهم، فإنهم استطاعوا التغلب على غثيانهم. وكان هذا الخان المجاور للطريق مشيداً على الطراز اليونانى؛ فكان مبنى متنقلاً من طابق واحد، له شرفة بهيجة. وكانت الشرفة الغاصة بالمناضد مقامة على أخدود يجرى فيه جدول رقيق. أما الكهف الصناعى المواجه لها فكانت تحيط به شطئان من الخضرة وأشجار الصنوبر العطرة، ولم يكن فى الجو هناك أية رائحة إلا رائحة الغابات الحلوة الندية، ولا صوت إلا الهمهية المؤدبة للحديث الدائر بين الجالسين إلى المناضد وموسيقى خرير الماء فى الجدول.

وقالت كلوديا:

- ألا ما أجمل هذا المكان.

ووجد لهم كايوس، كالذى قد نزل فى هذا الخان من قبل، منضدة، وبدأ يطلب الغداء فى كثير من السلطان، فجاءت لهم فى التو خمر الفندق، وكانت شراباً خالصاً

منعشًا متألقًا فى لون الكهرمان، وعادت إليهم شهيتهم بعد أن بدءوا فى ارتشافها. وكانوا يجلسون فى مؤخرة الخان، فى عزلة عن القاعة العامة التى تقع فى واجهته حيث يجلس الجنود وسائقون عربات النقل والأغراب يتناولون طعامهم.

وكان مكان جلوسهم معتدلا ظليلا، وكان المعروف المتفق عليه أن هذا الجزء، لا يتناول فيه الطعام إلا الفرسان وذوو الأسر العريقة، وإن كانت هذه النقطة قلما تثار.

وهذا ما جعله أبعد ما يكون عن أن يصبح مكانًا خاصًا، لأن الكثير من الفرسان كانوا تجاراً متنقلين ورجال أعمال وأصحاب صناعات ووسطاء ونخاسين. إلا أنه كان خانا عاما لا بيتا خاصا. كما أن الفرسان فِى العهد الأخير كانوا يقلدون عادات النبلاء فأصبحوا بذلك أقل ضجيجًا وتطفلاً وثقلاً.

وطلب كايوس لحم بط مدخنًا بارداً وبرتقالا مثلجًا. وبدأ قبل أن يصل الطعام، يتحدث عن المسرحية الأخيرة التى ستبدأ فى روما. وكانت المسرحية ملهاة، وهى تقليد رخيص للملهاة اليونانية، كما كانت غالبية المسرحيات فى ذلك العهد، تدور حبكتها حول امرأة سوقية قبيحة اتفقت مع الآلهة على أن تدفع لهم قلب زوجها فى مقابل يوم واحد من الرشاقة والجمال. وكان الزوج يضاجع عشيقة أحد الآلهة. وتنهض القصة المتشابكة المقلدة على دوافع الانتقال الهزيل. كان هذا على الأقل هو رأى هيلينا. إلا أن كايوس عارض هذا الرأى بقوله إنه يرى أن المسرحية على الرغم من سطحيتها تضم مواقف غاية فى البراعة .

وقالت كلوديا فى بساطة:

– لقد أعجبتنى.

فابتسم كايوس وقال:

– أعتقد أننا نهتم كثيراً بما يقال بدلا من الطريقة التى يقال بها. أما أنا أذهب إلى المسرح لأستمتع بما هو بارع. وإذا أراد المرء مأساة الصراع فى سبيل الموت

فعليه أن يذهب إلى المجتلد ويشاهد المقاتلين وهم يقطعون أجساد بعضهم بعضاً، ومع ذلك فقد لاحظت أن مرتادى المجتلدات ليسوا من النابهين أو العميقى التفكير.

فقالت هيلينا محتجة:

– إنك تتلمسين الأعذار للتأليف الردىء.

– هذا غير صحيح، وكل ما فى الأمر أنى أعتقد أن لمستوى التأليف فى المسرح أهمية كبيرة ، فاستئجار مؤلف يونانى أرخص من استئجار عبد من حملة المحفات، ولست ممن يمجدون اليونان.

وفيما كان كايوس يقول ذلك، أحس برجل يقف إلى جانب المنضدة، ذلك أن المناضد الأخرى كانت قد امتلأت، وكان هذا الرجل، وهو تاجر متنقل ذو مقام يسأل: هل يسمحون له بالجلوس معهم؟ وقال:

– وجبة سريعة وأذهب، إذا لم يضركم تطفلى.

وكان رجلاً طويل القامة ممتلئًا مهيب الطلعة، ظاهراً أنه على قدر كبير من الثراء ، ملابسه ثمينة، لا يبجل إلا هؤلاء الشباب الذين يلوح عليهم أنهم ينتمون إلى أسرة وطبقة عالية. ولم يكن الفرسان فى العصور القديمة يسلكون هذا المسلك مع النبلاء الإقطاعيين حتى أصابوا من الثراء ما ميزهم بوصف كونهم طبقة جديدة فتبينوا أن عراقة الأصل من السلع التى يصعب شراؤها أشد الصعوبة. وعلى هذا زادت قيمة عراقة الأصل فى نظرهم. وكان كايوس، مثله فى ذلك مثل الكثير من أصدقائه، دائم التعليق على ما هنالك من تناقض بين مشاعر هؤلاء الناس الديمقراطيين فى الظاهر، وأطماعهم الطبقية القوية.

وقال الفارس:

– اسمى جايوس ماركوس سنفيوس. لا تترددوا فى الرفض إذا رأيتم ذلك.

فأجابت هيلينا قائلة:

- أرجو أن تجلس.

وقدم له كايوس نفسه هو، كما قدم الفتاتين، وسره ترحيب الرجل بهم. وقال الفارس:

- لقد كانت لى بعض المعاملات مع أسرتك.

- معاملات؟

- نعم.. معاملات فى الماشية. فأنا صانع لحم «السجق» ولى مصنع فى روما وآخر فى تاراكينا التى جئت منها الآن. فإذا أكلتم هذا «السجق» فهو من صنعى.

فابتسم كايوس وهو يفكر وقال لنفسه : لا شك فى أنه يحمل أمعائى على أن تطلع إليه.. إنه يجبر الآن أمعائى، ومع ذلك يسره أن يجالسنا ... يا لهم من خنازير.

فقال سنفيوس وكأنه قرأ ما يدور بخلده:

- نعم .. يتجرون فى الخنازير.

وقالت هيلينا فى رقة:

- إنا ليسرنا لقاؤك، وسنحمل إلى أبينا تحياتك الحارة، وابتسمت لسنفيوس ابتسامة حلوة، فأعاد الرجل النظرة إليها كما لو كان يقول: «إذاً فأنت أنثى يا عزيزتى سواء كنت من النبيلات أو لم تكونى منهن». ورأى كايوس فى نظرته ما معناه «ما رأيك فى مضاجعتى أيتها العاهر الصغيرة؟».

وتبادل الاثنان الابتسام. وكان خليقًا بكايوس أن يقتله حينذاك، إلا أنه ازداد كراهية لأخته.

وقال سنفيوس:

– لم أقصد أن أقطع عليكم حديثكم، فأرجو أن تتابعوه .

– كنا نتحدث حديثًا مملا عن مسرحية مملة.

وجاء الطعام عند ذاك، فبدءوا يأكلون، وأوقفت كلوديا فجأة قطعة من لحم البط في منتصف الطريق إلى فمها وقالت ما رآه كايوس فيما بعد شيئًا مثيرًا للدهشة.

– لا بد من أن رموز العقاب قد «ضايقتك».

– رموز العقاب؟

– الصلب.

– ضايقتنى؟

– نعم، لضياع كل هذا القدر من اللحم الطازج!.

قالتها كلوديا في هدوء، ولم تكن بارعة في قولها، ولكنها كانت هادئة فحسب، ثم تابعت أكل لحم البط. واضطر كايوس إلى أن ينكس رأسه ليمنع نفسه من الانفجار بالضحك بينما تخضب وجه سنفيوس أحمراراً ثم ابيض. أما كلوديا فقد واصلت تناول طعامها دون أن تدرى ما فعلته. وكانت هيلينا وحدها هى التى أحست بتصلب صانع السجق أكثر من المعتاد وبدأ جلدها يخزها انتظاراً لما هو آت، وكانت تريد منه أن يرد الضربة، وسرها أنه فعل، فقد قال سنفيوس آخر الأمر:

– «ضايقتنى» ليست الكلمة المطلوبة. فأنا أكره التبذير.

فسألته كلوديا وهى تقطع البرتقالة المثلجة قطعًا صغيرة وتضعها بين شفتيها فى رشاقة قائلة:

– تبذير؟

وكانت كلوديا تثير العطف فى بعض الرجال والغضب فى قليلين منهم. ولم يكن ليستطيع النفاذ إلى حقيقتها إلا رجل غير عادى.

فقال ماركوس سنفيوس مفسراً:

– كان رجال سبارتاكوس هؤلاء ضخام الأجسام، وقد أحسنت تغذيتهم أيضًا، ولنفترض أن متوسط وزن الواحد منهم مائة وخمسين رطلاً، وعندنا أكثر من ستة آلاف منهم معلقين هناك كالطيور المحنطة، فمعنى هذا تسعمائة ألف رطل من اللحم الطازج – أو الذى كان طازجًا على أى حال.

وقالت هيلينا لنفسها: لا... إنه لا يمكن أن يقصد ذلك. وبدأ جسدها بأسره يخزها توقعًا لما هو آت، بينما أدركت كلوديا التى مضت تأكل برتقالتها المثلجة، أنه يقصده.

وسأله كايوس قائلاً:

– لماذ لم تتقدم بعرض.

– لقد فعلت.

– ولكنهم رفضوا البيع ؟

– لقد استطعت شراء ربع مليون رطل.

وتساءل كايوس قائلاً فى دهشة وتفكير : ماذا يقصد؟ إنه يحاول أن يهز مشاعرنا ويريد بأسلوبه السوقى القذر أن يرد على ما قالته كلوديا. أما هيلينا فقد رأت جوهر الحقيقة. واغتبط كايوس إذ عرف أن شيئًا قد نفذ أخيرًا إلى ذهنها.

وهمست كلوديا تسأل:

– من الرجال؟

فقال صانع «السجق» فى تدقيق:

– من الآلات .. كما وصفهم الفيلسوف الشاب الجدير بالإعجاب: آلات عديمة القيمة. لقد دخنت لحمهم وقطعته إلى قطع صغيرة خلطتها بلحم الخنزير مع التوابل

والملح. وذهب نصف هذا اللحم إلى بلاد الغال، والنصف الآخر إلى مصر، والسعر طيب معتدل .

فتمتم كايوس قائلا:

– أعتقد أن مزاحك ثقيل غير مقبول.

وكان كايوس صغير السن لا يطيق المرارة الناضجة التى يراها فى صانع «السجق»، أما الفارس فلن ينسى ما لقيه من كلوديا من مهانة طيلة حياته، وسيظل يحملها لكايوس فى نفسه على الدوام لأنه ارتكب خطأ بوجوده فى أثناء هذه الإهانة.

وقال سنفيوس فى لهجة عادية كمن يروى حقيقة لا أكثر :

– لست أحاول أن أمزح. لقد سألت السيدة الصغيرة سؤالاً فأجبتها عنه، فقد اشتريت ربع مليون رطل من لحم العبيد لنحوله إلى «سجق».

فقالت هيلينا:

– هذا أفظع ما سمعت. إنه يبعث على الاشمئزاز. لقد اتجهت غلظتك الطبيعية يا سيدى اتجاها شاذا عجيبا.

ثم وقف الفارس وراح يتطلع إليهم الواحد بعد الآخر، وقال:

– معذرة.

ثم تطلع إلى كايوس وقال له:

– اسأل خالك سيسيليوس، فقد قام بعملية التسليم، وربح بذلك لنفسه مبلغًا لا بأس به.

وابتعد. وواصلت كلوديا أكل البرتقالة المثلجة فى هدوء حتى توقف، ولم تمتنع عن الأكل إلا لتقول:

– لقد تكشف عن إنسان لا يحتمل.

فقالت هيلينا:

– ومع ذلك فقد كان صادقًا.

– ماذا تقولين؟

– لقد كان صادقًا بلا ريب. أيدهشك ذلك؟

فقال كايوس:

– لقد كانت كذبة حقيرة اختلقها ليلقيها علينا وحدنا.

فقالت هيلينا:

– إن الفرق بيننا يا عزيزتى هو أننى أعرف متى يكون الإنسان صادقًا. وازداد شحوب كلوديا عن المعتاد، فنهضت واستأذنت وسارت فى وقار جليل نحو حجرة الاستراحة، وارتسمت على شفتى هيلينا ابتسامة واهنة كما لو كانت تبتسم لنفسها.

ثم قال كايوس:

– إن شيئًا ما يروعك بحق، أليس الأمر كذلك يا هيلينا؟

– ولم أروع ؟ أقل ما فى الأمر أننى لن آكل «السجق» بعد اليوم.

فقالت هيلينا:

أما أنا، فلم أذقه قط.

- ٥ -

وفيما كانوا يسيرون على الطريق بعد ظهر ذلك اليوم، التقوا بتاجر كهرمان سورى يدعى فوزل شابال كانت لحيته منسقة بعناية، يلتمع شعرها بالزيت المعطر. وكان ثوبه الطويل الموشى ينهدل على جانبى الحصان الأبيض الجميل الذى يمتطيه، وتشرق أصابعه باللآلئ والجواهر الغالية، وكان يعدو وراءه اثنا عشر عبداً من المصريين والبدو يحمل كل منهم ربطة كبيرة فوق رأسه. إذ كان الطريق فى طول الجمهورية الرومانية وعرضها مقرباً للفوارق والطبقات بين السكان فقد وجد كايوس نفسه وقد تطرق إلى حديث يكاد يكون من جانب واحد مع التاجر الثرى، وإن لم يكن اشتراك الشاب الصغير فى الحديث يزيد كثيراً على إتماءة بين الفينة والفنية، وكان شابال يجد شرفًا كبيراً فى لقاء أى رومانى لأنه شديد الأعجاب بالرومانيين، بكل الرومانيين، وعلى الأخص الرومانى العريق الأصل والمكانة مثل كايوس الذى ينطق مظهره بذلك دون خفاء. وكان بعض الشرقيين لا يفهمون أشياء معينة عن الرومانيين مثل الحرية التى تتمتع بها نساؤهم. إلا أن شابال لم يكن من هذا البعض. وكان يقول لنفسه: «أخدش رومانيا تجد عرقًا من الحديد. والشاهد على ذلك رموز العقاب هذه القائمة على طول الطريق». وكان شديد الاغتباط بالدرس الذى تعلمه عبيده ولم يكلفهم إلا مشاهدتهم هذه الصلبان.

وقال فوزل شابال بلغته اللاتينية الفصيحة التى ينطقها بنبرة غريبة:

- قد لا تصدق يا سيدى الشاب أن فى بلادى قومًا كانوا يتوقعون - واثقين - سقوط روما فى يد سبارتاكوس، بل لقد حدثت فتنة صغيرة بين عبيدنا اضطررنا إلى قمعها بأساليب قاسية. وقد قلت لهم: «إنكم لا تفهمون من أمر روما إلا قليلاً، فأنتم

تسـوون بين رومـا ومـا عرفتم فى المـاضـى ومـا ترونه حـولكم – وتتسـون أن رومـا شىء جديد وجد فى هذا العالم» وكيف أصف روما لهم؟ لو أننى قلت لهم باللاتينية كلمة الجد مثلاً.. فماذا تعنى لهم؟ حقا.. ماذا تعنى هذه الكلمة لأى شخص لم ير روما رأى العين، ولم يخالط سكان روما ويحادثهم. الحق أنهم قوم صادقون فيهم تقدير للمسئولية ونواياهم جدية. أما كلمة الخفة باللاتينية فنحن نفهمها، وهى لغتنا، فنحن نلهو بالصغائر مشوقين إلى المتعة. أما الرومانى فلا يلهو بالصغائر لأنه يدرس الفضيلة. الجلد – النظام – الاقتصاد – التسامح ... هذه الكلمات الرائعة هى روما بالنسبة لى، بل هى سر السلام الذى يستمتع به الطريق الرومانى والحكم الرومانى. ولكن كيف يشرح المرء ذلك يا سيدى الشاب؟ أما أنا فأنظر فى رضاء جاد إلى رموز العقاب هذه، لأن روما لا تهلو بالصغائر، فالعقاب على قدر الجريمة، وهذه عدالة روما. وكانت وقاحة سبارتاكوس الجريئة أنه تحدى كل ما هو طيب، وجاء بالنهب والقتل والفوضى. وإذ كانت روما هى النظام، فقد نبذته روما...

وأصغى كايوس، وأصغى، حتى صدر عنه أخيراً ما يوحى بضيقه وسأمه، فما كان من التاجر السورى بعد كثير من الانحناءات والاعتذارات إلا أن تقدم إلى هيلينا وكلوديا بقلادة من الكهرمان، وأوصاهم بنفسه خيراً هم وأسرهم ومعارفهم ممن عساهم أن تكون لهم بهم صلة فى العمل، ثم رحل.

وقال كايوس :

– الحمد الله.

فابتسمت هيلينا وقالت:

– يا صاحب الجد.

- ٦ -

وفى مساء ذلك اليوم وقبل أن ينحدروا من الطريق الأبيوسى إلى الطريق الجانبى الضيق المؤدى إلى المنزل الريفى الذى يمضون فيه الليل، وقع حادث قلل من ملل الرحلة وسآمتها، ذلك أن فصيلة من الجند، من الفيلق الثالث المختصة بحراسة الطريق، كانت تعسكر على الطريق للراحة، وكان معسكرها مكونًا من صفوف من الخيام المثلثة الصغيرة، وقد ارتكنت الدروع الطويلة على الحراب القصيرة، وتدلى من كل كوم ثلاث خوذات... كان المعسكر يشبه حقلاً صغيراً حصدت غلاله والجنود يتجمهرون فى الساحة، يجلسون فى ظل سقيفة يطالبون بالجعة وبالمزيد منها ويعبونها من أوعية خشبية كالأقدام سعة الواحد منها كوبان عاديان يسمى حمامات «القدم» وكانوا رجالاً فيهم خشونة، صارمى الوجوه، أجسادهم فى لون البرنز، تفوح منهم بقوة رائحة جلود سراويلهم وصدرياتهم الضيقة المشربة بالعرق، يتكلمون فى صوت عال وتتناثر الشتائم من أفواههم، وكانوا لا يزالون يحسون بأن رموز العقاب القائمة على جانبى الطريق هى نتيجة عملهم القريب.

ووقف كايوسوالفتاتان لمراقبتهم فخرج قائدهم من الخيمة الكبيرة وفى يده قدح خمر ويلوح بيده الأخرى محييًا كايوس – فى شوق زاد منه أن فى رفقة كايوس فتاتين جميلتين.

وكان هذا الرجل صديقًا قديمًا لكايوس، وهو شاب يدعى سيلوس كوينتيوس بروتس يعمل جنديا محترفا، كثير الجرأة، جميل الصورة، وكان يعرف هيلينا من قبل، وازداد سروره بمعرفة كلوديا. وغلبت عليه طبيعة الجندى المحترف، عندما سألهم عن رأيهم فى جنوده.

فقال كايوس:

– مجموعة من الخلائق القذرة العالية الصوت.

– هم كما تقول، لكنهم مجموعة طيبة.

فقالت كلوديا:

– لا أخش شيئًا فى وجودهم.

ثم أضافت قائلة: «إلا هم».

فأجاب بروتس فى شهامة:

– وهم عبيدك منذ الساعة، وسيرافقونك... إلى أين؟

فقال كايوس:

– سنمضى الليل فى بيت سالاريا الريفى، ولعلك تذكر أن الطريق يتفرع على بعد ميلين من هنا.

فصاح بروتس:

– إذن لن تخافوا شيئًا طيلة هذين الميلين.

وسأل هيلينا:

– هل سافرت من قبل فى حماية حرس شرف عسكرى؟

– لست، ولم أكن قط، على هذا القدر من الأهمية.

فقال الضابط الشاب:

– وهذا بالضبط هو مدى أهميتك لى. وأرجو أن تمنحينى الفرصة لأضعهم تحت قدميك، الفرقة كلها خدم لك.

فاحتجت هيلينا قائلة:

– إنهم آخر شيء في العالم أريده تحت قدمي.

واتنتهى من شرب قدحه وألقى به إلى العبد الواقف بالباب ونفخ في الصفارة الفضية المعلقة حول عنقه، فصدر عنها صفير غريب آمر فيه نغمات أربع متدرجة في الانخفاض وأربع أخرى متدرجة في الارتفاع. وامتثل الجنود له فجرعوا الجعة وتبادلوا الشتائم في صوت منخفض، وتحركوا مثنى مثنى إلى حيث تتكوم حرابهم ودروعهم وخوذهم ونفخ بروتس في صفارته مرة ثانية وثالثة فتداخلت الأنغام حتى أصبحت نغمة واحدة حادة ملحة استجاب لها جنود الفرقة كأن للأنغام تأثيراً مباشراً على جهازهم العصبي. وتجمع الجنود في جماعات صغيرة ثم انفصلوا واصطفوا صفين على كل جانب من الطريق في عرض جميل مدهش حقا، ونظام كامل، فهللت الفتاتان، واضطر كايوس نفسه، رغم ضيقه بألاعيب صديقه، إلى الإعجاب بدقة نظام الجنود وسأل:

– هل يقاتلون بمثل هذه البراعة؟

فقال بروتس:

– سل سبارتاكوس.

فصاحت كلوديا تقول:

– مرحى !

فانحنى بروتس وحياها، فانفجرت ضاحكة. وكان هذا تجاوباً غير عادى من كلوديا، لكن الكثير من تصرفاتها اليوم كان يبدو غير عادى لكايوس، فقد كانت وجنتناها مخضبتين بلون مشرق، وعيناها تلتمعان من فرط تأثرها بالتمرينات التى قامت بها فرقة الجنود أمامها. وطغى شعور كايوس بالدهشة من الطريقة التى بدأت

تثرثر بها مع أوتس على شعوره بأنه مستبعد من هذا الحديث. وكان بروتس يسير بين المحفتين وقد أمسك بزمام الركب كله.

وسألته كلوديا:

- وماذا يعملون بالإضافة إلى هذا؟

- يمشون، ويحاربون، ويتبادلون الشتائم.

- ويقتلون؟

- يقتلون؟ طبعًا، فهم قتلة. ألا ينطق مظهرهم بذلك؟

فقالت كلوديا:

- أنا أحب مظهرهم.

فراح بروتس يدرسها فى هدوء، ثم قال فى رقة:

- حقا؟ أعتقد ذلك يا عزيزتى..

- وماذا أيضًا؟

فسألها بروتس:

- ماذا تريدين غير هذا؟ هل تريدين سماعهم يغنون؟

وصاح بالجنود قائلا:

- انشدوا وسيروا على النغمات!

فبدأت أصوات الجنود العميقة تنتظم مع خطواتهم وهم ينشدون قائلين: السماء والأرض والطريق والحجر الصلب قاطع ينفذ إلى العظام.

وبدأ النغم الرخيص يتداخل ويخشوشن فى حلوقهم حتى أصبح من العسير فهم الكلمات، وأرادت هيلينا أن تعرف فسألت:

– ماذا يعنى إنشادهم؟

– لا شيء فى الواقع، فهو مجرد كلمات موقعة يسيرون على توقيعها، ولدينا المئات منها ولكنها لا تعنى شيئًا... السماء، والأرض، والطريق، والحجر – لا شيء فى الواقع، لكن سيرهم يحسن بها وينتظم. وقد ولد هذا النشيد فى حرب العبيد، وبعضها لا يحسن بالسيدات سماعه.

فقالت كلوديا:

– وبعضها يحسن بى سماعه.

– إذن سأهمس به.

وابتسم وانحنى نحوها وهو يسير إلى جوارها، ثم اعتدل. وأدارت كلوديا رأسها لتحدق إليه. وبدأت الصلبان مرة أخرى تقوم على جانبى الطريق والأجساد الميتة معلقة فيها كالخرز. وأشار إليها بروتس وقال:

– أتريدين منهم أن يكونوا مهذبين؟ إن هذا من فعلهم. لقد صلبت فصيلتى ثمانمائة منهم... وليسوا هم مهذبين، بل هم أشداء قساة، قتلة.

فسألته هيلينا قائلة:

– وهل يجعل هذا منهم جنوداً أفضل؟

– المفروض ذلك.

فقالت كلوديا:

– مُر واحداً منهم بالمجيء إلى هنا.

– لم ؟

– لأنى أريدك أن تفعل ذلك.

فهز كتفيه ثم قال:

- سأفعل.

ثم صاح ينادى:

- سكتوس.. انفصل عن جماعتك وتعال هنا.

فخرج جندى من الصفوف، واستدار، وجاء إلى المحفتين، وحيا قائده. ثم استدار يسير فى خطوة عسكرية أمام الضابط. وجلست كلوديا وقد عقدت ذراعيها وراحت تتأمله فى عناية. وكان متوسط الحجم، أسمر اللون، كبير العضلات. وكانت الشمس قد لوحت ذراعيه العاريتين وعنقه ووجهه حتى استحالت فى سمرة خشب «المجنة»، وكانت تقاطيع وجهه حادة بارزة يبدو جلده مشدوداً فوقها ومبللاً بالعرق. وكان يضع فوق رأسه خوذة معدنية ويعلق فوق ظهره وفوق جراب مئونته درعه البالغ من الطول أربع أقدام. ويحمل فى إحدى يديه حربة، وهى قضيب سميك من الخشب الصلب يبلغ طوله ست أقدام وقطره بوصتان ثبت فى أحد طرفيه مثلث من الحديد مستدق الطرف طوله ثمان عشرة بوصة، فظيع الشكل، ثقيل الوزن. وكان يحمل سيفا إسبانيا قصيرا ثقيلا. أما قميصه الجلدى فقد ثبتت فيه على الصدر ثلاثة ألواح من الصلب وثلاثة أخرى على كل من كتفيه، وعلقت فى وسطه ألواح ثلاثة إضافية تتأرجح فوق ساقيه فى أثناء مشيه. وكان يرتدى سراويل جلدية وحذاء جلديا طويلا. ويسير فى يسر ودون جهد ظاهر، على الرغم من كل هذه الأثقال الضخمة من المعدن والخشب. وكان المعدن الذى يحمله فوق جسده سدهوناً بالزيت، وكذلك درعه، فاختلطت رائحة الزيت برائحة العرق برائحة الجلد وأصبحت رائحة خاصة لنوع خاص من التجارة، أو القوة، أو الآلة.

واستطاع كايوس أن يرى من مكانه خلف المحفتين جانب وجه كلوديا، وكانت شفتاها منفرجتين، ولسانها يلعقهما وعيناها مثبتتين على الجندى.

وهمست كلوديا تقول لبروتس:

- أريده إلى جوار المحفة.

فهز بروتس كتفيه، وأصدر الأمر إلى الجندى الذى اختلجت شفتاه بابتسامة واهنة، وهو يتراجع ليسير إلى جوار كلوديا.

وألقى الجندى ببصره إليها لحظة ثم تطلع إلى الأمام، ومدت هى يدها ومسته مسا خفيفا حيث تنفخ عضلاته تحت ردائه الجلدى، ثم قالت لبروتس:

- مُره أن يذهب. إن رائحته نتنة، إنه قذر.

وكان وجه هيلينا قاسيًا. أما بروتس فقد هز كتفيه مرة ثانية وأمر الجندى أن يعود إلى الصفوف.

- ٧ -

كان لبيت سالاريا الريفى اسم فيه الكثير من السخرية لأنه كان يعيد إلى الذاكرة أيام أن كانت غالبية المناطق جنوبى روما مستنقعات ملحة موبوءة بالملاريا. إلا أن هذا الجزء من المستنقع كان قد استصلح منذ زمن بعيد، وكان الطريق الخاص المتفرع عن الطريق الأبيوسى والمؤدى إلى الضيعة قد أنشئ بنفس العناية التى أنشئ بها الطريق الرئيس نفسه أو يكاد يماثلها.

وكان أنطونيوس كايوس صاحب الضيعة قريباً لكايوس وهيلينا من ناحية أمهما. وعلى الرغم من أن ضيعته لم تكن فى خصوبة الضيعات الأخرى؛ فإن قربها من المدينة جعل منها مزرعة كبيرة فى نوعها تحتل لجمالها مكانًا مرموقًا بين غيرها من الضيعات.

وكان على كانيوس والفتاتين، بعد أن تحولوا عن الطريق، أن يجتازوا أربعة أميال أخرى على الطريق الخاص كى يصلوا إلى الدار نفسها. وأحس الثلاثة الفارق على التو. فقد كان كل شبر من الأرض مزيناً معتنى به. وكانت أشجار الغابات مشذبة كالحدائق، وسفوح التلال مدرجة تمتد على مدرجاتها الكروم الشبيهة بالأصابع وقد بدأت بواكير عساليج الربيع فى الظهور، أما بقية الحقول فكانت مزروعة شعيراً، وهى زراعة كانت تتناقص تدريجًا ويقل ربحها مع اختفاء الملكيات الصغيرة للفلاحين وذوبانها فى الضيعات الكبيرة. أما المدرجات الأخرى فكانت مغطاة بصفوف لا نهاية لها من أشجار الزيتون. وحيثما أدرت البصر كنت تجد دليلاً على العناية بالزراعة التى لا تتوافر إلا على أيدى عدد لا يحصى من العبيد. واستمتع الشبان الثلاثة المرة بعد المرة بمشاهدة الكثير من الكهوف الصناعية الجميلة تغطيها الطحالب والخضرة وتشيع

منها الرطوبة، فى داخلها نماذج مصغرة للمعابد اليونانية وأرائك الرخام ونافورات من المرمر نصف الشفاف وممرات الحجر الأبيض تثنى داخلة وخارجة من الوديان الصغيرة التى تغطيها الغابات. شاهد الثلاثة كل هذا الجمال والمساء الرطب قد حان، والشمس تهبط وراء التلال المنخفضة، فكان للمنظر سحر خرافى جعل كلوديا، التى لم تكن قد أتت إلى هذا المكان من قبل، تطلق الصيحة إثر الصيحة إعجاباً وسروراً. وكان هذا السرور منها متمشياً مع شخصيتها الجديدة إلى حد دفع كايوس إلى أن يقول فى نفسه: كيف يمكن أن تبتهج هذه الشابة الرقيقة المرفهة إلى هذا الحد بدافع مشاهدتها لرموز العقاب، كما كان المهذبون يسمونها؟

وكانت الماشية فى هذا الوقت من اليوم تقاد إلى حظائرها وكان رنين الأجراس المعلقة فى رقاب الأبقار والنداء الحزين الصادر من أبواق رعاة البقر يملآن الجو بلا انقطاع. أما رعاة الماعز، من عبيد تراقيا وأرمنديا الصغار، فكانوا يعدون وكلهم عراة إلا من خرق حول حقويهم خلال الغابات ينادون حيواناتهم الشاردة. وقال كايوس فى نفسه: ترى أيهما يبدو أكثر إنسانية : الماعز أم العبيد؟ وبدأ يفكر، كما كان يفكر عادة من قبل، فى ثروة خاله. لقد كان القانون يحرم على أسر النبلاء مزاولة أى نوع من الأعمال التجارية، إلا أن أنطونيوس كايوس والكثير من معاصريه - كانوا يجدون فى القانون منافذ واسعة بدلا من أن يكون قيداً ضيقاً.. وكان يقال إنه أقرض عن طريق عملائه أكثر من مليون قطعة فضية بفوائد كانت تصل عادة إلى مائة فى المائة. وكان يقال كذلك إن له حصة كبيرة فى أربع عشرة سفينة تعمل فى التجارة المصرية، وإنه يملك نصف منجم من أكبر مناجم الفضة فى إسبانيا.

ولم يكن مسموحاً لأحد غير الفرسان أن يكونوا أعضاء فى مجالس إدارة الشركات المساهمة التى نشأت بعد الحرب البونية، ولكن هذه المجالس كانت تنفذ رغبات أنطونيوس كايوس بدقة وعناية.

وقصارى القول أنه كان من المستحيل تقدير ثروته. ومع أن بيت سلاريا الريفى كان مكاناً جميلاً فيه ذوق ويحيط به أكثر من عشرة آلاف فدان من الحقول والغابات،

فإنه لم يكن أكبر أو أفخم الإقطاعيات كما أن أنطونيوس كايوس لم يحاول أن يتباهى بثروته كما كانت عادة الأسر النبيلة فى الفترة الأخيرة، عن طريق دعاية الحفلات فى المجتلد، أو الموائد الفخمة الغالية فى الفخامة، أو التسلية على الطريقة الشرقية. لقد كانت مائدة أنطونيوس طيبة حافلة، إلا أنها لم تكن تزدان بلحم صدر الطاووس وألسنة الطيور المغردة أو أحشاء جرذن ليبيا المحشوة لأن النظرة إلى هذا اللون من الحياة كانت لا تزال فيها الكثير من عدم الرضاء، وكان كل فرد يتجنب أن يعرض فضائح الأسرة وقت الطعام، وكان أنطونيوس نفسه رومانيا من الطراز ذى المكانة العالية القديمة، كما أن كايوس - الذى كان يكن له الاحترام وإن لم يكن يحبه - لم يكن يشعر مطلقًا بالراحة فى حضرته.

وكان جزء من عدم الشعور بالراحة هذا يرجع إلى الرجل نفسه، لأن أنطونيسو كايوس لم يكن أكثر شخصيات العالم إنفاقًا وبذخًا إلا أن الجزء الأكبر من عدم شعور كايوس بالراحة فى حضرته كان مصدره شعوره الدائم بأن لخاله تقديرا خاصا للفرق بين ما عليه ابن أخته، وبين ما يجب أن يكون عليه الشاب الرومانى كما يريده هو وكان كايوس يشك فى أن خرافة الفتى الرومانى المتقشف الفاضل الذى يهب حياته لواجبه نحو بلاده، والجندى الشجاع المتدرج فى مراتب العسكرية حتى يصبح ضابطًا كبيرًا، والذى يتزوج من عذراء رومانية صالحة وينشئ أسرة، ويتفانى ويخلص فى خدمة الدولة، ويرتقى من منصب إلى منصب حتى يصبح فى النهاية قنصلاً يحترمه ويجله عامة الشعب وحملة الألقاب وأصحاب الثراء، المستمسك بالأخلاق الكريمة ودواعى الشرف طيلة حياته - لم تكن هذه الخرافة فى وقت من الأوقات أبعد عن الحقيقة منها وقتئذ، ولم يكن كايوس نفسه يعرف بوجود مثل هذا الشاب الرومانى. فقد كان الشباب المحيط بكايوس فى حياة روما الاجتماعية يهتم بعدد معين من الأشياء.. كان بعضهم قد تخصص فى اصطياد قلوب عدد لا يحصى من الفتيات، وأصيب البعض الآخر بعدوى المال فى سن مبكرة، حتى كانوا - وهم لم يتخطوا بعد عامهم العشرين - يشتغلون بالفعل فى عدد من الأعمال التجارية غير المشروعة، بينما تعلم البعض الآخر تجارة الانتخابات فكرسوا أيامهم وشراستهم للعمل القذر اليومى فى

الأحياء، يشترون ويبيعون الأصوات، يرشون ويرتشون، ويغضون الطرف عن المساوئ، ويتعلمون التجارة التى زاولها آباؤهم فى مقدرة من أولها صاعدين، ويكتسب البعض الآخر عيشه من الاتجار فى الأغذية وأصبح خبيراً ناصحًا فى الأغذية والمشروبات، وقليل جدا من انخرط فى سلك الجندية التى كانت قد بدأت تفقد روادها تدريجيا بوصفها عملا للشاب النبيل، وعلى هذا كان كايوس، العضو فى هذه الجماعة الكبيرة التى وهبت نفسها للمهمة الثقيلة، مهمة تمضية أيامها فى كسل والحصول على أكبر قدر من المتعة، كان يرى نفسه مواطنًا لا ضرر منه إن لم يكن لا غنى عنه فى الجمهورية الكبيرة، ويرفض الاتهام الصامت له الذى كان يعرب عنه خاله أكثر من مرة. وكانت عبارة «عش ودع غيرك يعش» تلخص لكايوس فلسفة متمدينة عملية.

دارت كل هذه الخواطر برأسه وهم يدخلون إلى الحديقة المترامية الأطراف والساحة الخضراء المحيطة بالبيت الريفى نفسه، وكانت الحظائر الضخمة ومساكن العبيد الذين يكونون الأساس الصناعى للمزرعة منفصلة عن البيت لا يبدو لها أثر، لأنهم لم يسمحوا لأى أثر للقبح أو الكفاح بأن يشوه جمال المنزل التقليدى. أما البيت نفسه فكان منزلاً ضخمًا مربعًا مشيداً حول فناء فى وسطه بركة، ويقوم على قمة ارتفاع بسيط، مطليا باللون الأبيض مسقوفًا بالآخر الأحمر الذى تأثر بعوامل الجو.

ولم يكن المنزل قبيحًا. وقلل من سأم استقامة خطوطه الذوق الجميل فى تنسيق أشجار الأرز الطويلة وأشجار الحور المحيطة به. وكانت الأرض فيما حوله منسقة على الطراز المعروف بالطراز الأيونى، الذى تشذب فيه أشجار الورود لتنمو فى أشكال غير عادية، وتمهد فيه المساحات الخضراء السندسية، وتقام المنازل الصيفية من الرخام الملون وأحواض المرمر لأسماك الزينة المدارية الملونة وتماثيل الحدائق التقليدية العديدة من حوريات وآلهة وظباء وملائكة، ذلك أنه كان لأنطونيوس كايوس عرض شراء دائم وبأعلى الأسعار فى الأسواق الرومانية حيث يباع النحاتون ورسامو المناظر الطبيعية من اليونان. ولم يكن يبخل بشىء فى هذا السبيل رغم ما يقال من عدم تذوقه للفنون ومن أنه يتبع توجيهات زوجه جوليا فى هذا الصدد، وكان كايوس يصدق ذلك، لأنه لم يكن ينقصه الذوق الفنى هو نفسه، وما كان ليجد أثرًا من الذوق فى خاله. وكانت توجد

بيوت ريفية كثيرة أخرى تفوق بيت سالاريا فخامة، ويكاد بعضها يشبه قصور حكام الشرق. فإن كايوس لم يكن يتصور وجود شيء يفوقه جمالاً أو بهاء. ووافقته كلوديا على ذلك. وعندما تخطو الأبواب الخارجية وخطوا إلى الطريق المرصوف المؤدى إلى المنزل، تملكت كلوديا الدهشة، وقالت لهيلينا:

– لم أحلم بشيء مثل هذا من قبل، إنه ليشبه الأساطير اليونانية فوافقتها هيلينا قائلة:

– إنه مكان رائع الجمال.

وكان أول من رآهم ابنتا أنطونيوس كايوس الصغيرتان فتسابقتا مجتازتين الساحة الخضراء لتحيتهم تتبعهما أمهما جوليا تمشى على مهل، وكانت جوليا امرأة جميلة سمراء ممتلئة، وخرج أنطونيوس نفسه من الدار بعد لحظات يتبعه ثلاثة رجال.

وكان أنطونيوس كثير التدقيق فى مسائل السلوك نحو نفسه ونحو غيره، فحيا قريبيه وصديقتهما فى رقة هادئة، ثم قدم لهم ضيوفه وكان كايوس يعرف اثنين منهم معرفة وطيدة، يعرف لنتيلوس جراكوس، وهو سياسى بصير ناجح، وليكينيوس كراسوس القائد العسكرى الذى طار صيته فى حرب العبيد وأصبح حديث المدينة منذ عام. أما ثالث الجماعة فقد كان غريباً على كايوس، وكان يصغر الآخرين سنا ولا يكبر كايوس نفسه كثيراً، وكان خجولاً، فيه عدم الثقة بالنفس المتأصل فى نفس كل من لم يولد نبيلاً، متغطرساً غطرسة المفكرين الرومان المختلطة بالدهاء.

وراح يدرس أحد القادمين الجدد وهو شاب جميل الطلعة متوسط الوسامة، كان يدعى ماركوس تليوس شيشرون.. وأعرب شيشرون عن اغتباطه بالتعرف إلى كايوس والفتاتين الجميلتين فى تواضع، إلا أنه لم يستطع أن يخفى حب استطلاعه القلق لدرجة أن كايوس، ولم يكن من أكثر الناس إدراكًا، تبين أن شيشرون يدرسهم ويفحصهم ويحاول أن يتصور محيطهم بقدر ثروة الأسرة ونفوذها.

وكانت كلوديا خلال ذلك قد ركزت اهتمامها على أنطونيوس كايوس بوصفه أكثر من يرغب فيه من الرجال ترغيبا، فهو سيد الدار الفخمة وما حولها من الأرض

الفسيحة التى لا حصر لها. وإذ لم يكن لها من الوعى السياسى إلا اسمه، وعن الحرب إلا فكرة غامضة مشوشة فإنها لم تأبه كثيراً بكل من جراكوس وكراسوس. أما شيشرون فلم يكن مجهولاً فحسب، وهذا يعنى عدم أهميته بالنسبة لكلوديا، بل إنها إلى ذلك كانت تراه من الفرسان الساعين وراء المال، الذين تعلمت احتقارهم.

وكانت جوليا قد بدأت بالفعل فى مهاجمة كايوس الحبيب إلى نفسها، فراحت تتمسح به كقطعة كبيرة خرقاء. أما كلوديا فقد كان فى تقديرها لأنطونيوس كثير من الحكمة التى لم يعرفها كايوس من تقديره له. رأت كلوديا فى الأنف الضخم الأقنى وجسد أنطونيوس القوى العضلات كتلة من المشاعر المكبوتة، وكانت كلوديا تفضل الرجال الأقوياء الذين لا يستخدمون قوتهم، فأنطونيوس كايوس لا يمكن أن يتهور أو يضايق إنسانًا. وحملته هى بابتسامتها المتوانية فى الظاهر على أن يدرك كل ذلك.

وكان الجمع بأسره قد وصل إلى البيت عند ذاك، وكان كايوس قد ترجل من قبل، فاقتاد عبد من خدم البيت جواده، بينما قبع حملة المحفات وقد أنهكت قواهم الأميال الطويلة التى مشوها إلى جانب أحمالهم، يتصببون عرقًا ويرتعدون من برودة المساء. وكانت أجسادهم النحيلة فى تعبها تشبه أجسام الحيوانات، وراحت عضلاتهم ترتعد من ألم الأرهاق كما تفعل الحيوان.

ولم يتطلع إليهم إنسان، ولم يلحظ وجودهم أحد، ولم يعن بهم أحد، ودخل الرجال الخمسة والنسوة الثلاث والطفلتان إلى البيت وظل العبيد حملة المحفات إلى جوار المحفات ينتظرون، ثم انفجر واحد منهم، وهو لا يزيد على العشرين، يبكى وينتحب، ثم تزايد بكاؤه حتى لم يستطع السيطرة على نفسه. إلا أن الآخرين لم يعيروه التفاتا وظلوا فى جلستهم هذه نحو عشرين دقيقة قبل أن يأتى إليهم عبد قادهم إلى حيث يطعمون ويمضون الليل.

- ٨ -

شارك كايوس القائد ليكينيوس الحمام، وأراحه أن الرجل العظيم لم يكن من أصحاب الرأى الذى يرى فى كايوس ممثلاً لكل الصفات المنحلة التى كان النبلاء الشباب يتصفون بها حينذاك، بل وجده رجلاً لطيفًا دمثًا متصفًا بتلك الصفة الجذابة، صفة الرجل الذى يسعى إلى سماع آراء غيره ولو لم يكونوا من ذوى الشأن.

واسترخى الاثنان فى حوض الماء يحركانه فى كسل ويطفوان جيئة وذهابًا يستمتعان بالماء الدافئ المعطر الذى أذيبت فيه كميات كبيرة من الأملاح الشذية الرائحة، وكان جسد كراسوس معتنى به فلم يصبه ترهل منتصف العمر، بل كان صلبًا، مسطحًا، فيه شباب ونشاط، وسأل كايوس: هل جاء هو ومن معه على الطريق من روما؟

– أجل، وسنسافر غدًا إلى كابوا.

– ألم تهتم برموز العقاب؟

فأجاب كايوس قائلاً:

– لقد كنا شديدى الرغبة فى مشاهدتها. لا. الحقيقة أننا لم نأبه بها كثيراً بنوع خاص، فقد كنا نرى هنا وهناك جسداً نهشته الطيور، وكان ذلك يبعث على الاشمئزاز وبخاصة إذا كانت الريح تهب تجاهك، إلا أنه لم يكن من ذلك بد، واضطرت الفتاتان إلى إسدال الستائر، لكن العبيد حملة المحفات أصابهم الغثيان وكانوا يتقايئون أحيانًا.

فابتسم القائد وقال:

- أعتقد أنهم تمثلوا أنفسهم من المصلوبين.

- ربما. أعتقد أنه يوجد مثل هذا الشعور بين العبيد؟ إن معظم عبيدنا من حملة المحفات قد نشئوا فى الحظائر، وربى معظمهم على السوط فى الصغر، فى مدرسة أبيوس موندليوس، وهم لا يفضلون الحيوان كثيراً ما داموا يحتفظون بقوتهم. أتظن بعد ذلك أنهم تمثلوا أنفسهم فى المصلوبين ؟ لا. أعتقد أنه يوجد بين العبيد مثل هذه الصفات الجماعية، لكنك تعرف هذا خيراً منى. أتظن أن العبيد جمعيًا كانوا يشعرون بشىء نحو سبارتاكوس؟

- أتظن أن غالبيتهم كانت تشعر نحوه بشىء ما؟

- أحق هذا ؟ ألا يضايقك ذلك ؟

- وإلا لكرهت عملية الصلب هذه.

وأضاف كراسوس مفسراً:

- إنها تبذير وضياع، وأنا لا أحب التبذير لمجرد التبذير، كما أنى أعتقد أن القتل يبعث على الكثير من القتل. وأرى أنه يصيبنا بشىء قد يضر بنا فيما بعد .

فاحتج كايوس قائلا:

- لكن العبيد؟

- إن شيشرون كثير الشغف بترديد عبارته: إن العبد آلة ناطقة للتفرقة بينه وبين الحيوان الذى هو آلة نصف ناطقة، وللتمييز بينه وبين الآلة العادية التى نستطيع أن نسميها آلة خرساء. وهذا أسلوب بارع فى التعبير. وأنا على ثقة من أن شيشرون إنسان ماهر، إلا أنه لم يضطر إلى محاربة سبارتاكوس، لم يضطر شيشرون إلى تقدير إمكانيات سبارتاكوس المنطقة، لأنه لم يمض الليالى ساهراً، كما فعلت أنا، يحاول أن يعرف مقدمًا ما يفكر فيه سبارتكوس، فأنت عندما تقاتل العبيد تكتشف

فجأة أنهم أكثر من آلات ناطقة.

– وهل تعرفه؟ أعنى هل تعرفه شخصيا؟

– هو ؟

– أعنى سبارتاكوس.

فابتسم القائد وهو يفكر وقال :

ليس تماماً. لا أعرفه حقا وإنما رسمت لنفسى صورة له. وضعت فيها هذه الصفة إلى جانب تلك لكنى لا أعرف أن أحداً عرفه على حقيقته. وكيف تستطيع معرفته؟ لو أن كلبك الأليف المدلل تهيج فجأة وأصابته لوثة وتصرف بمثل هذا الذكاء فسيظل كلبا. أليس كذلك؟ ويكون من العسير معرفته. لقد رسمت لنفسى صورة لسبارتاكوس لكنى لن أزعم أنى أستطيع وصفه كما كان، ولا أعتقد أن أحداً يستطيع ذلك لأن من كانوا يستطيعونه ملقون الآن على طول الطريق الأبيوسى، كما أن الرجل نفسه قد أصبح كالحلم، وسنعيد نحن تصوره فى صورة العبد.

فقال كايوس:

– كما كان.

– أجل، أجل.. فيما أظن.

وكان من العسير على كايوس أن يتابع الحديث فى هذا الموضوع. ولم يكن ذلك لقلة خبرته بالحرب ثم إنه فى واقع الأمر لم يكن يهتم بالحرب رغم أنها كانت واجبًا مفروضًا على الطبقة التى ينتمى إليها ولوضعه فى الحياة. وماذا كان رأى كراسوس فيه؟ أيمكن أن يكون هذا الأدب وهذه العناية حقيقيين؟ مهما كان الأمر فلا يمكن تجاهل أسرة كايوس أو التقليل من شأنها وكراسوس فى حاجة إلى أصدقاء، لأن من السخرية ألا يفوز هذا القائد من أعنف حرب خاضها – ولعلها أعنفها فى التاريخ الرومانى بأسره – إلا بمجد ضئيل، فقد حارب العبيد وهزمهم عندما أوشك هؤلاء

العبيد على هزيمة روما. لقد كان الأمر كله تناقضاً غريباً، فقد يصبح الإقلال من شأن كراسوس حقيقة واقعة، لأن الخرافات لن تحاك حول كراسوس أو تنشد من أجله الأناشيد، لأن ضرورة نسيان الحرب كلها ستقلل من قيمة نصره على مر الأيام.

وخرجا من الحوض فلفتهما الإماء اللاتى كن فى انتظارهما فى المناشف، الدفيئة، ولم يكن فى كثير من الأماكن التى قد تفوق بيت أنطونيوس كايوس روعة أو فخامة نصف ما فيه من كل ما يتوقعه الزائر لإرضاء رغبته وسد حاجاته.

وهذا ما دار بخلد كايوس والإماء يجففن جسده، فقد علموه أن فى الأيام الخالية كان هناك عالم ملىء بصغار الأمراء والممالك والإمارات الصغيرة، إلا أن القليل منهم من استطاع أن يحيا أو يستمتع على طريقة أنطونيوس كايوس، وهو مالك ليس كبير السطوة أو الأهمية ومواطن فى الجمهورية، ولك أن تقول فى هذا ما شئت، لكن الحياة الرومانية كانت انعكاساً لأصلح الناس وأقدرهم على الحكم.

وقال كراسوس:

- لم أعتد مطلقًا أن تلبسنى النساء ثيابى وتعنى بى، فهل تحب أنت ذلك ؟

فأجاب كايوس قائلاً:

- لم أعن بالتفكير فى ذلك من قبل.

ولم يكن صادقًا كل الصدق فيما قال، فمما لا شك فيه أن بعض الدوائر لم تكن تنظر بعين الارتياح إلى دخول الإماء إلى الحمام للعناية بالمستحمين إلا أن النظرة إلى العبيد كانت قد تغيرت إلى حد ما خلال السنوات الخمس أو الست الأخيرة، وكان كايوس، مثل الكثير من أصدقائه، قد انتزع منهم أكثر عناصر الإنسانية.

وكان فى ذلك إعادة تقييم حقيقى للعبيد، لذلك لم يكن فى تلك اللحظة يعرف حقيقة شكل النسوة الثلاث اللاتى كن يعنين به، ولو أنه سئل فى ذلك فجأة لما استطاع أن يصفهن غير أن سؤال القائد حمله على التطلع إليهن. كن من إحدى القبائل الإسبانية

أو من جهة ما فى إسبانيا، وصغيرات السن، وحجمهن دقيق. لسن بالقبيحات فى سلوكهن الصامت الحزين، ولكن حفاة يرتدين قمصانًا قصيرة بسيطة، وكانت ثيابهن مبللة من بخار الحمام وبالعرق الناتج مما بذلن من جهد.

ومشى إلى منضدة التدليك ورقد فوقها، ولحق به كراسوس بعد لحظات وقال:

– كان سبارتاكوس لغزًا لى كما هو لغز لك، فأنا لم أره مطلقًا رغم كل ما أذاقنى من عناء.

– ألم تره على الإطلاق؟

– على الإطلاق. لكن ذلك لا يعنى أننى لم أعرفه. لقد رسمته لنفسى جزءًا جزءًا فأنا أحب ذلك. ومن الناس من يرسمون صورًا ويؤلفون قطعًا موسيقية أما أنا فقد رسمت صورة لسبارتاكوس.

وسأله كايوس:

– كيف كان شكله، أعنى فى صورتك له؟

فقطب كراسوس وقال:

– إنى كثيرًا ما أسائل نفسى عن الصورة التى كان يتخيلها لى فى ذهنه. لقد نادانى فى نهاية المعركة أو هكذا يقولون. فلست أقسم أننى سمعته، لكنهم يقولون إنه صاح يقول: «كراسوس انتظرنى أيها المغفل.. أو شيئًا من هذا القبيل». لم يكن ليبعد عنى أكثر من أربعين أو خمسين ياردة، وبدأ يشق طريقه قادمًا إلىَّ وكان أمره عجيبًا فهو لم يكن بالرجل الكبير الحجم ولم يكن كثير القوة كذلك، لكنه كانت له غضبة. هذه هى الكلمة على وجه الدقة، فعندما كان يقاتل بيديه العاريتين، كان كأنه غضبة أو ثورة. وشق لنفسه بالفعل طريقًا حتى منتصف المسافة بينى وبينه. ولا بد من أنه صرع عشرة رجال أو أحد عشر رجلاً على الأقل فى هجمته الوحشية الأخيرة ولم نستطع وقفه إلا بعد أن مزقناه إربًا.

فسأله كايوس قائلاً:

- إذن فصحيح ما يقال من أن جسمه لم يوجد؟

- صحيح لأنهم مزقوه تمزيقًا. ولم نجد شيئًا متبقيًا من جسده. أفتعرف ما هى ساحة القتال؟ إنها دم ولحم. ومن العسير أن تقرر لحم من هذا أو دم من ذاك. وهكذا عاد من حيث أتي، فقد جاء من لا شيء وأصبح لا شيء. خرج من المجتلد وعاد إلى حانوت القصاب. فنحن نعيش على السيف ونموت بالسيف. وهكذا كان سبارتاكوس.. وأنا أحبيه!

وأعاد ما قاله القائد إلى ذاكرة كايوس حديثهم مع تاجر السجق، وأوشك أن يسأله فى ذلك إلا أنه أعاد التفكير ثم سأل سؤالاً آخر:

- ألا تكرهه؟

- ولم أكرهه؟ لقد كان جنديا ممتازًا وعبدًا قذرًا لعينا، وأى شيء أكرهه فيه؟ فهو ميت وأنا حى.

ثم قال:

- أنا أحب الترف.

ومضى يقول كأنه قد قرر فيما بينه وبين نفسه أن حديثه لا يمت إلى الأمة بصلة، وأنه فوق مستوى إدراكها.

- لكن خبرتى بالنساء محدودة. وقد لا تتصور أنت ذلك، لأن جيلكم ينظر إلى الأشياء نظرة مختلفة عن هذا النظرة، ولست أعنى الساقطات، إنما أقصد اللطيفات الرقيقات مثل هذا المرأة. فإلى أى حد يذهب معها الإنسان يا كايوس؟

ولم يفهم الشاب لأول وهلة ما يتحدث عنه الرجل فتطلع إليه فى دهشة ليجد عنق كراسوس قد انتفخت عضلاته، فاضطرب كايوس وفزع بعض الشيء وأراد أن يغادر الغرفة مسرعًا، إلا أنه لم يجد وسيلة مؤدبة للخروج ووجد أن تصوره لما سيحدث

أقوى من اهتمامه بالبقاء ليراه وهو يحدث .

وقال كايوس :

– فى وسعك أن تطلب إليها .

– أطلب إليها؟ وهل تظن أنها تتكلم اللاتينية؟

– كلهن يتكلمنها قليلاً.

– أتقصد أن أطرق الموضوع رأسيا؟

فتمتم كايوس يقول :

– ولم لا ؟

واستدار ينام على وجهه وأغمض عينيه.

بينما كان كايوس وكراسوس في الحمام، وبينما كانت الشمس فى ساعتها الأخيرة ترسل الوهج الذهبى على الحقول وحديقة بيت سالاريا الريفى، خرج أنطونيوس كايوس يتمشى مع صديقة قريبته فى الحديقة متجهين إلى مضمار الجياد. ولم يكن أنطونيوس كايوس ينغمس فى مظاهر الأبهة كإقامة مضمار سباق خاص بخيوله أو إنشاء ساحة خاصة للمجالدين، فقد كانت له نظريته الخاصة به، وهى أنه إذا أراد المرء أن يحافظ على ثروته فعليه أن يتعقل فى إظهارها، بخاصة وأنه لم يكن لينقصه الضمان الاجتماعى وهو النبالة التى كان افتقادها يقتضى المبالغة فى الأبهة كما كانت الحال مع الطبقة الاجتماعية الجديدة من رجال الأعمال التى كانت تنشأ فى الجمهورية حين ذاك. ومع ذلك فقد كان أنطونيوس كايوس شبيها بأصدقائه فى ولعه بالجياد، يدفع المبالغ الخيالية من المال ثمنًا لجواد أصيل، ويجد متعة كبيرة فى إسطبلاته، وكان ثمن الجواد الأصيل يوم ذاك خمسة أضعاف ثمن العبد القوى على الأقل، إلا أن الرأى السائد أن الإنسان يحتاج أحيانًا إلى خمسة من العبيد ليحسن تربية جواد واحد.

وكان المضمار مسورًا يدور حول مرج عريض. وكانت الإسطبلات وحظائر الجياد مقامة فى طرف بعيد، وعلى مقربة منها أقيم مدرج حجرى مريح يسع نحو خمسين شخصًا ويشرف على المضمار وعلى حظيرة كبيرة.

وتناهى إليهما وهما يقتربان من الحظائر صوت مهر يصهل صهيلا حادا فيه إصرار وغضب جديدان على أذنى كلوديا ومثيران إلا أنهما مخيفان.

وسألت كلوديا أنطونيوس كايوس قائلة:

– ما هذا ؟

– مـهر لقـاح ثائر اشتـريتـه منذ أسـبـوعين لا أكثـر. إنه من أصل تراقى عظامـه عريضة ومتوحش إلا أنه جميل. أترغبين فى مشاهدته؟

فقالت كلوديا:

– أنا أحب الجياد، فدعنى أشاهده من فضلك.

وسـارا إلى الحظائر، وأمـر أنطونيـوس كبيـر السيـاس، وكان عبداً ضـئيل الحـجم ذابلاً ضـامـراً، أنْ ينقله إلى حظيـرة العـرض الـواسـعـة، ثم انتـقـلا إلى المدرج حـيث جلسـا وسـط مـجمـوعـة من الوسـائد أعدهـا عـبد لهمـا. ولم يفت كلوديا أن تـلحـظ براعة الخـدم الذين يقـومـون على خـدمـة أنطـونيـوس كـايوس ومـدى اجـتـهـادهـم وكـيف كـانوا يتوقعون كل رغبة وكل نظرة منه، وهى التى نشـأت بين العبيد وتعرف مـاهية المصاعب التى يلاقها المرء فى التعامل معهم. فلما أبدت له ملاحظتها هذه قال :

– أنا لا أسـتـعمل السـوط مع عـبيـدى فإذا حدثت منهم متـاعب قتلت واحداً منهم، وهذا يعلمهم الدقة فى الطاعة، ولكنه لا يحطم روحهم المعنوية.

فهزت كلوديا رأسـها موافقة وقالت :

– أعتقد أن روحهم المعنوية قوية.

– ليس من اليسير ترويض العبيد أو الخيول، غير أن ترويض الرجال أسهل.

وكان العبيد قد أخرجوا مهر اللقاح إلى الحظيرة وكان جواداً أصفر اللون، ضـخم الجثة، عيناه حمراوان كالدمـاء، ويغطى فمه الزبد وكان مـربوط الرأس إلا أن العـبدين المتعلقين بلجامـه عـجزاً عن منعه من الوقـوف على قـائمـتيه الخلفـيتين وضـرب الهواء بقدميه.

وبلغ من قوته أن جر العـبدين إلى منتصف الحظيرة، فلما أطلقـاه وجريا لينجوا بنفسـهمـا منه وقف على قـائمـتيه الخلفـيتين وراح يضـرب الهواء بحـافريه فى اتجاههمـا.

وضحكت كلوديا وصفقت بيدها فى سرور وصاحت .

– إنه رائع .. رائع، ولكن لماذا هو هكذا ملىء بالكراهية إلى هذا الحد ؟

– ألا تعرفين؟

– كنت أظن أنه يجب أن يمتلئ بالحب لا الكراهية.

– الاثنان يمتزجان، فهو يكرهنا لأننا نحول بينه وبين ما يريد. أترغبين فى المشاهدة؟

فأومأت كلوديا برأسها دليلاً على الموافقة، وألقى أنطونيوس بضع كلمات إلى العبد الواقف على مقربة منهما، فجرى الرجل إلى الحظائر، وخرجت فرس بنية اللون، عصبية، وجرت هاربة فى الحظيرة، إلا أن المهر دار حول نفسه ليقطع عليها الطريق.

خرج كايوس إلى الشرفة المغطاة بالنباتات ليحتسى قدحًا من النبيذ حتى يحين موعد العشاء.

وكان قد فرغ من حمامه وحلق لحيته وتعطر وصفف شعره المضمخ قليلاً بالزيت تصفيفًا جميلاً، وارتدى ثيابًا نظيفة تأهبًا للعشاء، وكانت الشرفة فى بيت سالاريا الريفى مشيدة من الآجر الفينيقى الأحمر، يغطيها سقف من الزجاج الأصفر الملون بألوان رقيقة، فأحال الوهج الرقيق للشمس الغاربة فى هذاالوقت من النهار نبات السرخس الداكن اللون والنباتات الاستوائية ذات الأوراق العريضة - إلى جنة خيالية.

وكانت جوليا هناك عندما دخل كايوس، تجلس فوق أريكة من المرمر وعلى جانبيها جلست ابنتاها وضوء الشمس الغاربة ينسكب عليهن فى رقة وحنو. وكانت فى جلستها هذه، فى ردائها الأبيض الطويل، وقد صففت شعرها الأسود فوق رأسها فى ذوق جميل، وذراعاها تحيطان بابنتيها، كانت صورة صادقة للأم الرومانية، جميلة هادئة وقورة. ولو لم تكن فى جلستها شبيهة بالأطفال، لكن من الطبيعى أن تذكر كايوس بكل ما شاهده من صور لأم ابنى جراكس[١] وخنق كايوس الدافع الذى هتف به أن يصيح قائلاً: مرحى يا جوليا، فقد كان كفيلاً بأن يحطمها، لأن تظاهرها بما ليس فيها كان مثيرًا للشفقة دائمًا ولا عداء فيه.

وابتسمت ابتسامة رقيقة جمعت بين الدهشة القوية والسرور الحقيقى، وقالت:

(١) يقصد تيبريوس وكايوس جراكس المصلحين اللذين قتلهما الرومان بعد أن أخفقا فى هدفهما (المترجم).

- أسعدت مساء يا كايوس

فاعتذر لها وقال :

- لم أكن أعلم أنى سأجدك هنا يا جوليا.

- لكن .. أرجوك أن تبقى. أجلس لأصب لك قدحًا من النبيذ.

فقال موافقًا:

- فليكن.

إلا أنه احتج عندما حاولت أن تخرج الفتاتين، وقال:

- فلتبقيا إذا كانتا تريدان البقاء.

- الواقع أنه قد حان موعد عشائهما.

وبعد أن انصرفت الفتاتان قالت جوليا:

- تعـال. اجلس بجـانبى يا كايوس.. أستحلفك. اجلس بجانبى يا كايوس.

فجلست وصبت هى النبيذ لكل منهما. ومست قدحه بقدحها.

- ١١ -

أظهر العشاء فى فيلا سالاريا، كما أظهرت أمور أخرى مما جرى فى البيت، شيئًا من الإحجام عن الأخذ بالتغييرات التى عمت الحياة فى روما. فأما أنطونيوس كايوس فقد كان منشأ هذا الإحجام عنده رغبة فى الانفصال عن الطبقة الجديدة الصاعدة من التجار الأغنياء الذين أثروا عن طريق الحرب والقرصنة والتعدين والتجارة، والذين أخذوا فى لهفة عن اليونان والمصريين كل مستحدث جديد، أكثر مما كان محافظة متأصلة فيه وتعلقا بالقديم. ولم يكن أنطونيوس كايوس بمستطيع، فيما يختص بتناول الطعام أن يستمتع بوجبة يتناولها وهو ممدد فوق أريكة فقد كان ذلك يفسد هضمه ويصرفه عن تذوق الطعام إلى العناية بتوافه الفخفخة التى أخذت تصبح طراز تلك الأيام.

ولهذا جلس ضيوفه إلى المائدة يتناولون الطعام المبسوط فوقها، وراح هو يقدم لهم لحوم الدواجن والمشويات الرائعة والفطائر الرقيقة وخير ألوان الحساء وأشهى الفواكه، بينما خلت المائدة من ألوان الطعام الغريبة التى كانت تحفل بها موائد الكثير من النبلاء الرومانيين، كما أنه لم يكن ليحبذ وجود الموسيقى والرقص فى أثناء تناول الطعام، بل كل ما كان يرغب فيه هو الطعام الجيد والنبيذ المعتق والحديث الممتع. وكان أبوه وجده يجيدان القراءة والكتابة، وكان هو يرى أنه رجل متعلم. وبينما كان جده يعمل بيديه فى حقول المزرعة جنبًا إلى جنب مع عبيده، كان أنطونيوس كايوس يدير مزرعته الضخمة كما يدير أحد أمراء الشرق إمبراطوريته الصغيرة. لكنه مع ذلك كان مولعًا بأن يظن نفسه حاكما مستنيراً واسع العلم بتاريخ اليونان وفلسفتهم ومسرحهم، قادراً على مزاولة قدر من الطب، وله دوره فى الحياة السياسية كذلك، وكان ضيوفه ينعكس عليهم هذا الذوق إلى حد أن كايوس كان يرى فيهم وفى مضيفه وهم

قابعون فى مقاعدهم بعد الطعام يرشفون النبيذ وبعد أن انسحبت النساء إلى الشرفة المغطاة بالنباتات، صفوة الذين صنعوا روما وحكموها بقوتهم وكفايتهم.

وكان تسليم كايوس بهذه الحقيقة أكثر من إعجابه بها، لأنه لم يكن له هو نفسه مطامح فى هذا الميدان. وكان هو فى رأيهم عديم القيمة، غير ذى أهمية خاصة.. فهو شاب متلاف، من أسرة طيبة، تنحصر موهبته الحقيقية فى الطعام والفسق. وهو اتجاه جديد من بعض النواحى وثمرة للجيل أو الجيلين الأخيرين لا أكثر. لكنه مع ذلك كانت له بعض الأهمية فقد كان ذا صلات عائلية يحسد عليها، كما أنه سيصبح واسع الثراء بعد موت أبيه. ومن الممكن أن تحيله إحدى دورات الحظ إنسانًا له أهميته السياسية، ولهذا كان يحظى بمعاملة وتسامح أفضل مما يعامل به المرء فتى مختالاً معطرًا جميل الوجه، مصفف الشعر عديم العقل .

وكان كايوس يخافهم، ففيهم مرض وإن لم يكن يبدو أنه قد أضعفهم، فها هم أولاء يجلسون بعد أن فرغوا من طعامهم الشهى يرشفون نبيذهم، المعتق، بينما يموت الذين تحدوا سلطانهم فوق صلبان تمتد أميالاً وأميالاً على طول الطريق الأبيوسى، فسبارتاكوس أصبح لحمًا. مجرد لحم، كاللحم فوق منضدة التقطيع فى حانوت القصاب، بل إنهم لم يجدوا من لحمة ما يكفى للصلب، هذا بينما لا يجرؤ إنسان على صلب أنطونيوس كايوس الجالس فى هدوء واعتداد على رأس المائدة يتحدث فى الخيول ويؤيد بالمنطق القوى رأيه القائل بأن من الأفضل ربط عبدين إلى المحراث بدلاً من ربط حصان واحد، لأنه لا يوجد الحصان الذى يتحمل المعاملة نصف الإنسانية التى يلقاها العبيد.

وكان شيشرون ينصت وعلى شفتيه ابتسامة واهنة. ويزعج كايوس أكثر من غيره من الحاضرين: كيف يمكن للإنسان أن يحب شيشرون؟ وهل يريد هو أن يحب شيشرون؟ وألقى إليه شيشرون مرة بنظرة سريعة كأنه يقول له :«أنا أفهمك يا فتى من قمة رأسك إلى أخمص قدميك، من الظاهر والباطن، من الداخل والخارج» وتساءل كايوس : هل يخشى الآخرون شيشرون كما يخشاه هو؟ وقال يحدث نفسه : «ابتعد عن

شيشرون، ليبعث به الله إلى الجحيم»، وكان كراسوس ينصت فى اهتمام مؤدب، وكان على كراسوس أن يكون مؤدبا، فقد كان صورة ومثالا للرجل العسكرى الرومانى، منتصب القامة، مربع الوجه، صارمه، صلب المعارف، برنزى البشرة، ناعم الشعر أسوده.

ثم تذكر كايوس ما دار فى الحمام وجفل.. وكيف يستطيع ذلك؟

لقد كان يجلس على الجانب الآخر من المائدة – أمام كايوس – جراكوس السياسى الضخم الجثة، ذو الصوت العميق الأجوف، يغرق رأسه فى تلافيف عنقه السمين، ويحلى أصابع يديه السمينتين المنتفختين بالخواتم. وتجاوب كايوس مع إجابات السياسى المحترف القائمة على قواعد وأسس. كانت ضحكته ضخمة، وموافقته فيها عظمة، بينما كان عدم موافقته مقرونا بشروط على الدوام. وكانت تصريحاته طنانة رنانة لا تدل قط على البلاهة.

وقال شيشرون بعد أن أعرب جراكوس عن عدم تصديقه معلقا:

– إن استخدام العبيد فى المحراث أفضل لك بطبيعة الحال. فالحيوان الذى يستطيع التفكير مرغوب فيه أكثر من الحيوان الذى لا يستطيع التفكير. هذا منطقى ومعقول، هذا إلى أن للحصان قيمته، لأنه لا توجد قبائل من الخيول نستطيع أن نشن عليها الحرب ونعود بمائة وخمسين ألفًا منها لتباع فى المزاد. وأنت إذا استخدمت الخيول أهلكها العبيد.

فقال جراكوس:

– أنا لا أرى هذا الرأى .

– سل مضيفك.

فأحنى أنطونيوس رأسه موافقًا وقال :

— هذا صحيح، وسيقتل العبيد الحصان لأنهم لا يحترمون شيئًا يملكه سيدهم، عدا أنفسهم.

وصب لنفسه قدحًا من النبيذ ثم قال:

– هل سنمضى فى الحديث عن العبيد؟

فقال شيشرون مفكرًا:

– ولم لا ؟ فهم معنا على الدوام. ونحن الثمرة الفريدة للعبيد والعبودية، وهذا ما يجعلنا رومانيين إذا تحريت الحقيقة، فمضيفنا يعيش من نتاج هذه المزرعة العظيمة – التى أغبطه عليها – بفضل ألف من العبيد. وقد أصبح كراسوس حديث روما نتيجة قمعه لثورة العبيد. ولجراكوس دخل من سوق العبيد الذى يقيمه فى حى يملكه بأسره ولا أستطيع الإقدام على عدهم وحصرهم. وهذا الفتى ..

وأومأ إلى كايوس برأسه وهو يبتسم.

– وهذا الفتى هو – كما أخشى – ثمرة فريدة للعبيد أكثر منا قليلاً لأنى على ثقة من أنهم مرضوه وأطعموه وعرضوه للهواء وطببوه.

فاحمر وجه كايوس إلا أن جراكوس انفجر ضاحكًا وهو يقول:

– وأنت يا شيشرون؟

– أما أنا فهم مشكلة من مشاكلى، فالحياة المحترمة فى روما هذه الأيام تحتاج إلى عشرة من العبيد على أقل تقدير. وأما شراؤهم وإطعامهم وإسكانهم – فهنا تكمن مشكلتى .

واستمر جراكوس يضحك، إلا أن كراسوس قال :

– أنا لا أستطيع أن أوافقك يا شيشرون على أن العبيد هم ما يجعلنا رومانيين.

واستمر ضحك جراكوس المدوى، واحتسى جرعة طويلة من النبيذ. ثم راح يروى قصة أمة اشتراها من السوق منذ شهر مضى وكان متوتر العضلات بعض الشىء، محمر الوجه وهو يضحك والضحكات تهز كرشه الضخم وتقطع كلماته.. وأخذ يصف

ويسهب فى وصف الأمة التى اشتراها. ورأى كايوس القصة خالية من المعنى وسوقية. إلا أن أنطونيوس كان يهز رأسه هزة الرجل الحكيم واستولت سوقية وصف الرجل السمين على كراسوس بينما راح شيشرون يبتسم ابتسامة واهنة وهو يفكر فى أثناء رواية القصة.

ثم قال كراسوس فى إصرار:

– ومع ذلك أعود إلى قول شيشرون.

فسأله شيشرون:

– هل أسأت إليك؟

فقال أنطونيوس :

– لا يمكن أن يساء إلى إنسان هنا فنحن جماعة مهذبة.

فقال كراسوس:

– لا .. لا إساءة مطلقًا إنما أنت تحيرنى.

فهز شيشرون رأسه وقال:

– الغريب أنه مع وجود دليل الشىء فى كل مكان حولنا، فنحن نصر على مقاومة المنطق فى العناصر المؤلفة للشىء، أما اليونانيون فمختلفون عنا، فللمنطق عندهم سحر لا يقاوم بغض النظر عن نتائجه. أما نحن ففضيلتنا هى المكابرة، ولكن تطلع فيما حولنا.

وكان أحد العبيد من القائمين بالخدمة فى أثناء الطعام يستبدل بالقنينات الفارغة أخرى مليئة، بينما كان عبد آخر يقدم الفاكهة واللوز للرجال.

– ما جوهر حياتنا؟ لسنا مجرد شعب من الشعوب إنما نحن الشعب الرومانى. وكل الذى جعلنا كذلك أننا أول عن أدرك فائدة العبد إدراكا كاملاً.

فاعترض أنطونيوس قائلا:

- لكن العبيد قد وجدوا قبل أن توجد روما.

- نعم، كانوا موجودين حقا... قليل منهم هنا وقليل هناك . وصحيح أنه كانت لليونان مزارع وكذلك كان لقرطاجنة، لكنا حطمنا اليونان وحطمنا قرطاجنة لنفسح ماكنًا لمزارعنا. والمزرعة والعبد شيء واحد. وإذا كان لغيرنا من الناس عبد واحد فإن للواحد منا عشرين عبداً. ونحن نعيش الآن في أرض العبيد، وأعظم ما وصلنا إليه هو سبارتاكوس. ما رأيك في هذا يا كراسوس؟ لقد كنت تعرف سبارتاكوس معرفة وثيقة، فهل كان في وسع أى شعب آخر غير روما أن ينجب مثله؟

فقال كراسوس فى تفكير:

وهل أنجبنا نحن سبارتاكوس؟

وبدا الاضطراب على القائد واستنتج كايوس أن إمعان التفكير فى أى ظرف من الظروف عملية متعبة بالنسبة له، بخاصة إذا واجهته عقلية مثل عقلية شيشرون. والحق أنه لم يكن هناك مجال لالتقاء الاثنين فعلا، ثم أضاف يقول :

- أعتقد أن الجحيم هو الذى أنجب سبارتاكوس.

- لا أكاد أرى هذا.

قالها جراكوس لشيشرون واستراح فى مقعده فى هدوء كأنه يعتذر عن أنه ليس فيلسوفًا عميقًا لأنه رومانى صالح، وعلى أية حال فها هى ذى روما وهؤلاء هم العبيد، فماذا يقترح شيشرون عمله بصدد هذا الموقف؟

فأجاب شيشرون قائلاً:

- نفهمه.

فسأل أنطونيوس كايوس قائلاً:

– ولم ؟

لأنهم إن لم نفعل حطمونا.

فضحك كراسوس والتقت عيناه بعينى كايوس وهو يضحك.

وكانت هذه النظرة أول تفاهم حقيقى بينهما، فأحس الفتى برعدة من التهيج تجرى فى عموده الفقرى. وكان كراسوس يغرق فى الشراب فلما أحس كايوس بما أحس به فارقته رغبته فى الخمر.

وسأله كراسوس :

– هل جئت من هذا الطريق؟

فهز شيشرون رأسه دلالة على النفى، وليس من اليسير إطلاقًا إقناع رجل عسكرى بأن الأمور لا تحل كلها بالسيف ثم قال :

– ولست أقصد بقولى هذا منطق حانوت القصاب البسيط. إليك مثلاً هذه المسألة الحسابية: كان يعيش على أرض مضيفنا الطيب فى يوم من الأيام ثلاثة آلاف أسرة من الفلاحين على الأقل.

فإذا قلنا إن الأسرة تتكون من خمسة أفراد فذلك معناه خمسة عشر ألف شخص، وكان هؤلاء الفلاحون جنوداً مهرة ملاعين وما رأيك فى ذلك يا كراسوس؟

– لقد كانوا جنوداً طيبين، وإنى لأتمنى وجود المزيد منهم حولنا. وتابع شيشرون حديثه قائلاً:

– وكانوا فلاحين صالحين، لا للعمل فى المروج والحدائق الرسمية بل لزراعة الشعير – الشعير نفسه – الذى يطؤه الجندى الرومانى الآن بقدميه. أيوجد فى أرضك يا أنطونيوس فدان ينتج من الشعير نصف ما اعتاد الفلاح المجتهد أن ينتزعه منه؟

فوافق أنطونيوس كايوس وقال :

- ولا ربع ما كان ينتجه.

وكان الموقف كله قد أصبح بالنسبة لكايوس ثقيلاً مملاً إلى حد كبير، ذلك أنه كان قد أطلق العنان لخيالاته الداخلية، فأحس بوجهه يتوهج حرارة واحمرارا، وكانت صورة تعتمل فى جسده وتصور أن الجندى يحس بهذا الإحساس نفسه وهو مقبل على المعركة. وقلما استمع إلى شيشرون بعد هذا، وظل يختلس النظر إلى كراسوس وهو يسائل نفسه عن السر فى إصرار شيشرون على الحديث فى هذا الموضوع الممل.

كان شيشرون يسأل قائلا:

- لماذا؟. لماذا لا يستطيع عبيدك الإنتاج ؟ إن الجواب على هذا السؤال غاية فى السهولة.

فقال أنطونيوس فى صراحة :

- لأنهم لا يريدون ذلك. ولماذا يريدونه ؟ فأنت إذا كنت تعمل فى خدمة سيد ما يصبح همك الوحيد أن تفسد عملك، فلا فائدة من سن المحاريث لأنهم سيثلمون أطرافها على الفور. إنهم يحطمون المناجل ويكسرون المضارب ويصبح الإتلاف مبدأهم.

هذا هو الغول الذى خلقناه لأنفسهنا. فهنا، فى يوم من الأيام، عاش خمس آلاف نسمة على عشرة آلاف فدان. أما اليوم، فلا يعيش عليها إلا ألف عبد وأسرة أنطونيوس فى كايوس، بينما تعج أزقة روما وأحياؤها الفقيرة بالفلاحين. يجب أن نفهم هذا .

لقد كان من اليسير علينا أن نعطى الفلاح بعد أن عاد من الحرب فوجد أرضه مغطاه بالأعشاب وزوجته أسلمت نفسها لرجل غيره، وأطفاله لا يعرفونه، كان من اليسير علينا أن نعطيه حفنة من الفضة ثمنًا لأرضه يذهب إلى روما ليعيش فى الطرقات. لكن نتيجة هذا أن أصبحنا اليوم نعيش فى أرض العبد، وهذا هو معنى

حيـاتنا وأساسـها. أما مسألة حريتنا ومسألة الحرية الإنسانية، والجمهورية، ومستقبل الحضارة فسيحددها موقفنا من هؤلاء العبيد، فهم ليسوا مخلوقات بشرية.

وعلينا أن نفهم هذا وأن نتخلص من هذا الهراء العاطفى الكاذب الذى يتحدث به اليونانيـون عن المسـاواة بين كل من يمشى ويتكلم. إن العبد هو الآلة الناطقة. وهناك سـتة آلاف من هذه الآلات مـصطفين على جانبى الطريق يمهدون طريقًا، وليس هذا إسرافًا بل هو ضرورة.

لقد زهدت حتى الموت فى الحديث عن سبارتاكوس وعن شجاعته، أجل - وعن نبله. ذلك أنه لا شجاعة ولا نبل فى كلب خسيس ينهش فى كعوب سيده.

ولم ينقشع عدم اكتراث شيشرون بل استحال على العكس غضبًا قاتما فيه نفس البرودة، إلا أنه كان غضبًا جمد سامعيه وجعله سيدًا مسطيرًا عليهم فظلوا يحدقون فيه وهم نصف مسحورين ونصف خائفين.

وكان العبيد وحدهم هم الذين يتحركون حول المائدة يقدمون لهم الفاكهة واللوز واللحوم المسكرة ويعيدون ملء أقداح النبيذ الفارغة، وهم الذين لم يكن لغضبه أى صدى فيهم. ولاحظ كايوس ذلك لأنه كان قد استحال وقتئذ إلى كتلة من الحواس المتيقظة وتبدل العالم بالنسبة له وأصبح مخلوقًا كله هياج وأصداء، ولاحظ كيف ظلت وجوه العبيد على حالها لم تتغير، وكيف ظلت التعبيرات فوقها جامدة لا تنطق، وكيف استمرت حركاتهم، متراخية كما هى. وكان حقا إذن ما قاله شيشرون عنهم هو أن قدرتهم على المشى والكلام لا تكفى لأن تجعل منهم مخلوقات بشرية، ولم يدر السر فى الراحة أدخلها ذلك على نفسه، لكنه استراح فعلا.

واستأذن كايوس وتركهم فى شرابهم وحديثهم، ذلك أن معدته قد بدأت وقتئذ تتقلص، وأحس أنه سيجن إذا اضطر إلى الجلوس والاستماع إلى المزيد من هذا الحديث، فاستأذن معتذراً بتعبه نتيجة الرحلة إلا أنه شعر بعد مبارحته غرفة الطعام بأنه فى مسيس الحاجة إلى استنشاق الهواء الطلق، فخرج من الباب الخلفى إلى الشرفة التى تمتد خلف المنزل وكلها من الرخام الأبيض عدا وسطها حيث توجد «فسقية» ماء.

وفى وسط الفسقية تنهض حوراء خارجة من طائفة من ثعابين البحر تحمل صدفة حلزونية يتساقط منها الماء متراقصاً براقًا فى نور القمر.

وتناثرت هنا وهناك فى الشرفة أرائك من الرخام والحجر البركانى الأخضر تحيط بها أشجار السرو المزروعة فى أصص ضخمة من البازلت الأسود فتكسبها لونًا من العزلة.

وكان يحيط بالشرفة الممتدة بعرض المنزل الضخم والداخلة فى الحديقة نحو خمسين قدماً سور من الرخام يحيط بها من كل جانب عدا الوسط حيث تنزل درجات رخامية بيضاء عريضة إلى الحدائق التى لم تكن تنسق دائمًا كغيرها من بقية المنزل.

ولم يكن مستغرباً من أنطونيوس كايوس أن يخفى هذا المظهر الفخم من مظاهر ثروته خلف المنزل. وكان كايوس معتاداً على الإسراف فى استعمال الأحجار والتماثيل الحجرية، فلم يعن بإطالة النظر إلى تفاصيل المكان. ولعل شيشرون كان يكتشف عبقرية شعب ممثلة فى استعمال الحجر والغرور الذى يحاول أن يجعل من الزخارف العارضة شيئًا خالداً.. لكن هذه الفكرة لم تكن لتخطر ببال كايوس .

ولم يكن ليشغل ذهن كايوس حتى فى الظروف العادية إلا قلة من الأفكار لا ينقلها عن غيره، وكانت هذه الأفكار تدور عادة حول الطعام أو الجنس ، ولم يكن ذلك نتيجة لافتقار كايوس إلى الخيال أو لغبائه بل يرجع إلى أن دوره فى الحياة لم يحتج يومًا إلى الخيال أو الفكرة الأصلية، وكانت المشكلة الوحيدة التى تواجهه الساعة هى فهم معنى النظرة السريعة التى نظرها إليه كراسوس قبل مغادرته غرفة الطعام فهمًا كاملاً .. فى هذا كان يفكر وهو يمد بصره إلى المنحدرات السندسية التى يضيئها نور القمر عندما أزعجه صوت يسأل:

– كايوس ؟

وكانت جوليا آخر من يرغب فى الأنفراد به من الآدميين فوق الشرفة.

– أنا سعيدة بخروجى إلى هنا يا كايوس.

فهز كتفيه دون أن يجيب، فمشت إليه ووضعت يديها فوق ذراعيه وتطلعت إلى وجهه وقالت:

– كن لطيفًا معى يا كايوس.

فتساءل فى نفسه قائلاً: لم لا تكف عن العواء والتمسح.

ومضت هى تقول:

– إن ما تعطى قليل، ولا يكلفك إلا القليل يا كايوس. بينما يكلفنى طلبه الكثير.. ألا تقدر ذلك؟

فقال :

– أنا شديد التعب يا جوليا وأريد أن أنام...

فهمست ..

– أعتقد أننى أستحق ذلك منك.

– أرجو ألا تنظرى إلى الموضوع من هذه الناحية يا جوليا.

– وكيف أنظر إليه؟

– كل ما فى الأمر أنى متعب.

– ليس هذا كل ما فى الأمر يا كايوس، فأنا حين أنظر إليك وأفكر فيما تكونه أكره نفسى، لأنك شديد الانحلال.

فلم يقاطعها وتركها تقول كل ما تريد فسيعجل ذلك بخلاصه منها وراحت هى تقول:

– لا. أعتقد أنك لست أكثر انحلالاً ممن عداك. كل ما فى الأمر أننى أظهر ذلك العفن الذى فيك، فكلنا – معشر الرومان – منحلون، وكلنا مرضى موبوءون مليئون بالموت .. حقائب موت – نحن نعشق الموت . ألست كذلك يا كايوس؟ أو ليس هذا هو سبب مجيئك على طول الطريق حيث يمكنك مشاهدة رموز العقاب؟ العقاب! لقد فعلنا ذلك لأننا نعشقه وأنت تعمل من الأشياء الطريفة بنفس الطريقة التى نعمل بها، لأنك تحبها. أتدرى كم أنت جميل هنا تحت ضوء القمر؟ الرومانى الشاب، صفوة العالم بأسره فى روعة الجمال والشباب – ولا وقت لديك تمنحه لامرأة عجوز، فأنا رومانية منحلة مثلك يا كايوس لكنى أكرهك كرهاً لا يقل فى شدته عن حبى لك. وأتمنى لو أنك كنت ميتاً. أتمنى أن يقتلك إنسان وينتزع منك قلبك الصغير التعس. ورانت عليهما لحظة صمت طويلة ثم سألها كايوس فى هدوء :

– أهذا كل ما عندك يا جوليا؟

– لا – ليس هو كل ما لدى. فأنا أيضاً أتمنى الموت لنفسى.

فقال كايوس :

– هاتان رغبتان من الممكن تحقيقهما.

– أيها الحقير.

فقال كايوس في حدة:

– سعدت مساء يا جوليا.

وغادر الشرفة، وكان عزمه – على ألا يثيره حديثها– قد تحطم، فقد أثاره الانفجار المجرد من العقل من جانب زوجة خاله التى هى فى حكم عمته. ولو أنها كان لديها أى إحساس بالفارق بينها وبينه لشعرت بأنها تجعل من نفسها سخرية بهذا العواء العاطفى الرخيص. لكن جوليا لم تحس يومًا بهذا اللون من الإحساس، فلا عجب أن وجدها زوجها أنطونيوس امرأة متعبة.

وذهب كايوس من فوره إلى غرفته حيث كان المصباح مضاء وفي خدمته اثنان من العبيد، كان أنطونيوس يفضلهما للخدمة فى البيت. فصرفهما كايوس وخلع ملابسه وجسده المتورد يرتعد وراح يدلك جسمه كله بعطر رقيق ووضع بعض المساحيق على أجزاء من جسده ثم ارتدى رداء من الكتان وأطفأ المصباح وتمدد فى مرقده، واستطاع أن يرى فى وضوح، بعد ما اعتادت عيناه الظلمة، لأن شعاعا عريضاً من ضوء القمر كان يدخل من النافذة المفتوحة، وكانت الغرفة عليلة الهواء جميلة يعطرها أريج العطر وأعشاب الربيع النامية فى الحديقة.

ولم تنقض أكثر من دقائق قليلة على كايوس وهو يرقد منتظراً، إلا أنه خالها ساعات طويلة.. ثم جاءت طرقة خفيفة خافتة على الباب فقال كايوس:

– ادخل.

فدخل كراسوس وأغلق الباب من ورائه ولم يظهر القائد العظيم بمثل هذه الفحولة والرجولة كما بدا حينذاك وهو يقف مبتسما للفتى الراقد فى فراشه.

كان شعاع القمر قد غير مكانه وكان كايوس متعباً يحس الاكتفاء، مجهداً كقطة تتمطى، وكانت هذه هى الصورة التى صورها لنفسه بنفسه وهو ي قول بلا مناسبة:

– أنا أكره شيشرون.

وكان كراسوس سعيداً يحس الأبوة والطرب والسرور بنفسه، وسأله قائلاً:

لماذا تكره شيشرون؟ شيشرون العادل؟ شيشرون العادل؟ أجل.. لماذا تكرهه؟

– لست أدرى لماذا أكرهه. أمن الضرورى أن أعرف لماذا أكره الناس؟ إنى أحب بعضهم، وأكره البعض الآخر.

– هل تدرى أن فكرة إقامة رموز العقاب، الستة الآلاف من المصلوبين على طول الطريق الأبيوسى كانت فكرة شيشرون – وإن لم تكن فكرته وحده ولكنها فكرته إلى حد كبير – فهل لهذا تكرهه؟

– لا .

فسأله القائد:

– وماذا كان شعورك عندما رأيت الصلبان؟

– أثارتنى فى بعض الأوقات ولكنها لم تثرنى معظم الوقت . لقد أثارت الفتيات أكثر منى.

– صحيح؟

فابتسم كايوس وقال :

– لكن شعورى سيتغير غداً.

– ولماذا ؟

– لأنك أنت الذى أقامها.

– ليس هذا صحيحًا... إنه شيشرون وغيره، فأنا لم أهتم بهذه الوسيلة أو بغيرها .

– لكنك حطمت سبارتاكوس.

– وما أهمية ذلك؟

– إنى أحبك لذلك، لأنى أكرهه.

فسأله كراسوس:

– سبارتاكوس؟

– أجل سبارتاكوس.

– لكنك لم تعرفه على الإطلاق.

– لا أهمية لذلك فأنا أكرهه – أكثر من شيشرون، فأنا لا أهتم بشيشرون لكنى أكره ذلك العبد. ليتنى استطعت أن أقتله بنفسى، ولو أنك جئت به إلىَّ وقلت : خذ يا كايوس، انتزع قلبه،لو أنك فعلت ذلك...

فقال القائد ملاطفًا:

– أنت الآن تتكلم كالطفل.

فقال كايوس وفى صوته رنة دلال:

– أنا ؟ ولم لا؟ لم لا أكون طفلاً. وهل الكبر مجز؟

– لكن لماذا تكره سبارتاكوس كل هذه الكراهية وأنت لم تره إطلاقا؟

- ربما كنت قد رأيته. فلعلك تعلم أني ذهبت إلى كابوا منذ أربع سنوات وكنت حينذاك في الحادية والعشرين فكنت صغير السن جدا.

فقال القائد:

- وما زلت صغير السن جدا.

- لا ... لم أعد أشعر بأني صغير السن، لكني كنت كذلك حينذاك وقد ذهبنا جماعة، من خمسة أشخاص أو ستة، وأخذني ماريوس براكوس معه وكان كثير الشغف بي.

قال كايوس ذلك عامداً لما ستحدثه عبارته من أثر. ذلك أن ماريوس براكوس قد مات في حرب العبيد، وعلى هذا فليس ثمة صلات حالية بينهما. لكن ليعلم كراسوس أنه ليس الوحيد وأنه لم يكن الأول ولن يكون الأخير، وتصلب جسد القائد لكنه لم يتكلم.

وتابع كايوس حديثه:

- أجل كنت أنا وماريوس براكوس ورجل وامرأة من أصدقائه واثنان آخران نسيت اسمهما، وكان ماريوس براكوس ينفق بسخاء... أجل كان ينفق بسخاء كبير.

- هل كنت تحبه كثيراً؟

فهز كايوس كتفيه وقال:

- أسفت لموته.

فقال القائد في نفسه : يا لك من حيوان صغير، يا لك من حيوان صغير قذر.

- ومهما يكن من شيء فقد ذهبنا إلى كابوا، ووعدنا براكوس بعرض خاص للمقاتلين، وكان ذلك أغلى مما هو الآن ولم يكن بد من أن تكون واسع الثراء إذا أردت أن تقيمه في كابوا فسأله كراسوس:

- وكانت مدرسة لنتولوس باتياتوس موجودة في ذلك الوقت.

أليس كذلك؟

– أجل. وكان المفروض أنها أحسن مدرسة فى إيطاليا كلها أحسن المدارس وأغلاها. وكانت مشاهدة اثنين من تلاميذه يتقاتلان تكلفك ثمن شراء فيل مهما يكن ثمنه. ويقولون إنه ربح مليونًا من مدرسته هذه لكنه كان خنزيرًا على أية حال. هل عرفته؟

فهز كراسوس رأسه وقال:

– حدثنى عنه، فأنا مشوق لسماع ذلك الحديث. أكان ذلك قبل أن يثور سبارتاكوس؟ أليس كذلك؟

– بثمانية أيام فيما أظن. أجل. لقد طارت شهرة باتيانوس لأنه كان يملك جماعة دائمة من الإماء. والناس لا يحبون ذلك، لا يحبون مزاولته فى العراء، فهم لا جناح عليهم إذا فعلوا ذلك فى غرفة مغلقة الأبواب، لكن مزاولته على الطريق العام تفقده طعمه. وهذا ما كان يعمله هو أو ما يقرب منه، ولا تثريب عليه فى هذا كما أظن، ولكنه لم يكن يعرف كيف يعمل أى شىء فى رقة، فقد كان خنزيرًا، أو رجلاً فى صورة ثور سمين، أسود الشعر، أسود اللحية. وما زلت أذكر قذارة ثيابه وبقع الطعام التى تلطخها وآثار البيض التى تلطخ فمه وهو يحدثنا، ولطخة بيض أخرى طازجة على صدر ردائه.

فابتسم القائد وقال:

– هذا كل ما تتذكر!

– أتذكر ذلك وأتذكر أننى ذهبت لمقابلته أنا وبراكوس، وكان براكوس يرغب فى مشاهدة جولتين من الصراع حتى الموت بين تلاميذه. لكن باتياتوس لم يكن راغبًا فى ذلك، وقال إنه لا معنى لأن يحاول كل نبيل ثرى برم بحياته فى روما فقصد مدرسته الخاصة، أن يحاول خلق أسلوب أو فن جديد للقتال. إلا أن براكوس كان ذا مال، والمال يتكلم.

فقال كراسوس:

– إنه يتكلم مع هذا النوع من الناس، وكل متعهدى المقاتلين حقراء، لكن باتيانوس هذا كان خنزيراً، وأن تعرف أنه يملك ثلاثا من أكبر العمارات فى روما ورابعة انهارت فى السنة الماضية ومات نصف سكانها تحت الأنقاض، وهو لا يتورع عن أن يفعل أى شىء فى سبيل المال.

– لم أكن أعلم أنك تعرفه.

– لقد تحدثت إليه وكان منبعًا للمعلومات عن سبارتاكوس لا ينضب له معين، والمصدر الوحيد فيما أظن، الذى كان يعرف سبارتاكوس معرفة حقيقية.

فتنهد كايوس وقال :

– قل لى. لقد كنت تقول لى إنك ربما رأيت سبارتاكوس.

فابتسم القائد وقال:

– أنت تصبح أحيانًا كثير الشبه بطفل جميل.

– لا تقل ذلك. ولا أريدك أن تقول ذلك ثانية.

وتصلب كايوس وانتفش كالقطة، فقال القائد يلاينه:

– ماذا قلت حتى أغضبتك إلى هذا الحد؟ هل تريدنى أن أحكى لك عن باتياتوس؟ ليس فى الأمر كثير من الطمأنة، ولكنى سأقصه عليك إذا شئت. كان ذلك منذ أكثر من عام كما أتذكر. وكان العبيد قد أنزلوا بنا أفدح الخسائر، ولهذا أردت أن أعرف شيئًا عن سبارتاكوس هذا، فأنت عندما تعرف خصمك تسهل عليك هزيمته....

فابتسم كايوس وهو يصغى لهذا الحديث. ولم يكن يعرف السبب كاملاً فى كراهيته سبارتاكوس إلى هذا الحد. إلا أنه كان فى بعض الأحيان يجد فى الكراهية متعة أكثر مما يجد فى الحب.

الجزء الثانى

وهو القصة التى رواها كراسوس، القائد العظيم، لكايوس كراسوس عن زيارة لنتولوس باتياتوس، صاحب مدرسة المجالدين فى كابوا، لمعسكره.

- ١ -

قال كراسوس:

حدث ذلك إذن بعد أن توليت قيادة الجيش بوقت قصير - وهو شرف تحمله معك إلى موت سريع. وكان العبيد قد مزقوا فرقنا العسكرية شر ممزق، وحكموا إيطاليا بالفعل، وهذا هو ما طلبوا إلى إنقاذه، فقد قالوا لى «اخرج واهزم العبيد». ومجدنى أعدى أعدائى، فعسكرت بقواتى حينذاك فى بلاد «غالة» الواقعة فى هذه الناحية من جبال الألب وبعثت برسالة إلى صديقك السمين لنتولوس باتياتوس.

* * *

كان المطر يتساقط رذاذاً عندما اقترب لنتولوس باتياتوس من معسكر كراسوس. وكانت المنطقة بأسرها تبدو مقفرة موحشة وكان هو الآخر يبدو موحشاً لبعد الشقة بينه وبين داره وبين شمس كابوا المشرقة الدافئة، محروما حتى من راحة الركوب فى محفة.

فقد كان يمتطى جواداً أصفر هزيلاً، ويفكر قائلاً لنفسه: «عندما يتولى العسكريون الحكم يتحرك أشراف الناس تبعاً لأهوائهم ولا تصبح حياتك ملكا لك. إن الناس يحسدوننى لأنى "أملك قدراً من المال، ولست أنكر أن من الخير أن يملك الإنسان مالا إذا كان فارساً. وخير منه أن تلملك مالا إذا كنت من أصل نبيل. أما إذا لم تكن أحد الاثنين وكنت رجلاً شريفاً كسبت مالك بطرق شريفة فلن تستطيع يوماً أن ترقد آمناً، فأنت إذا لم ترش المفتش فستدفع للحراس، وإذا تخلصت من الاثنين فعليك

أن تدفع مـرتبـا لمحـامى الشـعب (التـربيـون) وكلمـا قـمت من نومك دهشت لأنك لم تـطعن بسكين فى أثنائه. والآن يشـرفنى قـائد لعين بأن يجـرنى نصف طول إيطاليا - ليوجـه إلى أسئلة. ولو أن اسمى كان كـراسوس أو جراكوس أو سيلينيوس أو منيوس لاختلف الوضـع من أساسـه. هذه هى العدالة الرومـانيـة والمساواة الرومـانيـة فى الجـمـهـورية الرومانية».

وطافت برأس لنتولوس باتياتوس بعد ذلك سلسلة من الخواطر خالية من المجاملة حول العدالة الرومانية وأحد القواد الرومانيين. وقطع عليه هذه الخواطر سؤال حاد من حراس الطريق الواقفين أمام المعسكر، فـأوقف جـواده طائعًـا وجلس فى مكانه تحت رذاذ المطر البارد، بينما تقدم منه جنديان وراحا يفتشـانه، ولم يحاولا الإسراع فى أداء مهمتهما لتخليصه من عنائه لأنهما مضطران على أية حال إلى الوقوف تحت المطر فى أثناء نوبة الحراسة، لهذا فتشاه فى برود وبطريقة غير محببـة، ثم سألاه من يكون؟

- اسمى لنتولوس باتياتوس.

ولم يعرفا الاسم لأنهما كانا فلاحين جاهلين، وأرادا أن يعرفا وجهته.

- هذا الطريق يؤدى إلى المعسكر .. أليس كذلك؟

- نعم .

- وأنا ذاهب إلى المعسكر.

- لماذا؟

- لأتحدث إلى القائد.

- بهذه البساطة؟ ماذا تبيع؟

فقال باتياتوس فى نفسه: وبعد مع هؤلاء الحمقى الأقذار؟

إلا أنه مد فى أسباب صبره وقال:

– أنا لا أبيع شيئًا، بل أنا هنا تلبية لدعوة.

– دعوة من؟

– دعوة القائد.

وأخرج من حافظته الأمر الذى أرسله له كراسوس. وكانا أميين لا يعرفان القراءة، إلا أن وجود قطعة من الورق كان فى حد ذاته كافيًا لتركه يمر. وسمحا له بأن يسحب جواده الأصفر على طول الطريق الحربى المؤدى إلى المعسكر. وكان باتياتوس– كما كان كل المواطنين الصاعدين فى سلم الثراء فى ذلك الوقت – يقيس كل شىء بمقياس المال، فلم يسعه إلا أن يفكر وهو يقترب من المعسكر، فى تكاليف شق طريق مثل هذا، وهو طريق مؤقت أنشئ لسهولة الوصول إلى المعسكر ليس إلا، ومع ذلك فهو خير من الطريق المؤدى إلى مدرسته فى كابوا والذى شقه على نفقته، فقد كان الطريق الحربى مكونا من قطع متوسطة الحجم من الحجر الرملى فوق أساس من الحصى والتراب، ومع ذلك فهو يمتد ميلاً كاملاً مستقيمًا كالسهم حتى المعسكر.

وفكر قائلاً لنفسه: لو أن هؤلاء القواد الملاعين فكروا فى القتال أكثر من تفكيرهم فى الطرق لحسنت حالنا جميعًا، ومع ذلك فقد انتفخ بعض الشىء كبرياء، لأن على المرء أن يقر ويعترف بأن المدنية الرومانية قد فرضت نفسها فى كل مكان حتى فى مثل هذا المكان الممطر القذر الموحش؛ ولا شك فى ذلك.

وكان وقتئذ قد اقترب من المعسكر، وكان مكان التوقف المؤقت للفرق العسكرية أشبه بمدينة كبيرة، فحيثما تذهب الفرق تذهب المدينة، وحيثما تعسكر الفرق، ولو كان ذلك ليلة واحدة تنشأ المدينة.

وكان هذا المعسكر مساحة شاسعة مسورة تكاد تبلغ نصف ميل مربع خططت بنفس الدقة التى يخطط بها الرسام شكلا هندسيا فوق منضدة الرسم: ففيها أولاً،

خندق يبلغ اتساعه اثنتى عشرة قدما وعمقه مثلها، ووراء الخندق سياج من الكتل الخشبية الضخمة ارتفاعه اثنتى عشرة قدمًا، ويعبر الطريق الخندق إلى المدخل حيث فتحت أبواب خشبية ضخمة عند اقترابه. ونادى المنادى فى النفير عند دخوله فالتفت حوله كوكبة من الجنود.

ولم يكن ذلك تحية له، بل كان هو النظام من أجل النظام وحده، وليس من قبيل المفاخرة الرخيصة أن يقال إن تاريخ العالم لم يعرف من قبل قوات عسكرية أكثر نظامًا من الفرق الرومانية.

وحتى بانيانوس، رغم ولعه الشديد بإراقة الدماء وبالقتال وما يستتبع ذلك من احتقار فطرى للجندى النظامى، بهرته الدقة الآلية فى كل شىء يتصل بالجيش.

ولم يكن أهم ما يسترعى النظر فى هذا المعسكر هو الطريق أو السياج أو الخندق الذى يبلغ طوله ميلين، أو الطرقات العريضة داخل المعسكر الشبيه بالمدينة، أو خنادق تصريف المياه أو الطوار من الحجر الرملى المقام فى وسط الشوارع، أو الحياة المزدحمة الكاملة والحركة والنظام فى هذا المعسكر الرومانى الذى يضم ثلاثين ألف رجل، بل كان الذى يسترعيه أن هذا النتاج الهائل للعقل والجهد البشرى هو جهد طارئ عارض من العلم بذلته فى أثناء الليل الفرق فى أثناء تقدمها. ولم يكن مجرد قولهم إن هزيمة البرابرة تصبح أكثر سهولة عندما يرون فرقة رومانية تضرب خيامها ليلة واحدة عند خوض المعركة ضد واحدة من هذه الفرق - لم يكن قولهم هذا قولاً يلقى على عواهنه.

وعندما ترجل باتياتوس وهو يدلك مؤخرته السمينة التى طال التصاقها بالسرج، تقدم منه ضابط شاب وسأله عمن يكون وعما يريد:

- لنتولوس باتياتوس من كابوا.

فقال الضابط الشاب فى بطء:

– أجل .. أجل.

وكان المتحدث شابا لا يتعدى العشرين، جميل الصورة، معطراً متأنقا، ينحدر من أسرة من أشرف الأسر أى من النوع الذى يكرهه باتياتوس أكثر من أية أسرة أخرى. وقال الضابط الشّاب:

– أجل، لنتولوس باتياتوس من كابوا.

وكان يعرف، كل شيء عن «لنتولوس باتياتوس من كابوا»، ومن يكون، وما يمثله، والسر فى استدعائه إلى هنا حيث يعسكر جيش كراسوس.

وفكر باتياتوس فى نفسه قائلاً: «أجل. أنت تكرهنى. أليس كذلك؟ إنك تقف فى مكانك هذا وتحتقرنى.

ومع ذلك تأتى إلى وتتذلل بين يدى وتشترى منى، وأنا أصبح من أكون على يد أمثالك، لكنك أعظم من أن تقترب منى لئلا تلوثك أنفاسى أيها الدعى الصغير». هذا ما فكر فيه، لكنه اكتفى بأن أومأ برأسه ولم يقل شيئًا على الإطلاق.

وأومأ الشاب برأسه وقال:

– نعم. إن القائد ينتظر قدومك، وأنا أعرف ذلك. وأعرف أنه يريد أن تذهب إليه على الفور، وسآخذك إلى هناك.

– أريد أن أستريح، وأن آكل شيئًا.

– سيعنى القائد بذلك فهو واسع التدبير.

وابتسم الضابط الشاب، ثم أصدر أمرًا سريعًا إلى أحد الجنود قائلاً:

– خذ جواده واسقه وأطعمه وفتش له عن مكان يبيت فيه.

فقال باتيانوس:

– إنى لم أذق الطعام منذ أن أفطرت، فإذا كان قائدك قد انتظر كل هذا الوقت فلن يضيره أن ينتظر برهة أخرى.

فضاقت عينا الفتى، إلا أن صوته ظل على رقته وقال:

– له أن يقرر ذلك بنفسه.

– أتطعم الجواد قبلى؟

فابتسم الضابط الشاب وهز رأسه موافقًا ثم قال:

– تعال .

– لست جنديا فى فرقتك اللعينة.

– لكنك فى معسكر إحدى الفرق.

وواجه كل منهما الآخر لحظة ثم هز بانيانوس كتفيه وقرر ألا داعى لمواصلة النقاش هناك تحت وابل المطر المنهمر كالإبر، فجمع عباءته المبللة حول جسده وتبع الضابط الشاب وهو يرى فيه نبيلاً حقيراً قذراً سافلاً، لكنه كان يفكر فى نفس الوقت فى أنه شاهد من الدم المراق بعد ظهر يوم واحد أكثر مما شاهده هذا الجرو الذى لم يجف لبن أمه من شفتيه طيلة حياته العسكرية كما يتصورها، لكنه مع كل تفكيره هذا ظل الرجل السمين جزارًا صغيرًا فى المذبح، وكانت سلواه الوحيدة هى علمه بأنه ليس بعيد الصلة بالقوى التى جاءت بهذه الفرق إلى هذا المكان.

وتبع الضابط الشاب على الطريق الأوسط العريض الذى يشق المعسكر وهو يتطلع فى تشوق من جانبى الطريق إلى الخيام القذرة الملوثة بالطين، المسقوفة جيداً، والمفتوحة من الأمام، وإلى الجنود الممددين على فراشهم المكون من العشب يتحدثون ويتبادلون الشتائم ويغنون ويلعبون النرد. وكانت غالبيتهم من الفلاحين الإيطاليين، فكانوا أشداء، حليقين، بشرتهم فى لون الزيتون. وكانت فى بعض الخيام مواقد صغيرة

للتدفئة، وإلا أن الجنود كانوا بوجه عام يتقبلون البرد كما يتقبلون الحر، نظراً لقيامهم بتمرينات لا تنتهى، ولنظامهم الذى لا يعرف الرحمة. وكان الضعفاء فيهم سرعان ما يموتون، أما الأقوياء – فيزدادون قوة على قوتهم وقوة سلاحهم الجديد – فكانوا أشبه بعظام فك الحوت مثبتة فى سكين صغيرة حادة جعلتها أفظع آلة قتل جماعية عرفها التاريخ .

– ٢ –

وفى وسط المعسكر تمامًا، فى نقطة تقاطع الخطين الموصلين بين الأركان الأربعة قام فسطاط القائد، وكان خيمة ضخمة تنقسم قسمين أو غرفتين ، فتحاتها مقفلة ويقف على جانبى المدخل حارسان يحمل كل منهما حربة طويلة رفيعة بدلا من الهراوة الثقيلة القاتلة، ودرعًا مستديراً خفيفًا وسكينًا منحنية على الطريقة التراقية بدلا من الدرع العادى الضخم والسيف الإسبانى القديم، وكان كل منهما يضع على كتفيه عباءة صوفية بيضاء بللتها الأمطار، ويقفان كأنهما تمثالان منحوتان من الحجر، والمطر يتساقط من خوذتيهما وملابسهما وأسلحتهما. وأثر هذا المنظر لسبب ما فى نفس باتياتوس أكثر مما أثر فيه أى شىء آخر رآه، فقد كان يسره أن يقوى الجسم الإنسانى على أداء أكثر مما فى طاقته، ولذلك سره هذا. وعندما اقتربا أدى الحارسان – التحية ثم رفعا الأستار ودخل باتياتوس والضابط الشاب إلى الخيمة ذات النور الضئيل، ووجد باتياتوس نفسه فى غرفة يبلغ عرضها أربعين قدمًا، وطولها نحو عشرين، هى النصف الأمامى من الخيمة. ولم يكن فيها من الأثاث إلا منضدة خشبية طويلة صف حولها اثنا عشر مقعداً من المقاعد التى يمكن طيها، وعند أحد طرفى المنضدة جلس القائد العام ماركوس ليكينيوس كراسوس وقد وضع مرفقيه فوقها وراح يحدق فى خريطة موضوعة أمامه.

ووقف كراسوس عندما دخل باتياتوس والضابط، وسر الرجل السمين أن يرى الاهتمام الذى تقدم به القائد منه وهو يمد له يده يحييه، ثم قال:

– لنتولوس باتياتوس من كابوا؟ فيما أظن.

فأومأ باتياتوس برأسه وصافحه، وكان هذا القائد قوى الشخصية حقيقة، قسمات وجهه جميلة قوية فيها رجولة، لا شيء فيه يعيبه، وقال باتياتوس:

– أنا سعيد بمقابلتك يا سيدى.

لقد جئت من مكان بعيد، وهذا كرم منك وتقدير بلا شك، وثيابك مبللة ولعلك جائع ومتعب.

وقال كراسوس ذلك فى اهتمام وبإثارة من الشك بعثا الاطمئنان فى نفس باتياتوس، ومع ذلك فقد ظل الضابط الشاب يتطلع إلى الرجل السمين فى أنفة كما كان يتطلع إليه من قبل. ولو أن باتيانوس كان أكثر حساسية مما هو لأدرك أن لكل من موقفى الرجلين منه معنى مساويا للآخر، فقد كانت بين يدى القائد مهمة يجب إنجازها، بينما احتفظ الضابط الشاب بموقف السيد النبيل من أمثال باتياتوس.

وأجاب باتيانوس قائلاً:

– أنا كل ما قلت .. مبلل ومتعب، لكنى جوعان إلى حد الموت أكثر من أى شيء آخر. ولقد سألت هذا الشاب: هل أستطيع أن آكل؟ لكنه رأى فى ذلك طلباً غير معقول.

فقال كراسوس:

– نحن مكلفون باتباع الأوامر بكل دقة. وكانت أوامرى أن يحضروك إلىَّ بمجرد وصولك. والآن يسرنى طبعًا أن أحقق لك كل رغباتك وأنا مقدر مدى ما عانيت فى مجيئك إلى هناك من مشقة، وأنك فى حاجة إلى ثياب، جافة طبعًا على الفور. هل ترغب فى الاستحمام؟

– فى وسع الحمام أن ينتظر، فأنا أريد أن أضع شيئًا فى ضلوعى. وغادر الضابط الشاب الخيمة وهو يبتسم.

كانا قد فرغا من التهام السمك المشوى والبيض المسلوق، وكان باتيانوس يلتهم دجاجة: يمزقها وينظف عظامها قطعة قطعة فى عناية، ويلتهم فى نفس الوقت الثريد

فى انتظام من وعاء خشبى، ويجرع جرعات هائلة من إبريق النبيذ ليساعد الطعام على النزول إلى معدته. وكان لحم الدجاج والثريد والنبيذ يلوث فمه. وبدأت الثياب النظيفة التى أعطاها له كراسوس تتسخ فعلاً بفتات الطعام، وتلوثت يداه بدهن الدجاجة.

وكان كراسوس يرقبه فى اهتمام، فقد كان، شأنه كشأن الكثير من الرومانيين أبناء جبلته وطبقته يكن احتقارا اجتماعيا خاصا لمتعهد المجالدين الذين ينشئون لهم المعاهد ويمرنونهم ويشترونهم ويبيعونهم ويؤجرونهم لساحات الجلاد. ولم يصبح متعهدو المجالدين قوة سياسية ومالية فى مثل هذا الرجل السمين الضخم الجثة الجالس إلى المنضدة معه إلا خلال السنين العشرين الأخيرة، فمنذ جيل واحد كان القتال فى الساحة أمراً متقطعاً غير متصل، وسمة ليست بذات بال من سمات المجتمع. لكنه كان موجوداً على الدوام يتسع انتشاره عند بعض عناصر السكان، ويقل انتشاره عند البعض الآخر.

ثم أصبح فجأة محور اهتمام روما وأقيمت له الساحات فى كل مكان حتى أصغر المدن أصبحت لها ساحاتها الخشبية لنزال المجالدين وبعد أن كان القتال مقصوراً على خمسين من الرجال بدأ مئات يتقاتلون، معاً وقد يستمر برنامج القتال شهراً كاملاً. ولم يكن نهم الجماهير ليشبع أو يرتوى بل كان يزداد باطراد وبلا نهاية.

وكانت السيدات الرومانيات المثقفات، والنساء المتسكعات فى الشوارع يجدن نفس اللذة والمتعة فى هذه الألعاب، ونشأت لغة جديدة كاملة خاصة بهذه البدعة. ولم يكن محاربو الجيش القدامى يهتمون بشىء إلا بما يوزع عليهم من المعونة وبالقتال فى الساحة. وعاش عشرة آلاف متعطل بلا مأوى لا لسبب ظاهر إلا مشاهدة القتال. وأصبحت سوق المجالدين فجأة سوقا مربحة، ونشأت معاهد ومدارس إعداد المجالدين. كانت مدرسة كابوا التى يديرها لنتولوس باتياتوس من أكبر المعاهد وأكثرها ازدهاراً، كما كانت الطلبات فى كل سوق تنهال على ماشية ضيعة من الضياع.

وكان مقاتلو كابوا ينالون التقدير ويطلبون للقتال فى كل ساحة، وأصبح بتياتوس رجل الشارع الفقير ثريا، وواحداً من أشهر ممرنى المجالدين فى طول إيطاليا وعرضها.

وقال كراسوس فى نفسه وهو يرقبه: ومع ذلك فما يزال رجل الشارع، حيوانا ماكرا خبيثا سوقيا. انظر كيف يأكل ! وكان من العسير دائماً على كراسوس أن يفهم كيف يستطيع كثير من الفقراء المولد، العديمى التربية، اقتناء أموال أكثر مما يأمل كثير من أصدقائه فى اقتنائها. فمما لا شك فيه أنهم ليسوا أقل من هذا الممرن الضخم الجثة. ولنضرب مثلاً به هو، أنه يعرف قيمته الشخصية بوصفه رجلا عسكريا، فيه فضائل الرومان من دقة وإصرار ولا ينظر إلى القواعد العسكرية على أن الإنسان ينالها بفطرته. وقد درس كل حملة عسكرية سجلها التاريخ، وقرأ خير ما كتبه مؤرخو اليونان. ولم يقع فى خطأ التقليل من شأن سبارتاكوس، كما وقع فى هذا الخطأ كل من سبقه من القواد فى هذه الحرب، ومع ذلك فها هو ذا يجلس إلى المنضدة أمام هذا الرجل الضخم ويحس بشعور غريب هو أنه أقل من هذا الرجل مكانة.

وهز كتفيه وقال يحدث باتياتوس:

– يجب أن تدرك أنى لا أكن لسبارتاكوس شيئًا من الشعور له علاقة بك أو بالحرب؛ فلست أنا من دعاة الأخلاق وإنما أردت أن أتحدث إليك لأنك وحدك الذى تستطيع أن تحدثنى بما لا يحدثنى به سواك.

– وما هو ؟

– طبيعة خصمى.

فصب الرجل السمين مزيداً من النبيذ فى قدحه ونظر إلى القائد شذراً ودخل حارس إلى الخيمة ووضع مصباحين موقدين على المنضدة، ذلك أن المساء كان قد حل.

وبدا لنتولوس باتياتوس فى ضوء المصابيح شخصا غير الذى كان من قبل فقد كانت عتمة الغسق رحيمة به؛ أما الآن فقد سقط الضوء على وجهه وهو يمسحه بمنشفة

فأحدث مناطق مستديرة من الظلال فوق طيات اللحم المهدلة، وكان أنفه الضخم الأفطس يرتعد دون توقف وبلا مناسبة، وكان قد بدأ يتبرم شيئًا فشيئًا، وبدت في عينيه نظرة سريعة باردة حذرت كراسوس من أن يسيء الحكم عليه، ومن أن يظنه أحمق ودودا، فلم يكن هو بالأحمق.

– وماذا أعرف عن خصمك؟

ودوى النفير من الخارج، فقد انتهت تدريبات المساء، وهز المعسكر وقع أقدام الجنود المنتعلة الجلود وهم يسيرون فى صفوفهم الثنائية.

وقال كراسوس فى حذر:

– ليس لى إلا خصم واحد. إن سبارتاكوس هو خصمي. فتمخط الرجل السمين فى المنشفة.

وقال كراسوس:

– وأنت تعرف سبارتاكوس؟

– هذا صحيح، وأقسم على ذلك.

إن أحداً غيرك لا يعرفه. وأنت وحدك الذى تعرفه، لم يعرفه واحد ممن حاربوه، فقد خرجوا لمحاربة عبيد كانوا يتوقعون أن ينفخوا فى النفير ويقرعوا الطبول ثم يقذفوا بحرابهم فيفزع العبيد ويهربوا. وظلوا يتوقعون ذلك بغض النظر عن عدد المرات التى تمزقت فيها الفرق شر ممزق. إن ما مضى لا يمكن أن يعود، وها هى ذى روما اليوم تبذل آخر جهد لها، فإذا فشلت فلن تبقى روما، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه أنا.

فأنفجر الرجل السمين يضحك، وأمسك بكرشه وهو يتمدد فى مقعده وسأله كراسوس:

– أتجد الأمر مضحكًا؟

– إن الحقيقة مضحكة دائمًا.

فسيطر كراسوس على نفسه وكظم غيظه وانتظر حتى ينتهى الرجل من ضحكه.

وخفتت ضحكات الرجل حتى فترت وقال :

– لن تبقى روما، وسيبقى سبارتاكوس وحده.

وتساءل كراسوس وهو يرقبه: هل كان الرجل حافظًا لقواه العاقلة، أو أنه ثمل لا غير. ياللمخلوقات التى تخرجها هذه الأرض! هذا هو متعهد المقاتلين الذى يشترى العبيد ويمرنهم على القتال. إنه يضحكم من ذلك طبعًا، وهو – أى كراسوس – يدرب الرجال على القتال هو الآخر:

وهمس باتياتوس في تودد وهو يصب لنفسه قدحًا آخر من النبيذ:

– يجب أن تشنقنى لا أن تطعمنى.

فقال القائد وهو يعود بالحديث إلى ما يريد:

– إننى أرى حلمًا، أرى نوعًا من الكابوس... حلمًا من تلك الأحلام التى تعاود المرء على الدوام.

فأومأ باتياتوس برأسه دليل الفهم وقال كراسوس مستطردًا .

– وأرى نفسى فى هذا الحلم أقاتل وعيناى مصعوبتان. وهذا فظيع، لكنه منطقى. وأنا، كما ترى لا أعتقد أن كل الأحلام نبوءات ، لأن بعض الأحلام لا تعدو أن تكون انعكاسات وأصداء للمشكلات التى يواجهها المرء فى أثناء يقظته. وسبارتاكوس هو المجهول بالنسبة لى، فإذا خضت المعركة ضده فأنا معصوب العينين وليست الحال كذلك فى أية ظروف أخرى، فأنا أعرف لماذا يحارب الغاليون، وأعرف لماذا يحارب اليونان والإسبان، والألمان. إنهم يحاربون لنفس الأسباب التى أحارب من أجلها مع بعض الفوارق الطبيعية. لكنى لا أعرف لماذا يحارب هذا العبد، ولا أعرف كيف يقود

الغوغاء، قذارة العالم بأسره، ونفايته ويحطم بهم خير فرق عسكرية عرفها العالم. إن تدريب الجندى فى الفرقة يتطلب خمس سنوات، سنوات خمس لتفهمه أن حياته لا قيمة لها، وأن الفرقة، والفرقة وحدها هى التى لها القيمة، وأن الأمر يجب أن يطاع، أى أمر.. سنوات خمس من التمرين المتواصل عشر ساعات فى اليوم، كل يوم - وعندئذ تستطيع أن تقودهم إلى شفا جرف هاوية، وتأمرهم بأن يسيروا فوق حافتها فيطيعوا. ومع ذلك فقد حطم هؤلاء العبيد خير الفرق العسكرى الرومانية.

- لهذا طلبت مجيئتك من كابوا إلى هنا لتحدثنى عن سبارتاكوس كى أستطيع أن أرفع العصابة عن عينى.

فأومأ باتياتوس برأسه فى رزانة، وكانت أعصابه قد بدأت تلين، فقد أصبح مستودع أسرار ومستشار القادة الكبار، وهذا ما يجب أن يكون. وقال كراسوس :

- حدثنى أولا عنه، بوصفه رجلاً: ما شكلة؟ ومن أين جئت به؟

- إن الرجال لا يظهرون على حقيقتهم أبداً.

- هذا حق... حق فعلاً، وإذا أدركت ذلك فقد عرفت الرجال وكانت عبارة كراسوس خير تملق يمكن أن يقدم لباتياتوس.

- كان وديعا، بالغ الرقة، إلى حد الذلة. أصلة من تراقيا.

- هذا القدر من المعلومات عنه صحيح كل الصحة.

وغمس باتياتوس أصبعًا فى النبيذ ثم راح يعد قطراته على المنضدة.

- وهم يقولون إنه عملاق - لا. لا. ليس الأمر كذلك - ليس هو بالعملاق. إنه ليس بالطويل القامة وبنوع خاص أستطيع أن أقول إنه فى مثل قامتك .. شعره أسود مجعد، وعيناه ذواتا لون بنى قاتم، وأنفه مكسور، وإلا لاستطعت فيما أعتقد أن تصفه بأنه جميل. لكن أنفه المكسور كان يضفى على وجهه شبها للأغنام، وله وجه عريض وديع. وكل هذا يخدعك. وكنت أقتل أى إنسان آخر فعل ما فعله هو.

فسأله كراسوس:

– وماذا فعل؟

– آه..

فقال كراسوس فى بطء:

– أرجو أن تحدثنى حديثًا صريحًا لأنه يجب أن أحصل على صورة حقيقية له. وأريدك أن تعلم أن كل ما تحدثنى به سيكون فى حرز أمين .

وفضل كراسوس ألا يتعرض مؤقتًا للحادث المعين الذى كان باتياتوس يقتل سبارتاكوس من أجله وقال:

– أريد كذلك أن أعرف تاريخه السابق: من أين اشتريته؟ وماذا كان؟

فابتسم باتياتوس وقال وهو يبسط يديه:

– ما هو المجالد؟ إن المجالد ليس مجرد عبد، كما تعلم أو على الأقل مجالدى كابوا ليسوا مجرد عبيد، بل هم نوع خاص من الرجال.. إذا أردت أن تجعل الكلاب تتقاتل فلن تشترى كلابا منزلية أليفة دللها صغار الفتيات، وإذا كنت تدفع بالرجال إلى القتال فأنت فى حاجة إلى رجال يقاتلون، رجال يأكلون المرار. رجال يكرهون، رجال فهم حقد. ولهذا أخبر عملائى أنى أبحث فى السوق عن رجال فيهم حقد وضغينة لأن هذا النوع لا يصلح عبيداً للمنازل ولا يصلح للعمل فى الضيا ع كذلك.

فسأله كراسوس:

– ولماذا لا يصلحون للعمل فى الضيا ع ؟

– لأنى لا أريد الرجل إذا روض، وأنت إذا عجزت عن ترويض الرجل وجب عليك أن تقتله، لكنك لن تستطيع أن ترغمه على العمل، فهو يفسد العمل ويفسد غيره ممن يعملون معه لأنه كالوباء.

– ولم يقاتل إذن؟ آه.. هذا هو السؤال المهم، وإذا عجزت عن الإجابة عن هذا السؤال فلن تستطيع العمل مع المجالدين. لقد كانوا فى الأيام الخالية. يسمون المقاتلين فى المجتلد «بستوارى» وكان هؤلاء يقاتلون حبا فى القتال، وكان بعقولهم خبال. ولم يكن هؤلاء كثرة، لكنهم لم يكونوا عبيداً.

ومس رأسه مسة ذات مغزى وقال:

– وليس هنا إنسان يروعنا فى القتال الدموى إلا إذا كان مريضًا، فليس هنا إنسان يحب القتال. والمجالد لا يحب القتال، بل يقاتل لأنك تعطيه سلاحًا وتفك عنه قيوده. فإذا ما أمسك بالسلاح فى يده حلم بأنه قد غدا حرا – وهذه أمنيته – أن يمسك بالسلاح فى يده ويحلم بالحرية. عندئذ يصبح ذكاؤك فى مواجهة ذكائه. وهو شيطان، فعليك إذن أن تصبح شيطانًا أنت الآخر.

فسأله كراسوس وقد أسره وبهره الحديث المستقيم الصريح لرجل يعرف مهنته خير معرفة:

– وأين تجد أمثال هؤلاء الرجال؟

– لا يوجد إلا مكان واحد تجدهم فيه – تجد فيه النوع الذى أريد. مكان واحد ليس إلا ... المناجم، والمناجم وحدها يجب أن يأتوا من مكان تكون الفرقة العسكرية فيه جنة إذا ما قورنت به. وتصبح الضيعة جنة، بل إن غياهب السجون تكون رحمة مباركة إذا ما قورنت به. هناك يجدهم وكلائى، وهناك وجدنا سبارتاكوس. وكان «كورو» . أتعرف معنى هذه الكلمة؟ إنها كلمة مصرية فيما أظن .

فهز كراسوس رأسه .

– إنها تعنى ثلاثة أجيال من العبيد، أى حفيد العبد. ولها فى اللغة المصرية معنى آخر هو نوع قذر من الحيوانات. حيوان زاحف. حيوان تنفر منه جماعات الحيوان نفسها. أجل حتى الحيوانات تنفر من رفقته «كورو». إن من الأشياء ما هو

أسوء من أن تصبح متعهداً للمقاتلين. عندما جئت إلى معسكرك هذا أخذ ضباطك ينظرون إليَّ. لماذا؟ لماذا؟ إننا كلنا جزارون. ألسنا كذلك؟ ونحن نتجر فى اللحوم المذبوحة. لماذا إذن؟

وكان قد ثمل، وامتلأ بالرثاء لنفسه.. هذا الممرن للمجالدين، السمين الذى يملك معهد لهم فى كابوا، وطفت روحه وظهرت، حتى هذا الخنزير السمين القذر صاحب المجزرة التى تستحيل فيها الرما دمًا له روح.

وقال كراسوس فى صوت منخفض:

– وكان سبارتاكوس حفيد عبد.

– إنه من تراقيا أصلاً، لكنه جاء من مصر، فالمشتغلون باستخراج الذهب من المصريين يشترون العبيد من أثينا ويشترون الكورو عندما يجدونه. ولعبيد تراقيا قيمتهم.

– لماذا؟

– هناك خرافة تقول إنهم يجيدون العمل تحت الأرض.

– فهمت. ولكن لماذا يقولون إن سبارتاكوس اشترى فى الأصل من بلاد اليونان؟

– وهل أعرف لماذا يقال كل ما يقال من هراء؟ لكنى أعرف مكان شرائه لأنى شاريه. لقد اشتريته من طيبة، فهل تشك فى صحة ما أقول؟ هل أنا كاذب؟ أنا متعهد مقاتلين سمين، رجل وحيد يجلس هنا فى بلاد الغال تحت هذا المطر اللعين. ولماذا أعانى الوحدة؟ وبأى حق تتعالى على وتحتقرنى؟ إن حياتك ملك لك وحياتى ملك لى .

فقال كراسوس:

– أنت ضيفى المكرم ولست أحتقرك. تعال حدثنى عن سبارتاكوس وعن مصر.

وهكذا حدث، قبل أن تقرر المسيحية وجود الجحيم فى الكتب المقدسة وفى الصلوات - وربما بعد ذلك أيضًا - أن كان على الأرض جحيم رآه البشر وتطلعوا إليه وعرفوه حق المعرفة. ذلك لأن من طبيعة الإنسان ألا يستطيع الكتابة إلا عن أنواع الجحيم التى خلقها أولاً لنفسه.

اصعد مع النيل مبتدئًا من طيبة فى شهر يوليو عندما تجف الأرض ويصبح الجو خانقًا. اصعد مع النيل حتى الشلال الأول فتصبح فى أرض الشيطان نفسها، وانظر كيف ينكمش شريط الخضرة الممتد على جانبى النهر ويذبل. انظر كيف تتبدل التلال والهضاب الصحراوية إلى رمال ناعمة .. دخان وبارود تمسها الريح فتنفجر هنا، وتلقى بمقدماتها هناك. وحيثما يجرى النهر فى بطء - وهو فى موسم الجفاف - تعلوه قشرة من مسحوق أبيض، ويملأ هذا المسحوق الهواء، كذلك بعد أن يصبح شديد السخونة.

إلا أن ريحًا رقيقة تهب على هذا المكان على الأقل .

والآن وقد اجتزت الشلال الأول، عليك أن تضرب فى صحراء النوبة التى تمتد جنوبا وشرقًا. ادخل إلى الصحراء حتى تختفى الريح الرقيقة الصادرة من النهر. لكن لا تتوغل فيها حتى تدركك أنفاس النسيم الصادر من البحر الأحمر، ثم عرج جنوبًا.

وستجد فجأة أن الريح قد سكنت، وأن الأرض موات. الهواء وحده هو الحى، والهواء من فرط الحرارة لامع كالزجاج يكاد يتوهج، فتفقد حواس المرء وظيفتها، لأنه لا يرى الأشياء على حقيقتها، بل يرى كل شىء مقوسا منثنيا من فرط الحرارة، وتتغير

الصحراء هى الأخرى، وأقول تتغير لأن من الخطأ ما يظنه الكثير من الناس.. إن الصحراء واحدة فى كل مكان. لا، إن الصحراء تعنى نقص الماء، ونقص الماء يختلف فى درجاته إلى حد كبير. وتختلف الصحراء كذلك، تبعًا لطبيعة التربة أو المنطقة التى تقع فيها: فمنها، الصحراء الصخرية والصحراء الجبلية، والصحراء الرملية، وصحراء الملح الأبيض، وصحراء الحمم البركانية ومنها كذلك ضمراء أخرى رهيبة هى صحراء المسحوق الأبيض المتحركة التى تنذر بالموت الزؤام.

وفى هذا النوع الأخير، لا ينمو شىء على الإطلاق، حتى ولا الشجيرات الجافة المعوجة الخشنة التى تنمو فى الصحراء الحجرية، ولا الأعشاب الصحراوية الوحيدة التى تنمو فى الصحراء الرملية .. لا شىء على الإطلاق .

توغل فى هذه الصحراء إذن، واخط فوق هذا المسحوق الأبيض واشعر بموجات الحرارة الفظيعة تنهال على ظهرك موجة إثر موجة. لكنها على الرغم من حرارتها اللافحة تسمح للإنسان بالحياة. هذه هى الحال هنا. شق طريقك فى هذه الصحراء الساخنة الرهيبة يصبح الزمان والمكان لا نهائيين ومخيفين، ومع ذلك تقدم، وتقدم، وتقدم. ما هو الجحيم؟ إن الجحيم يبدأ عندما تصبح الحركة البسيطة الضرورية فى الحياة شيئًا رهيبًا، وقد تقاسم هذه المعرفة على مر الأجيال كل من ذاق الجحيم الذى صنعه البشر على الأرض .

والآن أصبح كل شىء رهيبًا: أن تسير أو أن تتنفس أو ترى أو تفكر .

إلا أن هذا المظهر من مظاهر الجحيم لا يستمر إلى الأبد، بل إنه يتجدد فجأة، ويبدو المظهر الآخر من مظاهر الجحيم، فتظهر أمامك أجراف سوداء. أجراف سوداء غريبة كالحلم المفزع، هذا هو جرف الحجر الأسود. وتتجه إلى الحجر الأسود فتجده معرقًا بعروق من الرخام الأبيض البراق. ألا ما أشد بريق هذا الرخام. إنه يلتمع ويشرق.. ويا لها من إشراقة سماوية، ولا بد من أن تكون له إشراقة سماوية. أليست طرق الجنة مرصوفة بالذهب. والرخام الأبيض غنى بالذهب؟

وهذا هو سر مجىء البشر إلى هذا المكان؛ وهذا هو سر مجيئك إليه، لأن الرخام غنى بالذهب ومثقل به.

اقترب وانظر. لقد كان فراعنة مصر أول من اكتشف هذا الجرف من الحجر الأسود فى قديم الزمان. ولم يكن لديهم حينذاك إلا آلات من النحاس والبرنز، فلم يستطيعوا إلا خدش السطح أو أعمق قليلاً، إلا أن الذهب انتهى بعد أجيال من الخدش على السطح فأصبح من الضرورى أن يدخلوا إلى بطن الحجر الأسود ليستخرجوا الرخام الأبيض. وقد استطاعوا أن يفعلوا ذلك، لأن عصر النحاس كان قد انقضى، وبدأ عصر الحديد وأصبح فى وسع بنى الإنسان أن يستخرجوا الرخام بالمعاول والأوتاد الحديدية والمطارق الثقيلة التى تزن الواحدة منها ثمانية عشر رطلاً، إلا أنهم احتاجوا إلى نوع جديد من الآدميين. فالحرارة والتراب والخصائص الجثمانية اللازمة لتتبع العروق الملتفة التى تحمل الذهب خلال الصخور، أثبتت استحالة استخدام الفلاحين من أبناء الحبشة أو مصر، كما أن العبد العادى كان كبير النفقة سريع الموت، فجاءوا إلى هذا المكان بأسرى الحروب من الجنود الذين قستهم الحرب، والأطفال الكورو المنحدرين من صلب عبيد أنحدروا هم أيضًا من عبيد، وتلك عملية لا يبقى فيها إلا أقوى الناس وأصلبهم عوداً. ومست الحاجة إلى الأطفال لأن الطفل وحده هو الذى يستطيع أن يعمل عندما تدق العروق وتضيق وتغوص داخل جرف الحجر الأسود .

وزال مجد الفراعنة وسلطانهم القديمان، وأقفرت خزائن ملوك مصر من اليونان ووقعوا فى قبضة روما، وتولى تجار العبيد فى روما استغلال المناجم، ومهما يكن من شىء فالرومان وحدهم كانوا هم الذين يعرفون كيف يستغلون العبيد على خير وجه.

وهكذا يصل إلى المناجم كما وصل سبارتاكوس إليها، يصل إليها مائة واثنان وعشرون من التراقيين تربط السلاسل بين أعناقهم ويحملون أصفادهم المتوهجة من فرط الحرارة مخترقين الصحراء على طول الطريق من الشلال الأول. إن الرجل الثانى

عشر من المقدمة هو سبارتاكوس. إنه يكاد يكون عاريًا. وكلهم أشباه عراة، وعما قليل سيتعرى هو من كل شيء. إنه يرتدى مزقة من الثياب حول حقويه وشعره طويل وكذلك لحيته، كما أن كل من فى الصف طويل الشعر ملتح بلى نعلاه، لكنه يتشبث بالقليل الباقى منهما سعيًا وراء أية وقاية يزوده النعل بها، فجلد قدميه الذى يبلغ سمكه ربع بوصة، والذى أضحى صلدا كجلد الدواب ليس بكاف لوقايته من رمال الصحراء الملتهبة.

ما شكله ؟ ما شكل هذا الرجل، سبارتاكوس؟ إنه فى الثالثة والعشرين، وهو يحمل سلسلته مجتازًا الصحراء. لكن مظهره لا يشى بسنه، فأمثاله لا يعرفون إلا آمادًا وأعمارًا من التعب والنصب، لا شباب، ولا رجولة، ولا شيخوخة، بل هو الكدح الذى لا ينبئ بعمر. يغمره الرمل الأبيض الناعم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه: شعره ولحيته ووجهه، أما جلده المختفى تحت طبقة الرمال فلونه بنى محروق كلون عينيه السوداوين الحادتين اللتين تطلان كجمرتين كريهتين من وجهه الشبيه بوجوه الأموات. فالبشرة السمراء ترتبط بحياة كحياته، لأن العبد الأبيض البشرة، الأصفر الشعر القادم من الشمال لا يقوى على العمل فى المنجم، لأن الشمس تشوى جسده ثم تقتله ويموت بعد آلام رهيبة.

ومن العسير أن نقرر هل كان قصير القامة أو طويلها، لأن الرجال المغلولين فى الأصفاد لا يسيرون منتصبى القامة، لكن جسده كالحبل المجدول جففت الشمس لحمه فأصبح جافًا لا ماء فيه، ومع ذلك فهو لا يخلو من اللحم، ذلك أن عملية الحصاد والتذرية قد دامت أجيالاً كثيرة. ولم تكن الحياة فوق تلال تراقيا الصخرية يسيرة يومًا، فلذا كان ما بقى من هذا اللحم صلبًا جامدًا شديد التشبث بالحياة. وحفنة القمح التى يتغذى بها كل يوم، وفطائر الشعير الصلدة خالية من كل تغذية، لكن الجسد فتى يغذى نفسه بنفسه، وعنقه سميك عضلى ملىء بالقروح المتقيحة حيث يقبع الطوق البرونزى. أما الكتفان فعضلاتهما بارزة وأبعاد جسده متساوية تساويا يبدو الرجل معه أصغر

حجمًا مما هو والوجه عريض، لكنه يبدو أكثر فرطحة مما هو عليه فعلا، لأن الأنف كسرته يوماً ضربة من عصا ملاحظ العمل. ولما كانت العينان السوداوان واسعتين فقط أكسب هذا الوجه تعبيراً رقيقًا شبيهاً بالأغنام. وتحت اللحية والتراب يوجد فم كبير ممتلئ الشفتين، فيه حساسية وقوة. وإذا انفرجت شفتاه - فى تقطيبة لا ابتسامة - بدت الأسنان بيضاء منتظمة، واليدان كبيرتان مربعتان، جميلتان كأجمل ما تكون عليه بعض الأيدى. والحقيقة أن الشىء الوحيد الجميل فيه كان يديه .

هذا إذن هو سبارتاكوس العبد التراقى ابن العبد الذى انحدر هو الآخر من عبد. ولا يعرف إنسان مصيره، وليس المستقبل كتابا مفتوحاً يقرأ، وحتى الماضى - عندما يكون الماضى كدا ولا شىء غير الكد - يمكن أن يتحلل إلى مرقد مظلم لألوان مختلفة من الألم. هذا إذن هو سبارتاكوس الذى لا يعرف المستقبل ولا سبب يدعوه إلى تذكر الماضى، ولم يخطر بذهنه يوماً أن هؤلاء الكادحين سيتاح لهم القيام بعمل غير الكدح.. ولم يخطر بذهنه كذلك أن سيأتى يوم لا يكدح فهى البشر والسوط يلهب ظهورهم.

ترى فيم يفكر وهو يخطط فوق الرمال الساخنة؟.. يجب أن نعرف أن الرجال عندما يكونون فى الأصفاد لا يفكرون إلا فى القليل، فى القليل جدا ، وأن من الخير لهم فى معظم الأحوال ألا يفكروا فى أكثر من موعد الوجبة التالية أو متى يشربون ثانيا أو ينامون من جديد. وعلى هذا لا توجد أفكار معقدة فى ذهن سبارتاكوس أو أذن أى واحد من رفاقه التراقيين الذين تضمهم الأصفاد معه، فأنت إذا جعلت من الرجال وحوشاً فلن يفكر هؤلاء الرجل فى الملائكة .

لكن نهاية اليوم قد حانت وبدأ المنظر يتغير. وهؤلاء الرجال وأمثالهم يتلهفون على النزر اليسير من الإثارة والتغيير. ويرفع سبارتاكوس رأسه فيرى أمامه الشريط الداكن الذى يكون الجرف. وللعبيد جغرافيا خاصة بهم. نعم، إنهم لا يعرفون شكل البحار، أو ارتفاع الجبال أو مجرى الأنهار، إلا أنهم يعرفون الكثير من مناجم الفضة فى إسبانيا ، ومناجم الذهب فى الجزيرة العربية، ومناجم الحديد فى شمال إفريقيا ،

ومناجم النحاس فى القوقاز، ومناجم القصدير فى بلاد الغال. وللعبيد معجم خاص بهم ضمنوه مواطن الرعب. وملاذهم النفسى أن يعرفوا أن من الأماكن ما هو أسوأ مما هم فيه. لكن العالم الواسع بأسره لم يعرف ما هو أسوأ من الجرف الأسود القاتم ببلاد النوبة.

ويتطلع سبارتاكوس إلى الجرف الأسود ويتطلع الآخرون: ويتوقف الركب بأسره عن الخطو وعن الحركة المؤلمة، وتتوقف الجمال بأحمالها من الماء والقمح، ويتوقف الملاحظون بسياطهم ومعاولهم الطويلة كذلك، ويتطلع كل إنسان إلى شريط الجحيم الأسود، ثم يتابع الركب سيره.

وتكون الشمس فى يطريقها إلى الغروب وراء الصخرة السوداء عندما يصلون إليها. وتكون الصخرة قد ازدادت سوادا ووحشية وإنذاراً بشر مقبل. وهذا موعد نهاية عمل اليوم، وقد بدأ العبيد يخرجون من فتحات المنجم. ويفكر سبارتاكوس متسائلا: ماذا يكون هؤلاء؟ ماذا يكون هؤلاء؟. ويهمس رجل من ورائه قائلاً: كان الله فى عونى!

ثم يدرك سبارتاكوس أن هذه الأشياء التى يراها ليست أجناساً صحراوية غريبة، بل هى رجال مثله وأطفال مثلما كان فى يوم من الأيام. هذه حقيقتهم. لكن الاختلاف الذى طرأ عليهم نبع داخلهم وأتاهم من خارجهم لأنه وجد منهم استجابة داخلية لهذه القوى التى تحيلهم شيئًا مغايراً للجنس البشرى، هى اضمحلال للرغبة أو الحاجة إلى أن يكون المرء إنساناً. وحسبك أن تراهم - أن تراهم! ويدب الخوف والفزع فى قلب سبارتاكوس الذى استحال مع الأيام حجراً. وتتندى مرة أخرى آبار الشفقة فيه - التى اعتقد أنها نضبت - وما زال جسده الذى جف منه الماء قادراً على ذرف الدموع. وينظر إليهم. ويهوى السوط على ظهره ليتقدم، لكنه يظل واقفًا فى مكانه ينظر إليهم.

لقد كانوا يزحفون على أربع داخل مسارب المنجم. والآن حتى بعد أن خرجوا إلى العراء ما زالوا يزحفون على أربع كالحيوانات ولم يستحموا منذ جاءوا إلى هذا المكان،

ولن يستحموا بعد ذلك أبداً، جولدهم يلطخها التراب الأسود والقذراة القاتمة اللون. شعورهم طويلة ملبدة. ومن شب منهم عن طور الطفولة قد التحى. وبعضهم أسمر اللون والبعض الآخر أبيض، إلا أن الفرق بين اللوننين قد أصبح الآن أضعف من أن يلحظه الإنسان، لهم جميعاً كلكل قبيح فوق ركبهم ومرافقهم، وكلهم عراة من كل شيء. ولم لا ؟ هل ستطيل الملابس من أعمارهم؟ إن للمنجم غرضاً واحداً هو دفع الأرباح إلى السماسرة الرومانيين. وحتى مرق الثياب القذرة لها ثمنها.

ومع ذلك فهم يرتدون نوعاً من الثياب. فكل منهم يحمل فى رقبته طوقاً من الحديد أو البرنز. وعندما يزحفون خارجين من الحجر الأسود، يسلك الملاحظون كل طرق فى سلسلة طويلة حتى يكتمل عدد المصفدين عشرين، وحينئذ يتجهون إلى قواعدهم. ويجب أن نلاحظ أنه لم يهرب إنسان من مناجم بلاد النوبة، لأن الهرب منها مستحيل. وكيف يتسنى للمرء أن يعود إلى عالم البشر مرة ثانية بعد عام واحد يقضيه فى هذه المناجم؟ إن القيد الذى فى أعناقهم رمز أكثر منه ضرورة.

ويحدق سبارتاكوس إليهم ويفتش باحثاً عن نوعه، وعن بنى جنسه البشر، هذا البشر الذى يصبح جنساً ونوعاً بالنسبة للرجل عندما يصبح عبداً. ويقول لنفسه: تكلموا.. خاطبوا بعضكم بعضاً. لكنهم لا يتكلمون، فهم صامتون كأنهم الموت مجسداً، ويضرع بينه وبين نفسه قائلاً: ابتسموا.. لكن أحداً لا يبتسم.

ويحملون أدواتهم معهم: المعاول الحديدية والروابع والأزاميل، ويحمل كثير منهم مصابيح بدائية مثبتة فوق رء وسهم. أما الأطفال فهم نحيلون كالعناكب يجفلون فى أثناء مسيرهم وتطرف عيونهم بلا توقف من جراء الضوء. وهؤلاء الأطفال لا ينمون أبداً. فهم يصلحون للعمل سنتين على الأكثر بعد مجيئهم إلى المناجم، ولكن ليس ثمة وسيلة أخرى عداهم لتتبع عروق الذهب عندما تدق وتغيض فى الحجر. ويمر عبيد المنجم أمام التراقيين يحملون أصفادهم. لكنهم لا يديرون رء وسهم لينظروا إلى القادمين الجدد، فقد مات حب الاستطلاع فيهم، فهم لا يعبئون.

وسبارتاكوس يعرف هذا ويقول فى نفسه: لن أبالى بشىء أنا الآخر بعد زمن وجيز، وهذا مخيف أكثر من أى شىء آخر.

والآن يذهب العبيد لتناول طعامهم فيضمون التراقيين إليهم. أما المأوى الصخرى الذى يقيمون فيه فقد أنشئ على قاعدة الجرف نفسه.. أنشئ منذ زمن بعيد.. بعيد جداً لا يذكر أحد متى أنشئ.. أنشئ من شرائح هائلة متساوية من الحجر الأسود الخشن. وما من نور يضىء داخله، ولا تهوية إلا من فتحتين عند طرفيه، ولم ينظفه إنسان قط حتى تراكمت أقذاره عشرات السنين على أرضه وتصلبت فوق سطحها. ولم يحدث أن دخل الملاحظون إلى هذا المكان، فإذا حدثت اضطرابات داخله منعوا عنهم الماء والطعام. فإذا انقضت على العبيد مدة طويلة كافية بلا طعام ولا ماء عادوا إلى وداعتهم وأخذوا يزحفون خارجين كالحيوانات. وليسوا هم فى الواقع إلا حيوانات. وإذا ما مات عبد بالداخل أخرج العبيد جثته، إلا أنه يحدث أحيانا أن يموت طفل صغير فى مكان بعيد داخل المأوى الطويل فلا يلحظ موته إنسان ولا يحس أحد بغيابه حتى تكشف رائحة جسده المتعفن عن مكانه.. هذا هو المكان الذى يقيمون فيه.

ويدخل العبيد المكان دون أصفادهم. ذلك أن قيودهم الحديدية تنزع عنهم عند المدخل، ويأخذ كل منهم وعاء خشبيا فيه طعام وقربة من الجلد بها ماء. وليس فى القربة إلا قدر ضئيل من الماء هو القدر المقرر لهم تناوله مرتين فى اليوم، وإن كان ضعف هذا القدر من المعطى لهم لا يكفى لتعويض ما تبخره الحرارة من الجسم فى هذا المكان الجاف. وهكذا يتعرض العبيد على مر الأيام إلى خطر جفاف الماء من أجسادهم تدريجيا، وهذا كفيل بإفساد الكليتين إن آجلا أو عاجلاً، هذا إذا لم يقتلهم غيره من العوامل. وعندما يشتد بهم الألم ويعوقهم عن العمل يطردونهم إلى الصحراء ليموتوا فيها.

وسبارتاكوس يعرف هذا كله، فهو يعرف ما يعرفه العبيد لأن أمة العبيد أمته، فقد ولد فيها وشب ونضج فيها، فهو يعرف سر حياة العبيد وهو مجرد رغبة، لا فى

المتعة أو الراحة أو الطعام أو الموسيقى أو الضحك أو الحب أو الدفء أو النساء أو الخمر، لا، ليست رغبة فى أى من هذه الأشياء بل رغبة فى التحمل، فى البقاء، هذا وحده ولا أكثر.. رغبة فى البقاء.

وهو لا يدرى السر فى ذلك.. فلا سبب يدعو إلى هذا البقاء ولا منطق فى هذا البقاء، لكن لا هذا ولا ذاك هو تفسير الغريزة لأن الأمر أكثر من أن يكون مجرد غريزة. فالحيوان لا يستطيع البقاء فى هذه الظروف، لأن نظام البقاء ليس بسيطاً، وليس شيئاً سهلا.. بل هو أكثر تعقيداً وعسراً وحاجة إلى إعمال الفكر فى كافة المشكلات التى يواجهها من لم يجابه هذه المشكلة قط. ومع ذلك فإن لها سبباً هى الأخرى وكل ما فى الأمر أن سبارتاكوس يجهل هذا السبب .

إلا أنه سيبقى.. سيتلاءم، سيتشكل، سيتأقلم، سيتبلد، سيتعود، فهو تركيب آلى كثير المرونة قادر على التشكل. وجسده يخزن قوة نتيجة لتحرره من الأصفاء، فلقد حمل هو وزملاؤه تلك السلاسل طويلاً، حملوها وهم يجتازون البحر، وحملوها صاعدين فى نهر النيل بطوله، ثم فى عبر الصحراء، حملوها أسابيع وأسابيع فى القيود وها هو ذا يتخلص منها أخيراً.. إنه خفيف كالريشة، لكن هذه القوة التى وجدها يجب ألا تتبدد، فهو يقبل نصيبه من الماء - وهو نصيب أكبر مما شاهد خلال أسابيع. لكن لن يجرعها ثم يبولها فتتبدد، بل سيحتفظ بها ويرشفها فى ساعات عديدة كى تتغلغل كل قطرة ممكنة منها فى أنسجة جسده. ويتناول طعامه وهو ثريد من القمح والشعير، مطبوخ بالجراد الجاف، وفى الجراد الجاف قوة وحياة. والقمح والشعير هما بناء جسده. لقد أكل طعاماً أسوأ من هذا، ويجب احترام كل أنواع الطعام، لأن من لا يحترم الطعام ولو بمجرد التفكير، يصبح عدواً للطعام ولا يلبث أن يموت.

ويخطو إلى ظلمة المأوى فتنهش موجة الرائحة الكريهة فى حواسه. لكن الإنسان لا يموت من الرائحة. والحمقى وحدهم أو الأحرار وحدهم هم القادرون على متعة التقيؤ، أما هو فلن يبدد أوقية واحدة من محتويات معدته بهذه الطريقة، ولن يقاوم هذه

الرائحة، لأن مثل هذه الأشياء لا تقاوم، بل سيفعل عكس هذا. على العكس سيحتضن هذه الرائحة ويرحب بها ويسمح لها بالتسلل إلى داخله وعما قليل لن ترهبه..

ويمشى فى الظلام تقوده قدماه. فقدماه كالعينين له. ويجب أن لا يقع أو يتعثر، لأنه يحمل الطعام فى يد، والماء فى اليد الأخرى. ثم يسترشد بالحائط الصخرى ويجلس مرتكنًا بظهره إليه. وليس المكان بالغ السوء هنا. فالصخر رطب، ويسند ظهره. ويأكل ويشرب، وفى كل جانب حوله حركات وتنفس ومضغ يقوم بها بقية الرجال والأطفال وهم يفعلون ما يفعل. وتساعده أعضاء جسده الداخلية الخبيرة فتستخرج بخبرتها ما تحتاج إليه من الطعام الضئيل والماء القليل. ويلتقط فتات الطعام الأخير من الوعاء ويحسو ما تبقى فيه ثم يلعقه. إنه لا يخضع لقيود الشهية، لأن الطعام هو البقاء، وكل ذرة صغيرة وكل لطخة طعام فيها البقاء.

لقد فرغوا الآن من الطعام، وبعض الآكلين أكثر رضى من الآخرين، وبعض آخر يستسلم لليأس. فاليأس لم يختف كله من هذا المكان. فالأمل قد يضيع لكن اليأس أكثر تشبثًا وعنادًا فتسمع التأوهات والنحيب والتحسر وتتردد صرخة فى مكان ما، بل إنك لتسمع حديثًا خافتًا وصوتًا محطمًا ينادى قائلا:

– سبارتاكوس. أين أنت؟

فيجيب سبارتاكوس:

– هأنذا أيها التراقى.

فيقول صوت آخر:

– هنا التراقى؛ التراقى؛ التراقى.

إنهم شعبه وناسه. فيلتفوا حوله ويحس أيديهم وهم يلتصقون به. ولعل العبيد الآخرين ينصتون، إلا أنهم على أية حال غارقون فى صمتهم نتيجة لوصول القادمين

الجدد إلى الجحيم. ولعل من جاء وا إلى هنا من قبل يذكرون الآن أخوف ما يخافون ذكراه، فالبعض يفهم كلمات اللغة الأتيكية والبعض لا يفهمها. بل قد يكون من بينهم من يحمل ذكرى لجبال تراقيا التى تغطى الثلوج قممها، والبرود المباركة والجداول تجرى متخللة غابات الصنوبر، وقطعان المعز السوداء تتقافز بين الصخور. ومن يدرى أية ذكريات تلح على ذاكرة هؤلاء المقضى عليهم بالجرف الأسود؟

وهم ينادونه قائلين:

- يا تراقى.

ثم أحس بهم يحيطونه من كل جانب. وأينما مد يده وجد وجه واحد منهم وكلها مغطاة بالدموع. آه.. إن الدموع إسراف وتبديد.

ويهمس واحد منهم يسأله:

- أين نحن يا سبارتاكوس؟ أين نحن؟

- لم نضع بعد، فنحن نذكر كيف جئنا.

- ومن يذكرنا؟

فيكرر عبارته:

- لم نضع بعد.

- لكن من يذكرنا؟

والمرء لا يستطيع أن يتحدث بهذا الأسلوب. لكنه كالأب بالنسبة لهم. إنه أب لرجال فى ضعف عمره: فهو أب لهم على الطريقة القبلية القديمة، فهم كلهم من تراقيا، لكنه هو التراقى، ولهذا ينشد لهم فى صوت رقيق كأنه أب يقص على أطفاله قصة:

«مثلما تتكسر المياه المتلاحقة على الشاطئ؛

فى صفوف متلاصقة أمام رياح الغرب،

متلاحقة فى نظام؛ صاعدة من أعماق المحيط ؛

ثم تتقوس وهى تتكسر على الأرض ؛

وزبدها الأبيض يتناثر قويا وبعيدا؛

كذلك تقدم الدلفانيون فى مثل هذا النظام

دون تردد إلى خط المعركة».

فيأسرهم ويضع حدا لتعاستهم. ويفكر قائلاً لنفسه: أية معجزة. وأى سحر فى هذا النشيد القديم؟ إنه يخرجهم من هذه الظلمة الرهيبة ليقفوا على شواطئ طروادة المتلألئة، هناك حيث أبراج المدينة البيضاء والأبطال المتمنطقون بدروع البرنز والذهب، ويرفع النشيد الخافت وينخفض فيحل عقد الرعب والقلق فى نفوسهم، وتحس فى الظلام حركة وتجمعًا، وليس من الضرورى للعبيد أن يعرفوا اليونانية، كما أن لهجة سبارتاكوس التراقية لا تكاد تشبه اللغة الأتيكية.. ولكنهم يعرفون النشيد حيث تكمن حكمة الشعب القديمة، وتحفظ لوقت المحنة...

أخيرًا يرقد سبارتاكوس لينام، وسينام. فهو رغم شبابه قد التقى منذ زمن بعيد بالأرق ذلك العدو الرهيب، وانتصر عليه. وهو الآن يلم شتات نفسه ويكتشف ذكريات طفولته.. إنه يريد السماء الزرقاء. الصافية الندية، والشمس المشرقه، والنسائم الرقيقة. وكلها هناك. إنه يرقد بين أشجار الصنوبر يرقب قطعان المعز وهى ترعى، وإلى جانبه رجل شيخ، والشيخ يعلمه القراءة. ويخط الشيخ بعصاه الحروف حرفًا بعد حرف فى التراب ويقول له: «اقرأ وتعلم يا بنى هذا هو السلاح الذى نحمله معنا نحن العبيد. وبغيره نصبح كالحيوانات فى الحقول لأن الإله الذى أعطى النار للبشر هو نفسه الذى

منحهم القدرة على تدوين أفكاره كى يتمكنوا من استرجاع أفكار الآلهة التى كانت فى العصر الذهبى منذ زمن بعيد، وقت أن كان البشر وثيقى الصلة بالآلهة، يخاطبونهم وقتما شاءوا. ولم يكن فى ذلك الوقت عبيد.. وسيعود هذا العصر من جديد.

هــذا مــا يـذكـره سبارتاكوس، ولا تلبث ذكرياته أن تستحيل حلمًا ثم لا يلبث أن ينام...

ويوقظه فى الصباح قرع الطبل، والطبل يقرع عند مدخل المأوى الحجرى فتتردد أصداؤه وتتردد بين جدران الكهف الصخرى فينهض ويسمع زملاءه العبيد من حوله ينهضـون، ويتحركون فى الظلمة الحالكة نحو المدخل. ويأخذ سبارتاكوس قدحه ووعائه الخشبى معه فلو أنه نسيهما لحرم من الطعام والشراب ذلك اليوم. لكنه عليم بأساليب العبودية وليس بينها – مهما تباينت – من فرق لا يستطيع أن يتبينه هو ويحس – وهو يتحرك – ضغط الأجساد من حوله، فيترك نفسه يتحرك معهم إلى الفتحة عند طرف المأوى الصخرى. ويظل الطبل يصدر صوته المدوى طيلة الوقت.

إنها الساعة السابقة على الفجر، والصحراء فى هذه الساعة ألطف ما تكون جوا، وفى هذه الساعة الوحيدة من اليوم تصبح الصحراء صديقًا. فالنسيم الرقيق يبرد وجه الجرف الأسود. والسماء رائعة بزرقتها السوداء المضمحلة، والنجوم المتلألئة تختفى فى رقة. وهذه هى الأشياء النسائية الوحيدة فى عالم الرجال هذا الخالى من البهجة والأمل. وحتى العبيد فى مناجم الذهب ببلاد النوبة التى لا يرجع منها إنسان قط، يجب أن يحصلوا على فترة من الراحة الصغيرة، ولهذا يعطونهم ساعة ما قبل الفجر كيما تملأ الحلاوة المرة الحادة قلوبهم وتنعش آمالهم.

ويقف الملاحظون متجمعين، يأكلون الخبز ويمتصــون المــاء. أما العبيد فلن ينالوا طعامًا أو ماء قبل أربع ساعات. ذلك أن الملاحظ شىء والعبد شىء آخر. فالملاحظون يلتفون فى عباءات صوفية ويحمل كل منهم سوطا وهراوة ثقيلة وسكينًا طويلاً. ترى من

يكون هؤلاء الرجال الملاحظون، وما الذى أتى بهم إلى هذا المكان الرهيب فى الصحراء حيث لا توجد النساء؟

إنهم رجال من الإسكندرية، قساة غلاظ، وهم هنا لأن الأجر مرتفع، ولأنهم يحصلون على نسبة مئوية من كل هذا الذهب الذى تخرجه المناجم. إن أحلام الثراء والفراغ والوعد بأن يصبحوا مواطنين رومانيين إذا خدموا الشركة المساهمة خمس سنوات، هى التى جاءت بهم إلى هنا، فهم يعيشون للمستقبل عندما يستأجرون مسكنًا فى أحد منازل روما، وعندما يشترى كل منهم ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا من الإماء يملأن عليه حياته ويقمن على خدمته، وعندما ينفق كل منهم أيامه فى ساحات القتال والحمامات، وعندما يشربون كل ليلة حتى الثمالة. وهم يعتقدون أنهم بمجيئهم إلى هذا الجحيم يرفعون من مستوى جنتهم المستقبلة فى الأرض. إلا أن حقيقة الأمر هى أنهم، ككل حراس السجون، يرغبون فى السيادة الرخيصة على المحكوم عليهم أكثر من رغبتهم فى العطور أو الخمر أو الإماء.

وهم رجال من نوع غريب، نتاج من نوع فريد لأحياء الإسكندرية المتواضعة، واللغة التى يتكلمونها هى خليط من اللغتين الآرامية واليونانية ولقد مضى قرنان ونصف قرن منذ غزا اليونان مصر. وهؤلاء الملاحظون ليسوا مصريين أو يونانيين! إنهم إسكندريون. ومعنى هذا أنهم متفننون فى عبثهم المختلف الأنواع ساخرون فى نظرتهم إلى الحياة، لا يؤمنون بالآلهة على الإطلاق، غرائزهم منحرفة سوقية، غارقون فى ملذاتهم، لا ينامون إلا مخدرين بعصير أوراق القات المخدرة التى تنمو على شاطئ البحر الأحمر.

وهؤلاء هم الرجال الذين يرقبهم سبارتاكوس فى الساعة اللطيفة الجو، السابقة على الفجر، حين يخرج العبيد من المأوى الصخرى الكبير ليحملوا أصفادهم فوق أكتافهم ويتجهوا إلى الجرف. سيصبح هؤلاء سادته؛ يملكون له قوة الحياة وقوة الموت، ولهذا راح يرقبهم ليتعرف إلى أوجه الاختلاف الصغيرة بينهم، وإلى عاداتهم ولأزماتهم

والدلائل التى تبنى شخصية كل منهم. ففى المناجم لا يوجد سادة طيبون، وكل ما فى الأمر أنه يوجد من هو أقل قسوة ووحشية من غيره. وأخذ يراقبهم وهم يتفرقون واحداً إثر الآخر ليتولوا القيام حيث يتجمع العبيد.

والمكان ما زال على ظلمته الحالكة فلا يستطيع تمييز دقائق الوجه والسمات، لكن عينه خبيرة بمثل هذه الأمور، فحتى مشية الرجل وثقله فيهما تعريف به.

وأصبح الجو بارداً والعبيد عراة من كل شيء حتى من خرقة حول حقويهم تستر أجسامهم الهزيلة النحيلة المثيرة للشفقة التى سودتها الشمس، يرتعدون فى وقفتهم ويلقون أذرعتهم حول أجسادهم. ويأخذ الغضب بسبارتاكوس فى بطء، لأن الغضب ليس مجدياً فى حياة العبد، لكنه يقول فى نفسه: «كل شيء يهون إلا تحمل هذا، فعندما لا نجد حتى خرقة الثياب التى تستر عوراتنا نصبح كالحيوانات»، ثم يراجع نفسه ويقول: «لا - بل أقل من الحيوانات لأن الرومان بعد أن استولوا على الأراضى التى كنا نملكها والمزارع التى كنا نفلحها، تركوا الحيوانات فى الحقل وأخذونا نحن لنعمل فى المناجم».

ويقف الآن قرع الطبول المحطمة للأعصاب، ويبدأ الملاحظون يحلون سياطهم ويقرقعونها ليزيلوا صلابة جلد الثور المدبوغ فيمتلئ الهواء بموسيقى القرقعة والطقطقة. ويلوحون بسياطهم فى الهواء لأن الوقت لم يحن بعد لضرب الأجساد بالسياط. وتتحرك الجماعات خارجة من تشكيلاتها. لقد ازداد ضوء النهار وأصبح فى وسع سبارتاكوس أن يرى - بوضوح - الأطفال المرتعدين الناحلين الذين سيزحفون داخلين إلى باطن الأرض ليخدشوا الحجر الأبيض حيث يكمن الذهب. ويرى بقية التراقيين ذلك أيضًا لأنهم يتجمعون حول سبارتاكوس، ويهمس بعضهم قائلاً:

- أبتاه... أبتاه... أى جحيم هذا؟

فيقول سبارتاكوس:

- ستتحسن الأحوال.

وماذا تملك أن تقول غير ذلك عندما يناديك من هم فى سن أبيك قائلين: «يا أبتاه؟» لهذا يقول ما يجب عليه أن يقول فى مثل هذه الظروف.

لقد توجهت الآن كل الجماعات إلى الجرف ولم يبق إلا جماعة التراقيين المتزاحمة وستة من الملاحظين يقودهم واحد منهم، وسياطهم المدلاة تخط آثارها على الرمال. ويتقدمون نحو القادمين الجدد، ويتكلم واحد من الملاحظين فيسأل فى رطانته الغربية:

- من زعيمكم يا تراقيون؟

فلا يجيب أحد.

- إن الوقت لم يحن بعد لاستخدام السوط.

فيقول سبارتاكوس:

- إنهم ينادوننى قائلين «يا أبتاه».

فينظر إليه الملاحظ صاعداً نازلاً بعينيه، ويقيسه بنظره ثم يقول:

- لكنك أصغر من أن تنادى بذلك.

- إنها عادة بلادنا.

- لكن عاداتنا هنا تختلف عن ذلك، يا «أبتاه» هنا يجلد الأب عندما يأثم الطفل. أتسمعنى؟

- أسمعك.

- أصغوا إلى كلكم إذن يا تراقيون. هذا مكان سيئ، لكنه يمكن أن يصبح أسوأ مما هو. فإذا عشتم فنحن نطلب العمل والطاعة. وإذا متم فنحن لا نطلب شيئًا. إن الحياة فى غير هذا المكان أفضل من الموت، أما هنا ففى وسعنا أن نجعل الموت أفضل من الحياة أتفهموننى يا تراقيون؟

بدأت الشمس ترتفع. وعادت السلاسل تضمهم فيحملون أصفادهم إلى الجرف. ثم تفك القيود. ثم اختفى برد الصباح القصير الأمد. ثم يعطونهم أدوات العمل: المثاقب الحديدية والمطارق والأوتاد الحديدية، ويدلونهم على خط أبيض فى الصخر الأسود عند قاع الجرف. وقد يكون ذلك بداية العرق وقد لا يكون شيئًا على الإطلاق. وعليهم أن يقطعوا الصخر الأسود من حوله وأن يخرجوا الحجر الحاوى للذهب.

وها هى ذى الشمس فى السماء. وتبدأ حرارة النهار الرهيبة من جديد، المثقب والمطرقة والوتد. ويحمل سبارتاكوس مطرقة ويهوى بها. إلا أن ثقل المطرقة يزداد ساعة بعد ساعة، وهو رغم صلابة عوده لم يقم طيلة حياة الكدح التى عاشها بمثل هذا النوع من العمل، فلا تلبث، كل عضلة فى جسده أن تتوتر وترتعد من فرط توترها. إن من اليسير أن نقول إن المطرقة تزن ثمانية عشر رطلا، لكننا لا نجد ألفاظًا تصلح لوصف ألوان العذاب التى يعانيها رجل يحمل هذه المطرقة ويهوى بها ساعة بعد ساعة. ويبدأ سبارتاكوس يتصبب عرقًا فى هذا المكان حيث الماء ثمين، يتفصد العرق من جلده ويجرى نازلا من جبهته إلى عينيه، فيقرر بكل ما فى إرادته من قوة أن يوقف هذا العرق لأنه يعلم أن العرق فى هذا الجو معناه الهلاك. لكن العرق لا يتوقف، ويصبح العطش مؤلمًا بل حيوانا وحشيا رهيبا فى داخل جسده.

وتمضى ساعات أربع هى الأبدية، ساعات أربع هى اللانهائية. ومن يعرف خيرًا من العبد كيف يسيطر على رغبات الجسد؟ ومع ذلك يحس سبارتاكوس أنه يكاد يموت عطشًا. ويشعر كل التراقيين بنفس الشعور، فيفرغون القرب الجلدية من السائل المبارك بما فيه من طحالب خضراء، ثم يدركون مدى الخطأ الذى ارتكبوه.

تلك هى مناجم الذهب فى بلاد النوبة. وما إن ينتصف النهار حتى تأخذ قوتهم وقدرتهم على العمل فى الضعف فتبدأ السياط فى حثهم عليه ودفعهم إليه. وللسوط سلطان كبير إذا كان من الملاحظ، فهو قادر على أن يمس أى جزء من الجسم فى رقة وخفة وتهديد وتحذير. وهو قادر على أن يمس حقوق الرجل أو فمه أو ظهره

أو حاجبه، والسوط فى يده كالآلة الموسيقية يستطيع أن يعزف بها فوق جسد الإنسان، الآن أصبح العطش أسوأ عشر مرات مما كان عليه من قبل، إلا أن الماء قد نفد ولن ينالوا المزيد منه، حتى ينتهى عمل اليوم، هذا اليوم هو الأبدية.

ومع ذلك فهو ينتهى، لأن كل شىء ينتهى. فهناك وقت للبداية ووقت للنهاية. وتدق الطبول من جديد وينتهى عمل اليوم.

ويلقى سبارتاكوس بالمطرقة ويتطلع إلى يديه الداميتين ويجلس بعض التراقيين. ويتدحرج أحدهم وهو فتى فى الثامنة عشرة ويرقد على جنبه وقد شد ساقاه فى عذاب شديد، ويذهب سبارتاكوس إليه.

– أبتاه .. أبتاه.. أهذا أنت؟

فيقول سبارتاكوس:

– أجل.. أجل.

ثم يقبل الفتى بين حاجبيه.

– إذن قبل شفتى لأننى أموت يا ابتاه أريد أن أعطيك ما تبقى من روحى .

فيقبله سبارتاكوس، لكنه لا يتسطيع البكاء لأن العطش قد جعله مستشيطا جافا كالجلد المحروق.

- ٤ -

وبهذا انتهى باتيانوس من قصة ذهاب سبارتاكوس وبقية التراقيين إلى مناجم الذهب فى بلاد النوبة وكيف كدحوا عراة فى الجرف الأسود. وكانت القصة قد استغرقت وقتًا طويلاً فى روايتها. وكان المطر قد انقطع ونزل الظلام شاملاً حالكًا تحت سماء مثقلة، وقد جلس الرجلان. أحدهما مدرب للمجالدين. والآخر جندى نبيل على ثراء، قد يصبح يومًا أغنى رجل فى عالمه، فى المنطقة التى يغمرها ضوء المصباحين المرتجف. كان باتياتوس قد شرب من النبيذ قدرًا كبيرًا فازداد ترهل عضلات وجهه الرخوة، وكان من النوع الشهوانى الذى يجمع بين السادية وقدرة كبيرة على رثاء النفس وتحقيق الذات الموضوعى. فتلى قصة منجم الذهب فى قوة وروعة جعلت كراسوس يتأثر على الرغم منه.

ولم يكن كراسوس بالجاهل أو البليد الحس. فهو قد قرأ الدورة العظيمة التى كتبها أخيلوس عن بروميثيوس، ورأى جانبًا من معناها يتحقق فى سبارتاكوس فى خروجه من حيث كان ليصبح شخصًا تعجز كل قوة تجمعها روما عن الوقوف فى وجه عبيده، وكان يحس برغبة حارة وحاجة ملحة إلى فهم سبارتاكوس، إلى تصور سبارتاكوس أجل، وإلى أن يزحف قليلاً إلى داخل سبارتاكوس، رغم ما فى ذلك من صعاب، كى يفسر اللغز الخالد لطبقته، لغز الرجل رهين القيود الذى يمد يده إلى النجوم، عسى أن يتضح هذا اللغز فى شىء ما، وراح ينظر إلى بانيانوس شذرًا وهو يحدث نفسه بأنه يدين فعلاً لهذا الرجل السمين القبيح بقدر كبير.

وقال يسأل متعهد المجالدين:

– وكيف فر سبارتاكوس من ذلك المكان؟

– إنه لم يفر. فلا أحد يفر من ذلك المكان إن فضيلة هذا المكان هى أنه يقضى فى أقصر وقت على رغبة العبد فى العودة إلى عالم البشر، ولقد اشتريت سبارتاكوس من هناك.

– مـن هنـاك؟ ولـم؟ وكيـف عـرفت أنه هناك، أو من يكون أو ماذا يكون؟

– لم أكن أعرف. لكن هل تظن أن شهرتى فى اختيار المجالدين خرافة، رواية؟ – هل تظننى رجلاً بديناً عديم الفائدة لا يعرف شيئًا عن أى شىء؟ إن الفن موجود حتى فى حرفتى وأؤكد لك..

فأحنى كراسوس رأسه موافقًا وقال:

– إنى أصدقك، فحدثنى، كيف اشتريت سبارتاكوس؟

فسأله باتيانوس وهو يمسك بزجاجة النبيذ الفارغة قائلاً:

– هل تحرمون النبيذ على الفرقة؟ أو يجب أن أضيف رذيلة السكر إلى ما تحتقروننى من أجله؟ أو هو القول بأن الأحمق يمسك لسانه جيداً ولا يفك عقدته إلا الخمر؟

فأجابه كراسوس قائلاً:

– سأحضر لك مزيداً من النبيذ.

وقام واخترق الستار إلى غرفة نومه وعاد بزجاجة ثانية. وباتياتوس يعتبر نفسه جليسه، لهذا لم يعبأ باتياتوس بآداب الضيافة فأطاح بعنق الزجاجة على ساق المنضدة وظل يصب منها فى قدحه حتى فاض وابتسم وقال :

– دماء ونبيذ. لقد كنت أفضل أن أولد فى بيئة غير هذه وأن أقود فرقة عسكرية. لكن من يدرى؟ قد تكون متعتك أنت فى مشاهدة المجالدين يتقاتلون. أما أنا فقد ضقت ذرعًا بذلك .

– وأنا أشاهد من القتال ما فيه الكفاية.

– أجـل، بطـبـيـعـة الحـال إلا أن للمـجـتلد ورجـالـه أسلوبًا فى القتـال لا تجـاريه مـجزرتك الجمـاعـيـة. لقد أرسلوك لإنقاذ مصـير رومـا بـعد أن حطم سبـارتاكوس ثلاثة أرباع قـوات رومـا المسلحـة، وهل تسيطر الآن على إيطاليـا؟ كـلا إن الحـقـيـقـة أن سبارتاكوس هو الذى يسيطر على إيطاليا. أجل إنك ستهزمه. إذ لا يستطيع خصم أن يقف فى وجه روما. إلا أن ذلك مؤقت، لأنه متفوق عليكم. أليس كذلك؟

فأجابه كراسوس قائلاً:

– نعم.

– ومن ذا الذى درب سبارتاكوس؟ أنا. إنه لم يقاتل فى روما قط لكن خير القتال لا تجده في روما. إن رومـا لا تقدر إلا حـانوت القصـاب، أمـا القتـال الحق فتـجده فى كابوا وصقلية. أصغ إلى، إن أى جندى من جنود الفرق لا يقوى وهو يحمل خوذة فوق رأسه ودروعًـا فوق صـدره وكتفـاه مـغطاتان بكل هذه الدروع كالطفل فى الرحم، على الطعن بتلك العصـا التى يعطونها له، أما إذا شئت القتال بحق فانزل عاريًا إلى المجتلد ولا تحـمل شيئًـا إلا السيف فى يمـينك، والدمـاء تغطى الرمـال وتنفـذ رائحـتها إلى أنفك وأنت تدخل إلى المجـتلد، ثم يدوى النفير وتقرع الطبـول، والشمـس مـشـرقـة والسيدات يلوحن بمناديلهن المزركشـة فتثور غرائزك بينما يتمزق بطنك وتقف هناك تصرخ بينما تبرز أحشاؤك وتتهاوى على الرمال. هذا هـو القتال يا قائدى – وإذا شئت أن تجيد ذلك النوع منه فـإن الرجل العـادى لا يصلح له بل أنت فى حـاجـة إلى سـلالة أخـرى من الرجـال، وأين تجدهـا؟ إنى أرحب بإنفاق المال فى سبيل المال. وعلى هذا أرسل وكلائى ليشـتروا لى مـا أحـتـاج. أبعث بهم إلى حـيث يسـارع الضـعـاف إلى الموت وحيث يقتل الجبنـاء أنفـهسم. إنى أبعث بهم مـرتين فى كل عـام إلى مناجم النوبة. ولقـد ذهبت إلى هنـاك بنفسى ذات مرة – أجل وكان فى تلك المرة الكافية وإن شئت أن تضمن استمرار

المنجم فى العمل، فعليك أن تستهلك العبيد، ذلك أن الكثرة الغالبة منهم لا تعيش إلا عامين لا أكثر. ومنهم من لا يتحمل إلا ستة أشهر. لكن الوسيلة الوحيدة المربحة لتشغيل المنجم هى سرعة استهلاك العبيد وشراء المزيد منهم على الدوام. وإذا كان العبيد يعرفون ذلك فهناك على الدوام خطر اليأس الذى يدفع إلى التهور، وهذا التهور هو أكبر خطر يهدد المناجم. لأنه وباء معد. وعندما تجد رجلاً يائساً متهوراً، رجلا قويا لا يهاب السوط ويسمع له بقية الرجال فخير ما يمكن عمله هو المبادرة إلى قتله وتعليقه فى ضوء الشمس ليتغذى الذباب بلحمه وليرى كل إنسان نتيجة اليأس والتهور. لكن وسيلة القتل هذه فيها ضياع وتبديد ولا تضيف شيئًا إلى مالك. لهذا اتفق مع الملاحظين على أن يحتفظوا لى بهؤلاء الرجال ويبيعوهم لى بثمن معقول. ويذهب الثمن إلى جيوبهم ولا يخسر أحد شيئًا. وهؤلاء الرجال هم خير المجالدين .

– وهذه هى الطريقة التى اشتريت بها سبارتاكوس؟

– بالضبط. لقد اشتريت بها سبارتاكوس وتراقيا آخر يدعى جانيكوس .

وأنت تعلم كيف ازداد الإقبال فى ذلك الوقت على المجالدين التراقيين لبراعتهم فى استعمال الخنجر. فالإقبال على الخنجر هذا العام وعلى السيف فى العام التالى وعلى المدراة فى العام الذى يليه. والحقيقة أن كثيراً من التراقيين لم يمسوا الخنجر طيلة حياتهم، لكنها خرافة. والسيدات، يرفضن مشاهدة الخنجر فى أيد غير أيديهم .

– وهل اشتريته بنفسك؟

– عن طريق وكلائى. وقد شحنوا الاثنين فى أصفادهما على سفينة من الإسكندرية. ولى وكيل فى ميناء نابولى بعث لى بهما على محفتين من هناك.

فاعترف كراسوس قائلاً:

– ليست مهنتك باليسيرة:

وكراسـوس يقظ على الدوام لكل مكان يستطيـع أن يستغل فـيه قدراً يسـيراً من المال استغلا لا مربحاً. أومأ باتياتوس برأسه وقال:

– إذن فأنت تقدر ذلك ؟

وانساب النبيذ من جانبى فمه وهو يبسط طيات اللحم الضخمة المحيطة بذقنه، وتابع حديثه قائلاً:

– وقل من الناس من يقدر ذلك. أى قدر من المال تعتقد أنى استغله فى معهدى فى كابوا؟

فهز كراسوس رأسه وقال:

– لم يخطر ذلك ببالى قط، فالمرء يشاهد المقاتلين ولا يقف للتفكير فى رأس المال المستغل لإدخالهم إلى المجتلد. لكن هذه مسألة عامة. فالمرء عندما يشاهد فرقة عسكرية يقول لقد وجدت الفرق العسكرية دائماً، ولذلك فستوجد الفرق على الدوام.

وكان هذا القول ملقَّارائعًا، فوضع باتياتوس قدحه وحدق إلى القائد ثم دلك داخل أنفه الضخم بأصبعه صعوداً ونزولاً وقال:

– خمن.

– مليون؟

فقال باتياتوس فى بطء وتأكيد:

– خمسة ملايين دينار. خمسة ملايين دينار. تصور هذا. فأنا أتعامل مع وكلاء فى خمسة أقطار. ولى وكيل دائم فى ميناء نابولى ولا أطعم من لى من المجتلدين إلا أفخر الأطعمة، القمح الكامل والشعير ولحم البقر وجبن العنزة، ولى مجتلدى الخاص لإقامة عرض صغير أو قتال بين اثنين، أما مسرحى الكبير ففيه مدرجات حجرية وقد كلفنى مليونًا كاملاً، كما آوى وأطعم فصيلة كاملة من جنود الحرس المحلى، ودع عنك

الرشاوى التى أدفعها فى نفس الاتجاه - وأرجو معذرتك - فليس كل العسكريين من أمثالك. وإذا أردت أن تأخذ مقاتليك إلى روما ليتقاتلوا فيها فإن هذا يقتضيك خمسين ألف دينار كل عام للمحاكم وحكام المناطق دع عنك ذكر النساء.

فسأله كراسوس قائلاً:

- النساء؟

- ليس المقاتل المجالد حراثا فى ضيعة. فإذا أردته أن يكون كما تشتهى فعليك أن تزوده بمن يضاجعها. فتزداد شهيته للطعام ويحسن القتال، ولى بيت يضم نسائى، ولا أبتاع منهن إلا خيرهن فليس فيهن امرأة قذرة أو عجوز ذاوية، ويجب أن تكون كل واحدة منهن عندما أتسلمها قوية صحيحة عذراء. وأنا أعرف ذلك .

وأفرغ قدحه فى جوفه ولعق شفتيه وبدا عليه الحزن والوحدة وقال شاكيًا وهو يصب النبيذ فى بطء:

إنى فى حاجة إلى النساء، قد لا يرغب فيهن بعض الرجال، لكنى أرغب فيهن.

- وتلك المرأة التى يقولون إنها زوجة سبارتاكوس؟

فقال باتياتوس:

فارينيا؟

وانقلبت سحنته وأطل من عينيه عالم من الكراهية والغضب والرغبة وعاد يقول:

- فارينيا؟

- حدثنى عنها.

ووشى الصمت الذى ران على كراسوس بأكثر مما تلاه من كلمات.

- كانت فى التاسعة عشرة عندما اشتريتها، كانت ألمانية من بنات الهوى، لكنها جميلة يجب أن تتطلع إليها إذا كنت ممن يعشقون الشعر الأصفر والأعين الزرقاء إنها

حيوان صغير قذر. وكان من الواجب أن أقلتها. كان الله فى عونى، لكننى أعطيتها لسبارتاكوس بدلاً من ذلك. وكان ذلك دعابة منى فقد كان هو راغبًا عن النساء وكانت هى راغبة عن الرجال. لقد كان الأمر مجرد دعابة .

– حدثنى عنها .

فزمجر بانياتوس قائلاً:

– لقد حدثتك عنها .

ووقف وتعثر خارجًا من بين طيات الخيمة وسمعه كراسوس يتبول فى خارجها . وكان من فضائل القائد أنه يسعى إلى تحقيق أهدافه بنفسه ولا يشرك معه إنسانًا فى التفكير. فلم يزعجه تعثر باتياتوس وهو يعود إلى المنضدة، ولم يكن بين أهدافه أو حاجاته أن يحيل متعهد المجالدين إلى سيد مهذب.

وقال فى إصرار:

– حدثنى عنها .

فهز باتياتوس رأسه فى تؤده وسأله فى وقار مبالغ فيه:

أيضايقك أن أفرط فى الشراب؟

فأجابه كراسوس قائلاً:

– لا أشعر بشىء ما فى هذه الناحية ولك أن تشرب ما تشاء، لكنك كنت تحدثنى كيف وصل إليك سبارتاكوس وجانيكوس عن طريق البر فى محفتين، وأظنهما كانا مصفدين؟

فأومأ باتياتوس رأسه موافقًا .

وإذن فأنت لم تره قبل ذلك؟

– لا. قد لا تعير أهمية لما رأيته أنا، لكننى أحكم على الرجال بغير ما تحكم به أنت عليهم. كان الرجلان ملتحيين، قذرين، تغطيهما القروح وقد خطط السوط جسديهما من الرأس حتى القدم وكانت الرائحة المنبعثة منهما كريهة إلى حد يقلب معدتك إذا اقتربت منهما. وكان برازهما الجاف يغطي جسديهما. وكانا ضامرين نحيلين إلى أقصى ما يكون عليه النحول، وكانت عيونهما وحدها هى التى تنطق بالبأس والتهور. وما كنت لترضى بأخذهما لتنظيف المرحاض فى بيتك. لكننى نظرت إليهما وشاهدت شيئًا. فهذا فنى، ثم أدخلتهما الحمام، وقصصنا شعرهما، وحلقنا لحيتيهما، ودلكناهما بالزيوت وأحسنا تغذيتهما.

– هلا حدثتنى الآن عن فارينيا؟

– عليك اللعنة.

ومد متعهد المجالدين يده إلى قنينة النبيذ. لكنه قلبها بسبب قلة عنايته. ومال على المنضدة يحدق فى اللطخة الحمراء. أما ما رآه فيها فلا يستطيع إنسان أن يخمنه، فلعله شاهد الماضى، ولعله شاهد شيئًا من المستقبل كذلك ففن التكهن بالغيب ليس كله خداعًا، وللرجال وحدهم، دون الحيوان، قدرة الحكم على نتائج أعمالهم. فهذا الرجل الذى مرن سبارتاكوس على القتال تسلل إلى مستقبل لا نهاية له – كما يفعل كل الرجال – لكن آجالا مجهولة ما زالت فى طي الغيب ستظل تذكرة وجلس مدرب الرجال الذى درب سبارتاكوس على القتال فى مواجهة قائد الرجال الذى سيحطم سبارتاكوس. لكنهما كانا يشتركان غيبياً فى فهم غامض مضطرب هو أنه لن يستطيع إنسان أن يحطم سبارتاكوس. وإذ كانا قد تقاسما بصيصاً ضئيلاً من هذا الغيب، فقد كان ذلك كافيا لأن تحل عليهما هما الاثنين اللعنة .

قال كراسوس القائد : هذا هو صديقك البدين النتولوس بتياتوس. إلا أن كايوس كراسوس، الفتى الراقد بجواره، كان قد غفا وأغلق عينيه - ولم يسمع من القصة إلا أجزاء متناثرة. ولم يكن كراسوس بالراوية للقصص، فالقصة فى ذهنه، وفى ذاكرته، وفى مخاوفه وآماله. لقد انتهت حرب العبيد وانتهى سبارتاكوس.. وبيت سالاريا الريفى يرمز اليوم للسلام والازدهار.

وما كان كاسيوس كراسوس قد استغرق فى النوم بعد، بل كان يسرح بخاطره إلى الصلبان التى تقوم على جانبى الطريق من روما إلى كابوا. ولم يزعجه أنه يقاسم القائد الكبير الفراش. فما كان جيله يشعر بعد بالحاجة إلى تخفيف وطأة الجريمة بالالتجاء إلى تبرير الانحراف الجنسى. بل كان ذلك أمرا عاديا بالنسبة له، كما كان عذاب الآلاف الستة من العبيد المعلقين على الصلبان على جانبى الطريق أمرا عاديا بالنسبة له أيضًا. بل لقد كان أكثر سعادة به من القائد الكبير كراسوس. فقد كان القائد الكبير كراسوس رجلاً تكتنفه الشياطين، أما كراسوس الشاب النبيل المحتد - الذى يتصل بالقرابة عن بعد بأسرة كراسوس التى تعد من أكبر أسر روما فى ذلك الوقت - فلم يكن يعرف الشياطين.

صحيح أن سبارتاكوس الميت يفزعه، وأنه هو يكره العبد الميت، إلا أنه عندما فتح عينيه وتطلع إلى وجه كراسوس القابع فى الظلال حار فى تفسير كراهيته له.

وقال كراسوس .. لست نائمًا قط. وهذه هى القصة على علاتها- إذا كنت قد سمعت منها شيئًا - ولماذا تكره سبارتاكوس الذى مات وانقضى إلى الأبد؟

لكن كايوس كراسوس كان تائها بين ذكرياته، فقد كان ذلك منذ سنوات أربع خلت، وكان صديقه حينذاك هو براكوس. وارتحل مع براكوس على طول الطريق الأبيوسى إلى كابوا، وكان براكوس يريد أن يرضيه، أن يرضيه فى شهامة وثراء وإشراف. فماذا تجد خيراً من الجلوس إلى جانب رجل ترغب فيه وسط الحشيات فى المجتلد لتشاهد رجالا يتقاتلون حتى الموت؟ فى ذلك الوقت، منذ سنوات أربع، أربع سنوات قبل هذه الليلة الغربية فى بيت سالاريا كان قد شارك براكوس محفته وتملقه براكوس ووعده بأن يريه ألوان القتال الموجود فى كابوا - على ألا يكون الثمن حائلاً بينه وبين ذلك له. وستراق الدماء فوق الرمال وسيشربان النبيذ وهما يرقبانها.

وذهب بعد ذلك مع براكوس لمقابلة لنتولوس بانياتوس صاحب أحسن معهد ومدرب خير المجالدين فى طول إيطاليا وعرضها.

وتذكر كايوس أن ذلك كله حدث منذ سنوات أربع - قبل أن تنشب حرب العبيد، وقبل أن يسمع إنسان باسم سبارتكوس أما الآن فقد مات براكوس ومات سبارتاكوس كذلك وهذا هو كايوس ينام فى فراش واحد مع أكبر القادة العسكريين فى روما.

الجزء الثالث

ويتضمن قصة الرحلة الأولى إلى كابوا التى قام بها ماريوس براكوس وكايوس كراسوس قبل الليلة التى أمضياها فى بيت سالاريا الريفى نحو أربع سنوات، وقصة قتال اثنين من المجالدين.

- ١ -

حـدث ذات يوم من أيام الربيع المشـرقـة أن كـان لنتـولوس باتيـاتوس؛ مـتـعـهـد المجالدين يجلس فى مكتبـه يتجشأ بين الفينة والفينة وقد استحال إفطاره الضخم إلى كتلة مريحة فى معدته، إذ دخل إلى الحجرة كاتب حساباته اليونانى ليخبره أن شابين رومانيين ينتظران فى الخارج، وأنهما يريدان التحدث إليه بشـأن تنظيم قتال بين اثنين من المجالدين.

وكان المكتب وكاتب الحسابات - وهو عبد متعلم من أيونيا دليلين على ثراء أحوال باتياتوس وازدهارها فقد آتى تمرسه بشئون سياسة الأروقة، وقتال الشوارع المنظم وتعلقه الحكيم بالأسر الكبيرة الواحدة تلو الأخرى، ومقدرته التنظيمية التى ساعدته على تأليف إحدى كبريات عصابات الشوارع وأكثرها كفاية فى المدينة وآتى كل ذلك أكله - وأثبت استغلاله لأرباحه التى ادخرها بعناية، فى معهد المجالدين الصغير فى كابوا، إنه كان استغلالاً حكيمًا. وكان يحلو له أن يقول دائمًا إنه يمتطى موجه المستقبل. وإن رجل العصابات يستطيع الوصول إلى حد ما ثم لا يتخطاه، وإنه لا يوجد رجل العصابات الذى له من الحكمة ما يمكنه من اختيار الجانب الرابح على الدوام فقد اختفت عصابات أقوى من عصابته من مسرح السياسة الرومانية نتيجة انتصار غير متوقع لأحد الخصوم والغضبة المضرية لقنصل جديد. أما قتال الاثنين - كما كان العامة يسمى عادة - فهو ميدان جديد للاستثمار والربح. فقد كان عملاً مشروعًا ومعترفًا به، وكل من قرأ تاريخ ذلك الوقت بعناية يدرك أن قتال الاثنين كان لا يزال فى طفولته وأن التسلية العارضة سرعان ما تصبح جنونا دافقًا يصيب النظام الاجتماعى بأسره: فبدأ رجال السياسة يدركون أنه إذا عجز المرء عن اكتساب المجد

فى حرب ناجحة على أرض أجنبية ففى استطاعته أن يحققه بخلق صورة مصغرة له فى بلده وعلى هذا أخذ قتال المئات من أزواج المقاتلين الذى قد يدوم أياماً وأسابيع ينتشر، وأصبح من العسير تلبية الطلبات على المجالدين المدربين وأخذت أسعارهم فى الارتفاع يوماً بعد يوم وأنشئت الساحات الحجرية فى المدينة تلو الأخرى ولما أنشئت فى النهاية ساحة من أجمل الساحات وأكثرها روعة فى طول إيطاليا وعرضها فى مدينة كابوا قرر لنتولوس باتياتوس أن يشد الرحال إلى هناك ويقيم معهداً للمجالدين .

وبدأ أعماله فى نطاق ضيق بسيط فى كوخ صغير وحظيرة بسيطة للقتال يدرب فيها زوجا من المقاتلين دفعة واحدة إلا أن أعماله اتسعت ونمت نموا سريعا حتى أصبح اليوم بعد خمس سنوات يملك مؤسسة ضخمة يدرب ويحتفظ فيها بأكثر من مائة زوج من المجالدين وأصبح له مبناه الحجرى الخاص الذى يقيم فيه المجالدون وملعبه الرياضى، وبيت الحمامات الخاص به وفناء التدريب الخاص، وساحته التى خصصها لإقامة أى عرض خاص - وهى لا تشبه الملاعب العامة فى فخامتها ولكنها مع ذلك تتسع لجلوس جماعات يتراوح عددها بين الخمسين أو الستين وتتسع لقتال ثلاثة أزواج من المجالدين فى وقت واحد. وأقام بالإضافة إلى هذا علاقات محلية كافية مع الهيئات العسكرية - بدفع الرشاوى المناسبة - ليحصل على قوة كافية من القوات النظامية فى كل وقت. فوفر بذلك على نفسه نفقات إنشاء قوة الشرطة الخاصة به. وكان مطبخه يطعم جيشاً صغيراً لأن أهل بيته كانوا يزيدون على أربعمائة شخص ويضمون إلى المجالدين نساءهم والمدربين، والعبيد من خدم المنزل وعبيد المحفات ولا عجب إذن إذا كان يشعر بالرضا عن نفسه.

وكان المكتب الذى يجلس فيه ذلك الصباح المشمس من الربيع أحدث مقتنياته وكان فى بداية حياته العملية يصر على رفض تعليق الستائر على النوافذ. فهو ليس من أبناء الأسر الشريفة ولم يتظاهر يوماً بأنه يرغب فى أن يصبح كذلك إلا أنه وجد مع تضخم أرباحه أنه ينبغى له أن يحيا حياة تتلاءم مع ثرائه؛ فبدأ يشترى العبيد من

اليونان وتضمنت مشترياته مهندسا معماريا وكاتبا للحسابات. نصحه المهندس بأن يقيم لنفسه مكتبًا على الطراز اليونانى مستوى السقف يقوم على أعمدة وثلاثة جدران فقط على أن يفتح الجانب الرابع على أجمل ما يمكن أن يطل عليه من مكانه. فإذا ما أزيحت الستائر جانبًا، فتح جانب كامل من الغرفة للهواء الطلق وضوء الشمس. وكانت الأرض الرخامية والمنضدة البيضاء الجميلة التى يدير أعماله فوقها من خير ذوق وطراز. أما الجانب المفتوح فوراء ظهره وكان هو يجلس فى مواجهة الباب. وكان له فضلاً عن ذلك غرفتين إحداهما للمكتبة والأخرى لانتظار الزائرين، وكان ذلك وثبة بعيدة المدى حقا لمنظم قتال العصابات فى أزمنة روما.

وقال كاتب الحسابات:

– اثنان من الخلعاء .. عطور ومساحيق وخواتم وملابس ثمينة.. مال كثير لكنهما من الخلعاء سيتعبانك. أحدهما صبى أمرد فى الحادية والعشرين تقريبًا فيما أظن والآخر يحاول إرضاءه. فقال باتياتوس:

– ليدخلا.

ودخل الشابان بعد لحظة. ونهض باتياتوس فى أدب مفرط وأشار إلى مقعدين أمام المنضدة.

وبعد أن جلس الاثنان فحصهما باتياتوس فحصًا سريعًا وبعين الرجل الخبير وكانت تلوح عليهما من دلائل الثراء ما كفاهما الحاجة إلى إظهار غناهما. وكانا فى مقتبل العمر، ومن أسرة طيبة ولكنهما لم يكونا من النبلاء الظاهرين – لأن ما كانا عليه من ثراء كان واضحًا إلى درجة لا يتسامح فيها أى من متزمتى النبلاء فى المدينة فقد كان الشاب الأصغر، كايوس كراسوس، جميلا كالفتاة، بينما كان بيراكوس يكبره بعض الشيء، وكان أكثر منه صلابة وواضح السيطرة عليه. له عينان زرقاوان باردتان. وشعر فى لون الرمال، وشفتان رفيعتان، ومظهر ساخر فيه قحة.

وتولى هو الحديث بينما اكتفى كايوس بالسمع وإلقاء نظرة بين الفينة والفينة على صديقه فى احترام وإعجاب. وراح براكوس يتحدث عن المجالدين فى ألفة ويسر المفتون بالألعاب.

وقال الرجل البدين:

- أنا لنتولوس باتياتوس. متعهد المجالدين.

وتعمد أن يضيف إلى اسمه الصفة التى تبعث على الاحتقار لعلمه أنها ستكلفهما خمسة آلاف دينار على الأقل قبل أن ينقضى النهار، فقدم براكوس نفسه وصديقه له ثم طرق الموضوع مباشرة .

- نريد أن نشاهد عرضا خاصا لاثنين من المجالدين.

- لكما وحدكما؟

- لنا نحن ولصديقين لنا .

فأومأ متعهد المجالدين برأسه فى تفكير ومد يديه السمينتين أمامه كى يظهر ماستيه والزمردة والياقوتة ثم قال:

يمكن أن ننظم هذا العرض.

فقال براكوس فى هدوء:

- قتال حتى الموت.

- لقد سمعتنى أريد زوجين، من مقاتلى تراقيا يقتتلان حتى الموت. فسأل باتياتوس قائلاً:

- ولماذا ؟ لماذا ؟ أفى كل مرة تجيئون معشر الشباب من روما تريدونه قتالا حتى الموت؟ إن فى وسعكما أن تشاهدا نفس القدر من الدم المسفوك، ونفس البراعة فى القتال - لا، بل خيراً من ذلك - حتى تكتفيا، فلم إذن تريدونه قتالا حتى الموت؟

- لأننا نفضله.

وقال باتياتوس وهو يشير بيديه طلبًا للهدوء والتفكير والنظر العلمى بين الرجال ممن يفهمون القتال:

- ليست هذه إجابة. أصغ إلى .. أصغ إلى. أنت تطلب مقاتلين تراقيين وعندى خير قتال تراقى فى العالم بأسره. لكنك لن تشاهد قتالا جيدًا أو خير استعمال للخنجر إذا أردته قتالاً حتى الموت. وأنت تعرف هذا كما أعرفه أنا، وهذا منطقى ومعقول فأنت تدفع نقودك - ثم .. لا شىء.. انتهى كل شىء وفى وسعى أن أقدم لكما يومًا من القتال فى نواح لم تشاهدا لها مثيلا فى روما. والحق أنكما تستطيعان الذهاب إلى المسرح لمشاهدة ما يفوق أى شىء آخر فى روما، لكن ما دمتا قد جئتما، إلىَّ للحصول على المتعة الخاصة، فعلىَّ أن أحافظ على شهرتى. وأنا لم أشتهر بأننى قصاب، إنما أريد أن أقدم لكما قتالا جيداً . خير قتال يستطيع المال أن يشتريه.

فابتسم براكوس وقال:

- نريد قتالاً جيدًا، ونريده حتى الموت.

- هذا قول متناقض.

فقال براكوس فى رقة:

- متناقض حسب طريقتك فى التفكير. فأنت تريد أن تحتفظ بأموالى وبمقاتليك. أما أنا فعندما أدفع ثمن شىء، فأنا أشتريه وأنا الآن أشترى زوجين ليتقاتلا حتى الموت. فإذا رفضت أن تبيعنى إياهما قصدت مكانا آخر.

- وهل قلت إنى أرفض خدمتكما؟ وكل ما فى الأمر أننى أريد خدمتكما خيرا مما تظنان. أستطيع أن أقدم لكما زوجين من المقاتلين فى جولات من الصباح حتى الليل.. مدة ثمان ساعات من القتال فى اليوم فى الساحة إذا شئتما. واستبدل بأى مقاتل

يصاب بجراح بالغة مقاتلا آخر. سأقدم لكما كل الدماء والمتعة التى ترغبان فيها أنتما وسيداتكما. ولن أتقاضى منكما أكثر من ثمانية آلاف دينار لقاء كل ذلك. على أن يشمل هذا الطعام والخمور وأى خدمات قد تطلبونها.

فقال براكوس فى برود:

– أنت تعرف ما نريد. أنا لا أحب المجادلة.

– سيكلفك ذلك خمسة وعشرين ألف دينار.

فبهت كايوس، بل ذعر لضخامة المبلغ، إلا أن براكوس هز كتفيه فى عدم مبالاة وقال :

– موافق على أن يتقاتلوا وهم عراة.

– عراة؟

– لقد سمعت ما أقول يا متعهد المجالدين؟

– موافق.

– ولا أريد غشا أو خداعا – لا أريد أن يجرح كل منهما الآخر ويتظاهرا بأنهما انتهيا. فإذا سقط الاثنان فسيقوم واحد من مدربيك بقطع رقبتهما. ويجب أن يفهما ذلك.

فأومأ باتياتوس برأسه موافقًا.

– سأعطيك عشرة آلاف تحت الحساب والباقى بعد أن يفرغ الاثنين المتقاتلان كلاهما.

– موافق. وأرجو أن تدفع المبلغ لكاتب حساباتى، وسيعطيك به إيصالاً ويحرر العقود. فهل ترغبان فى مشاهدة المقاتلين قبل رحيلكما؟

- وهل نستطيع أن نحجز الساحة صباحًا؟

- فى الصباح - أجل. لكن يجب أن أحذرك من أن هذا اللون من القتال قد ينتهى انتهاء سريعا جدا.

- أرجوك ألا تحذرنى يا متعهد المقاتلين.

واستدار لكايوس وسأله:

- أترغب فى مشاهدتهم يا بنى؟

فابتسم كايوس فى استحياء وهز رأسه موافقًا. وخرجا. وبعد أن دفع براكوس المبلغ، ووقع العقد، صعدا إلى محفتيهما وحملهما العبيد إلى فناء التدريب. ولم يستطع كايوس أن ينتزع بصره من براكوس. فقد كان يفكر فى أنه لم ير من قبل رجلاً يتصرف بهذا الأسلوب الذى يبعث على الإعجاب. لم يكن الأمر مجرد إنفاق خمسة وعشرين ألف دينار - فقد كان كل من يعرف كايوس يعتبر دخله البالغ ألف دينار فى الشهر دخلا سخيا - بل إن موضع الإعجاب هو طريقته فى الإنفاق وطريقته العارضة فى التعامل بالحياة الإنسانية. فهى لون من الألوان الاحتقار الساخر لكل ما يتطلع إليه كايوس وما يمثل له أعلى مراحل التمدين. وكايوس لن يجد الشجاعة ولو بعد ألف عام على أن يطلب قتال المجالدين وهم عراة. إلا أن هذا كان أحد الأسباب التى من أجلها رغبا فى مشاهدة العرض لمتعتهما الخاصة فى كابوا بدلا من الذهاب إلى المجتلد فى روما.

وأنزل العبيد محفتيهما عند فناء التدريب. وكان هذا الفناء منطقة مسورة بأسوار من الحديد يبلغ طولها مائة وخمسين قدما وعرضها أربعين، وتمتد الأسوار حول ثلاثة أضلاع منها، أما الضلع الرابع ففيه المبنى الحجرى الذى يقيم فيه المجلدون وأدرك كايوس أنه أمام فن أعلى وأخطر من تدريب الوحوش والاحتفاظ بها. لأن المجالد ليس حيوانا خطراً فحسب، بل هو حيوان مفكر كذلك. وطافت به رعدة لذيذة من الخوف

والاهتياج وهو يرقب الرجال فى فناء التدريب وكان عددهم يقارب المائة يرتدون خرقًا حول أوساطهم ولا شيء عدا ذلك، حليقين، قصيرى الشعر، يقومون بتمارينهم بالعصى الخشبية والهراوات ويسير بينهم نحو ستة من المدربين هم، ككل المدربين، من محاربى الجيش القدامى. وكان المدرب يحمل فى إحدى يديه سيفا إسبانيا قصيرا ودرعا نحاسيا قصيرا فى اليد الأخرى، ويسير فى حذر ويقظة وعيناه قلقتان متيقظتان. وتناثرت حول الفناء فصيلة كاملة من قوات الجيش النظامية، تفرض بهراواتها الثقيلة القاتلة نظامًا لا يعرف الخلل. وقال كايوس لنفسه: لا عجب إذن إذا كان المال الذى يدفع ثمنًا لموت بعض هؤلاء الرجال عاليا.

أما المجالدون أنفسهم، فعضلاتهم رائعة، وحركاتهم فيها رشاقة النمور. وكانوا ينقسمون بوجه عام إلى فئات ثلاث، هى الفئات الثلاث للمقاتلين المشهورة فى إيطاليا حينذاك. الفئة الأولى هى التراقيون – وهم جماعة أو أبناء مهنة واحدة أكثر منهم أبناء جنس من الأجناس، لأن فيهم كثيرًا من اليهود واليونان – وكانوا مطلوبين أكثر من غيرهم فى ذلك الوقت. وهم يحاربون بخنجر قصير معقوف بعض الشيء، هو السلاح المستعمل فى تراقيا ويهوذا مصدر غالبيتهم . أما الرتيارى فهم الفئة الثانية وكان عهد شهرتهم قد بدأ لتوه، ويحاربون بسلاحين غريبين.. شبكة صيد السمك، ومذراة طويلة مثلثة الفروع. وكان باتياتوس يفضل لهذا اللون من القتال أبناء أفريقيا الطوال القامة، الطوال الأطراف، السود الوجوه، القادمين من بلاد الحبشة. وكانت هذه الفئة تقاتل دائمًا فئة المرميلون، وهى فئة من المجالدين لا تميزهم صفة خاصة، يقاتلون بالسيف وحده، أو بالسيف والدرع. وكانت غالبية المرميلون عادة من ألمانيا أو بلاد الغال.

وقال براكوس وهو يشير إلى الرجال السود:

– انظر إليهم. هذا هو خير ألوان القتال وأكثرها براعة، إلا أنه قد يصبح مملا. وكيما تشاهد القتال فى أحسن مظاهره يجب أن تشاهد التراقيين.

وسأل باتياتوس قائلاً:

- ألا توافقني؟

فهز متعهد المجالدين كتفيه وقال:

- لكل مميزاته.

- أريد الجمع بين تراقي ومقاتل أسود.

فنظر إليه باتياتوس لحظة ثم هز رأسه وقال:

- لا يمكن الجمع بينهما. فالتراقي لا يحمل إلا خنجراً.

فقال براكوس:

- أريد ذلك.

فهز باتياتوس كتفيه. والتقت عيناه بعيني أحد المدربين. فأشار له برأسه أن يأتي: وراح كايوس، مفتونا، يراقب صفوف المقاتلين وهم يقومون بتمريناتهم الدقيقة الشبيهة بالرقص. يرقب اليهود والتراقيين يتمرنون على قتال الخناجر بعصي قصيرة وهراوات خشبية صغيرة، والرجال السود يقذفون بالشباك وبالرماح الخشبية الطويلة الشبيهة بأيدي المكانس، والألمان الضخام الشقر يبارزون الغاليين بالسيوف الخشبية. ولم ير هـو في حياته من قبل رجالاً يعملون بمثل هذا النظام أو خفة الحركة أو الرشاقة، لا يعرفون التعب، وهم يؤدون تمريناتهم ويعيدونها مرات ومرات. وأثاروا وهم في مكانهم تحت ضوء الشمس، وراء القضبان الحديدية، شعوراً بالرثاء حتى في كايوس - حتى في ضميره الفقير المعقد المعوج التالف - لأن مثل حياتهم الرائعة المليئة بالحيوية لا تستخدم إلا في التقتيل، لكن هذا الشعور لم يدم إلا لحظة: لأنه لم يمر في حياته قط من قبل بمثل هذا الهياج الشعوري الحاد من جراء تجربة مقبلة. ذلك بأن الملل قد تسرب إلى حياته وهو بعد طفل، لكنه لم يعد يعرف الملل الآن.

وراح المدرب يشرح لهما قائلاً:

- ليس للخنجر إلا حد واحد مسنون، فإذا ما وقع الخنجر فى الشباك انتهى التراقى. وهذا يثير الشغب فى المعهد لأن القتال متكافئا.

فقال باتياتوس فى اقتضاب:

- أحضرهما.

- لماذا لا نجرب ألمانيا؟

فقال براكوس فى برود:

- إنما أدفع الأجر لأحصل على التراقيين، فلا تجادل معى.

وقال متعهد المجالدين:

- لقد سمعت ما قال..

وكان المدرب يعلق صفارة فضية صغيرة فى خيط حول عنقه، فنفخ فيها بشدة ثلاث مرات فوقف المجالدون عن تدريبهم، وسأل المدرب باتياتوس :

- أيهم تريد؟

- درابا.

فصاح المدرب ينادى:

- درابا.

فاستدار واحد من السود ومشى نحوهم يجر شبكته وعصاه. وكان عملاقًا يلمع جسده الأسود من العرق المتفصد منه.

- داود.

فصاح المدرب ينادى:

- داود

وكان هذا يهوديا نحيلا شبيها بالصقر، شفتاه رقيقتان حادتان، وعيناه خضراوان، حليق الوجه، لوحت الشمس وجهه. وكان يدير خنجره الخشبى المقوس بين أصابعه وهو يحدق إلى ما وراء الضيفين دون أن يراهما.

وقال براكوس لكايوس:

- إنه يهودى وهل رأيت يهوديا من قبل؟

فهز كايوس رأسه.

- سيكون ذلك مثيراً. فاليهود بارعون فى استعمال الخنجر المقوس. وهذا كل ما يعرفونه من فنون القتال، لكنهم بارعون فيه .

- بوليموس.

وصاح المدرب:

- بوليموس.

وكان هذا تراقيا صغير السن رشيقًا جميلاً.

- سبارتاكوس.

فانضم هذا إلى الثلاثة الآخرين ووقف الرجال الأربعة يفصلهم عن الشابين الرومانيين ومتعهد المجالدين والعبيد حملة المحفات، السور الحديدى الضخم المحيط بفناء التدريب. وأدرك كايوس وهو يتطلع إليهم أنهم شىء جديد، شىء غريب وغير مألوف ورهيب على حد قوله، ولم يكن الأمر مقصوراً على الرجولة الغاضبة الشاردة المتمثلة فيهم - وهى رجولة شبه معدومة فى محيط معارفه - بل يضاف إليه جهل

كايوس بهم فهم رجال دربوا على القتال والقتل لا كما يحارب الجنود، ولا كما يتقاتل الحيوان، إنما كما يتقاتل المجالدون وهو قتال يختلف عن غيره كل الاختلاف كأنه ينظر إلى أربعة أقنعة مخيفة.

وسأله باتياتوس:

– ما رأيك فيهم؟

ولم يكن كايوس فى حال تسمح له بالإجابة أو الكلام على الإطلاق إلا أن براكوس قال فى برود.

– كلهم على ما يرام، عدا ذلك ذى الأنف المجدوع فإنه لا يبدو عليه مظهر المجالدين.

فذكره باتياتوس قائلاً:

– قد تكون المظاهر خداعة. فهذا سبارتاكوس وهو بارع قوى جدا، وسريع جدا. ولقد اخترته لغرض فهو سريع جدا .

– ومن اخترت لمنازلته؟

فأجاب باتياتوس قائلاً:

– الرجل الأسود.

فقال براكوس:

– فليكن. أرجو أن يكون القتال مساوياً للثمن.

وكان هذا الزمان والمكان هما اللذين شاهد فيهما كايوس سبارتاكوس رغم أنه، بعد مرور أربع سنوات، كان قد نسى أسماء المجالدين ولم يعد يذكر إلا حرارة الشمس وشكل المكان ورائحته ورائحة أجساد الرجال المتصببة عرقًا.

هذه فارينيا ترقد مستيقظة فى الظلام، لم تذق طعم النوم. فى تلك الليلة ولم يزر جفنيها حتى فى لحظات قصار. أما سبارتاكوس الراقد إلى جوارها فهو نائم. نائم نومًا عميقًا كاملاً. وأنفاسه المترددة في هواء الشهيق والزفير اللذين هما وقود نار الحياة فى جسده منتظمة رتيبة ككل الصعود والهبوط المنظمين فى عالم الحياة. وفارينيا تفكر فى ذلك، وتعلم أن كل ما هو موجود فى سلام، وكل ما هو فى صراع مع الحياة، يسير بهذا الانتظام، سواء كان ذلك حركة المد والجزر أو مد الفصول أو إخصاب البويضة فى المرأة.

ولكن كيف ينام رجل بهذه الطريقة وهو يعرف ما سيواجهه عند يقظته؟ كيف ينام على حافة الموت ومن أين يأتيه هذا السلام؟

وتمسه فارينيا فى رقة، رقة بالغة. وتتحسس بشرته، لحمه وأطرفه، وهو يرقد إلى جوارها فى الظلام. إن جلده مرن نضر حى، وعضلاته مسترخية، وأطرافه متراخية مستريحة إلا أن النوم لثمين ؛ لأن النوم هو الحياة بالنسبة له.

(نم، نم، يا حبيبى يا عزيزى، يا رجلى الرقيق، يا رجلى الطيب، يا رجلى الرهيب - نم، نم وارع قوتك يا رجلى، يار جلى) .

وتلتصق به فارينيا فى رقة،وحذر حتى تغدو حركاتها كلها كالهمس تلتصق به ويلامس وجهها فى النهاية وجهه، وتلتصق وجنتها بوجنته فينسدل شعرها الذهبى فوقه كالتاج وتساعدها الذكريات والحب على التخفيف من رعبها، لأن الخوف والحب لا يعيشان معًا فى يسر.

ويمر الليل ويدخل أول شعاع ضئيل شاحب من أشعة الفجر إلى الحجرة الضيقة ولو أن فارينيا وقفت وشدت قامتها، قامتها الرشيقة الطويلة لوصل رأسها إلى مستوى النافذة الوحيدة فى الحجرة ولو أنها مدت البصر إلى خارجها لرأت فناء التدريب المسور بالحديد وأبصرت من ورائه الجنود النيام القائمين بالحراسة ليل نهار. وهى تعرف ذلك جيداً لأن الحجرة الضيقة والقيد ليسا موطنها الطبيعى ولا موطن سبارتاكوس.

وملأت هذه المرأة بالذات باتياتوس رغبة وشروراً. وكان وكيله قد اشتراها من روما بثمن بخس هو خمسمائة دينار. وأدرك هو أن الصفقة رابحة، فقد كان مجرد النظر إليها يملؤه رغبة وسروراً. لسبب. لقد كانت طويلة القامة، جميلة التكوين كغالبية نساء قبائل الألمان، وباتياتوس يعجب بالنساء الطويلات القامة، الجميلات التكوين. هذا سبب أما السبب الآخر فهو أنها كانت صغيرة السن، لا تتعدى العشرين أو الحادية والعشرين وباتياتوس يحب صغيرات السن. ولسبب ثالث، أنها كانت على قدر كبير من الجمال، يزين رأسها شعر أصفر جميل، وباتياتوس يفضل النساء الجميلات ذوات الشعر الجميل. وليس من العسير على الفهم إذن أن تدرك لماذا كانت فارينيا تملأ متعهد المجالدين بالرغبة والسرور.

إلا أنها لم تخل من العيب مع ذلك. وهو عيب اكتشفه يوم حاول أول مرة أن يجرها إلى مرقده. إذ انقلبت قطة متوحشة. استحالت إلى وحش يركل ويبصق ويخدش وينشب أظافره واضطر بسبب قوتها وضخامتها، إن يقضى وقتا قاسيا يضربها حتى غابت عن الوعى. وتهشمت فى أثناء الصراع كل الأدوات الثمينة التى كانت تزين غرفة نومه بما فيها وعاء للزهر يونانى جميل اضطر إلى استعماله فى ضربها به فوق رأسها حتى كفت عن المقاومة. وكان غضبه وخيبة أمله كبيرين إلى حد أنه شعر بأن له كل الحق فى قتلها؛ إلا أنه حين أضاف ثمن أوعية الزهر الجميلة، والمصابيح والتماثيل الصغيرة إلى ثمنها الأصلى رأى أن الثمن الجديد أعلى من أن يسمح لنفسه

بالاستسلام لغضبه. كما أنه لا يستطيع أن يبيعها فى السوق لقاء ثمن يتناسب مع مظهرها. ولعل نشأته وهو زعيم للعصابات فى أزقة روما، كانت السبب فى مراعاته الشديدة لأصول الأعمال التجارية. فقد كان يحمد لنفسه أنه لا يبيع شيئًا لتعلات كاذبة. فقرر بدلاً من ذلك أن يتركها لمجالدين يروضونها. وإذ كان قد بدأ بالفعل يحس كراهية بلا سبب معقول للتراقى الصامت الغريب المدعو سبارتاكوس - الذى يخفى مظهره الخارجى الشبيه بالأغنام لهيبًا يحترمه كل مجالد فى المعهد - فقد اختاره لترويضها.

وشعر بالسرور وهو يراقب سبارتاكوس عندما سلمه فارينيا وقال له: علمها طاعتك، لكن لا تصبها بأذى أو تشوهها. هذا ما قاله لسبارتاكوس، وسبارتاكوس صامت لا يريم، ينظر فى هدوء إلى الفتاة الألمانية. ولم تكن فارينيا جميلة فى تلك اللحظة فقد كان فى وجهها جرحان طويلان، وإحدى عينيها متورمة مقفلة، لونها أصفر وبنفسجى، وعلى جبهتها وعنقها وذراعيها كدمات خضراء وبنفسجية.

وقال باتياتوس .. انظر إلى ما ستحصل عليه. ومزق الثوب الذى كان قد أعطاه لها، والذى كان ممزقا بالفعل. فوقفت الفتاة أمام سبارتاكوس عارية وفى تلك اللحظة رآها سبارتاكوس وأحبها لأنها رغم تحررها الكلى من الثياب، لم تكن عارية على الإطلاق ولم تنثن أو تحاول أن تستر نفسها بذراعيها، بل وقفت فى بساطة وكبرياء، لا تظهر ألما أو تضرراً، ولا تنظر إليه أو إلى باتياتوس، مكتفية بنفسها، مكتفية ببصرها وبروحها وبأحلامها، مكتفية بكل هذا لأنها كانت قد عقدت العزم على أن تبذل حياتها التى لم تعد ذات قيمة: فخفق قلبه لها ومال.

وانكمش فى تلك الليلة فى أقصى أركان الحجرة الضيقة، وتركها وشأنها، ولم يقترب منها إلا ليسألها بعد أن برد الجو: أتتكليمن اللاتينية يا فتاة؟ فلم تجب. فعاد يقول: سأخطبك باللاتينية لأننى لا أتكلم الألمانية، وسيحل برد الليل عما قليل، وأريدك أن تنامى على حشيتى يا فتاة - ومع ذلك لم يصدر عنها كلام. فدفع بالحشية إليها

وتركها تفصل بينهما. لكنه وجد الحشية فى مكانها فى الصباح وتبين أن كليهما قد أمضى الليل نائمًا فوق الحجر. إلا أن فعلته هذه كانت أول عمل رحيم صادر عن تفكير، لقيته فارينيا منذ أن انتزعوها من غابات ألمانيا، منذ عام ونصف عام.

وتعود إليها ذكرى تلك الليلة الأولى، فى هذه الليلة الرطبة التى تقترب من صباحها، ومع عودة الذكرى تنبعث منها إلى الرجل النائم إلى جوارها، موجة حب قوية يجب أن يكون من حجر كى لا يحس بها. فيتقلب، ويفتح عينيه فجأة، فلا يراها فى وضوح وسط عتمة الفجر، لكنه يراها كاملة ببصيرته الباطنة، وهو لم يستيقظ بعد، وتقول هى:

أين ستجد القوة القتالة اليوم يا حبيبى؟

– دعينى .. أنا ملىء بالقوة.

فتنام ودموعها تفيض فى صمت.

- ٣ -

مع الصباح يبدأ القتال تحس ذلك في الهواء وفي كل أنحاء المكان وكل واحد من المجالدين المائتين أو نحوهما يعرف هذا النبأ المكهرب ويستجيب له. سيقتل زوجان من المجالدين كل منهما الآخر فوق الرمال، لأن شابين جاءا من روما يحملان قدراً من المال وبهما رغبة في الإثارة. سيقتتل تراقيان ويهودي وإفريقي، وما دام الإفريقي مدرباً على القتال بالشباك والمذراة فموقفه راجح وكثير من متعهدي المقاتلين المجالدين لا يسمحون بمثل هذا الموقف لأنك إذا كنت تربي كلباً، لا تضعه في مواجهة أسد، لكن باتياتوس يقدم على أي شيء في سبيل المال.

ويستيقظ درابا المجالد الأسود على هذا الصباح ويقول بلغة قومه: أنا أحييك يا يوم الموت.

ويرقد فوق حشيته ويفكر في حياته. ويتدبر تلك الحقيقة الغريبة وهي أن لكل الرجال، حتى أكثرهم تعاسة، ذكريات الحب، والعناية، واللهو، والسرور، والغناء، والرقص، وأن الرجال كلهم يخافون الموت ويرهبونه. وأن الرجال يتشبثون بالحياة حتى إذا لم تكن للحياة قيمة وحتى في وحدتهم وعندما يبعد بهم المطاف عن وطنهم، وعندما يفقدون كل أمل أيا كان نوعه في العودة إلى الوطن، وعندما يتعرضون لكل أنواع المهانة والآلام والقسوة، وعندما يغذونهم كالحيوانات الأليفة الملساء ويدربونهم على القتال لمتعة الآخرين حتى في مثل هذه الظروف يظل الرجال على تشبثهم بالحياة.

وها هو ذا الرجل الذي كان ذات يوم مواطناً أميناً، له بيته وزوجه وأطفاله، وله رأيه المسموع في أيام السلم والمحترم في أوقات الحروب.

الرجل الذى كان كل هذا، يعطونه اليوم شبكة صيد السمك ومذراة ويدخلونه إلى حلبة القتال ليضحك الناس منه وصفقوا له.

ويهمس مردداً الفلسفة الجوفاء التى يؤمن بها أمثاله من العبيد وأبناء مهنته... يجب أن نعيش ما دمنا أحياء.

إلا أنها فلسفة فارغة لا عزاء فيها، وتؤلمه عظامه وعضلاته ليبدأ يومه ويرغم جسده وذهنه على تقبل مهمة قتل سبارتاكوس الذى يحبه ويقدره أكثر من بقية الرجال البيض الذين يضمهم المكان. لكن.. ألا يقال: أيها المجالد - لا تتخذ من المجالدين لك أصدقاء.

- ٤ -

كان الشىء الذى فعلوه هو أن ذهب أربعتهم إلى الحمامات، يسيرون جنبًا إلى جنب صامتين. ذلك أنه لا جدوى من الكلام وليس لديهم الآن ما يتكلمون عنه، وما داموا سيجتمعون من الآن حتى يدخلوا إلى الساحة، فالحديث لن يجدى شيئًا إلا زيادة الموقف سوءًا.

وكانت الحمامات ساخنة يتصاعد منها البخار، وقفزوا إلى المياه المعتمة فى عجلة كأنهم يرغبون فى إنجاز كل شىء دون تفكير أو تدبر وكان بيت الحمامات شديد الإظلام، ويبلغ طوله أربعين قدمًا وعمقه عشرين قدمًا لا يضيئه عند إغلاق الأبواب إلا طاقة عليا صغيرة من حجر الميكا الشفاف وتبدو مياه الحوض فى نورها الخافت رمادية كئيبة يغطيها البخار الساخن المتصاعد منها. وتتصاعد من المياه الأبخرة نتيجة لإلقاء الأحجار المتوهجة فيها فتملأ بيت الحمام بنسيج ثقيل من الهواء المشبع بالبخار. ونفذ البخار خلال مسام جسد سبارتاكوس كلها فألان عضلاته المتوترة وبعث فيه شعورًا غريبًا بالراحة واليسر. فالمياه الساخنة تمثل له عجبًا لا ينتهى فهى لم تغسل عنه الموت الجاف الذى عاناه فى بلاد النوبة غسلاً كاملاً، وما من مرة دخل فيها الحمام، إلا فكر فى العناية التى يبدونها بأجساد هؤلاء الذين يربونهم للموت ويدربونهم للموت ويدربونهم على إنتاج الموت وحده. لقد كان جسده وهو ينتج مواد الحياة كالقمح والشعير والذهب، شيئًا قذرًا، لا قيمة له - بل كان هو العار والقذارة، يضرب، ويركل، ويساط، ويقتل جوعا - أما الآن بعد أن أصبح مخلوقًا للموت - فقد غدا جسده شيئًا ثمينًا كالمعدن الأصفر الذى كان يخرجه من المناجم فى إفريقيا.

والغريب أن الكراهية ازدهـرت في نفسـه في تلك اللحظة لا غيـر، ولم يكن في نفسه مكان للكراهية من قبل لأن الكراهية ترف نفسي يحتاج إلى غذاء وقوة ووقت لنوع خاص من التفكير والتدبر، وهو يملك هذه الآن. ولديه لنتولوس باتياتوس مادة حية لكراهيته. فباتياتوس هو روما، وروما هي باتياتوس. وهو يكره روما ويكره باتياتوس ويكره كل ما هو روماني. ذلك أنه ولد ونشأ على قبول الكدح في الحقول ورعاية الماشية والعمل في المناجم، لكنه لم يعرف تربية الرجال وتدريبهم على أن يمزق الواحد منهم الآخـر إربا ويسفك دماءه على الرمال ليضحك ويثير السادة رجالاً ونساء إلا في روما وحدها.

وخرجوا من الحمامات إلى مناضد التدليك. وأغمض سبارتاكوس عينيه، كعادته، عندما صب زيت الزيتون المعطر فوق جلده وعندما راحت أصابع المدلك الخبيرة اللينة تدلك كل عضلة في جسده على حدة. وكان شعوره في أول مرة رقد فيها للتدليك شعور الحيوان الذي يقع في الشراك وما يصاحب ذلك من خوف ورعب. وأحس أن القدر الضئيل من الحرية الذي يملكه، ولا يملك سواه، وهو جسده، قد انتهك وغزته هذه الأصابع المتحسسة الملتوية.

غير أنه كان قد استطاع أن يسترخي ويستفيد بأقصى ما يمكن أن يناله من المدلك. لقد رقد هذه الرقدة اثنتي عشرة مرة، قاتل فيها. ثماني مرات منها في المدرج الكبير في كابوا والجماهير الحاشدة الصارخة التي أفقدتها رؤية الدماء صوابها تستحثه وتطلب إليه المزيد، وأربع مرات في ساحة باتياتوس الخاصة لمتعة خبراء الذبح الأثرياء الذين جاءوا من روما العظيمة والتي لم يرها هو في حياته، لتمضية يوم مع نسائهم وأحبائهم من الغلمان في مشاهدة رجال يتقاتلون.

وكان يعيش في تلك اللحظة، كما هي عادته كلما رقد فوق منضدة التدليك، على تلك الذكريات، فقد كانت كلها منقوشة في ذهنه. لأن الرعب الذي ينتاب العبد في الحقل أو المنجم لا يقارن بالرعب الذي ينتابه عندما يخطو على الرمال المتماسكة الصلدة في

أرض الساحة. لا خوف يدانى هذا النوع من الخوف، ولا مهانة تعادل مهانة اختيارك لعملية القتل.

وهكذا تعلم أن ليس فى الحياة البشرية مستوى أحط من مستوى المجالد. فهو يكافأ أو يجزى على قربه الشديد من الحيوانات، بنفس العناية القلقة التى يضفونها على الجياد الأصيلة، وإن كان لنتولوس باتياتوس أو أى رومانى آخر قد يثور لمجرد فكرة قتل حصان أصيل فى الساحة. وقد استولى عليه الشعور بالخوف والمهانة وأصابع المدلك تتبع آثار الجروح نسيجاً إثر نسيج وعضلة وراء عضلة.

كان سبارتاكوس حسن الحظ فهو لم يصب بقطع عصب أو كسر عظيم، أو فقأ عين، أو طعنة خنجر فى طبلة أذنه أو عنقه، أو غيرها من هذه الجراح الخاصة التى يخافها زملاؤه أشد الخوف ويحلمون بها ليلاً فى بحر من الرعب والعذاب. وهو لم يجندل قط ولم يطعن فى بطنه. بل كانت كل جراحه بسيطة. وهو لا يستطيع إرجا ع ذلك إلى براعته ولا يريده.. وهل ثمة براعة فى هذه الجزارة ! وهم يقولون إن العبد لا يصلح لأن يكون جنديا . لكنه كان سريع الحركة كالقط، كان فى سرعة اليهودى ذى العينين الخضراوين المخلوق ذى الكراهية والصمت الذى يرقد إلى جواره فوق المنضدة. وهو قوى جدا، يعمل فكره كثيراً. وكان هذا أصعب شىء - لأنك فى هذه الحال تفكر ولا تغضب . فالغضب يعنى الموت. وقد مات بالفعل كل من تعرض للغضب فى ساحة القتال . أما الخوف فشىء آخر. لكن يجب البعد عن الغضب، ولم يكن ذلك عسيراً عليه. فقد كانت أفكاره أدوات بقائه طيلة حياته. وقال من الناس من يدرك هذا. فهم يقولون إن العبد لا يفكر فى شىء على الإطلاق. وإن المجالد وحش. هذا بديهى إلا أنه يحمل نقيضه فى طياته. فالرجل الحر يعيش على التفكير مرة كل حين أما العبد فيجب أن يفكر من يوم إلى يوم ليعيش - وهو نوع آخر من التفكير حقا، لكنه تفكير مع ذلك. والتفكير رفيق الفيلسوف، لكنه رفيق العبد ، وعندما فارق سبارتاكوس فارينيا هذا الصباح محا وجودها من حياته، فهى يجب أن لا تكون موجودة بالنسبة له؛ فستعيش إذا عاش هو ، لكنه ليس حيا أو ميتا فى الوقت الحاضر .

وانتهى المدلكون من عملهم، فنزل العبيد الأربعة من فوق المناضد، ولفوا أجسادهم فى العباءات الصوفية الطويلة التى يسمونها بالأكفان وعبروا الفناء إلى قاعة الطعام. وكان بقية المجالدين قد بدءوا بالفعل فى تناول إفطارهم وجلس كل واحد منهم على الأرض مطوى الساقين يأكل من فوق منضدة صغيرة أمامه، ولكل منهم كوب من لبن المعز المختر ملىء بعصيد القمح المطبوخ بأجزاء من لحم الخنزير السمين ذلك أن متعهد المجالدين يحسن تغذيتهم، فكان كثير من العبيد الذين جاءوا إلى معهده يأكلون كفايتهم لأول مرة فى حياتهم .. كالمحكوم عليهم بالإعدام يأكلون كفايتهم قبل دق المسامير فى أيديهم وأقدامهم فوق الصليب. أما الأربعة الذين سيقومون بالقتال فى الساحة فقد اقتصر فطورهم على قدر بسيط من النبيذ وشرائح قليلة من لحم الدجاج البارد لأن المرء لا يجيد القتال وهو ممتلئ المعدة.

ومهما يكن من شىء فإن سبارتاكوس لم يكن جائعًا، وجلس الأربعة بمعزل عن الباقين، يشتركون فى كراهية الطعام، ويرشفون قطرات من النبيذ، ويتناولون قضمة أو قضمتين من اللحم ويتبادلون النظر أحيانًا. لكنهم لاذوا بالصمت، وكان صمتهم كالجزيرة الصغيرة الساكنة فى خضم الحديث الذى يملأ القاعة. أما بقية المجالدين فقد غضوا عنهم النظر ولم يبدوا مزيداً من العناية بهم. وكانت هذه تحية الإفطار الأخير.

وكانت طريقة تقسيم المجالدين قد أصبحت الآن معروفة شائعة وعرف كل واحد منهم أن سبارتاكوس سيقاتل الرجل الأسود، وأن الخنجر سيقارع الشبكة والمذراة. وعرف كل واحد منهم أن اليهودى سيقاتل التراقى، وأن سبارتاكوس سيموت، وأن التراقى الشاب سيموت كذلك. وهذا خطأ وقع فيه سبارتاكوس، فهو لم يكتف بالحياة مع الفتاة الألمانية والتحدث عنها دائمًا بوصفها زوجته - بل إنه جعل المجالدين يحبونه كذلك. وإن لم يكن من المجالدين الجالسين فى القاعة من يستطيع التعبير عن هذا الحب فى صراحة، وهم لا يعرفون لماذا حدث ذلك على وجه الدقة. ذلك أن لكل رجل طريقته فى السلوك، ولكل رجل آلاف من التعبيرات والتصرفات الصغيرة. وكان سلوك التراقى

الرقيق، ووجهه الشبيه بوجه الحمل الوديع وشفتاه الممتلئتان وأنفه المكسور - كل ذلك كان ينبئ بصفات تجعل الرجال يقبلون أحكامه ويقصدونه بمخاوفهم وخلافاتهم، ويقصدونه للراحة والرأى السديد. فإذا ما قرر أمراً عملوا بما يقول. وكانوا إذا ما خاطبهم أو تحدث إليهم بلغته اللاتينية الهادئة التى ينطقها بلكنة غريبة. تقبلوا ووجدوا الراحة فى حديثه إليهم. وكان يبدو رجلاً سعيداً، وهو رافع الرأس على الدوام، وذلك شىء غريب فى حياة العبد. فهو لم يطأطئ الرأس قط، ولم يرفع صوته قط، ولم يغضب قط، وكانت قناعته تميزه عن غيره، وكانت هذه سيرته فى هذه الرفقة الدنسة من القتلة المدربين والرجال الضائعين.

وكان باتياتوس يقول دائمًا: إن المجالدين وحوش. ولو فكر فيهم إنسان على أنهم بشر لفقد القدرة على الحكم .

وكان أبسط ما فى الأمر أن سبارتاكوس يرفض أن يكون حيوانًا. ولهذا كان خطراً. وعلى الرغم من مهارته في استعمال الخنجر وما له من قيمة حين يؤجر للجلاد، فإن باتياتوس كان يفضل أن يراه ميتًا وكان يجد فى ذلك خيراً له.

وانتهى طعام الإفطار، وخرج الرجال الأربعة المختارون، كما كانوا يسمونهم، ساخرين، فى لغتهم السوقية يسيرون وحدهم. فهم رجال محرمون هذا الصباح، لا يكلمهم أو يمسهم أحد. لكن جانيكوس ذهب إلى سبارتاكوس واحتضنه وقبل شفتيه. وكان ذلك عملا غريباً غالى الثمن جزاؤه ثلاثون جلدة، لكن قلما كان واحد لم يشعر بما دفع جانيكوس إلى أن يفعل ما فعل.

- ٥ -

وظل لنتولوس باتياتوس يسترجع ذلك الصباح فى ذاكرته أكثر من مرة خلال السنوات التى تلته. وتعقله أكثر من مرة وحاول أن يفهم هل يستطاع إرجاع الهزات والأحداث التى جاءت بعد ذلك إليه؛ إلا أنه لم يكن واثقًا من إمكان ذلك المستحيل. ولم يكن يستطيع الاعتقاد بأن ما حدث بعد ذلك اليوم إنما حدث لأن شابين رومانيين متباهيين رغبا فى مشاهدة عرض خاص لقتال حتى الموت، ذلك أنه لم يكن يمضى أسبوع دون أن يقام عرض خاص لزوج أو زوجين أو ثلاثة أزواج من المجالدين فى ساحته الخاصة، ولم ير فى ذلك شيئًا يخالف كثيراً ما حدث فى ذلك اليوم. وحمله ذلك على التفكير فى مصير بعض المنازل التى يملكها فى روما. فقد كان المعروف أن هذه المنازل تعد من خير وسائل استغلال النقود لأى رجل أعمال. لأنها لم تكن معرضة لتقلبات الأعمال التجارية، ولأنها تدر دخلاً ثابتًا ومتزايداً فى معظم الأحوال، وأن فى الإمكان زيادة هذا الدخل، غير أن خطراً من نوع ما كان يكمن فى هذه الزيادة، وقد اشترى باتياتوس أول الأمر منزلين، أحدهما من أربعة طوابق والآخر من خمسة، فى كل طابق منهما اثنا عشر مسكنا، وإيجار كل مسكن نحو تسعمائة سستر سنويا.

ولم يمض على باتياتوس وقت طويل حتى أدرك أن كل ساع وراء الربح يجب أن يضيف طوابق جديدة، فالكناسون يمتلكون منازل منخفضة، أما الأغنياء فيملكون ناطحات سحاب. فبادر متعهد المجالدين إلى تشييد طابقين فوق المنزل ذى الطوابق الخمسة. أما أول طابق أضافه إلى المنزل ذى الطوابق الأربعة، فقد ثقل على البيت فانهار تحت ثقله وكبده خسارة هائلة، ومات تحت الأنقاض أكثر من عشرين شخصاً من السكان - وكان معنى ذلك ثروة جديدة ينفقها فى الرشاوى. وقد أصابه شىء من

هذا النوع فى شأن المجالدين، فقد أدت زيادة عددهم إلى الهبوط بمستوى القتال. لكن باتياتوس كان يدرك أنه ليس أسوأ من كثير من متعهدى المجالدين فى هذا الميدان بل إنه هو خير من كثير منهم.

ولسنا ننكر أن ذلك الصباح كان مشئومًا. فقد بدأ أولاً بجلد جانيكوس. وليس جلد المقاتلين بالعمل الجيد. لكن نظام المعهد يجب أن يكون فى نفس الوقت أكثر النظم فى العالم دقة وصرامة. وخرق المجالد لأى مظهر صغير من مظاهر هذا النظام، يجب أن يقابل بالعقاب - العقاب السريع الذى لا يعرف الرحمة. وحدث بعد ذلك تذمر بين المجـالـدين من الجمع بين مجالد بالخنجر وآخر بالشبكة والمذرة، ثم جاء بعدئذ القتال نفسه.

وكان باتياتوس فى المجتلد ينتظر وصول الأضياف. وإذا غضضنا النظر عن رأى باتياتوس الشخصى فى هؤلاء الرومانيين، فهو شديد الحساسية لما للمال من احترام. ففى أية مرة يلتق بصاحب ملايين ولسنا نعنى بذلك الرجل الذى يمتلك الملايين فحسب بل نعنى به كذلك الرجل الذى يستطيع أن ينفق الملايين، يسيطر عليه شعوره الخاص بالضآلة وبأنه كالضفدع الصغير فى البركة الصغيرة. وحين كان زعيم عصابة فى شوارع المدينة كان حلمه الخاص أن يتمكن من أربعمائة ألف سستر، وهو القدر الذى يسمح له بالانخراط فى سلك الفرسان. ومع ذلك فإنه حين أصبح فارسًا أدرك لأول مرة معنى الثروة، وأدرك أنه ما زال أمامه، رغم ما وصل إليه بمهارته وحكمته، درجات لا نهائية من السلم عليه أن يصعدها.

والاحترام واجب حيث يجب الاحترام، لهذا انتظر وصول كايوس وبراكوس وغيرهما، ولهذا لم يعرف أن جانيكوس قد نال ثلاثين جلدة، بل سار فى ركاب ضيوف المبجلين إلى المقصورة التى أعدت لهم، وهى مشيدة على ارتفاع كاف يسمح لهم بمشاهدة كل ركن من أركان الساحة الصغيرة دون حاجة إلى الحركة أو الانحناء. وسوى بنفسه الحشيات كى يمكن لهم الاسترخاء فى خير يسر وراحة وهم يشاهدون

القتال، وجيء لهم بالنبيذ البارد وبأوعية صغيرة فيها لحوم مسكرة والحمام المغطى بالعسل كى يجدوا على الدوام ما يرضى شهيتهم وينقع غليلهم، وأظلتهم مظلة مخططة من شمس الصباح ووقف اثنان من عبيد المنزل يحملان مراوح الريش للترويح عنهم إذا ما تغير جو الصباح البارد إلى ضحى حار راكد الهواء. وكان باتياتوس يتيه كبرياء وهو يشرف على إعداد المكان - فمما لا شك فيه أنه قد زوده بكل ما يتطلبه إنسان مهما كان مرهف الذوق، وكيما يزيل عنهم السأم حتى يبدأ القتال، أخرج إلى الساحة موسيقيين وراقصة.

ولم يكن منشأ ذلك الاهتمام أنهم يبدون اهتمام كبيراً بالموسيقى أو الرقص، فقد كانوا يطلبون شيئًا «أسمى من ذلك» وراح صديق براكوس المتزوج - وهو يدعى كورنيليوس لوسيوس - يثرثر فى عصبية عما يحتاج إليه المرء كى يحيا حياة محترمة فى روما فى تلك الأيام، وتلكأ باتياتوس وأصغى، فقد شاقه أن يعرف ما يحتاج إليه المرء كى يحيا حياة محترمة فى روما فى تلك الأيام. وجذبه الحديث عندما علم أن لوسيوس دفع خمسة آلاف دينار ثمنًا لعبد خباز أى ثروة ثمنًا لرجل يصنع الفطائر.

وسأل لوسيوس قائلاً:

- ولكن لا يستطيع أن يحيا كما يحيا الخنزير - أليس كذلك؟ أو حتى بالطريقة التى عاش بها أبى، فالمرء إذا أراد أن يأكل طعاماً محترمًا يحتاج على الأقل إلى أربعة من العبيد، واحد لصنع الفطائر، وواحد لتزويقها بالألوان، ثم لا بد من عبد لطحن الغلال وواحد لتحليتها بالسكر، وإلا اضطر المرء إلى أن يشترى الحلوى المطبوخة من الأسواق، ومن الخير أن يستغنى الإنسان عن ذلك .

فقالت زوجته:

- لا أتصور كيف يمكن للمرء أن يستغنى عنها . أنت تستبدل حلاقك كل شهر. ولا يستطيع إلا الله أن يرضيك بحلاقته لك كما يجب، وإذا ما طالبت أنا بمصفف لشعرى أو مدلك إضافى..

فقال لها براكوس فى رقة :

– ليس الأمر محتاجاً إلى مائة عبد، بل الذى يحتاج إليه هو – وحتى بعد تدريبها
– أعتقد أحياناً أن الأمر لا يستحق كل هذا العناء. وعندى عبد خاص لملابسى، وهو لاتانى من قبرص، يستطيع أن يروى أشعار هومر ساعات طوالا فى التو، لكنه لا ينظف البيت ولا يغسل، بل كل ما أتطلبه منه هو أن يرتب ثيابى، فعندى صيوان للعباءات، وكل مطلبى أن توضع كل عباءة أفرغ منها فى هذا الصيوان، وأن يوضع كل ثوب فى الصيوان الذى أحفظ فيه أثوابى. وفى وسع المرء أن يمرن كلبًا على القيام بهذا العمل، أليس كذلك؟ فأنا إذا قلت يا زاكيدس أعطنى ثوبى الأصفر، جاءنى به، أما العبد فلا يستطيع، ويستغرق تعليمه أداء ذلك كما يجب وقتًا أطول مما لو قمت بذلك بنفسى.

فاحتج كايوس قائلاً:

– إنك لا تستطيع أن تعمل ذلك بنفسك.

– لا طبعاً لا يا بنى. انظر أى نوع من النبيذ أحضره لنا متعهد المجالدين.

وكان باتياتوس أسرع إلى الرد، فقد قال مفاخراً وهو يرفع القنينة أمام أعينهم.

– إنه من سفوح جبال الألب الإيطالية.

فبصق براكوس فى رشاقة وهو يضع إصبعاً إلى جانب أنفه وقال:

– كيف فكرت فى الحشيات مع أنى لم أقل لك إننا نريد حشيات؟ ألديك نبيذ من نبيذ يهوذا يا متعهد المجالدين؟

– طبعًا .. خير أنواعه. وردية اللون.. أرق ألوان الورد.

وصاح بواحد من عبيده ليحضر نبيذ يهوذا على الفور، وقال لوسيوس لزوجته التى كانت تهمس له:

- قولى له.

- لا .

فتمدد براكوس مقتربًا منها، وأخذ يدها وألصقها بشفتيه وقال:

- أيوجد ما لا تستطيعين قوله لى يا عزيزتى ؟

- سأهمس به لك .

وهمست فى أذنه فأجابها براكوس قائلاً:

- طبعًا. طبعًا.

ثم قال لباتياتوس:

- أحضر اليهودى هنا قبل أن يقاتل.

وكان خيط التفكير الذى يربط بين تصرفات السادة يحير باتياتوس دائمًا. فهو يعلم أن هذا الخيط موجود، لكنه يعجز عن وصفه وصفًا متناسقًا، ولا يستطيع أن يحدد له نظامًا فيه تعقل أو إيقاع يساعده على أن يخفى أصله الوضيع باصطناع أسلوب السلوك. ذلك أن كل جماعة تستأجر ساحته لإقامة عرض خاص تسلك سلوكًا مخالفًا لسلوك غيرها ... وكيف إذن يستطيع الإنسان تحديد هذا الأسلوب؟

وبعث باتياتوس يطلب اليهودى.

وجاء هذا محاطًا باثنين من المدربين، ومشى إلى المقصورة ووقف أمامها ينتظر. وكان ما زال ملتفًا بعباءته الصوفية الخشنة الطويلة، وعيناه الخضراوان الشاحبتان كالحجرين الباردين لا يرى بهما شيئًا . بل كل ما فعله أنه وقف.

وابتسمت المرأة ابتسامة بلهاء، وفزع كايوس فقد كانت هذه أول مرة يقف فيها مجالد على هذا البعد الصغير منه لا يفصله عن جدار أو قضبان، ولم يكن المدربان

بكافيين لطمأنته. وقال فى نفسه: ليس هذا بشراً، هذا اليهودى ذو العينين الخضروابن، والفم الرفيع والأنف الأقنى الوحشى، والرأس الحليق.

وقال براكوس:

- مُره أن يخلع عباءته يا متعهد المجالدين.

فهمس باتياتوس قائلاً:

- اخلع ثيابك.

فتردد اليهودى لحظة قصيرة؛ ثم أسقط عباءته فجأة ووقف أمامهم كما ولدته أمه، وقد سكنت الحركة فى جسده الضامر البارز العضلات كما لو كان تمثالاً من البرنز. وحدق إليه كايوس مسحوراً وتظاهر لوسيوس بالضجر، أما زوجته فقد راحت تحدق إليه مبهورة فاغرة الفم بعض الشيء وقد ازداد تنفسها سرعة واضطراباً.

وقال برياكوس فى ملل:

- حيوان منتوف الريش يقف على قدمين.

وانحنى اليهودى واسترجع عباءته وستدار يتبعه المدربان، ثم قال براكوس:

- فليقاتل أولاً.

- ٦ -

لم يكن القانون قد نص حتى ذلك الوقت، على ضرورة تزويد المجالد التراقى بترس خشبى للدفاع عن نفسه وقت القتال فى الساحة بالخنجر التقليدى، وهو اسم خير منه أن يقاتل بالسكين المستدير بعض الشيء المعروف باسم السيكا. وحتى بعد أن نص القانون على ذلك، كان كثيراً ما يخرق، لأن الترس، كالخوذة ودروع الساقين النحاسية التقليدية، يحول دون ظهور روعة القتال بالسكين وهى الشيء الأساسى فى القتال الغريب الذى يعتمد على الحركة والسرعة التى يتبارى فيها المجالدون. وكان المجالدون يرتدون فى أثناء القتال الدروع الثقيلة ويحملون الدرع البيضاوى الكبير. وكانت الأدوات فى المجتلد كما كانت منذ أربعين عاما - أى فى الوقت الذى لم يكن الصراع بين كل اثنين كثير الحدوث - تسمى الشمينات Somnites التى يحملها جنود الفرق والسيف الإسبانى القصير. ولم يكن هذا اللون من القتال مثيراً، أو تراق فيه الدماء إلى حد كبير، لأن اصطدام الدرع بالدرع، ومقارعة السيف بالسيف كانا يستمران ساعات دون أن يصاب أحد الاثنين بأذى كبير. وكان متعهد المجالدين فى ذلك الوقت محتقراً احتقار القواد - فقد كان غالبًا زعيم عصابة حصير يشترى عدداً من العبيد المستهلكين ويطلقهم يتقاتلون حتى يسقطوا صرعى من جراء نزف دمائهم أو من فرط الإعياء وكثيراً ما كان متعهد المجالدين يتعامل فى المجالدين بيد وفى النساء باليد الأخرى.

ثم أدخل تجديدان على القتال الذى يدور بين اثنين من الأزواج فأحدثا ثورة فيه - إذ أحالا المشهد الممل إلى مشهد جنت به روما أشد جنون، وصعدا بأكثر من متعهد للمجالدين إلى مقاعد مجلس الشيوخ، واقتنى المتعهدون من ورائهما البيوت فى الريف

وثروات تقدر بالملايين. وجاء التجديد الأول نتيجة تغلغل الرومان عسكريا وتجاريا في إفريقيا. فظهر في أسواق العبيد الرجل الأسود، الزنجي بقامته المديدة وقوته الفائقة. وكان نادراً ما يرى قبل ذلك. وفكر متعهد المجالدين في إعطاء الزنجي شبكة لصيد الأسماك ومذراة، أي حربة ذات ثلاث شعب من التي تستعمل في صيد الأسماك، وأن يدفع به إلى الساحة في مواجهة السيف والدرع. فما لبث هذا أن أسر خيال الرومانيين، ولم تعد مشاهدة القتال مجرد متعة عابرة. وجاء التجديد الثاني فأكمل هذا التطور – وكان نتيجة تغلغل الرومان في تراقيا ويهوذا، واكتشاف سلالتين مستقلتين من الفلاحين الأشداء يسكنون الجبال، وسلاحهم الرئيس في الحرب سكين مقوس قصير حاد كالشفرة. وكان التغيير الذي أحدثه هؤلاء في قتال المجالدين يفوق التغيير الذي أحدثه السود. فقلما كان الترس ودروع الجسم يستعملان بعدئذ حلت المبارزة بالخناجر، السريعة كالبرق الخاطف، والجروح الطويلة الرهيبة، وإراقة الدماء، وبروز الأحشاء وسقوطها إلى الأرض، والبراعة والألم، والحركة السريعة الخاطفة محل صدام الدروع الرتيب.

وقد لخص براكوس ذلك كله عندما قال لرفيقه الصغير – حسبك أن تشاهد التراقيين، فلا تحتاج لمشاهدة شيء بعد ذلك. فكل ما عداهم ثقيل عقيم ممل لا معنى له. أما القتال التراقي البارع فهو أكثر الأشياء إثارة في العالم.

وحان الوقت لبدء القتال، فانسحبت الراقصة وانسحب الموسيقيان وخلت الساحة الصغيرة، وتعرت لأشعة شمس الصباح الدافئة. وخيم على المكان كله صمت مؤلم مرتعش. وتمدد الرومانيون الأربعة: السيدة والرجال الثلاثة على الحشيات تحت المظلة المخططة وهم يرشفون نبيذ يهوذا الوردي في انتظار بدء القتال.

- ٧ -

وفي غرفة الانتظار، وهي حظيرة صغيرة تفتح على الساحة، جلس المجالدون الثلاثة. التراقيان والزنجي الأسود في انتظار عودة اليهودي. جلسوا على دكة وقد خلت نفوسهم من السعادة بعد أن ودعوا الحياة. وكان العار وحده رفيقهم، لا المجد، ولا الحب، ولا الشرف. قال الزنجي في النهاية قولا حطم به الصمت الذي فرضوه على أنفسهم:

- إذا كانت الآلهة تحبك، مت في طفولتك.

فقال سبارتاكوس

- لا .

فسأله الزنجي الأسود:

- هل تؤمن بالآلهة؟

- لا .

- وهل تؤمن بوجود عالم آخر بعد الموت في هذه الحياة؟

- لا .

فسأله الرجل الأسود:

- بماذا تؤمن إذن يا سبارتاكوس؟

- أؤمن بك وبنفسي.

فقال بوليموس التراقى الشاب الجميل:

- أنت وأنا ! ما نحن إلا لحم على وضمة القصاب متعهد المجالدين.

وسأل الزنجى قائلاً:

- وبماذا تؤمن أيضًا يا سبارتاكوس؟

- ماذا أيضًا؟ - بماذا يحلم البشر؟ عندما يوشك أن موت بماذا يحلم؟

فقال الزنجى فى رقة وفى صوته العميق أسف يدوى فى صدره:

- سأقول لك ما قلته قبل. سأقول لك هذا. إنى أحس بوحدة شديدة، وقد بعدت فى الشقة عن وطنى وأصبحت حقوداً لا أصلح له. ولا أريد أن أعيش بعد اليوم. ولست أريد أن أقتلك يا رفيقى.

- أهذا مكان للرحمة ؟

- إنه مكان للعناء. وقد تعبت.

فقال سبارتاكوس:

- لقد كان أبى عبداً، وقد علمنى فضيلة واحدة. وفضيلة العبد الوحيدة هى أن يعيش.

- لكنا لا نستطيع الحياة كلانا.

- والمنة الوحيدة التى تقدمها الحياة للعبد هى أنه، كبقية الناس، لا يعرف متى يموت.

وسمع الحراس حديثهم، فراحوا يدقون حائط الحظيرة بحرابهم يطالبونهم بالصمت. وعاد اليهودى، وهو لم يكن ليشاركهم الحديث على أية حال، فهو لا يتكلم قط. ووقف وراء الباب فى عباءته، منكس الرأس أسفًا وخجلاً وعاراً. ودوى نفير، فوقف

التراقى الشاب وشفته السفلى ترتعد من فرط التوتر، وألقى هو واليهودى بعباءتيهما، وفتح الباب وسارا إلى الساحة جنبًا إلى جنب عاريين.

لم يهتم الزنجى. فقد كان معتاداً على الموت، قاتل اثنين وخمسين مرة بالشبكة والمدراة وخرج من المعمة حيا سليما. أما الآن فقد تقطع الحبل الذى يربطه بالحياة. وجلس على الدكة مع ذكرياته مقوس الظهر يحمل رأسه بين يديه، بينما قفز سبارتاكوس إلى الباب، وألصق عينه بشق منه ليرى ويعرف. ولم يكن لينحاز إلى أحد الجانبين؛ أهله وعشيرته، أما اليهودى فقد كان شيئًا يمزق قلبه تمزيقا غريبا شاذا. وعندما يتقاتل اثنان حتى الموت، فلا بد من أن يموت أحدهما، لكن الحياة هى جوهر الموقف، ما دام للحياة وجود، وكان جوهر سبارتاكوس هو الحياة. وقد عرف الناس ذلك فيه. عرفوا فيه البقاء ولو صعد إلى مدار النجوم . وها هو ذا الآن يلصق عينه بالشق الذى سمح له بمجال من الرؤية فى منتصف الساحة.

وحال جسد الاثنين دون الرؤية أول الأمر. إلا أن حجمهما أخذ يتضاءل وهما يتقدمان إلى مركز الساحة ويواجهان من اشتروا لحمهما ودمهما. وتبعهما ظل جسديهما القاتمين الملتمعين من الزيت. ثم افترقا عشر خطوات ووقف كل منهما عند طرفى مدى الرؤية المتاح له، تفصله الرمال وأشعة الشمس. واستطاع سبارتاكوس أن يرى الشرفة التى جلس فيها الرومانيون، فقد كانت تحد مجال رؤيته .. وهى ديوان عريض مشرق من الألوان القرمزية والصفراء والأرجوانية ذات أستار مخططة .. وكان يبصر أيضاً حركة مراوح الريش البطيئة التى يحملها العبيد. هكذا كانوا يجلسون، هؤلاء الذين ابتاعوا الحياة والموت، القلة القوية. وحضرته كل الأفكار التى يجب أن تحضر رجلاً واحداً على الأقل فى كل عصر من عصور الزمن، كل هذه الأفكار حضرت سبارتاكوس....

ودخل المدرب، سيد الساحة، وهو يحمل صينية من الخشب المصقول فوقها سكينان. وقدمها تقديما رمزيا لمن دفعوا ثمن القتال. وفيما هو يمد الصينية إليهم،

انعكست أشعة الشمس على معدن الحدين المصقول على اثنتى عشرة بوصة من الصلب الحاد كالشفرة، جميلى الصنع، لهما مقبضان من خشب الجوز الداكن. وكان السكين مقوساً بعض الشيء، تكفى اللمسة الخفيفة كالريشة من السلاح لشق الجلد.

وأومأ براكوس برأسه، فسيطرت الكراهية الحادة القاطعة كلمسة من هذين السكينين على سبارتاكوس من قمة رأسه إلى أخمص قدمه - إلا أنه سيطر على نفسه وكبح جماح عواطفه وهو يرقب المجالدين يختارن السلاح، ثم يتحركان خارجين من مجال رؤيته. لكنه كان يعرف كنه حركاتهما، يعرف كل حركة منها. إن كلا منهما يرقب الآخر فى رعب وحذر ويقظة المحكوم عليه بالإعدام، وكل منهما يقيس بعينيه الخطوات العشرين المقدرة لهما. إنهما الآن ينحنيان ويمسحان بالرمل المقبضين وراحتى يديهما. إنهما الآن يتحفزان وكل عضلة فى جسديهما ترتعد كالزنبرك المشدود وقلباهما يدقان كالمطارق.

ونفخ المدرب فى صفارته الفضية، فعاد المقاتلان إلى مجال رؤية سبارتاكوس.. عاريين، متحفزين، وكل يمسك بالسكين اللامع فى راحة يده اليمنى، وقد أراقا رجولتيهما وأصبحا حيوانين، وأخذا يدوران كالحيوانان، وينقلان أقدامهما فى خطوات قصيرة فوق الرمال الساخنة. ثم التحما وانفصلا فى حركة واحدة متشنجة صفق لها الرومانيون، وخط صدر اليهودى خيط من الدم التف حوله كالحزام.

إلا أنه لم يبد على الاثنين أنهما أحسا بالإصابة التى حدثت فقد كان تركيز انتباه كل منهما على الآخر عظيما مطلقا ملحا حتى بدا الوجود بأسره كأنه قد تركز عليهما، وتوقف الزمن، وتركزت حياة كل منهما وتجاربه فى الآخر، حتى غدا التوتر الذى راح كل منهما يدرس به الآخر شيئًا مؤلًا. ثم التحما من جديد فيما خيل للرائى أنه انتفاضة واحدة متداخلة من القوة والعزم. وتماسكا، اليد اليسرى تقبض على اليمنى، ووقفا متقابلين ملتصقين، جسداً بجسد، ووجها لوجه. واليدان المتماسكتان تناضلان وتصيحان فى صمت بالرغبة فى التمزيق والقتل. والآن قد استحالا وحشين استحالة

كاملة، وأصبح كل منهما يكره الآخر، ولا يعرفان إلا هدفًا واحدًا هو الموت، ما دام القتل وحده هو الذى يتيح لواحد منهما أن يعيش. وظلا على تماسكهما وتلاصقهما، وعضلاتهما متوترة مشدودة، حتى تداخلا وأصبحا كيانا واحدًا يتمزق من الداخل.

وظــلا على تماسكهما ما دام فى اللحم والدم قوة ومقدرة، ثم انفصم التماسك وانفصلا، لكن شريطًا من الدم القانى كان يمتد على طول ذراع التراقى. ووقفا تفصل بينهما اثنتا عشرة خطوة يلهثان ويكره كل منهما الآخر، ويرتعدان، وقد اصطبغ جسد كل منهما كاملا بالدم الأحمر والزيت والعرق، والدم يتساقط ويصبغ الرمال عند أقدامهما.

ثم هجم التراقى .. وسكينه ممتد أمامه، وألقى بنفسه على اليهودى، فركع اليهودى على ركبة واحدة وراغ من السكين بأن دفع برسغ الراقى إلى أعلى ثم ألقى به فوق ظهره عاليًا فى الهواء. وقبل أن يصطدم جسد التراقى بالأرض كان اليهودى قد انقض عليه. وكانت هذه لحظة الرعب الهائل وأشد لحظات الهياج فى القتال. وكان الموت يمزق التراقى الذى راح يتثنى ويتدحرج ويتلوى ويستعمل قدمه العارية ليدرأ عن نفسه السكين الرهيب، لكن اليهودى كان قد تمكن منه يمزق ويطعن ومع ذلك فقد كانت مقاومة التراقى الشاب يائسة متشنجة إلى حد عجز معه اليهودى عن أن يطعن الطعنة القاتلة المميتة.

وأخيراً استطاع التراقى أن يقف على قدميه. وقد قفز جسده الدامى الممزق بكل ما فى هذه الكلمة من معان فى الهواء، ووقف على قدميه من جديد، لكن الحياة والقوة كانتا تتسربان منه. فقد نزح الانفجار الذى أوقفه على قدميه معين قوته وراح يحفظ توازنه بيد، وقد أمسك السكين باليد الأخرى وهو يترنح إلى الأمام والخلف يتحسس الهواء بسلاحه ليدفع عنه اليهودى. لكن هذا كان يقف فى المؤخرة بعيداً عنه دون حراك أو محاولة للالتحام من جديد - والواقع أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الالتحام، لأن التراقى كان مشرح، تمزق وجهه ويداه وجسده وساقاه وحياته تنزف فى بركة الدماء الآخذة فى الاتساع على الرمال المنشورة تحت قدميه.

ومع ذلك فإن ذروة صراع الحياة والموت لم تنته بعد. فلقد أفاق الرومانيون من غشيتهم وبدءوا يصيحون باليهودى فى أصوات مبحوحة مجلجلة يأمرونه.

- اضرب .. اطعن.

لكن اليهودى لم يتحرك. نعم إنه لم يكن قد أصابه شىء سوى الجرح الوحيد الرفيع فى صدره، لكن القتال كان قد صبغ جسده كاملاً بالدماء. وفجأة، ألقى بسكينه إلى الرمال، فانغرس فيها وراح يهتز، وظل هو على وقفته منكس الرأس.

وبعد لحظة واحدة سقط سكين التراقى من يده. لقد كان يموت بسرعة. وصرخ الرومانيون ودار مدرب حول الساحة وهو يلوح بسوط طويل ثقيل مجدول من جلد الثيران، وتبعه جنديان.

- قاتل يا قذر.

ثم التف السوط حول ظهر اليهودى وحول بطنه.

- قاتل.

وهبط عليه السوط مرات ومرات لكنه لم يتحرك ثم انكفأ التراقى على وجهه، وانتفض قليلاً ثم بدأ يتأوه من الألم فى صرخات خافتة أول الأمر، ثم أخذت ترتفع صاعدة من جسده المنتفض. ثم توقفت صرخات الألم ورقد بلا حراك، فتوقف المدرب عن جلد اليهودى.

وكان الزنجى قد شارك سبارتاكوس النظر خلال شق الباب. وراحا يرقبان ما يدور فى صمت.

واقترب الجنديان من التراقى يخزانه بحرابهما . فتحرك حركة يسيرة. فخلع واحد منهما مطرقة صغيرة، لكنها ثقيلة، معلقة فى حزامه، وأدخل الثانى حربته تحت جسد التراقى وقلبه على ظهره. وعند ذلك أهوى الجندى الأول بالمطرقة فى قوة هائلة على

صدغ التراقى، أهوى عليه بضربة سحقت عظام الجمجمة اللعينة. ثم حيا الجندى المتفرجين بمطرقته التى تجمد فوقها مخ التراقى المهشم. وقاد مدرب آخر فى هذا الوقت عينه حمارا إلى داخل الساحة، وكان الحمار يحمل فوق رأسه رداء مزيناً بالريش الملون ويجرى وراءه سلسلة مثبتة بسرجه الجلدى. وثبتت السلسلة فى قدم التراقى بسرعة ثم وخز الجنديان الحمار بحرابهما. فدار الحمار حول الساحة يعدو بسرعة كبيرة وهو يجر وراءه الجثة الدامية والمخ يقطر منها. وهلل الرومانيون وصفقوا لهذا المشهد، ولوحت السيدة بمنديلها الرقيق فى حبور وبهجة.

ثم قلبوا الرمال الدامية وسووها استعداداً للموسيقى والرقص قبل قتال الاثنين الآخرين.

- ٨ -

وهرع باتياتوس إلى المقصورة حيث يجلس أضيافه، ليقدم لهم اعتذاراته، وليشرح لهم السبب، رغم سخائهم فى الدفع، فى إحجام اليهودى فى النهاية الأخيرة، عن انتزاع الحياة من جسد التراقى، وقطع شريان فى حلقه أو ذراعه كى يرسم الدم القانى الغالى النهاية الصحيحة للقتال. لكن ماريوس براكوس كان ممسكا بقنينة النبيذ فى إحدى يديه، فلوح له بالأخرى ليسكته قائلاً:

– لا تنطق بكلمة واحدة يا متعهد المجالدين، فلقد كان القتال رائعًا وفيه الكفاية.

– لكن لى صيتًا وشهرة.

– ليذهب الشيطان بشهرتك. لكن انتظر – سأقول لك شيئًا. أحضر اليهودى إلى هنا، ولا تنزل به عقابًا آخر، فحسب الرجل أنه أحسن القتال. أليس كذلك؟ أحضره إلى هنا.

فبدأ لوسيوس يقول.

– هنا؟ حسن.. الواقع..

– طبعًا. ولا تحاول أن تنظفه. ليأت كما هو.

وذهب باتياتوس ليحضر اليهودى، فانحنى براكوس محاولاً، كما يحاول الخبير عادة، وبنفس التظاهر بالنزول من مستواه إلى مستوى التفاهة، أن يشرح دقة الجمال والبراعة فيما شاهدوه توا، فقال:

– إذا شاهد المرء هذا مرة واحدة بين كل مائة زوج من المجالدين فهو سعيد الحظ، فلحظة واحدة من المجد خير من ساعة مملة من المبارزة. هذا هو القتال

الشهير.. إرسال العصفور إلى الموت. طائراً إلى الموت – وأية ميتة للمجالد خير من هذه؟ تصوروا الظروف.. إن التراقى يقيس اليهودى، ويعلم أنه متفوق عليه – فاحتج لوسيوس قائلاً:

– لكنه أراق دمه أولاً.

– لا قيمة لذلك فأكبر الظن أنهما لم يتقاتلا معا من قبل ولقد كان ذلك سبر الغور. إذ يجب أن يقدم كل منهما على مجموعة من الحركات ليعرف مواطن الضعف فى الآخر. فلو تساويا وتعادلا لتبارزا، وهذا يتطلب براعة وقدرة على الاحتمال لكنهما عندما التحما، تخلص اليهودى من الالتحام ومزق ذراع التراقى، ولو كان الذراع هو الأيمن بدلاً من الأيسر، لانتهى الأمر عند ذاك، لكن التراقى كان يعلم أن غريمه يتفوق عليه، كما حدث فعلاً، فركز كل جهوده فى طعنه.. طعنة فى الجسم، وفى وسع تسعة من كل عشرة مجالدين أن يصدوها ثم يحاولوا الالتحام، أجل، بل وقد يتعرضون لجرح غائر، فى صدهم إياها. أتعرفون ما معنى صد هذا السكين وثقل جسد المقاتل كله من ورائه؟ أتعرفون لم أرسلت فى طلب اليهودى سأريكم..

وكان اليهودى قد ظهر فى أثناء حديثه. وهو ما زال عارياً تفوح رائحة العرق والدم منه، وقد أصبح صورة رهيبة متوحشة لرجل يقف أمامهم منكس الرأس وما زالت عضلات جسده ترتعد.

وأمره براكوس قائلاً:

– انحن.

فلم يتحرك اليهودى. فصرخ باتياتوس يقول:

– انحن.

فأمسك به المدربان اللذان كانا فى رفقته، وأرغماه على الركوع على ركبتيه أمام الرومانيين. وصاح براكوس فى انتصار وهو يشير إلى ظهر اليهودى قائلاً:

- انظروا هنا - هنا، لا تنظروا إلى آثار السوط بل انظروا حيث تمزق الجلد، كما لو كان ظفر سيدة قد خدشه. هنا مسه سكين التراقى عندما راغ من الطعنة نازلاً وألقى به من فوق ظهره، هذا هو «إرسال العصفور إلى الموت».

ثم قال براكوس لباتياتوس:

- دعه يعيش يا متعهد المجالدين ولا تجلده بالسوط بعد الآن دعه يعش تجن ثروة من ورائه وسأقوم بالدعاية له بنفسى.

ثم صاح براكوس قائلاً:

- أنا أشرب نخبك أيها المجالد.

لكن اليهودى ظل على وقفته الخرساء ورأسه مدلى على صدره.

قال الزنجى الأسود:

- قد تبكى الحجارة وتنوح الرمال التى تخطو فوقها وتعول ألما، أما نحن فلا نبكى فأجابه سبارتاكوس قائلاً:

- نحن مجالدون.

- هل قد قلبك من صخر؟

- أنا عبد، وأظن أن قلب العبد يجب أن يكون حجراً أو أن لا يكون له قلب على الإطلاق. إن لديك من الأشياء الجميلة ما تذكره أما أنا فكورو، عبد تناسل من عبد، وليس لدى أى شىء طيب أذكره.

ولهذا تستطيع مشاهدة ما حدث دون أى تأثر؟

فأجابه سبارتاكوس فى كآبة:

- لن يجدينى التأثر.

- أنا لا أفهمك يا سبارتاكوس، فأنت رجل أبيض وأنا زنجى أسود، فنحن إذن مختلفان. والرجل عندما يمتلئ قلبه حزناً فى بلادنا يبكى، أما أنتم أيه التراقيون فقد جفت الدموع فى مآقيكم. انظر إلىَّ، ماذا ترى؟

فقال سبارتاكوس:

- أرى رجلاً يبكى.

– وهل ينقص هذا من رجولتي؟ اسمع يا سبارتاكوس، لن أقاتلك. ليذهبوا إلى الجحيم. ولتحل عليهم اللعنة إلى أبد الأبدية. لن أقاتلك كما قلت لك.

فقال سبارتاكوس في هدوء:

– إذا لم نتقاتل متنا معًا .

– إذن فاقتلني يا صديقي، فلقد تعبت من الحياة وضقت ذرعا بالبقاء فيها .

فطرق الجنود حائط الحظيرة صائحين:

– صمتًا هناك.

إلا أن الزنجي استدار وراح يدق الحائط بقبضتيه الضخمتين حتى اهتزت الحظيرة بأسرها . ثم توقف فجأة وجلس على الدكة وأخفى وجهه بين يديه. ومشى إليه سبارتاكوس ورفع رأسه وأخذ يجفف قطرات العرق من فوق جبينه في حنان.

– أيها المجالد لا تصادق المجالد.

فهمس الزنجي الأسود وهو يتعذب:

– يا سباراتاكوس، لماذا يولد الإنسان؟

– ليعيش.

– أهذا كل الجواب؟

– إنه الجواب الوحيد.

– أنا لا أفهم جوابك يا تراقي.

فسأله سبارتاكوس فيما يشبه الضراعة:

– لماذا .. لماذا يا صديقي؟ إن الطفل يعرف هذه الإجابة في اللحظة التي يخرج

فيها إلى النور. إنها إجابة سهلة للغاية.

فقال الزنجى الأسود:

- لكنها ليست إجابة بالنسبة لى، وإن قلبى ليتفطر حزنًا على كل من كان يحبنى.

- وسيحبك غيرهم.

فقال الزنجى:

- لا أحد غيرهم. لا أحد غيرهم.

لم يعد كايوس فيما تلا من السنين يذكر فى وضوح ذلك الصباح الذى تقاتل فيه زوجان من المجادلين فى كابوا، فقد تعددت الأحداث المثيرة فى حياته، وكانت أحداثًا مثيرة اشتراها وأدى ثمنها، ولم يعد سبارتاكوس بالنسبة له أكثر من اسم تراقى. فقد كان الرومانيون يرون أن الأسماء التراقية متشابهة فى جرسها: جانيكوس، سبارتاكوس، منكوس، فلوراكوس، لياكوس. وكان يسع كايوس، أن يقول وهو يروى القصة، إن اليهودى كان هو الآخر تراقيًا، ذلك لأن انتشار الذهاب إلى المجتلد وإدمان الشعب بأسره على الساحة إدمانًا شبيهًا بإدمان المخدرات، أكسب لفظ التراقى معنيين: الأول هو الذى يطلق على أى فرد من أفراد القبائل المائة التى تعيش فى الجزء الجنوبى من البلقان. وكان الرومانيون يكثيرون من استعماله استعمالا غير دقيق لوصف أى شعب بربرى يقيم فى شرق البلقان وراء السهوب تجاه البحر الأسود. وكان المجاورون منهم لمقدونيا يتكلمون اللغة اليونانية، إلا أن اليونانية لم تكن لغة كل من أطلق عليهم اسم تراقيين - كما لم يكن السكين المقوس السلاح الرئيس لكل هذه القبائل.

لكن لفظ تراقى فى لغة الرياضة المستعملة فى مدينة روما، وفى اللغة السوقية المستعملة فى الساحة، كان يطلق على أى مجالد يستعمل السيكا وهى السكين المقوس. وعلى هذا كان اليهودى تراقيا، لأن كابوس لم يكن يعرف أو يهمه أن يعرف أنه انحدر من سلالة الزياتون، الفلاحين المتوحشين ذوى الأعناق الصلبة الذين يقطنون تلال يهوذا، والذين حملوا لواء الثورة التى لا تهمد، وكراهية المستعمر منذ أيام المكابيين القديمة وحرب تحرير الأرض الأولى، ولم يكن كابوس ليعرف الكثير عن يهوذا أو يهتم بها. فاليهودى عنده تراقى اختتن، ولقد شاهد اثنين يتقاتلان وسيتلوهما اثنان آخران

عما قليل، وهذان أكثر من الأولين غرابة وطرافة، إلا أنه، فيما يذكره عما أصاب الزنجي الأسود، نسى كل شيء عن خصم ذلك الزنجي. ومع ذلك فهو يذكر جيداً دخولهما إلى الساحة، ومشيتهما خارجين من قفصهما ومن الظل إلى ضوء الشمس الساطع الدامي، وخطوهما فوق الرمل الأصفر الملوث بالدماء. وطارت الطيور، طيور الدماء، الطيور الصغيرة الجميلة الصفراء المنقطة التى تنكت الرمل الملوث فى نهم كبير وتملأ به حويصلاتها. وهذه الطيور صفراء منقطة كالرمال، فلما طارت بدت كحفنات من الرمال تنتثر فى الهواء. ثم وقف الرجلان فى المكان المحدد. هنا.. أديا التحية لمن اشتروا لحمكما ودماء كما. هذه هى اللحظة التى تفقد فيها الحياة قيمتها، عندما يغير العار والمهانة معنى الحياة. هذا ما وصلت إليه الحياة إن روما سيدة العالم تتسلى بالدماء.

ويستطيع كايوس أن يتذكر كيف بدا التراقى ضئيلاً إلى جانب عملاق إفريقيا الأسود، فقد نقش ذلك المنظر فى ذهنه صورة الاثنين يمتد من ورائهما الرمل الأصفر الذى يضيؤه نور الشمس، وألواح الخشب غير المدهون التى تكون جوانب المدرج. ولكنه لا يذكر ما قاله براكوس. فقد كانت كلماته قليلة، عديمة القيمة، محاها مر الزمن. لأن النزوات التافهة لأمثاله لا تصبح أسباباً قط، إنما هى تبدو فى مظهر الأسباب ليس إلا، وحتى سبارتاكوس نفسه لم يكن سبباً، بل كان نتيجة لما كان كايوس يراه أمرا عاديا ولم ير كابوس النزوة التى دفعت براكوس إلى تنظيم هذا العالم الوحشى الصغير القائم على الموت لبعث البهجة فى رفيقه، الفارغ الرأس، العديم القيمة. لم يرها نزوة، بل رأى فيها شيئًا فيه أصالة عميقة وإثارة كبيرة.

وأدى المجالدان التحية للرومانيين وهم يرشفون النبيذ ويقضمون الحلوى، ثم جاء حامل الأسلحة .. السكين لسبارتاكوس والمذرا الطويلة الثقيلة ذات الأطراف الثلاثة. وشبكة صيد الأسماك للزنجي الأسود. وبدا الاثنان كالمهرجين فى عارهما وانحطاطهما الدموى. فها هو ذا العالم بأسره قد استعبد ليتمكن هؤلاء الرومانيون من الجلوس هناك وقضم الحلوى، وارتشاف النبيذ، ناعمين براحتهم الظليلة فى المقصورة.

وأخذ المجالدان السلاحين، ثم جن جنون الزنجى الأسود حينما رأى كايوس. لقد كان الجنون هو التفسير الذى استطاع كايوس أن يضيفه عليه. وذلك أنه لم يكن هو أو براكوس أو لوسيوس قد قام برحلة إلى مسقط رأس الزنجى الأسود. ولو أنهم قاموا بهذه الرحلة لأدركوا أن الزنجى الأسود لم يجن على الإطلاق. وما كانوا بمستطيعين حتى أن يدركوا بعين الخيال البيت الذى كان يملكه إلى جانب النهر، والأطفال الذين أنجبتهم زوجته له، والأرض التى فلحها، وثمار تلك الأرض، قبل أن يأتى الجنود وفى رفقتهم النخاسون ليحصدوا محصول الحياة الإنسانية، الذى استحال بسحر ساحر إلى ذهب نضار.

وكان كل ما رأوه هو الزنجى وقد جن. رأوه يرمى بشبكته ويطلق صرخة حرب وحشية. ثم شاهدوه يندفع فى قوة ووحشية إلى المقعد العظيم. فحاول مدرب ممسك بسيف مجرد أن يوقفه، لكنهم شاهدوا المدرب بعد ذلك وهو يتلوى كالسمكة فوق أسنان المذراة الثلاث المددة ثم يقذف به فى الهواء كالسمكة، فيدور ويدور ويصرخ فى الهواء قبل أن يصطدم بالأرض. وكان سياج يرتفع عن الأرض ست أقدم يعترض طريق الجبار الأسود، إلا أنه مزق ألواح السياج الخشبية كأنها من ورق. لقد تبدل فى قوته، بدلته قوته إلى سلاح نافذ يندفع إلى المقصورة التى يجلس فيها الرومانيون.

إلا أن الجنود كانوا قد بدءوا يهرعون من كل جوانب المجتلد وثبت أولهم فى مكانه. وباعد ما بين ساقيه فوق الرمال، ثم قذف بحربته، الحربة الخشبية الكبيرة ذات الطرف الحديدى، التى لا يقف فى طريقها شىء فى العالم، والتى سوت جيوش مئات الشعوب بالأرض لكنها لم تسو الزنجى الأسود بالأرض، فقد أصابته فى ظهره، وغاص طرفها الحديدى فيه نافذاً من صدره حتى برز أمام جسده، لكنها لم توقفه. وظل على اندفاعه نحو الرومانيين والقائم الخشبى الفظيع مثبت فى ظهره. ومزقت حربة ثانية جنبه، ومع ذلك فقد تقدم مجاهداً واخترقت حربة ثالثة ظهره، ونفذت حربة رابعة فى عنقه. والآن فقط وأخيراً توقف وانتهى ... ومع ذلك فقد لامست المذراة فى يده الممدودة قضبان المقصورة حيث انكمش الرومانيون فى رعب .. وهناك سقط والدماء تتفجر من جسده. وهناك مات.

لكنا يجب أن نعرف أن سبارتاكوس لم يتحرك فى أثناء ذلك كله، فلو أنه تحرك لقتلوه ومات. فقد ألقى بسكينه إلى الرمل وظل ساكنا دون حراك. لأن الحياة نفسها هى الإجابة عن الرغبة فى الحياة.

الجزء الرابع

ويدور حول ماركوس تليوس شيشرون واهتمامه بأصل حرب العبيد الكبرى.

- ١ -

إذا كان بيت سلاريا قد ضم لفيفًا من السيدات والسادة الرومانيين ذوى الأصل النبيل ليلة ينعمون فيها بكرم سيد رومانى يملك ضيعة، ويكفر فيها الحاضرون فى سبارتاكوس والثورة الكبرى التى قادها، فقد كان ذلك أمرًا متوقعًا. فقد جاءوا جميعًا عن الطريق الأبيوسى، لأن غالبيتهم جاءت من الجنوب، من روما، وقد اتجه شيشرون شمالا فى طريقه إلى روما قادمًا من صقلية حيث كان يشغل منصبا حكوميا هاما بوصفه أحد القضاة. ولهذا حفل سفرهم من ساعة إلى أخرى بوجود رموز العقاب، أو دلائل الآلام الصارمة التى لا ترحم، والتى تحدث العالم بأسره أن القانون فى روما عادل ولا يعرف الرحمة.

إلا أن أقل المخلوقات البشرية إحساسًا، لم يكن ليستطيع أن يسافر على الطريق دون أن يعمل الفكر فى سلسلة المعارك الرهيبة التى دارت بين العبيد والأحرار، والتى هزت الجمهورية الرومانية من قواعدها، بل هزت العالم الذى كانت تحكمه الجمهورية الرومانية بأسره. ولم يعد أى عبد فى أية مزرعة ليستطيع النوم هادئًا مرتاحًا وهو يفكر فى ذلك العدد الهائل من زملائه العبيد المعلقين فوق الصلبان التى لا حصر لها. وأصبح هذا الصلب بالذات مصدرًا لثورة قوية اجتاحت الريف بأسره هى الشعور بآلام ستة آلاف عبد ماتوا فى بطء شديد وقسوة بالغة. وكان ذلك طبيعيا متوقعا، وكان طبيعيا ومتوقعا كذلك أن يتأثر به شاب مفكر مثل ماركوس تليوس شيشرون.

ويجدر بنا أن نلحظ، فيما يختص بشيشرون، أن رجالاً من شاكلة أنطونيوس كايوس قد حادوا عن خطتهم فى الحياة، ليقدموا له من التبجيل فوق ما يليق بأعوامه الاثنين والثلاثين.

ولم يكن السر فى ذلك هو نسبه أو مقام أسرته، أو حتى سحره الشخصى، أو صفة تدفع إلى التقرب منه أو التودد إليه. ذلك أن أصدقاء شيشرون أنفسهم لم يكونوا يرونه رجلا ساحر الشخصية بنوع خاص. نعم إن شيشرون كان ماهرا حقا، لكن كثيراً غيره كانوا فى مثل مهارته. بل كان شيشرون بنوع خاص، من أولئك الشباب – الموجودين فى كل عصر – القادرين على الإطاحة بكل مبدأ وتحطيم كل قاعدة أخلاقية، وكل ما فى الأخلاق السائدة وقتئذ من اضطراب، وتحطيم كل دافع إلى تحرير الضمير أو تخفيف الجرم، وكل دافع إلى الرحمة أو العدالة إذا كان ذلك يعترض طريقه إلى النجاح. ولم يكن يفهم من هذا أنه لا يهتم بالعدالة والأخلاق والرحمة، فقد كان يهتم بها، ولكن اهتمامه كان ينصب على استغلالها لتقدمه الشخصى، ولم يكن شيشرون مجرد شخص طموح، لأن الطموح المجرد يحوى عناصر عاطفية. إنما كان شيشرون معنيا بالنجاح المصحوب بالدهاء والمجرد من العاطفة – وإذا ما أخطأ فى تقديره أحياناً لم يكن ذلك أيضاً من الأمور غير المعتادة فى أمثاله من الرجال.

لكنه لم يكن قد أخطأ فى تقديره حتى ذلك. فقد كان أعجوبة الشباب: اشتغل بالقانون وهو فى الثامنة عشرة، واشترك وهو فى سن العشرين فى حملة عسكرية كبيرة – لا لشىء إلا سعياً وراء المنزلة الرفيعة دون أن يعرض نفسه للخطر – وخطا وهو فى الثلاثين إلى منصب إدارى هام فى الحكومة. وكان الكل يقرأ رسالاته وأبحاثه فى الفلسفة والحكم، وخطبه ويعجبون بها. وإذا كان قد استعار مادتها الهزيلة من سواه، فقد كان الناس أجهل من أن يعرفوا المصدر الذى سرقها منه. وكان يعرف أكثر الناس فائدة له، ويعنى بتقديرهم حق قدرهم. ولا عجب فى هذا فقد كان معظم الناس فى روما حينذاك يجرون وراء توطيد العلاقات بذوى النفوذ. وكانت فضيلة شيشرون الأولى، أنه لم يكن ليسمح لأى شىء بأن يؤثر فى علاقاته بأكثر الناس فائدة له.

وقد كشف شيشرون منذ زمن بعيد ما بين العدالة والأخلاق من فرق كبير. فقد تبين أن العدالة أداة فى يد الأقوياء يستغلونها وفق هواهم. أما الأخلاق فهى أداة وهم

الضعيف، فالرق مثلاً عدل، والحمقى وحدهم - كما يرى شيشرون - هم الذين يجادلون فى أنه يتفق مع الأخلاق الطيبة، وكان فى مقدوره خلال سفره شمالاً على طول الطريق أن يقدر الآلام الرهيبة التى عاناها المصلوبون الذين لا حصر لهم، لكنه لم يكن يسمح لنفسه بأن تتأثر بذلك. وكان يعمل حينذاك - وكنت تجده على الدوام يكتب شيئًا - فى كتابة رسالة قصيرة عن سلسلة حروب العبيد التى هزت العالم بأسره، فكان لذلك كبير الاهتمام بالأمثلة المختلفة من العبيد المعلقين على طول الطريق الأبيوسى، وهو قد علم نفسه أن تجيد الاهتمام بالشىء دون التورط فيه أو الارتباط به، ولذلك استطاع، دون أن يحس باشمئزاز أو شفقة، دراسة النماذج المختلفة من العبيد الغاليين، والإفريقيين، والتراقيين، واليهود، والألمان، أو اليونان الذين كانوا يمثلون جماعة المصلوبين، وخطر له أن الشعور القوى بالعطف على هؤلاء العبيد، وهو الشعور الذى انتشر حينذاك، إنما هو انعكاس لتيار جديد عارم ظهر إلى الوجود فى هذا العالم - تيار له فروع ستمتد إلى أجيال لم تولد بعد. لكنه دار بخلده كذلك أن من يستطيع - فى عصره هذا بالذات - أن يتأمل ويحلل ويفسر فى هدوء هذا المظهر الجديد المتمثل فى ثورات العبيد، يصبح فى موقف فريد فى قوته. وشيشرون لا يكن إلا الاحتقار لكل من يكره، دون فهم الحاجات الموضوعية لمن ينصب عليهم ذلك الكره.

كانت هذه بعض صفات شيشرون، رآها البعض ولم يرها البعض الآخر، ولم ترها كلوديا عندما وصلت إلى بيت سالاريا الريفى فى ذلك المساء، ذلك أن أكثر ما تفهمه كلوديا من أنواع القوة هو أقلها تعقيداً أما هيلينا فقد أدركت صفات شيشرون هذه وأدت لها حقها من الإجلال والتعظيم، وكأن عينيها كانتا تقولان لشيشرون.. أنا مثلك. فهل نتابع هذا؟

وبينما كان أخوها يرقد فى سريره فى انتظار وصول قائد كبير، سعت هى بنفسها إلى غرفة شيشرون. وكانت مليئة بالكبرياء الماكر للمرأة التى تحتقر نفسها لغريزتها الجنسية، ومع ذلك فهى تجد راحة فيها. لكنها عجزت عن تفسير شعورها

بالضآلة أمام هذا الرجل المنحدر من أسرة من الطبقة الوسطى العالية المرتقية عن طريق المال. ولم تكن لتستطيع الاعتراف، حتى بينها وبين نفسها، بأنها ستقدم على طائفة من الأعمال، ستكره نفسها من أجلها، قبل انقضاء المساء.

ومع ذلك فقد كانت هيلينا تمثل لشيشرون نوعًا من النساء هو كثير الرغبة فيه. فقامتها الطويلة القوية، وملامحها المستقيمة الجميلة، وعيناها الحالكتا السواد، كانت تمثل له كل الصفات المميزة للدم النبيل، وفيها يتركز الهدف الذى عملت طبقته جاهدة خلال أجيال وأجيال للوصول إليه ووجدته مع ذلك على الدوام مستحيل المنال، وأرضاه بصفة خاصة، أن يجد وراء هذا المظهر الخارجى، الصفات التى تدفع بامرأة إلى غرفة رجل فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل لهدف محدد واضح.

وكان من النادر فى ذلك الوقت، أن تجد رومانيا يواصل العمل بالليل. فقد كان التطور الغريب فى عدم توازنه لذلك المجتمع، يتمثل فى أكثر مظاهر ضعفه فى الإضاءة الصناعية. فكانت المصابيح الرومانية ضعيفة واهنة، ترهق أعصاب العينين، وكان أقوى ما يصدر عنها وهج أصفر حائل. لذلك كان العمل ليلا، وبخاصة بعد شرب الكثير من الخمر وتناول الكثير من الطعام، مظهرا خاصا من مظاهر الشذوذ المثير للإعجاب أو الشكوك – حسب حالة الشخص القائم بالعمل. وكان ما يثيره فى حالة شيشرون هو الإعجاب به. فهو الشاب المدهش العجيب. وعندما دخلت هيلينا إلى غرفته. وجدت هذا الشاب المدهش يجلس مطوى الساقين فوق مرقده وفى حجره لفافة طويلة من الورق مبسوطة يخط فيها ويصحح. وكان من الجائز أن تشك امرأة أكثر منها سنا فى أنه قد اتخذ هذه الجلسة عن تكلف، لكن هيلينا كانت فى الثالثة والعشرين ليس إلا، وكان للمنظر تأثيره المطلوب فيها. فالزعيم فى السلم والقائد فى الحرب، كان لا يزال معتبراً امتداداً للقصص القديمة التى ورد فيها ذكر الرومانيين الذين قيل إنهم لا ينامون إلا ساعتين أو ثلاث ساعات من الليل، ويكرسون بقية وقتهم للشعب. وكانت تحيط بهم هالة من القداسة، فأعجبتها فكرة أن ينظر إليها رجل مقدس كما ينظر إليها شيشرون.

وقبل أن تفرغ حتى من إغلاق الباب، كان شيشرون قد أومأ إليها برأسه أن تجلس على طرف المرقد البعيد – وكان ذلك ضروريا إذ لم يكن بالغرفة مكان آخر مريح للجلوس – ثم تابع عمله. فأغلقت هى الباب وجلست على طرف المرقد.

وبعد؟ فقد كان مما يثير العجب بالنسبة لهيلينا الشابة أنه لا يوجد رجلان يتحدان فى طريقة سعيهما إلى المرأة. لكن شيشرون لم يسع إليها على الإطلاق. فسألته بعد أن طالت جلستها هناك إلى ربع الساعة أو ما يقرب من ذلك قائلة:

– ماذا تكتب؟

فنظر إليها نظرة المستفسر. فقد ألقت بسؤالها فى عجلة كأنها تقوم بواجب بغيض لكنها تقصد به فتح باب الحديث. وكان شيشرون يرغب فى الحديث، فهو كمعظم الشباب من شاكلته – ينتظر على الدوام المرأة التى تفهمه – وهذا يعنى المرأة التى تستطيع أن تغذى نزعته الفردية كما يجب. وسأل هيلينا قائلاً:

– لم تسألين ؟

– لأننى أريد أن أعرف.

فقال فى تواضع:

– أكتب رسالة عن حروب العبيد.

– أتعنى تاريخا لها ؟

وكان تدوين التاريخ فى ذلك الوقت على أيدى السادة الأرستقراطيين ذوى الفراغ آخذاً فى الانتشار. فكنت كثيراً ما تجد شخصًا حديث الأرستقراطية يعمل فى همة على تلفيق التاريخ القديم للجمهورية ليربط بين الأحداث الكبيرة وبين أسلافه وأجداده. فأجابها شيشرون جادا:

– ليس تاريخاً.

ونظر إلى الفتاة فى جد وثبات، وهى طريقة خاصة به يستطيع بها أن ينقل إلى محدثه شعوراً بصدقه ونزاهته يناقض حقيقة ادعائه وتظاهره. ومضى يقول:

– فالتاريخ يقوم على سرد الأحداث حسب تاريخ وقوعها. لكننى أكثر اهتماماً بالظاهرة نفسها، والتطور فى حد ذاته. فلو أن أحداً تطلع إلى هذه الصلبان، رموز العقاب هذه التى تقوم على جانبى الطريق الأبيوسى، فلن يستطيع إلا رؤية أجساد ميتة لستة آلاف رجل. وقد ينتهى المرء إلى أننا نحن الرومانيين شعب محب للانتقام. ولا يكفى أن نقول إننا شعب عادل نتوسل بضرورة إقرار العدالة. بل يجب أن نشرح ونفسر، حتى لأنفسنا، منطق هذه العدالة ويجب أن نفهمها ولم يكن كافياً أن يقول القائد أو الزعيم: يجب تحطيم قرطاجنة فهذا تحزب منا لزعيمنا. لأنى أنا نفسى أطالب بأن أفهم لماذا يجب تحطيم قرطاجنة، ولماذا يجب إعدام ستة آلاف عبد بهذه الطريقة.

فابتسمت هيلينا وقالت:

– يقول البعض إنهم لو عرضوا فى الأسواق دفعة واحدة لضاعت ثروات طائلة.

– هذا قول فيه قليل من الصدق وكثير من البعد عن الصدق، وأنا أريد أن أنفذ إلى ما وراء السطحيات. أريد أن أعرف معنى ثورة العبيد. فلقد أصبح الضلال هواية رومانية كبيرة، ولست أريد أن أضلل نفسى بنفسى فنحن نتحدث عن هذه الحرب وعن الحملات الكبيرة، وعن القادة العظام، لكن ليس فينا من يريد حتى أن يهمس بكلمة عن الحرب الدائمة فى عصرنا والتى تحجب ما عداها من الحروب، ألا وهى حرب العبيد، أو ثورة العبيد. وحتى القادة المسئولون عنها يعملون على كتمان أنبائها وإسكات كل متحدث عنها. لأن حرب العبيد لا مجد فيها، ولا مجد فى هزيمة العبيد.

– لكنها، بكل تأكيد، ليست أمرا له كل هذه الخطورة .

– لا؟ ألم تكن الصلبان أمراً خطيراً لديك وأنت قادمة على الطريق الأبيوسى؟

– لقد كانت أمراً يبعث على الغثيان فأنا لا أحب النظر إلى مثل هذه الأشياء، وإن كانت صديقتي كلوديا تحب ذلك.

– ومعنى هذا بعبارة أخرى أن لها خطرها.

– لكن كل إنسان يعلم بأمر سبارتاكوس وحروبه.

– أحق هذا؟ إنى أشك في ذلك. بل وأشك أيضًا فى أن كراسوس نفسه يعرف عنها الكثير. فسبارتاكوس سر غامض بالنسبة لنا والتقارير الرسمية تقول إنه كان جنديا تراقيا مأجورا وقاطع طريق. بينما يقول كراسوس إنه عبد ابن عبد جاء من مناجم الذهب فى بلاد النوبة. فأيهما نصدق؟ وقد مات باتياتوس، الخنزير الذى كان يملك معهد المجالدين فى كابوا – ذبحه عبد يونانى كان يعمل كاتبًا للحسابات عنده – كذلك مات أو رحل كل من كانت له صلة بسبارتاكوس. فمن يكتب عنه إذن؟ أفراد مثلى؟

فسألته هيلينا قائلة:

– ولم لا يكتب عنه أفراد مثلك؟

– شكراً لك يا عزيزتى. لكنى لا أعرف شيئًا عن سبارتاكوس. وكل ما فى الأمر أننى أكرهه.

– إن أخى يكرهه هو الآخر.

– وأنت ألا تكرهينه؟

فقالت هيلينا:

– لا أحس نحوه شيئًا بالذات. فما هو إلا عبد.

– وهل حق أنه لم يكن إلا عبداً؟ وكيف يتسنى لعبد أن يصبح ما أصبحه سبارتاكوس؟ هذا هو السر الذى يجب أن أصل إلى تفسير له، وأن أكتشف أين بدأ ولكنى أخشى أن أكون قد بعثت الملل إلى نفسك.

وكان يحيط بشيشرون جو من الإخلاص يحسه الناس ويؤمنون به ويحملهم على الدفاع عنه ضد كل التهم التى وجهت إليه فيما بعد .

وقالت هيلينا:

– أرجو أن تواصل حديثك.

فقد كان الشبان الذين عرفتهم فى روما، والذين كانوا فى مثل سن شيشرون. يتحدثون عن أحدث أنواع العطور، وعن المجالد الذى يراهنون عليه، أو الجواد الذى يمتطونه، أو أحدث محظية. فقالت:

– أرجوك، تابع حديثك.

فقال شيشرون:

– أنا لا أثق ثقة كاملة بالخطابة. بل أفضل أن أدون الأشياء لتأخذ مكانها الطبيعى. وأخشى أن يكون رأى معظم الناس مثل رأيك وهو أن ثورة العبيد ليست بذات خطر كبير. لكن حياتنا كما ترين وثيقة الاتصال بالعبيد، وثورة يقوم بها العبيد تتسبب فى حروب أكثر مما تسببه جميع فتوحنا، فهل تصدقين ذلك؟

فهزت رأسها.

– أستطيع أن أثبت ذلك كما تعلمين لقد بدأت ثورة العبيد منذ مائة وعشرين عاماً عندما ثار العبيد الذين أسرناهم فى قرطاجنة ثم حدثت بعد جيلين، ثورة العبيد الكبرى فى مناجم لوريام فى بلاد اليونان ثم قامت الثورة الضخمة فى مناجم إسبانيا. وبعد سنوات قليلة حدثت ثورة العبيد فى صقلية، وهى الثورة التى هزت الجمهورية من قواعدها. ومرت سنوات عشرون، نشبت بعدها حرب العبيد التى قادها العبد سالفيوس. وليست هذه إلا الحروب الكبرى. وقد تخللتها مئات من الثورات أقل منها شأناً – وهكذا تصبح المسألة كلها حرباً واحدة متصلة لا نهاية لها بيننا وبين

عبيدنا، حرباً صامتة، حرباً مخزية لا فخر فيها، ولا يتكلم عنها إنسان، ويرفض المؤرخون تسجيلها. نحن نخاف تسجيلها، ونخاف النظر إليها لأنها شيء جديد على هذا العالم. فالحروب تقع بين الشعوب، وبين المدن، وبين الأحزاب، وحتى بين الإخوة - لكن هذا وحش جديد يعيش فينا من الداخل، فى داخل أحشائنا ويحارب كل الأحزاب، وكل الشعوب، وكل المدن.

فقالت هيلينا:

- أنت تفزعنى. أتدرى أية صورة أنت ترسمها؟

فأحنى شيشرون رأسة موافقًا وراح يتأملها متفحصًا وكان التأثر قد بلغ بها حدًا دفعها إلى أن تضع يدها فوق يده. وأحست شعوراً دافقا غنيا بالحرارة يدفعها إليه. فها هو ذا أمامها شاب، لا يكبرها كثيراً، شديد الاهتمام بأمور تتصل بمصير الشعب ومستقبله. وذكرها ذلك بالقصص التى سمعتها عن العصور القديمة. قصص طفولتها التى غامت ذكراها. ووضع شيشرون مخطوطه جانبًا، وبدأ يربت على يدها فى رقة. ثم انحنى وقبلها. وفى هذه اللحظة استرجعت صور رموز العقاب واضحة جلية ولحم الرجال المصلوبين المتعفن الذى نهشته الطيور وجففته الشمس على طول الطريق الأبيوسى. فى تلك اللحظة وحدها فقدت هذه الصلبان عنصر الرعب فيها، فقد برر شيشرون وجودها، لكنها وللأسف، لم تستطع استرجاع مضمون ذلك التبرير.

نامت هيلينا أخيراً نتيجة لإعياء الشديد والاضطراب العاطفى وتحول كابوس اليقظة الذى يتمثل دائمًا فى علاقاتها بالرجل إلى حلم غريب مزعج. جمع بين الواقع والخيال بطريقة تجعل من العسير الفصل بينهما. فقد استرجعت فى حلمها يوم كانت تسير فى شوارع روما مع أخيها كايوس، وأشار إلى لنتولوس باتياتوس متعهد المجالدين، وكان ذلك منذ سبعة أشهر تقريباً وقبل أن يذبح كاتب الحسابات اليونانى باتياتوس بأيام قليلة – فى عراك حول امرأة اشتراها اليونانى بنقود سرقها المتعهد، كما جاء فى أقاويل الناس. وكان باتياتوس قد ذاع صيته بعد الذيوع نتيجة صلته بسبارتاكوس، وكان يومذاك فى روما ليدافع عن نفسه فى قضية خاصة بأحد سكان منازله. وكان قد انهار فقاضته أسر ستة ممن ماتوا تحت الأنقاض.

استرجعته فى حلمها واضحاً وفى صورة عادية، ضخمًا، مترنحًا نتيجة للإفراط فى الأكل والإسراف فى الملاذ، يرفض استئجار محفة ويسير فى الطريق ملتفعًا بعباءة كبيرة، يتمخط فى صوت مرتفع، ويبصق بلا انقطاع، ويدفع عنه أبناء الشوارع ممن يسألون المارة بعصا يحملها. وفى وقت متأخر من نفس اليوم، وقفت هى وكايوس فى السوق العامة، وتصادف أن ذهبت إلى المحكمة التى كان باتياتوس يدافع أمامها عن نفسه. حدث هذا فى الحلم كما حدث فى الحياة تمامًا. فقد كانت المحكمة منعقدة فى الهواء الطلق، مزدحمة بالمشاهدين والمتسكعين والنساء اللواتى لا شىء يشغلهن، وشباب المدينة، والأطفال، وأغراب من أقطار أجنبية لا يستطيعون مبارحة المدينة قبل مشاهدة العدالة الرومانية الشهيرة وعبيد فى طريقهم من أعمالهم وإليها – وكانت معجزة فى الحقيقة أن يمكن استخلاص أى شىء معقول، ولا أقول عدالة فى مثل هذا

الحشد، لكن هذه هى الطريقة التى كانت تعمل بها المحاكم أسبوعًا بعد أسبوع. وكانت المحكمة تستجوب باتياتوس، وكان هذا يجيب عن الأسئلة فى صوت هادر كخوار الثور. وكانت ترى كل ذلك فى الحلم كأنها تمر بها فى اليقظة.

ثم وجدت نفسها، كما يحدث فى الأحلام، تقف دون سبب تعلمه فى غرفة نوم متعهد المجالدين ترقب كاتب الحسابات اليونانى وهو يقترب منها وفى يده سكين مسلول. وكان السكين هو السلاح المقدس الذى يستعمله التراقيون فى القتال. وكانت أرض الغرفة ساحة قتال أورمال لأن الكلمة تؤدى المعنيين فى اللغة اللاتينية. وعبر اليونانى الرمال فى خطوات قصيرة فيها كل تحفز التراقى الحذر، بينما راح متعهد المجالدين الذى كان قد استيقظ وجلس فى مرقده يرقبه فى رعب، لكن الاثنين لم يصدرا صوتًا أو كلمة. وفجأة ظهر عملاق هائل إلى جانب اليونانى وهو رجل ضخم الجثة، برنزى اللون، كامل السلاح وعرفت هيلينا على الفور أن هذا هو سبارتاكوس، وقبضت يده على رسغ كاتب الحسابات وضغطت قليلا فسقطت السكين على الرمال ثم أومأ العملاق البرنزى الجميل الذى كان سبارتاكوس، برأسه لهيلينا والتقطت هى السكين وذبحت المتعهد. وعندئذ اختفى اليونانى ومتعهد المجالدين ووجدت نفسها وحيدة مع المجالد لكنه بصق فى وجهها عندما فتحت ذراعيها له، واستدار على عقبيه وابتعد عنها، فجرت خلفه وهى تنتحب وتستحلفه أن ينتظرها، لكنه كان قد اختفى. وتركها وحيدة فى مساحة لا حدود لها من الرمال.

- ٣ -

كانت ميتة باتياتوس، متعهد المجالدين ميتة فظيعة رخيصة، فقد قتله عبد من عبيده ولعله كان ينجو منها ومن كثير من غيرها من الأشياء، لو أنه أعدم المجالدين اللذين بقيا بعد العرض الفاشل لقتال زوجين يوم أعده لبراكوس. ولو أنه فعل ذلك، لكان يستعمل حقا من حقوقه فقد كان إعدام المجالدين ومثيرى الشغب أمراً معترفًا به. لكن الأمر الذى هو موضع للشك هو هل كان إعدام سبارتاكوس يغير وجه التاريخ كثيراً؟ ذلك أن القوى التى حفزته للثورة كانت ستتجه وجهة أخرى. ولم تكن أحلام باتياتوس فى أثناء نومه لتدور كلها حول شخصه بقدر ما كانت ذكريات تخضبها الدماء وآمال يشاركه فيها الكثير من أبناء مهنته، المجالدين رجال السيف، كما حدث فى حلم هيلينا، الفتاة الرومانية فى أثناء نومها المعذب بالخطيئة فى بيت سالاريا الريفى بعد ذلك بزمن طويل. ذلك أن حلمها لم يدر كله حول باتياتوس بالذات. بل دار حول العبد الذى يشهر السيف فى وجه سيده. ولعل فى هذا الجواب عن كل من لم يستطع فهم كيف أفرخت خطة سبارتاكوس لأنها لم تفرخ على يد فرد واحد بل على أيدى الكثيرين.

وجلست فارينيا، الفتاة الألمانية، زوجته، إلى جواره وهو نائم وقد أيقظتها أناته وحديثه المتفزع فى أثناء نومه. كان يتحدث عن كثير من الأشياء العظيمة: فهو الآن طفل، وهو الآن فى مناجم الذهب، وهو الآن فى المجتلد، وهذا هو السكين المقوس وقد شق لحمه، فيصرخ هو من الألم.

فإذا حدث ذلك أيقظته، لأنه لم يعد فى استطاعتها تحمل المزيد من الكابوس الذى كان يعيش فيه خلال نومه. أيقظته وهى تربت على جبهته وتقبل جسمه المبلل بالعرق.

وكانت فارينيا ترى وهى فتاة صغيرة ما يحدث للرجال والنساء فى قبيلتها عندما يتبين الواحد منهم حبه للآخر وكان ذلك يسمى الانتصار على الخوف. حتى الشياطين والأرواح الشريرة التى تعمر الغابات الكبيرة حيث يعيش شعبها، كانت لا تعرف أن المحبين يعرف الخوف سبيله إليهم. وكنت تستطيع أن ترى ذلك فى أعين المحبين، وفى مشيتهم، وفى الطريقة التى تتشابك بها أصابعهم لكنها نسيت هذه الذكريات بعد الوقوع فى الأسر، وأصبحت الغريزة الأولى لوجودها هى الكراهية.

أما الآن فقد استحال وجودها بأسره، والحياة الكامنة فيها وكيانها وحياتها ووظائفها العضوية، وحركة الدم فيها ودقات قلبها استحالت كلها حبا لهذا العبد التراقى. فهى الآن تدرك أن تجارب الرجال والنساء فى قبيلتها كانت صادقة كل الصدق، قديمة كل القدم، معبرة كل التعبير، فهى بعد لم تعد تخاف أى شىء على ظهر الأرض. وهى تؤمن بالسحر، وقد تحقق سحر حياتها وأثبت وجوده. وأدركت فى نفس الوقت أن من اليسير الوقوع فى هوى رجلها، فهو من المخلوقات البشرية النادرة المنسوجة من نسيج واحد. وكان هذا أول ما رآه الإنسان فى سبارتاكوس: كماله بنفسه فهو كل لا يتجزأ وهو إنسان فذ راض قانع لا ببيئته بل بنفسه من حيث هو كائن آدمى حتى فى هذا العش الذى يضم رجالاً رهيبين، يائسين، مقضيا عليهم – حتى فى معهد القتل هذا الذى يضم القتلة المحكوم عليهم بالإعدام – والفارين من الجيش، والأرواح الضالة، وعبيد المناجم الذين عجزت المناجم عن تحطيم روحهم حتى هنا كان سبارتاكوس محبوبًا ومكرمًا ومحترمًا. لكن حبها له كان شيئًا آخر. كان هو جوهر الرجال، وكيان الرجال بالنسبة للنساء. لو أنها كانت مثالا وأرادت أن تصنع تمثالاً لرجل، لكان كل ما فيه هو الطراز الخاص الذى يجب أن يكون عليه الرجال. فأنفه المكسور وعيناه الواسعتان الداكنتان، وفمه الممتلئ المتحرك غير ما عرفت من وجوه الرجال فى طفولتها. ومع ذلك فهى لا يمكن أن تتصور نفسها تقع فى حب رجل ليس كسبارتاكوس.

ولم تكن تدرى لم كان كما هو لقد أمضت وقتًا طويلاً فى خدمة الأرستقراطية الرومانية المثقفة المهذبة مكنها من معرفة حقيقة رجالها، أما لم يصبح عبد على ما عليه سبارتاكوس، فهذا ما لا تعرفه.

إن يديها الآن تطمئنانه وهى تسأله:

– بماذا كنت تحلم؟

فهز رأسه.

– ضمنى إليك فلا تعود إلى الحلم من جديد.

فقربها إليه وهمس يسألها:

– ألا تفكرين أبدًا فى أننا قد نفترق؟

– بلى.

فسألها قائلاً:

– وماذا تفعلين عندئذ يا عزيزتى؟

فأجابته فى بساطة وصراحة:

– أموت.

فقال وقد أفاق نهائيا من حلمه وعاد إليه هدوءه:

– أريد أن أحدثك عن ذلك.

– لماذا تفكر فى ذلك أو تتكلم عنه؟

– لأنك إذا كنت تحبيننى حقا فلن ترغبى فى الموت إذا مت أنا أو فرقوا بيننا.

– أهذا رأيك؟

- أجل.

فسألته قائلة:

- وإذا مت أنا ألن ترغب فى الموت؟

- بل سأرغب فى الحياة.

- لماذا؟

- لأنه لا وجود لشىء من دون الحياة.

فقالت:

- ولا وجود للحياة من دونك.

- أريد أن تعدينى وعدا تحافظين عليه.

- إذا وعدت حافظت على وعدى وإلا فلا أعد.

فقال سبارتاكوس:

- أريدك أن تعدى بأنك لن تضعى حدا لحياتك بنفسك.

فلم يجب وظلت صامتة بعض الوقت.

هل تعدين؟

وفى النهاية قالت:

- أعدك .

وبعد قليل كان ينام فى هدوء ورقة.

ودعاهم قرع الطبول فى الصباح إلى التدريب. فقد كانت أربعون دقيقة من التدريب البسيط المزدوج فى فناء التمرين تسبق وجبة الصباح. وكانوا يعطون كل رجل بعد استيقاظه قدحا من الماء البارد: يفتحون باب حجرته الصغيرة، فإذا كانت معه امرأة سمحوا لها بتنظيف الحجرة قبل ذهابها للعمل ضمن عبيد المعهد، لأن مؤسسة لنتولوس باتيانوس لا تعرف التبذير. فنساء المجالدين يغسلن الأرض، وينظفنها، ويطبخن، ويفلحن حدائق المطبخ، ويعملن فى الحمامات، ويرعين المعز. وكان باتيانوس يقسو على هؤلاء النسوة كأى سيدا أو مالك لضيعة، يستعمل السوط فى حرية ووفرة، ويطعمهن العصيد الرخيص. لكنه كان يخاف سبارتاكوس وفارينيا خوفًا فيه حب استطلاع، ولو أنه كان يعجز عن تفسير ما يخافه فيهما ولماذا يخافه.

بيد أنه قد سادت المدرسة فى هذا الصباح الذى لا ينسى روح من نفاد الصبر والكراهية تمثلت فى طبول الإيقاظ، وفى الطريقة التى أخرج بها المدربون الرجال من غرفهم إلى فناء التمرين، وفى صفهم فى مواجهة السور الحديدى حيث صلبوا الإفريقى الأسود بعد موته. وساقوا النساء إلى أعمالهن بالسوط وبنفس الكراهية العصبية التى ساقوا بها الرجال. ولم يخافوا فارينيا فى ذلك الصباح، ولم يخف وقع السوط عليها عنه على غيرها. واختصها الملاحظ بتعليقات خاصة. وهوى عليها السوط مرات أكثر من غيرها وهى تعمل فى المطبخ حيث ساقوها.

وكان غضب باتيانيوس هو الذى ساد المكان، وهو غضب عميق مرتعد نتج عن الشىء الوحيد الذى ينجح إلى حد كبير فى إغضاب متعهد المجالدين، وهو الخسارة المالية. ذلك أن براكوس قد امتنع عن دفع نصف الأجر المتفق عليه. وعلى الرغم من أن

ذلك سيؤدى إلى مقاضاته، فقد كان باتيانوس يعرف ما هى الفرص التى تتاح له لكسب قضية ضد أسرة رومانية كبيرة وأمام محكمة رومانية. وظهرت نتائج غضبه فى كل ناحية من المكان. ففى المطبخ لعن الطباخ النساء واستغل ما له من سلطان فانهال عليهن ضربا فى أثناء العمل بعصاه الخشبية الطويلة. وأنهال المدربون بالسياط على المجالدين كما انهال عليهم سيدهم بسوط من قبل، ومددوا الزنجى الأسود فى موته على سياج الفناء ليواجه المجالدين وهم ينتظمون لتمرين الصباح.

وأخذ سبارتاكوس مكانه وجانيكوس إلى جانبه. وفى الجانب الآخر عبد من غاله يدعى كريكوس. انتظموا فى صفين عموديين على واجهة بيت العبيد. وكان المدربون الواقفون أمامهم مسلحين هذا الصباح بأسلحة ثقيلة ولهذا الغرض بخاصة وهى السكين والسيف وفتحت أبواب الفناء ودخلت أربع جماعات من القوات النظامية أربعون من الرجال، ووقفوا وقفة الانتباه، وهراواتهم الخشبية الضخمة تتأرجح فى قبضاتهم إلى جانب أجسادهم. وأغرقت شمس الصباح الرمال الصفراء ومست الرجال بحرارتها، لكن سبارتاكوس كان خاليًا من كل حرارة. وعندما همس جانيكوس يسأله هل يعرف معنى كل ما يدور حولهم هز رأسه فى صمت.

وسأله الفتى الغالى قائلاً:

– هل قاتلت؟

– لا.

– لكنه لم يقتل أحداً منهم. وإذا كان لا بد للإنسان من أن يموت، ففى وسعه أن يختار ميتة خيراً من هذه.

فسأله سبارتاكوس قائلاً:

– وهل تطمع فى ميتة خير من هذه؟

فقال كريكوس الغالى:

- إنـه سيمـوت ميتـة الكلاب وكذلك أنت. ستـموت فوق الرمال مفتـوح البطن. وكذلك أنت.

وكانت هذه هى اللحظة التى بدأ فيها سبارتاكوس يدرك ما يجب عليه عمله. أو لعل الأفضل أن نقـول إن الإدراك الذى عاش فيه منذ زمن طويل بدأ يتـجسد ويتـحول إلى حقيقة. والحقيقة بداية ليس إلا؛ الحقيقة بالنسبة له لن تصبح أكثر من بداية، أما نهايتها أو لا نهايتها، فتمتد إلى المستقبل الذى لم يولد بعد لكن الحقيقة كانت تتصل بكل ما أصابه وأصاب الرجال المحيطين به، وبكل ما سيحدث فيما بعد. وأخذ يحدق إلى جسد الزنجى الضخم المعلق فى الشمس والجلد واللحم ممزقان حيث اخترقتهما الحراب والدم متجمد جاف، ورأسه بين كتفيه العريضتين.

وقال سبارتاكوس فى نفسه: ألا ما أشد احتقار هؤلاء الرومانيين للحياة، وما أسهل القتل عندهم، وما أعظم ابتهاجهم الخبيث بالموت. ثم سأل نفسه قائلاً: وأى شىء يمنعهم من هذا ما دامت حياتهم كلها تقوم على دماء أمثاله وعظامهم؟ إن للصلب سحرا خاصا لديهم. فقد جاء إليهم من قرطاجنة حيث اتخذ القرطاجنيون الصلب ليكون الميتة الوحيدة الملائمة للعبد. ثم أصبح شيئًا محبوبًا حيثما امتد سلطان روما.

ثم دخل باتياتوس إلى فناء التمرين. وسأل سبارتاكوس الغالى الواقف بجواره وهو لا يكاد يحرك شفتيه قائلاً:

- وكيف تموت أنت؟

- نفس ميتتك يا تراقى.

فقال سبارتاكوس متحدثًا عن الزنجى الميت.

- لقد كان صديقًا لى. وكان يحبنى.

– وهذه نقمتك.

وأخذ باتياتوس مكانه أمام الصف الطويل من المجالدين، وتجمع الجنود وراءه. ثم قال متعهد المجالدين:

– أنا أطعمكم، أطعمكم خير ألوان الطعام؛ المشويات والدجاج والسمك الطازج. أطعمكم حتى تنتفخ بطونكم، وأزودكم بالحمامات والتدليك. لقد انتشلت غالبيتكم من المناجم والمشانق وأصبحتم تعيشون هنا كالملوك على ثمار الأرض لا تعملون شيئًا. ولم يكن هناك درك أحط مما كنتم فيه قبل مجيئكم إلى هنا، لكنكم الآن تحيون فى راحة وتأكلون خير الأطعمة.

وهمس سبارتاكوس يقول:

– هل أنت صديق لى؟

فأجابه الغالى وهو لا يكاد يحرك شفتيه قائلاً:

– أيها المجالد – لا تصادق المجالدين.

فقال سبارتاكوس:

– إننى أدعوك صديقى.

وقال باتياتوس:

– لم يكن فى القلب الأسود لذلك الكلب الأسود عرفان أو فهم. كم منكم مثله؟

ووقف المجالدون فى صمت فقال باتياتوس للمدربين:

– اختاروا لى رجلاً أسود.

فذهبوا إلى حيث يقف الإفريقيون، وجروا واحداً منهم إلى وسط الفناء. وكان الأمر مرتبًا من قبل. وبدأ قرع الطبول. وانفصل جنديان عن سائر الجنود ورفعا

حربتيهما الخشبيتين الثقيلتين، واستمر قرع الطبول. وراح الزنجي يصارع في تشنج والجنديان يغرسان حربتيهما في صدره واحدة بعد الأخرى، ثم رقد على ظهره فوق الرمال والحربتان تكونان زاوية غريبة في صدره. واستدار باتياتوس إلى الضابط الواقف إلى جواره وقال:

– لن تحدث متاعب جديدة بعد الآن. فلن يجرأ الكلاب نفسها حتى على النباح.

وقال جانيكوس لسبارتاكوس:

– أنا أدعوك صديقي.

ولم يقل الغالي الواقف إلى جانبه الآخر شيئًا، بل راح يتنفس في ثقل وخشونة.

ثم بدأت تمرينات الصباح.

زعم باتياتوس فيما بعد، وهو صادق فيما زعم، أمام مجلس للتحقيق شكل من أعضاء مجلس الشيوخ، أنه لم يكن يعلم أن ثمة مؤامرة قد أفرخت، بل إنه فوق ذلك لم يكن يعتقد بإمكان إفراخ أية مؤامرة. وتأييداً لهذا القول، أوضح للمجلس أنه كان يدرس دائماً بين المجالدين اثنين على الأقل من مأجوريه على وعد منه لهم بعتقهم. وكان يختار هذين الاثنين فى فترات منقطعة للقتال بالأجر ثم يعتق واحداً منهما ويعيد الآخر وعلى جسده دلائل بسيطة للقتال، ثم يختار مرشداً آخر ليكمل الاثنين وأصر باتياتوس على أنه لم يكن فى الإمكان تدبير مؤامرة دون أن يعلم بها.

هكذا كان الموقف على الدوام، فنحن إذا غضضنا النظر عن كثرة نشوب الثورات بين السيد، لوجدنا أنه كان من المستحيل تحديد مكانها، أو معرفة أسبابها، أو العثور على جذورها الدائمة الشبيهة بجذور الشليك الخفية الضاربة فى الأرض على الدوام ولا يبدو منها إلا النبات المزدهر. وكانت محاولة مجلس الشيوخ انتزاع جذور الثورة تفشل دائماً، سواء كانت الثورة على نطاق واسع فى صقلية، أو محاولة فاشلة للثورة فى إحدى الضياع تنتهى بصلب بضع مئات من التعساء المنكوبين. ومع ذلك فقد كان من الضررى استئصال جذور الثورة، فقد خلق الرومان هنا رونقاً للحياة والترف والوفرة لم يعرف العالم مثيلا له من قبل، وانتهى غزو روما للشعوب بالسلام الرومانى، وربطت الطرق الرومانية بين هذه الشعوب التى كانت من قبل متفرقة، ولم يعد فى مركز الحضارة فى العالم من يحتاج إلى طعام أو متعة. هذه هى الحضارة كما يجب أن تكون، وكما أرادها الأرباب، مجتمعين ومتفرقين، أن تكون. إلا أنه مع ازدهار الجسد، أنشبت فيه هذه العلة أظافرها ولم يعد فى الإمكان انتزاعها.

وعندما سأل مجلس الشيوخ باتياتوس:

– ألم تكن هناك دلائل على مؤامرة، أو تذمر أو تدبير للثورة؟

أصر على قوله:

– لم يكن.

– وعندما أعدمت الإفريقى – ولا تنس أننا نرى ذلك عملاً مشروعًا – ألم يصدر احتجاج؟

– لا.

– نحن يهمنا بالذات أن نعرف هل كان لأى نوع من المساعدة الخارجية أو لأى عوامل إثارة أجنبية دخل فى هذا الموضوع؟

فقال باتياتوس:

– ذلك مستحيل.

– ألم يحصل الثلاثة الزعماء سبارتاكوس وجانيكوس وكريكوس على مساعدة خارجية أو أموال؟

فقال باتياتوس:

– أستطيع أن أقسم بكل الآلهة أن ذلك لم يحدث.

- ٦ -

لكن ذلك لم يكن صحيحًا كل الصحة، فلا وجود للرجل الذى يعيش بمفرده. وقد كان سر قوة سبارتاكوس الخارقة، أنه لم ير نفسه وحيداً قط، ولم يعرف الانطواء على نفسه طيلة حياته. فقد حدث قبل قتال الزوجين الفاشل الذى تعاقد عليه الرومانى الشاب الثرى، ماريوس براكوس، بوقت قصير، أن ثار العبيد فى ثلاث مزارع كبيرة فى صقلية. واشترك فى هذه الثورة تسعة آلاف من العبيد أعدموا جميعاً عدا حفنة قليلة. ولم يدرك أسيادهم ومالكوهم ضخامة الثروة التى تسربت إلى المجارى إلا فى نهاية المذبحة. ومن ثم باعوا بثمن بخس نحو مائة تبقوا إلى أصحاب السفن للتجديف فيها. وحدث أن شاهد واحد من وكلاء باتياتوس فى إحدى هذه السفن الغالى الضخم الجثة، العريض المنكبين، الأحمر الشعر المدعو كرتيسوس ولما كانت عبيد التجديف فى السفن يعتبرون غير قابلين للإصلاح فقد كانت أثمانهم رخيصة وحتى الرشاوى التى كانت تدفع لإتمام صفقات بيعهم كانت ضئيلة، وإذ كان العبيد المسيطرون على الأرصفة البحرية فى أوستيا يتجنبون المتاعب فإنهم لم يقولوا شيئًا عن أصل كريكوس. وبذلك لم يكن سبارتاكوس وحيداً، ولم يكن بمعزل عن كثير من الخيوط التى يتكون منها نسيج خاص فقد كان كريكوس يقيم فى الحجرة الضيقة المجاورة لحجرته وكم من أمسية تمدد فيها سبارتاكوس على أرض حجرته الضيقة ورأسه وراء الباب، يصغى إلى كريكوس وهو يروى له قصة الحروب اللانهائية التى يشنها عبيد صقلية، والتى بدأت منذ أكثر من نصف قرن. وسبارتاكوس عبد تناسل من عبيد، لكن بنى جنسه ضموا أبطالاً من أبطال الأساطير، فى عظمة أخيل وهكتور وأوديسيوس الحكيم، وفى مثل عظمتهم وإن فاقوهم كبرياء، وإن كانت الأغانى لم تتغن بهم ولم يصبحوا آلهة يقدسها

الناس وكان الخير كل الخير فى هذا لأن الآلهة كانوا كأغنياء الرومان وكانوا مثلهم لا يبالون بحياة العبيد كان هؤلاء الأبطال رجالاً، بل أقل من الرجال. كانوا عبيداً، عبيداً عراة يباعون فى الأسواق بأسعار دون أسعار الحمير، ويسرجون حول أكتافهم ويجرون المحاريث فى حقول المزارع ومع ذلك فأى عمالقة كانوا. إن منهم إيونوس الذى حرر كل عبد فى الجزيرة وحطم ثلاثة جيوش رومانية قبل أن يوقعوا به، وأثينيون اليونانى، وسالفيوس التراقى، أو ندرات الألمانى، واليهودى الغريب ابن جوا الذى فر من قرطاجنة على ظهر سفينة وانضم إلى أثينيون ومعه كل بحارتها.

وكان سبارتاكوس يشعر وهو يصغى بأن قلبه يفيض كبرياء وسروراً، ويسيطر عليه شعور رائع مطهر بالأخوة والمشاركة الوجدانية نحو هؤلاء الأبطال الموتى. وهفا قلبه إلى رفاقه هؤلاء فهو خير من يعرفهم: يعرف مشاعرهم وأحلامهم وما يتوقون إليه فالجنس، والمدنية، والدولة أشياء لا معنى لها عنده أما العبودية فحقيقة عالمية. لكنهم كانوا يفشلون دائماً، على الرغم مما فى ثوراتهم من روعة مثيرة للأسى، وكان الرومان دائماً هم الذين يدقونهم بالمسامير فى الصلبان، هذه الأشجار الجديدة ذات الثمار الجديدة كيما يرى الجميع جزاء العبد الذى يرفض أن يكون عبداً.

وقال كريكوس:

– وتنتهى القصة كما تنتهى دائماً.

وكان حديث كريكوس عن الماضى يقل كلما طالت به الأيام بين المجالدين، فلا الماضى، ولا المستقبل بمستطيعين مساعدة المجالد، إذ ليس له إلا الحاضر وأقام كريكوس حول نفسه جداراً من السخرية وعدم المبالاة بالعالم ولم يجرؤ إنسان عدا سبارتاكوس على النفاذ إلى داخل القوقعة المرة التى يعيش فيها الغالى العملاق. وقال له كريكوس يوماً:

- إنك تكثر من الأصدقاء فوق ما يجب يا سبارتاكوس. وعسير عليك أن تقتل صديقًا فإليك عنى.

وجمعهم فناء التدريب معا فترة من الزمن فى ذلك الصباح بعد الفراغ من التمرينات وقبل الذهاب لتناول وجبة الصباح ووقف المجالدون أو جلسوا على الأرض فى جماعات صغيرة تنبعث الحرارة والعرق من أجسادهم، وقد خفض من أصواتهم وجود الإفريقين المصلوبين فوق السور وكان الدم يتجمع فى بركة ندية تحت الزنجى الذى اختير رمزًا للعقاب على ما اقترفه الآخر، وكانت طيور الدماء تنهش وتزدرد اللطخ الحلوة المذاق وكان المجالدون مكتئبين مغلوبين على أمرهم يشعرون بأن هذه ليست سوى البداية فباتياتوس منذ اليوم سيوقع العقود ويدفع بهم إلى القتال فى أقرب وقت ممكن وإن الوقت لرهيب.

وكان الجنود قد ذهبوا لتناول طعامهم فى ظل مجموعة قليلة من الأشجار وراء الجدول الذى يجرى إلى جانب المعهد. واستطاع سبارتاكوس أن يراهم وهو واقف فى الفناء ممددين على الأرض هناك، وقد خلعوا خوذاتهم وكوموا أسلحتهم ولم ينزع عينيه عنهم لحظة واحدة.

وسأله جانيكوس:

- ماذا ترى؟

وكانا قد أمضيا فى العبودية زمنا طويلاً معًا: فقد اجتمعا معًا فى المناجم وكانا طفلين معًا.

- لا أدرى.

وكان كريكوس مكتئبًا، فقد طال الكبت بالعنف فى داخله وسأله هو الآخر:

- ماذا ترى يا سبارتاكوس؟

– لا أدرى.

– لكنك تعرف كل شىء أليس كذلك، ولهذا يناديك التراقيون يا أبتاه.

– من تكره يا كريكوس؟

– وهل كان الرجل الأسود هو الآخر يناديك يا أبتاه يا سبارتاكوس؟

لماذا لم تقاتله؟ وهل تقاتلنى عندما يجىء دورنا يا سبارتاكوس.

فقال سبارتاكوس فى هدوء:

– لن أقاتل مجالدين بعد اليوم أنا أعرف هذا وما كنت أعرفه منذ وقت قصير، لكنى أعرفه الآن.

وكان ستة منهم قد سمعوا كلماته فتجمعوا حوله ولم يعد ينظر إلى الجنود بل أخذ ينظر إلى المجالدين بدلاً منهم وينقل بصره من وجه إلى وجه. وأصبح الستة ثمانية، وعشرة، واثنى عشر ومع ذلك فقد ظل على صمته لكن أكتئابهم تبدد واختفى وبدا فى أعينهم هياج آمر ونظر هو إلى أعينهم.

وسأله جانيكوس قائلا:

– ماذا نفعل يا أبتاه؟

– سنعرف ما نفعل عندما يحين وقته. أما الآن فتفرقوا.

ثم تقارب الزمن، وعادت ألف سنة إلى العبد التراقى. كل ما لم يحدث خلال ألف سنة، سيحدث خلال الساعات القليلة القادمة أما الآن فهم عبيد وإلى حين، بل حثالة العبودية، أو جزارو العبيد وتحركوا نحو أبواب فناء التدريب ثم مشوا إلى قاعة الطعام لتناول وجبة الصباح.

ومروا في أثناء ذلك بباتياتوس وهو يجلس في محفته وكان يجلس في المحفة الكبيرة التي يحملها ثمانية من العبيد مع كاتب حساباته النحيل المثقف في طريقهما إلى السوق في كابوا لابتياع المؤن. وعندما مرا بصفوف المجالدين لحظ باتياتوس انتظام صفوفهم والنظام الذي يسودهم في أثناء مسيرهم فرأى أن للتضحية بزنجي ما يبررها كلها رغم ما فيها من نفقة غير عادية.

وهكذا عاش باتياتوس وعاش كاتب حساباته ليذبح سيده فيما يلي من الزمان.

- ٧ -

أما ما حدث فى قاعة الطعام، حيث اجتمع المجالدون لتناول وجبتهم فلن يوجد من يعرفه أو يرويه كما حدث بالضبط ذلك أنه لم يكن قد وجد بعد مؤرخون لتسجيل مغامرات العبيد كما أن حياتهم لم تكن تعد جديرة بالتسجيل. وعندما أصبح ما أقدم عليه عبد جزءاً من التاريخ كتب هذا التاريخ ودونه فرد ممن يملكون العبيد ويخافون العبيد ويكرهون العبيد.

لكن فارينيا رأت ما حدث بعينيها وهى تعمل فى المطبخ، وروت ما حدث بعد زمن طويل لشخص آخر - كما سنرى فيما بعد - وحتى إذا كان الدوى الكبير لمثل هذا الشىء يخفت حتى يصبح همسا فهو لا يضيع أبداً. وكان المطبخ فى أحد أطراف قاعة الطعام والأبواب الداخلة إليها فى الطرف الأول.

وكان بناء قاعة الطعام نفسها ارتجالاً من باتياتوس. ذلك أن الكثير من المبانى الرومانية كان يشيد على طراز تقليدى. لكن تدريب المجالدين وتأجيرهم على نطاق واسع كان ثمرة لهذا الجيل، كالولع بقتال أزواج المجالدين تماماً، فكان جمع هذا العدد منهم فى معهد والسيطرة عليهم موضوعاً جديداً وجد باتياتوس حائطا حجريا قديما فأضاف إليه حوائط ثلاثة ثم سقف المربع الناتج على الطريقة القديمة فأقام سقيفة خشبية إلى الداخل على الجوانب الأربعة بعرض ثمانى أقدام أما الجزء الأوسط فقد تركه عارياً مفتوحاً إلى السماء. ورصف أرض المكان بحيث تنصرف مياه الأمطار إلى مجارى رئيسة وكانت طريقة البناء هذه شائعة منذ قرن مضى، لكنها كانت كافية بالنسبة لجو كابوا المعتدل، وإن كان المكان رطباً بارداً فى الشتاء. وتناول المجالدون طعامهم وهم جلوس مطويو الساقين على الأرض تحت السقفية بينما راح المدربون

يذرعون الفناء المتوسط العارى حيث يستطيعون مراقبة كل شىء بسهولة. أما المطبخ وفيه فرن من قوالب الطوب الطويلة والآجر ومنضدة طويلة فقد كان فى أحد أطراف المربع ويفتح عليه. وفى الطرف الآخر من المربع بابان من الأبواب الخشبية الثقيلة يحكم رتاجهما بعد دخول المجالدين.

وفى هذا اليوم أخذ كل شىء يجرى فى مجراه الطبيعى، وأخذ المجالدون أماكنهم، وقدم لهم الطعام عبيد المطبخ وغالبيتهم من النساء وراح أربعة من المدربين يذرعون الفناء المتوسط وهم يحملون الخناجر وسياطا قصيرة من الجلد المجدول. وكانت الأبواب قد أحكم إغلاقها بالعوارض الحديدية من الخارج بوساطة جنديان انتزعا من الفصيلة لهذا الغرض. أما بقية الجنود فكانوا يلتهمون وجبة الصباح فى ظل مجموعة جميلة من الأشجار على بعد نحو مائة ياردة.

وشاهد سبارتاكوس هذا كله ولحظه. ولم يأكل إلا قليلاً. وكان حلقه جافا وقلبه يدق فى عنف داخل صدره. ولم ير فيما حوله شيئًا عظيمًا فى ذلك مثل أى رجل آخر. إلا أن بعض الرجال يصلون إلى حد يقولون لأنفسهم عنده: إذا لم أعمل كذا وكذا من الأشياء فلا حاجة بى إلى البقاء إذن ولا سبب يدعونى إليه بعد اليوم. وعندما يصل الرجال إلى مثل هذا الحد تميد الأرض.

وكان قد قدر عليها أن تميد قبل انقضاء اليوم بقليل، وقبل أن يتنحى الصباح عن مكانه للظهر ثم الليل. لكن سبارتاكوس لم يكن يعرف ذلك. بل كان يعرف الخطوة التالية لا غير، وهى أن يتحدث إلى المجالدين وبينما هو يحدث كريكسوس الغالى بذلك رأى زوجته فارينيا ترقبه وهى تقف أمام الفرن. وكان بقية المجالدين يرقبونه كذلك. وقرأ اليهودى دافيد حركة شفتيه، وقرب جانيكوس أذنه إليه، وانحنى إفريقى يدعى فراكوس مقتربًا ليسمع.

قال سبارتاكوس:

– أريد أن أقف وأتكلم.. أريد أن أفتح قلبى. لكنى إذا تكلمت فلن يكون هناك تراجع، وسيحاول المدربون منعى.

فقال كريكسوس العملاق الغالى الأحمر الشعر:

– لن يمنعوك.

وسرى التيار، حتى فى الجانب الآخر من المربع، فاستدار مدربان نحو سبارتاكوس والرجال القابعين من حوله وفرقعوا سياطهم واستلوا خناجرهم. وصاح جانيكوس قائلاً:

– تكلم الآن.

وقال الزنجى الإفريقى:

– أنحن كلاب لتلوحوا لنا بسياطكم؟

ونهض ... ارتاكوس واقفاً على قدميه فنهض معه عشرات من المجالدين وأهوى المدربون بسياطهم وخناجرهم، لكن المجالدين تكاثروا عليهم وقتلوهم فى الحال .. وقتلت النسوة الطباخ. حدث كل هذا دون ضجيج كبير، عدا زمجرة المجالدين الخافتة فى أثناء المعركة. ثم أصدر سبارتاكوس أول أمر له فى رقة وهدوء دون عجلة إذ قال لكريكسوس وجانيكوس ودافيد وفراكوس:

– اذهبوا إلى الباب واحرسوه كى أتكلم.

تأرجح الأمر الذى أصدره لحظة خاطفة فلم ينكشف مصيره ثم أطاعوه، وعندما قاد صفوفهم بعد ذلك، كانوا يعلمون فى معظم الأحوال بما يقول، لأنهم كانوا يحبونه. وكان كريكسوس يعلم أن مصيرهم إلى الموت، لكنه لم يبال. وشعر دافيد اليهودى الذى لم يكن يشعر بشىء منذ زمن طويل بتدفق الحرارة والحب فى نفسه لهذا التراقى، الغريب، الوديع، القبيح بأنفه المكسور، ووجهه الشبيه بالأغنام.

- ٨ -

قال سبارتاكوس:

- تجمعوا حولى.

فتجمعوا حوله فى سرعة كبيرة. وحتى تلك اللحظة لم يكن قد صدر عن الجنود المرابطين فى الخارج أى صوت وتزاحم حوله المجالدون والعبيد من المطبخ - وكانوا ثلاثين امرأة، ورجلين. وراحت فارينيا تحدق إليه فى خوف وأمل وقلق ورهبة ثم زاحمت فى طريقها إليه، فأوسعوا لها طريقًا حتى وصلت إليه، فأحاطها بذراعيه، وضمها إلى جانبه فى قوة وهو يفكر لنفسه قائلاً: وقد غدوت حرا ولم تسنح لأبى أو جدى لحظة واحدة من الحرية. أما أنا فأقف فى هذه اللحظة وقد غدوت رجلا حرا. وكان هذا الشعور كفيلا بأن يسكره، وأحس به يندفع دافقًا فى جسده كالخمر. لكن شعوراً آخر كان يصحبه، هو الخوف. فليس بالأمر البسيط أن تصبح حرا، وليس بالأمر اليسير أن تغدوا حرا بعد أن ظللت عبداً زمنًا طويلاً جدا، طيلة حياتك، وطيلة حياة أبيك. وكان سبارتاكوس يشعر كذلك بالرعب العنيد المكبوت الذى يحسه الرجل عندما يتخذ قراراً لا رجعة فيه، وعندما يعلم أن الموت ينتظره فى كل خطوة يخطوها فى الطريق الذى اختاره. وأخذ سبارتاكوس يسائل نفسه عن مصير هؤلاء الرجال الذين امتهنوا القتال وقتلوا أسيادهم واستبد بهم الشك الرهيب الذى يعترى العبد عندما يقتل سيده. وكانت عيونهم تتركز عليه، وكان هو عبد المناجم التراقى الرقيق الذى عرف ما فى قلوبهم وأحبهم، وإذ كانوا يؤمنون بالخرافات، وكانوا جهلة، كغالبية أفراد الشعب فى ذلك الوقت، فقد أحسوا أن شيطانا ما فى قلبه قليل من الشفقة قد مسه واحتواه. لذلك كان من واجبه أن يتكهن بالمستقبل ويقرأه كما يقرأ الرجل الكتاب المفتوح، وأن يقودهم

إليه، وأن يشق لهم الطرق وإن لم تكن هناك طرق يسافرون عليها. كل هذا قالته له عيونهم. وكل هذا قرأه هو فى عيونهم.

وعندما تم التفافهم حوله سألهم:

- هل أنتم معى؟ لن أعود مجالداً من جديد. سأموت قبل ذلك فهل أنتم معى؟

وامتلأت عيون بعضهم بالدموع وازداد التفاهم والتصاقهم به وكان بعضهم كبير الخوف، والبعض الآخر أقل خوفاً، لكنه بعث فيهم قدراً ضئيلاً من المجد - وكانت قدرته على ذلك أمراً مدهشاً. ثم قال:

- يجب أن نصبح رفاقا من الآن، كلنا معًا كشخص واحد لقد كان قومى إذا ما خرجوا للقتال فى الأزمنة القديمة، كما سمعت يخرجون بمحض إرادتهم، لا كما يفعل الرومانيون، بل بمحض إرادتهم. وإذا لم يرغب واحد فى القتال، ذهب عنهم دون أن يهتم به أحد.

وصاح واحد يسأل:

- ماذا سنفعل؟

- سنخرج ونقاتل. وسنقاتل خير قتال لأننا خير المقاتلين فى العالم بأسره.

ودوى صوته فجأة، فاستولى على المقاتلين هذا التبدل المناقض لسلوكه الرقيق السابق. فقد توحش صوته وارتفع حتى لم يعد هناك مجال للشك فى أن الجنود فى الخارج قد سمعوا صيحته.

- سنقاتل رجلاً لرجل كى لا ينسى الرومانيون فى مختلف عصورهم مقاتلى كابوا.

ويأتى الوقت الذى يتحتم فيه على الرجال أن يقوموا بما يجب عليهم عمله. وفارينيا تعرف ذلك وتشعر بالفخر ممزوجا بلون من السعادة لم تعرفه من قبل: فخورة

تفيض بسرور غريب لأن لها رجلاً ليس له مثيل بين رجال العالم، وهى تعرف سبارتاكوس، وسيعرفه العالم بأسره عندما يحين الوقت، لكن العالم لن يعرفه كما عرفته هى. وأدركت بطريقة ما، أن هذه اللحظة بداية شىء جليل لا نهاية له، وأن رجلها رقيق تقى لا مثيل له بين الرجال.

- ٩ -

وقال سبارتاكوس:

– الجنود أولاً.

– نحن خمسة لواحد وقد يفرون.

فأجابه غاضباً:

– لن يفروا. يجب أن تعرفوا هذا عن الجنود. هم لن يفروا، فإما قتلونا وإما قتلناهم. وإذا ما قتلناهم فسنجد غيرهم فلا نهاية للجنود الرومانيين.

وعندما نظروا إليه نظرتهم قال لهم:

– ولا نهاية للعبيد كذلك.

وأعدوا عدتهم فى سرعة فائقة. واستولوا على المدى من مدربيهم القتلى، وانتزعوا من المطبخ كل ما يمكن استعماله سلاحا المدى، وسكاكين الذبح، والأسياخ، وأدوات الشى، والمدقات، المدقات بالذات التى تستعمل فى طحن الحبوب للعصيد. وكان الموجود منها لا يقل عن عشرين، وهى قضبان خشبية فى أطرافها كتل ثقيلة من الخشب تصلح كهروات أو قذائف. وأخذوا أخشاب الوقود كذلك، وكان الواحد منهم يتسلح بأى شىء حتى عظام اللحم إذا لم يجد غيرها وانتزعوا أغطية الأوانى لاستعمالها دروعا. ووجد كل منهم لنفسه سلاحاً، أى نوع من السلاح، واحتشدت النساء ورائهم ثم فتحوا أبواب قاعة الطعام الكبيرة وخرجوا للقتال.

وتمت تحركاتهم فى سرعة كبيرة، لكنها لم تكن بالسرعة الكافية لمباغتة الجنود. فقد حذرهم الاثنان المنوطان بحراسة الأبواب فوجدوا من الوقت ما يكفى لارتداء

دروعهم والاصطفاف فى أربع فصائل كل منها عشرة جنود. ووقفوا فى تشكيلاتهم على الجانب الآخر للجدول أربعون جنديا وضابطان واثنا عشر مدربًا مسلحين ككل الجنود تسليحًا كاملاً بالسيوف والدروع والحراب. وهكذا واجه أربعة وخمسون رجلاً كاملو التسليح، مائتين من المجالدين العراة الذين لا يحملون سلاحًا يذكر. فكانت الكفتان غير متساويتين، فكفة الجنود هى الراجحة لأنهم الجنود الرومانيون الذين لا يقف فى طريقهم شىء على ظهر الأرض. ورفع الجنود حرابهم وتقدموا فى صفين فصيلة وراء الأخرى. وتعالت أصوات الضباط وهم يصدرون أوامرهم فوق نسيم الصباح وتقدم الجنود كالمكنسة لإزالة هذه القذارة من طريقهم. وتناثرت مياه الجدول تحت أقدامهم ذات الأحذية الطويلة، وانثنت الأزهار البرية وهم يصعدون على جانب الجدول، وخرج بقية العبيد من كل مكان وتجمعوا جماعات صغيرة ليشاهدوا هذا الشىء الذى لا يصدق وهو يحدث أمام أعينهم. واهتزت الحراب الرهيبة فوق الأذرع المثنية فالتمعت أطرافها الحديدية المستدقة فى ضوء الشمس. وكان من الضرورى حينذاك كأن يفزع العبيد ويتفرقوا ويجروا فى كل صوب، كأنهم رماد يعود إلى رماد، وقذارة إلى القذارة أمام كل ما تعنيه القوة الرومانية، وأمام هذا الامتداد المتواضع للقوة الرومانية المتمثل فى هذه الفصائل الأربع.

لكن قوة روما كانت فى تلك اللحظة الحاسمة قد وقعت فى المحظور، فقد أصبح سبارتاكوس قائدًا. ليس فى اللغة تعريف واضح للرجل الذى يقود صفوف غيره من الرجال. فالزعامة أو القيادة شىء نادر غير ملموس ويزداد ذلك إن لم تسانده القوة والمجد. ففى وسع أى رجل أن يصدر الأوامر، لكن إصدار أوامر يطيعها غيره، ميزة نادرة .. وكانت هذه إحدى ميزات سبارتاكوس. لقد أصدر أمره للمجالدين بأن ينتشروا، فانتشروا. وأمرهم بأن يحيطوا بالفصائل فى دائرة واسعة غير متماسكة؛ فانتشروا فى هذه الدائرة المطلوبة. وعند ذاك أبطأت الفصائل الأربع المهاجمة خطوها وسيطر عليها التردد فتوقفت. إذ لا يوجد على ظهر الأرض جندى فى مثل سرعة

المجالدين حيث الحياة عندهم فى السرعة والسرعة هى الحياة. كما أن هؤلاء المجالدين كانوا عراة، لو أغفلنا الخرق التى كانت تستر عوراتهم، بينما الجنود المشاة الرومانيون كانوا يحملون ما ثقل من السيوف والرومات والدروع والخوذ والزرد. وانتشر المجالدون وكونوا دائرة كبيرة يبلغ قطرها مائة وخمسين ياردة وقبعت الفصائل فى مركزها وهى تستدير هنا وهناك وقد رفع الجنود حرابهم - التى تفقد كل قيمتها على بعد أكبر من ثلاثين أو أربعين ياردة. والحربة الرومانية لا تقذف إلا مرة واحدة ؛ رمية واحدة يطبق بعدها الجنود بسيوفهم. لكن على أى شىء يقذفون حرابهم هنا؟

فى تلك اللحظة شاهد سبارتاكوس فى وضوح قيمة خططه الحربية، المثال الكامل لكل خططه الحربية فيما يلى من السنين، ورأى بعين خياله فى قوة واختصار صدق ما يروى من أقاصيص عن جيوش ألقت بنفسها على هذه الحراب الرومانية المسنونة، وتحطمت تحت وطأة الحربة الرومانية الثقيلة، ثم مزقتها إربا السيوف الرومانية القصيرة الحادة كالموسى. ومع ذلك فهذا هو نظام روما وقوة روما عاجزين حائرين وسط حلقة من مقاتلين عراة يتصايحون ويلعنون متحدين.

وصاح سبارتاكوس يقول:

- عليكم بالأحجار - الأحجار ستنوب الأحجار عنا فى القتال. ودار يعدو حول الدائرة على أطراف أصابعه خفيفًا رشيقًا فى حركاته وهو يصيح:

- ارموهم بالحجارة.

وانهار الجنود تحت وطأة العار المتمثل فى الأحجار. فقد امتلأ الجو بالصخور المتطايرة وانضمت النساء إلى الدائرة - وكذلك فعل عبيد البيت وجاء عبيد الحقل يجرون لينضموا هم أيضًا إلى الدائرة. واتقى الجنود القذائف الضخمة بتروسهم، فأتاح ذلك للمقاتلين فرصة الانقضاض عليهم؛ الانقضاض ثم التراجع السريع. وهاجمت فصيلة من الجنود الدائرة وقذفوا بحرابهم فلم تصب الأسلحة الرهيبة إلا

مجالداً واحداً. أما الباقون فقد انقضوا على الفصيلة وألقوا بأفرادها أرضًا وذبحوا الجنود بأيديهم العارية تقريبًا. وكر الجنود عليهم. وتحلق جنود فصيلتين فى دائرة وظلوا يقاتلون حتى بعد أن لم يبق منهم إلا حفنة تقف على أقدامها تحت وابل الأحجار المنهمر؛ وحتى بعد أن انقض عليهم المجالدون كقطيع من الذئاب، ظلوا يقاتلون حتى ماتوا. وحاولت الفصيلة الرابعة أن تشق طريقها خارجة من الدائرة وتفر، لكن عشرة من الجنود كانوا أقل من أن ينفذوا مثل هذه الخطة فسقطوا أرضًا وذبحوا، كما ذبح المدربون من قبلهم – وصاح اثنان من المدربين يطلبان الرحمة فقتلتهما النساء إذ رحن يضربنهما بالأحجار حتى ماتا.

ودوت أصداء المعركة الغريبة الصغيرة العنيفة التى بدأت بالقرب من قاعة الطاعة فى أرجاء أرض المعهد وعلى طريق كابوا حيث ألقوا بالجندى الأخير أرضًا وقتلوه. وتناثرت فى كل أنحاء تلك المنطقة وأرجائها جثث القتلى والجرحى ... جثث أربعة وخمسين من القتلى كانوا رومانيين ومدربين، أما عدد المجالدين فكان أكثر من هذا.

لكن ذلك لم يكن سوى البداية واستطاع سبارتاكوس وهو يقف على الطريق العام مليئًا بحمية النصر، متدفق الدم، نشوان به، على الرغم من أنها لم تكن سوى البداية – استطاع أن يرى جدران مدينة كابوا على بعد، مدينة تلفها غلالة من ذهب فى الوهج الذهبى للظهيرة. واستطاع أن يسمع الحراس وهم يقرعون الطبول وأدرك أنه بعد الآن لن تكون هناك راحة، فالأحداث تقع، وأنباؤها تتطاير. وكابوا يحرسها عدد كبير من الجنود. لقد انفجر العالم بأسره وأحس وهو يلهث واقفا على الطريق العام والدم والموت يتناثران من حوله، أنه يمتطى تيارات عارمة صاخبة وشاهد كريكسوس الغالى ذا الشعر الأحمر يضحك، وجانيكوس متهللا، ودافيد اليهودى والدماء تقطر من سكينه وقد عادت الحياة إلى عينيه، والإفريقيين العمالقة هادئين هدوءا متعمدا يتمتعون بأغنية الحرب فى بلادهم. عند ذاك أخذ فارينيا بين ذراعيه، وكان بقية المجالدين يقبلون نساء هم: يديرونهن بين أذرعتهم ويضاحكونهن، بينما جاء عبيد البيت يجرون حاملين قرب

نبيذ باتياتوس .. حتى الجرحى هونوا من شأن جراحهم وخنقوا صرخات الألم فى نفوسهم، وتطلعت الفتاة إلى سبارتاكوس وهى تضحك وتبكى فى وقت واحد، وراحت تتحسس وجهه وذراعيه ويده الممسكة بالخنجر. وكانوا قد رفعوا قراب النبيذ إلى أفواههم عندما أعادهم سبارتاكوس إلى صوابهم. كان من الممكن أن يخرجوا من التاريخ عند ذاك سكارى متهللين، لأن الجنود كانوا قد بدءوا يتقدمون بالفعل خارجين من أبواب كابوا، لكن سبارتاكوس أمسك بهم وكبح جماحهم. وأمر جانيكوس أن ينزع من الجنود القتلى أسلحتهم، وبعث نوردو، وهو إفريقى، ليرى هل من الممكن اقتحام مخزن الأسلحة. وكانت رقته قد ذهبت عنه الآن، واشتعل فيه تصميمه على هربهم كاللهب المضىء وبدله لقد أمضى حياته فى انتظار هذه اللحظة، وكان كل صبره إعدادها لها. لقد انتظر قرونًا طويلة .. انتظرها منذ غلل أول عبد وضرب بالسياط ليحطب الخشب ويرفع الماء. ولن يسمح لإنسان أن يصرفه عنها بعد الآن.

وكان قبل هذه اللحظة يطلب إليهم، لكنه الآن يأمرهم. من يستطيع استعمال الأسلحة الرومانية، من حارب بالخربة؟ وشكل منهم أربع فصائل.

وقال :

– أريد النساء فى الداخل. يجب أن لا يتعرضن للخطر ولن يحاربن فأدهشته غضبة النساء فقد كانت حميتهم تفوق حمية الرجال وكن يردن أن تحاربن وبكين له ضارعات لرغبتهن فى القتال. وضرعن طلبا لبعض الخناجر الثمينة، فلما أنكر عليهن ذلك تمنطقن على أرديتهن وملأنها بالأحجار ليقذفن بها.

وكانت المزارع القريبة من المعهد حقولا على سفوح تلال منحدرة ولمشاهد عبيد الحقول شيئًا مخالفًا للعادة، رهيبًا، وحشيا جروا من كل صوب لمشاهدة ما يدور وتجمعوا فوق الجدران الحجرية فى جماعات صغيرة هنا وهناك وعندما شاهدهم سبارتاكوس اتضحت له خطة مستقبله بكل بساطتها ونادى دافيد اليهودى وأصدر إليه

أمرًا، فجرى اليهودى قاصدًا عبيد الحقول ولم يكن سبارتاكوس قد أخطأ الظن فقد جاء ثلاثة أرباع عبيد الحقول مع دافيد، جاءوا يجرون وحيوا المجالدين وقبلوا أيديهم، وحملوا معهم مناجلهم التى استحالت بقدرة قادر من آلات إلى أسلحة. وعاد الإفريقيون عند ذاك لأنهم لم يتمكنوا من اقتحام مخزن الأسلحة الرئيس فقد كان ذلك يستغرق نصف ساعة على الأقل لكنهم استطاعوا أن يحطموا صندوقًا وصل حديثًا كان يحوى مجموعة من المذارى ذات الأطراف الثلاثة. وكان عدد ما وجدوه من هذه الحراب المثلثة الأطراف ثلاثين. وزعها سبارتاكوس بين الإفريقين الذين قبلوا الأسلحة ورتبوا عليها وأقسموا عليها أقسامهم الغريبة بلغتهم الأصلية الغريبة.

ولم يستغرق كل هذا وقتا طويلاً ومع ذلك فقد كانت الحاجة إلى الإسراع ثقيلة الوطأة على سبارتاكوس لأنه كان يريد أن يبتعد عن المكان وعن المعهد، وعن كابوا، فصاح بهم يقول.

– اتبعونى. اتبعونى.

وظلت فارينيا إلى جانبه. وتركوا الطريق واخترقوا الحقول صاعدين التلال المنحدرة وقالت فارينيا:

– لا تتركنى فى المؤخرة .. لا تتركنى فى المؤخرة أنا قادرة على القتال كالرجل.

عند ذاك شاهدوا الجنود قادمين على الطريق من كابوا وكان عددهم يبلغ المائتين. وكانوا يسيرون فى صفين، حتى شاهدوا المجالدين وهم يلجئون إلى التلال فأمرهم ضباطهم بالانتشار فى نصف دائرة ليقطعوا الطريق عليهم وهجم الجنود داخلين إلى الحقول وسكان كابوا يتدفقون خلفهم خارجين من أبواب المدينة لمشاهدة إخماد فتنة العبيد، ولمشاهدة قتال أزواج المجالدين دون مقابل أو نقود.

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند ذاك، أو قبل ذلك بساعة أو بعد ذلك بشهر. كان من الممكن أن ينتهى الأمر فى أية لحظة من اللحظات فقد فر عبيد من قبل،

ولو كان هؤلاء العبيد يفرون هم أيضاً لكانوا قد احتموا بالحقول والغابات ولعاشوا فيها عيشة الحيوانات على ما يستطيعون سرقته، وعلى ثمار البلوط المتساقطة ولكانوا قد اصطيدوا الواحد بعد الآخر، وصلبوا الواحده بعد الآخر. فلا حماية لعبد لأن هذه هى الدنيا . وأدرك سبارتاكوس هذه الحقيقة البسيطة وهو ينظر إلى الجنود، حراس المدينة، وهم يتسابقون قادمين إليهم ولم ير من حوله مكانا صالحًا للاختباء فيه ولا حجرا للزحف إليه.

إذن يجب تغيير العالم.

فتوقف عن الجرى. وقال:

– سنقاتل الجنود.

سأل سبارتاكوس نفسه بعد ذلك بوقت طويل من سيكتب عن معاركنا، وعما كسبنا منها وعما خسرنا؟ ومن سيروى الحقيقة فقد كانت حقيقة العبيد تناقض كل حقائق العصر الذى عاشوا فيه لأنها كانت مستحيلة - مستحيلة فى كل ظروفها، لا لأنها لم تحدث بل لأنه لم يوجد تفسير لها فى ظروف تلك الأيام لقد كان الجنود يفوقون العبيد عدداً وكانوا مسلحين بالدروع والأسلحة الثقيلة لكنهم لم يتوقعوا أن يقاتلهم العبيد بينما عرف العبيد أن الجنود سيقاتلونهم. وتدفق العبيد هابطين عليهم من المنحدرات، فلم يستطع الجنود الذين كانوا يتقدمون فى نظام وترتيب؛ شأن الرجال عندما يطاردون أرنبا، أن يقابلوا الصدمة فقذفوا بحرابهم فى وحشية وجبنوا تحت وابل الأحجار التى أمطرتهم بها النساء.

كانت الحقيقة إذن أن الجنود انكسروا على أيدى العبيد وفروا أمامهم وطاردهم العبيد حتى منتصف المسافة فى طريق العودة إلى كابوا وقتلوهم. وأصيب العبيد فى المعركة الأولى بخسائر فادحة. أما فى المعركة الثانية فلم يمت منهم إلا حفنة وفر الجنود الرومانيون أمامهم. هذه هى حقيقة الأمر، إلا أن القصة رويت فى مائة صورة مختلفة. وكان أول تقرير عنها هو ما كتبه قائد القوات فى كابوا إذ كتب يقول:

«حدث تمرد بين العبيد فى معهد التدريب التابع للنتولوس باتياتوس وهرب عدد منهم وفروا متجهين إلى الجنوب على طول الطريق الأبيوسى، فأرسلنا نصف كتيبة من قوات الحراسة لملاقاتهم. إلا أن بعضهم نجح فى اختراق الحصار والفرار وليس من المعروف بعد من يكون قادتهم أو ما هى نواياهم. لكنهم تسببوا مع ذلك فى تمرد

العبيد فى الريف، ويأمل المواطنون هنا فى أن مجلس الشيوخ الموقر لن يدخر جهداً فى تعزيز قوات الحراسة فى كابوا حتى يمكن إخماد الثورة فى التو».

ثم أضاف القائد يقول ولعل ذلك كان بعد تدبر وتفكير:

« وقد وقعت بالفعل سلسلة من حوادث العنف. ويخشى أن يتعرض الريف إلى أعمال السلب والنهب ».

وقد روى باتياتوس قصته بالطبع للجماهير من سكان كابوا الذين تشوقوا لسماعها والحقيقة أن أحداً لم ينزع - عدا باتياتوس الذى شاهد ثمرة سنوات من العمل تضيع هباء - لكن الجميع أدركوا أن الريف سيصبح مكانًا غير مستقر حتى يقتل آخر واحد من هؤلاء الرجال المرعبين المجالدين أو يذبح، أو يدق بالمسامير فوق أحد الصلبان كي يرعوى غيره مما أصابه. وتطورت الروايات، ورويت القصة، وأعيدت روايتها على ألسنة المئات من الناس الذين تقوم حياتهم كلها على أساس العبيد غير المستقر. ورووا القصة تبعا لخوفهم وحاجاتهم. هكذا كانت الحياة دائمًا، وستظل كذلك فيما يأتى من السنين:

- «أجل. حدث أن كنت أنقل الماء إلى كابوا عندما حطم سبارتاكوس قيوده. لقد شاهدته. أجل حقا شاهدته. إنه رجل عملاق. شاهدته يحمل طفلاً صغيراً على سنان حربته. وكان ذلك منظراً رهيباً».

أو أية رواية أخرى من آلاف الروايات. لكن الحقيقة نفسها كانت شيئًا لم ير منه سبارتاكوس نفسه فى ذلك الوقت سوى لمحات خاطفة فقد تحرر بصره من قيود عصره. إذ هزم العبيد تحت قيادته الجنود الرومانيين فى التحامين صغيرين. ولسنا ننكر فقط أن هؤلاء الجنود لم يكونوا إلا حفنة من قوات الحراسة التى تعد فى المرتبة الثانية، اللينة الرخوة نتيجة الحياة الرغدة فى مدينة نائية، وأنهم وجهوا خير رجال السيف المحترفين فى طول إيطاليا وعرضها؛ ومع ذلك - حتى مع وضع هذا

العامل موضع الاعتبار – فقد كانت هزيمة العبد لسيده مرتين فى يوم واحد حقيقة تهز الأرض. كما أن العبيد لم يغفلوا عن هذه الحقيقة عندما فر الجنود أمامهم، فتراجعوا عندما دعاهم سبارتاكوس إلى العودة – فقد كانوا قوم نظام، كما أن سباراتاكوس أصبح بالفعل خلال ساعات قليلة شخصية مسيطرة. وكان الفخر يفيض بهم وتبددت مخاوفهم، وظلوا يتحسسون بعضهم بعضًا كما لو كان الواحد منهم يداعب الآخر. وكما لو كانت الحكمة القاسية القائلة: أيها المجالد لا تصادق مجالدا، قد انقلبت إلى نقيضها فجأة، ولهذا أدرك كل منهم صاحبه أتم الإدراك. وهم وإن لم يفكروا فى ذلك أو يتعقلوه – كانت غالبيتهم قومًا بسطاء جهلة – إلا أنهم ارتقوا وتطهروا فجأة. فراح الواحد منهم يتطلع إلى الآخر كأنه لم يره من قبل، وربما كان فى ذلك بعض الحقيقة، فما كانوا ليجرءون على النظر بعضهم إلى بعض من قبل ، وهل يستطيع الجلاد أن ينظر إلى ضحيته؟ أما الآن فلم يعودوا ضحية وجلادًا فى رفقه لا مفر منها، بل هم الآن أخوة فى النصر. وأدرك سبارتاكوس فى تلك اللحظة حقيقة ما حدث فى صقلية وفى كثير غيرها من الأماكن، وأحس بقوتهم، لأن جزءًا منها كان يتوهج فى داخله، وهذا التيار الذى يتدفق داخله؛ هو الذى يطهره من جميع الآلام التى كونت ماضيه، وكل المخاوف والمعرات والمهانات. لقد تشبث بالحياة طويلاً وجعل من المحافظة على حياته أطول وقت ممكن عملاً دقيقًا إلى حد يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن الحياة ستصبح بالنسبة له شيئًا جديرًا بالعناية والحرص. وهذه هى ثمرة ما ادخر. وفجأة لم يعد يخاف الموت أو فكرة الموت بعد، لأن الموت لم تعدله أهمية عنده.

وتجمع المجالدون ونساؤهم، والعبيد الذين انضموا إليهم على سفح تل يبعد نحو خمسة أميال من كابوا، وعلى مسافة قصيرة من الطريق الأبيوسى، وعلى مرأى من منازل كبار الملاك التى دلت على وجود مزرعة لأحد السادة الرومانيين. وكان اليوم قد تقدم حتى كاد النهار أن ينتصف، وأضحى المجالدون بعد المعركتين، وما أعقب ذلك من تقدمهم جنوبيًا جيشًا صغيرًا. وكان من المحتمل أن يتصورهم المشاهد من بعيد فيلقا

من الجيش الرومانى لولا وجود الرجال السود فيما بينهم. وكانوا قد تقاسموا الأسلحة، كما فعلوا نفس الشىء بالخوذات والدروع الواقية والحراب والتروس التى غنموها من الجنود. ولم يبق واحد منهم غير مسلح. وأصبح من المشكوك فيه أن تستطيع أية قوة عسكرية أقرب من قوة روما نفسها، أن تتحداهم وهم على ما هم عليه من التسلح والتجربة. وبخاصة بعد أن وصل عددهم مع من انضم إليهم من عبيد البيوت وعبيد الحقول؛ وباستثناء نسائهم إلى مائتين وخمسين رجلاً. وسارت كل جماعة من الجماعات الثلاث الرئيسة الغاليين. والإفريقيين، والتراقيين، مستقلة منفصلة وعلى رأس كل منها ضباطها الذين اختيروا من بين قادتها. ونظراً لطول مشاهدتهم للفصيلة الرومانية المكونة من عشرة رجال بوصفها وحدة عسكرية، كان من الطبيعى أن يقسموا أنفسهم عشرات. وقادهم سبارتاكوس. ولم يكن هذا محلا للنقاش فقد كانوا على استعداد للموت فى سبيله؛ وكانوا مشبعين بالأساطير التى تدور حول الرجال الذين مستهم الآلهة. وكان هذا الإيمان ينطق فى وجوههم عندما يتطلعون إلى سبارتاكوس.

وكان هو فى مقدمتهم فى أثناء سيرهم، وفارينيا، الفتاة الألمانية تسير إلى جواره وذراعها حول وسطه، تنظر إليه من وقت لآخر. ولم يكن ما تراه جديداً عليها، فهى قد تزوجت من هذا الرجل منذ زمن بعيد، هذا الرجل الذى هو خير الرجال وأكثرهم شجاعة. ألم تعرف هى ذلك يومذاك – كما تعرفه الآن؟ وكانت تبتسم له عندما تلتقى عيناهما، لقد قاتلت الجنود. ولم تكن لتدرى هل كان قتالها للجنود قد ساءه أو سره، لكنه لم يبد اعتراضاً على السكين الذى تمسك به فى يدها، فهما الآن ندان، والعالم ملىء بخرافات الأمزونيات القديمة؛ النساء اللاتى ذهبن إلى ساحة القتال فى الأزمان الغابرة كما يفعل الرجال – وما زال الكثير غيرها من الأساطير يتردد فى عصر سبارتاكوس عن ماض من الزمان تساوى فيه الرجال والنساء، ولم يكن فيه سيد ولا عبد، وكان كل شىء ملكا للجميع. لقد غلفت غمامة الزمن هذا الماضى السحيق وحجبته، وكان ذلك هو العصر الذهبى، وسيعود العصر الذهبى من جديد.

هذا هو العصر الذهبى يعود، والشمس تكسو الريف الجميل، ورجال الساحة المتوحشون، رجال الرمال، يتزاحمون من حوله، والأمة الألمانية تضج بالأسئلة. وكان العشب نديا أخضر فى المرج الذى تجمعوا فيه، والزهور الصفراء تقف على قمم عيدان العشب كالزبد الأصفر، والفراشات والنحل تحوم جماعات فى كل مكان فيمتلئ الهواء بغنائها. وناداه الجميع يا أبتاه كما يفعل التراقيون.

– ماذا نعمل الآن، وأين نذهب؟

ووقف وسط حلقتهم. وجلست فارينيا على العشب وقد ألصقت خدها بساقه، بينما جلس الجميع أو ربضوا على العشب من حوله؛ السود بأطرافهم الطويلة، والغاليون بوجوههم الحمراء وعيونهم الزرقاء، والتراقيون بشعورهم السوداء وأجسادهم الضامرة. وقال:

– نحن قبيلة واحدة. أهذه رغبتكم؟

وأومئوا برءوسهم موافقين، فليس فى القبيلة عبيد. وللجميع حق القول ولم يكن الأمر كذلك باعث فى الماضى البعيد، ولكنهم يحتفظون منه على الأقل بالذكرى. ثم سألهم:

من يريد الكلام؟ من يريد أن يتقدم لقيادتنا؟ ليقف من يريد أن يقودنا فنحن اليوم أحرار.

وظل الجميع على جلستهم. لم يقف منهم أحد. وبدأ التراقيون يقرعون تروسهم بمقابض خناجرهم، فأفزع ذلك سرباً من طير السمان كان جاثماً فى المرج. وظهر على بعد جماعة من الناس حول منزل صاحب الضيعة، لكنهم كانوا أبعد من أن يمكن القول من هم أو ماذا يفعلون. وحيا الزنوج سبارتاكوس بالتصفيق بأيديهم أمام وجوههم. وكان الكل راضين رضاء غريبا يعيشون فى تلك اللحظة فى حلم. وظلت فارينيا تضغط خدها إلى ساق رجلها. وصاح جانيكوس قائلاً:

- سلام عليك أيها المجالد.

ووقف رجل يوشك أن يموت وهو يتخاذل فى وقفته بعد أن كان ممدداً فوق العشب. وكان ذراعه مشقوقًا بطوله حتى العظام، والدماء تقطر منه. وكان غاليًا رفض أن يتركوه وراءهم وسار معهم، فتذوق بذلك قدراً من الحرية. وكان ذراعه المشقوق مضمداً بخرقة مشربة بالدماء. ومشى إلى سبارتاكوس الذى ساعده على الاعتدال فى وقفته. وقال الرجل للمجالدين:

- لست خائفًا من الموت، فالموت خير من الحياة للقتال فى الساحة. لكنى أفضل السير وراء هذا الرجل على الموت وأفضل أن أسير وراءه لأشهد ما سيقودنا إليه. وإذا مت فاذكرونى ولا تسيئوا إليه، أطيعوه فالتراقيون ينادونه يا أبتاه، ونحن كالأطفال الصغار، لكنه سينتزع الشر من نفوسنا. فأنا قد خلوت من كل شر بعد أن قمت بعمل جليل وتطهرت، ولهذا فلست أخاف الموت. سأنام فى هدوء ولن أحلم أى أحلام بعد موتى.

وكان بعض المجالدين يبكى الآن جهراً وقبل الغالى سبارتاكوس فقبله سبارتاكوس بدوره وقال:

- ابق إلى جانبى.

فرقد الرجل على العشب إلى جواره، وراح عبيد الحقول الذين انضموا إليهم يحدقون فاغرى الأفواه إلى هؤلاء المجالدين الذين تربطهم بالموت مثل العلاقة السهلة الوطيدة. وقال له سبارتاكوس: ستموت أنت ونحيا نحن. وسنذكر اسمك ونردده عاليًا وسنجعل منه صوتًا مدويًا يلف العالم بأسره.

فاستحلفه الغالى قائلاً:

- و لن تسلموا أبداً؟

– وهل سلمنا عندما هاجمنا الجنود؟ لقد قاتلنا الجنود مرتين وقهرناهم.

واستدار سبارتاكوس إلى المجالدين يسألهم:

– أتعرفون ما يتعين علينا عمله الآن؟

فتطلعوا إليه منتظرين.

– هل نستطيع الهرب؟

فسأل كريكوس قائلاً:

– وأين نهرب؟ فالحال واحدة في كل مكان. في كل مكان يوجد سيد وعبد.

فقال سبارتاكوس:

– لن نسلم أو نفر.

وكان سبارتاكوس قد أدرك ذلك الآن وتأكد منه ووثق به كما لو كان الشك في ذلك لم يطف بذهنه من قبل.

– سنتقدم من ضيعة إلى ضيعة، ومن بيت إلى بيت، وسنحرر العبيد حيثما حللنا ونضمهم إلينا. وعندما يرسلون الجنود لقتالنا مرة ثانية سنقاتلهم، وستقرر الآلهة هل تريد بقاء الرومان أو بقاءنا.

وسأل واحد منهم:

– والأسلحة؟ أين سنجد الأسلحة.

– سنأخذهم من الجنود، وسنصنعها كذلك: وماذا تكون روما سوى دم العبيد وعرقهم وعذابهم؟ أيوجد ما لا نستطيع عمله؟

– ستشن روما علينا الحرب إذن.

فقال سبارتاكوس فى هدوء:

- إذن نخوض غمار الحرب ضد روما. وستكون نهاية روما على أيدينا، ثم نشيد عالما لا عبيد فيه ولا سادة.

كان ذلك حلما، لكنهم كانوا جميعًا فى حالة نفسية تؤهلهم للحلم. لقد صعدوا إلى السماوات العلى، ولو أن هذا التراقى الغريب ذا العينين السوداوين والأنف المكسور قال لهم إنه ينوى أن يقودهم لقتال الآلهة نفسها، لصدقوه فى تلك اللحظة وتبعوه حينذاك.

ثم قال سبارتاكوس يخاطبهم فى هدوء وصراحة وقصد، كأنه يوجه الخطاب إلى كل منهم على حدة وبصراحة:

- لن نشين أنفسنا. لن نفعل ما يفعله الرومانيون، ولن نطيع القانون الرومانى وسنسن لأنفسنا قانوننا الخاص.

- وما قانوننا؟

- قانوننا سهل بسيط. كل ما نستولى عليه ملك للجميع؛ ولن يملك واحد منا شيئًا إلا سلاحه وملابسه. سنفعل ما كانوا يفعلونه فيما مضى.

فقال تراقى:

- يوجد ما يكفى ليصبح الجميع أغنياء.

فقال سبارتاكوس:

- ضعوا أنتم القانون، فأنا لن أضعه.

فبدءوا يتحدثون. وكان من بينهم رجال طامعون يحلمون بأن يصبحوا سادة عظامًا كالرومان. وكان من بينهم من يحلم بأن يتخذ من الرومان عبيدًا له، فتحدثوا وتحدثوا، لكن الأمر انتهى بما قاله سبارتاكوس نفسه.

قال سبارتاكوس:

– ولن نستولى على امرأة إلا لتكون كزوجة. ولن يتزوج رجل بأكثر من امرأة واحدة. وستسوى العدالة بينهما، فإذا عجزا عن الحياة معا فى سلام، فيجب أن يفترقا. ومحظور على الرجال مضاجعة أى امرأة، رومانية كانت أو غير رومانية، ما لم تكن زوجته الشرعية.

وكانت قوانينهم قليلة العدد لكنهم وافقوا على بكرة أبيهم على هذه القوانين. ثم انتضوا أسلحتهم وهاجموا منزل سيد الضيعة فلم يجدوا فيه إلا العبيد، لأن الرومانيين كانوا قد فروا إلى كابوا .. وانضم العبيد إلى المقاتلين.

وشاهدوا فى كابوا الدخان وهو يتصاعد من منزل سيد الضيعة وهو يحترق، فقالوا إن العبيد قساة منتقمون، وكأنما كانوا يريدون من العبيد أن يكونوا وديعين فاهمين؛ أو إن شئت فقل قولاً أكثر وضوحًا، وهو أنهم كانوا يريدون من العبيد أن يفروا إلى قمم الجبل الموحشة حيث يختفون زرافات ووحدانا فى الكهوف، ويعيشون كالحيوانات حتى يتصيدوهم الواحد تلو الآخر كما يصاد الحيوان. ولم يجد سكان كابوا ما يدعوهم إلى الانزعاج، حتى بعد أن شاهدوا الدخان يتصاعد من أول منزل يحترق فقد كانوا يتوقعون أن يعمد المجالدون إلى التنفيس عن مرارة نفوسهم فى كل ما يلقون فى طريقهم. وكان رسول ينهب بالفعل الطريق الأبيوسى فى طريقه إلى روما لينهى إلى مجلس الشيوخ نبأ الثورة فى كابوا - وكان ذلك يعنى أن السيطرة على الموقف ستتحقق خلال أيام قليلة جدا، وأن العبيد سيتلقون درسًا لن يكون من السهل عليهم نسيانه.

وكان إقطاعى كبير يدعى ماريوس أكانوس قد تلقى تحذيراً من قبل، فجمع عبيده الذين يبلغ عددهم سبعمائة، وقادهم كالقطيع إلى حيث السلامة بين جدران كابوا، لكن المجالدين قابلوه على الطريق ووقفوا فى صمت كئيب يشاهدون عبيده وهم يذبحونه هو وزوجته وأخت زوجته وابنته وزوج ابنته. لقد كان عملاً فظيعًا رهيبًا، لكن سبارتاكوس كان يعلم أنه لا يستطيع وقفه. فقد كان السادة يحصدون ما غرسوا. وقام عبيد المحفات أنفسهم بالمهمة بمجرد أن أدركوا أن هؤلاء ليسوا جنوداً رومانيين، بل هم المجالدون الذين كانت شهرتهم قد طبقت أنحاء المنطقة بالفعل وأصبحوا صيحة وأغنية يحملها النسيم ويرددها. وكان الوقت قد قارب المساء حينذاك، لكن الأبناء طارت أسرع

من الزمن. وكان المئات القليلة الأولى قد تضخمت حتى زادت على الألف، وتدفع العبيد خلال الوديان، وهبطوا من التلال لنضموا إليهم وهم يتجهون جنوبًا. وجاء عبيد الحقول يحملون أدوات العمل، وساق الرعاة قطعان المعز والماشية أمامهم. وكانوا عند اقترابهم من منزل متدفقين تجاهه فى كتلة بشرية لا شكل لها - لأن المجالدين وحدهم هم الذين احتفظوا حتى تلك اللحظة بالتشكيلات العسكرية المختلفة - كانت الأنباء تسبقهم فيخرج عبيد المطابخ لتحيتهم حاملين المدى والسكاكين، ويخرج عبيد المنزل جريًا ليقدموا لهم هدايا الحرير والقماش الرقيق. وكان الرومانيون يفرون فى غالبية الأحوال أما حيث تصدى الملاحظون والرومانيون لقتالهم فقد قام الدليل المروع على بشاعة ما حدث.

ولم يعد فى وسعهم أن يتقدموا فى سرعة؛ فقد تضخم عددهم حتى أصبحوا مجموعة هائلة من الرجال والنساء والأطفال، يضحكون ينشدون، وقد أسكرتهم خمر الحرية جميعًا. وهبط الظلام قبل أن يبعدوا عن كابوا عشرين ميلاد؛ فعسكروا فى واد إلى جانب جدول رقراق، وأشعلوا النيران وأكلوا كفايتهم من اللحم الطازج.

وكنت تشاهد عنزات وخرافا كاملة وثورا هنا وهناك معًا فوق أعمدة الشواء، وعطرت الهواء رائحة الشواء الجمية المغرية فكان ذلك عيدًا رائعًا لقوم يمضون العام بعد العام يقتاتون على الكراث واللفت وثريد الشعير. وابتلعوا اللحم بالنبيذ، وزادت أغانيهم وضحكاتهم من نكهة الطعام. لقد كانوا جماعة من نوع غريب .. أبناء الغال، واليهود، وأبناء اليونان، والمصريين، والتراقيين، والنوبيين، والسودانيين، والليبيين، وأبناء فارس، وسوريا، وسمرقند، وألمانيا، والصقالبة، والبلغار، ومقدوشيو وإسبانيا؛ وكثيرين من الإيطاليين من سلالة أجيال بيعت فى سوق الرقيق لهذا السبب أو ذاك، وأبناء سبأ، وطشقند، وصقلية وأقوامًا من قبائل أخرى امحت أسماؤها إلى الأبد. جماعة لا يربط بينها رباط الدم أو الوطن، بل جمع الرق بينها أول الأمر، وتجمعها الحرية الآن.

لقد عرف العالم فى الأزمان السابقة الأسرة ومجتمع القبيلة - ثم عرف العالم فى ذروة تقدمه الوطن بما فيه من مزايا وفخر، لكن العالم الآن يواجه شيئًا جديداً يتمثل فى هذه الزمالة الغريبة التى جمعت بين المضطهدين. ولم يرتفع فى هذا الحشد الضخم الذى ضم فى تلك الليلة الكثير من الشعوب والأجناس صوت واحد غاضب أو متذمر. فقد جمع بينهم حب صغير ومجد صغير. لم يكن كثير منهم قد رأى سبارتاكوس، أو أشار لهم إنسان مرة إلى سبارتاكوس، لكنهم كانوا ممتلئين بسبارتاكوس. إنه زعيمهم وإلههم - إذ لم يكن قد اتضح فى أذهانهم أن الآلهة لا تمشى على الأرض أحيانًا، ألم يسرق برومثيوس بنفسه النار المقدسة من السماء وأعطاها للبشر كأغلى هدية؟ وما حدث مرة يحدث مرات. وكانت القصص قد بدأت تروى حول نيرانهم، وبدأت هالة كاملة تحيط بسبارتاكوس وتبرز إلى الوجود. ولم يكن فيهم - أو حتى فى الأطفال الصغار - من يحلم بعالم ليس فيه عبيد.

وجلس سبارتاكوس فى أثناء ذلك بين المجالدين، وتكلموا وذكروا ما وقع من أحداث. فقد استحال الجدول الصغير بالفعل إلى نهر فى طريقه إلى أن يصبح سيلا. قالها جانيكوس، وكانت عيناه تشرقان كلما تطلع إلى سبارتاكوس، وقال:

- نستطيع أن نحارب العالم ونقلبه حجرًا حجراً.

لكن سبارتاكوس كان أوسع منه علماً. ورقد ورأسه فى حجر فارينيا، وراحت هى تتخلل خصلات شعره البنى المتماسكة أصابعها وتتحسس جذور الشعر فوق خده، ونفسها تفيض فى الداخل بالثراء والرضا فقد آن لها أن ترضى. لكن النار كانت تشتعل فى داخله هو، فقد كان أكثر رضا فى العبودية منه الآن. وتطلع إلى النجوم الصامتة اللامعة فى ليالى إيطاليا، وامتلأ بأفكار عنيفة وحنين ومخاوف، وشكوك، وشعر بثقل ما عليه أن يقوم به من مهام، فقد كان عليه أن يحطم روما. وحملته الفكرة من ضخامة التفكير فيها من وقاحة على الابتسام، فابتهجت فارينيا وتحسست شفتيه بأصابعها وهى تغنى له بلغتها الأصلية:

عندمـــا يعـــود الصـــيـــاد من الغـــابة

حــامــلاً الغــزال الأحــمــر بعــد الصــيــد

يــلــقــى بــنــظــره إلــى الــنــار

ويتـــحـــدث إلى الأطفـــال، وتتكلم المرأة

وكان فى غنائها إيقاع أغانى الغابة فى بلاد باردة متوحشة لقد سمع من قبل الكثير من أغانى الغابة الغريبة التى تغنيها. وغنت وهو يردد لنفسه أحلامه المنفسحة بين النجوم المضيئة فى السماء بينما كانت أفكاره يحيط بها جو الموسيقى:

«يجب أن تحطم روما - أنت يا سبارتاكوس. يجب أن تقود هؤلاء النـاس، وأن تـكون شديدا وقويا معهم. عليك أن تعلمهم القتال والقتل. لا نكوص ولا تراجع ولا خطوة واحدة إلى الوراء. العالم بأسره يتبع روما، إذن يجب تحطيم روما وجعلها مجرد ذكرى كريهة، وعند ذاك سنقيم، حيث كانت فى روما حياة جديدة يعيش فيها كل الناس فى سلام وأخوة وحب، لا عبيد ولا أسياد، لا مجالدين ولا ساحات قتال، بل هو زمن كالأزمان الأولى، كالعصر الذهبى. سنشيد مدنا جديدة قوامها الأخوة، لن يحيط بهذه المدن أسوار».

ثم توقفت فارينيا عن الغناء وسألته:

- بماذا تحلم يا رجلى، يا تراقى؟ أتخاطبك الآلهة القاطنة فى النجوم؟ إذن ماذا تقول لك يا حبيبى؟ أتحكى لك أسراراً يجب أن لا تذاع؟

وهى تؤمن بذلك نصف إيمان. ومن يعرف الصـدق مـن الكذب فـيمـا يخـتص بالآلهـة؟ إن سبارتاكوس يكره الآلهة، ولا يبدى لها أى نوع من التقديس. بل لقد سألها يوماً:.

- هل للعبيد آلهة؟

وقال لها:

– لن يوجد شىء فى حياتى كلها لن أتقاسمه معك يا حبيبتى.

– إذن بماذا تحلم؟

– أحلم بأننا سنشيد عالما جديداً.

فخافت منه عند ذاك، لكنه قال لها فى رقة:

– لقد شيد البشر هذا العالم، أو هل حدث من تلقاء نفسه يا عزيزتى؟ فكرى. أيوجد فيه شىء لم نشيده نحن، المدن ، الأبراج، الجدران، الطرق، والسفن؟ إذن لماذا لا نستطيع أن نقيم عالمًا جديداً

فقالت:

– روما.

وكان فى هذه الكلمة الواحدة مفهوم القوة، القوة التى حركت العالم. فأجابها سبارتاكوس قائلاً:

– إذن سنحطم روما. لقد نال العالم كفايته من روما، سنحطم روما، وسنحطم ما تؤمن به روما.

فسألته ضارعة:

– من؟ من؟

– العبيد. لقد ثار العبيد من قبل مرات، لكن الأمر يختلف هذه المرة. سنرسلها صيحة مدوية يسمعها العبيد فى كل أنحاء العالم.

وهكذا ضاع السلام وضاع الأمل. وذكرت فارينيا، بعد ذلك بزمن طويل، تلك الليلة، عندما كان رأس رجلها فى حجرها وعيناه مثبتتان على النجوم البعيدة. لكنها

مع ذلك كانت ليلة حب. وقليل من الناس من تجود عليه الدنيا بقلة من أمثال هذه الليلة .. إذ يصبحون عند ذاك من السعداء. ورقدا هناك، بين المجالدين، إلى جانب النار، ومر الوقت بطيئًا. ومس كل منهما الآخر ليؤكد إحساسه به وأصبحا كإنسان واحد .

الجزء الخامس

ويتضمن قصة لنتولوس جراكوس، وبعض ذكرياته، وبعض تفاصيل إقامته فى فيلاسالاريا .

- ١ -

كان لنتولوس جراكوس مغرما بترديد أن قدرته على مواجهة الأزمات تزداد مع زيادة وزنه. وكان ما يؤيد صدق هذا الزعم أنه أمضى سبعة وثلاثين عاما من عمره البالغ ستة وخمسين في مسايرة السياسة الرومانية بنجاح .. فالسياسة، كما كان يردد من وقت لآخر تحتاج إلى مواهب ثلاث لاتتبدل ، ولا تحتاج إلى أية فضائل. وكان يزعم أن الفضيلة حطمت من السياسيين أكثر ممن حطمهم أى سبب آخر. وكان يرتب المواهب الثلاث على هذا النحو : الموهبة الأولى هى القدرة على اختيار الجانب الرابح. فإذا ما فشلت هذه، فالموهبة الثانية هى القدرة على الانسحاب من الجانب الخاسر. أما الموهبة الثالثة فهى ألا تعادى أحداً .

وهذه المواهب الثلاث كلها مثل عليا، إلا أنه نظراً لأن للمثل العليا طبيعتها، وللناس طبيعتها، لذلك لم يكن هناك ما هو تحقيق كامل لهذه المثل مائة فى المائة. ومع ذلك فهو من جانبه قد نجح. إذ بدأ حياته ابنا لإسكافى بسيط لكنه مجتهد. وفى التاسعة عشرة من عمره كان يبيع ويشترى الأصوات الانتخابية، وفى الخامسة والعشرين كان يبيع ويشترى المناصب ويقوم بعمليات الاغتيال بين الفينة والفينة، وفى الثامنة والعشرين تزعم عصابة سياسة قوية، أما فى الثلاثين فقد أصبح المطاع لحى كايليوس الشهير. وبعد ذلك بسنوات خمس أصبح قاضيا، وفى سن الأربعين دخل مجلس الشيوخ. وكان يعرف فى المدينة عشرة آلاف شخص بالاسم وعشرين ألفا آخرين بالنظر. وكان يضمن قائمة عطاياه حتى أعدى أعدائه. ونظراً لأنه لم يرتكب يوما خطأ الاعتقاد فى أمانة أى من مساعديه، فقد ساعده ذلك على ألا يقع أبداً فى خطأ أعمق .. هو قبول عدم أمانة أى واحد منهم على علاتها .

كان وزنه ومعدنه يلائمان وضعه فى الحياة. لم يثق بالنساء قط ولم يلاحظ أن زملاءه قد حققوا من ورائهن منفعة بعينها. إنما كانت رذيلته الوحيدة هى حب الطعام. ونجحت طبقات الشحم الضخمة التى اكتنزها على مدى سنوات عمره الناجحة، لا فى أن تكسوه المهابة فحسب، بل جعلت منه كذلك واحداً من أولئك الرومانيين القلائل الذين لا يظهرون فى المجتمعات إلا وهم ملتفون بطيات العباءة الرومانية. إذ لم يكن لنتولوس جراكوس ليبدو فى المعطف كرجل يسعى الإنسان لكسب وده، أما فى العباءة الرومانية فكان رمزاً للمعدن وللفضائل الرومانية. وكان جسده البالغ فى وزنه ثلاثمائة رطل يحمل رأسا أصلع ملغدا مثبتا بإحكام فى دوائر الشحم. وكان صوته عميقا أجش، وابتسامته جذابة، له عينان زرقاوان صغيرتان مبتسمتان تطلان من بين طيات اللحم، وبشرة وردية كبشرة الرضيع .

وكان جراكوس شخصاً مطلعًا أكثر منه شخصًا ساخراً بالدنيا . لم يستغلق عليه يوما فهم تركيب القوة الرومانية. وكان تقدم شيشرون المتئد ، نحو ما مال شيشرون إلى اعتباره أعلى الحقائق وأكثرها أهمية ، يسليه ويبهجه. فعندما سأله أنطونيوس كايوس عن رأيه فى شيشرون، أجاب جراكوس فى اقتضاب قائلا :

- شاب يتمسك بالقديم .

وعلاقة جراكوس بأنطونيوس كايوس علاقة طيبة للغاية، شأن علاقاته بكثير من النبلاء. إذ كانت الأرستقراطية هى السر والمحراب الوحيد الذى يسمح لنفسه بدخوله. فهو يحب الأرستقراطيين. وهو يحسدهم، ويحتقرهم كذلك، إنما فى نطاق معين، لأنه يعتبرهم كلهم أميل إلى الغباء. ولم يستطع قط أن يهضم عدم إفادتهم كثيرا من مزايا الأصل العريق والمكانة المرموقة. ومع ذلك فهو يتقرب منهم وتبعث فيه دعوته إلى إحدى ضيعاتهم الفاخرة، مثل فيلا سالاريا، الشعور بالكبرياء والسعادة. ولم يكن يتظاهر بما ليس فيه، ولم يحاول يوما أن يدعى أنه أرستقراطى. ولم يتكلم لغتهم اللاتينية المهذبة المنمقة، إذ كان يفضل لغته السوقية السهلة. ولم يحاول أن يشترى لنفسه ضيعة خاصة

وإن كان قادراً على ذلك. أما بالنسبة للأرستقراطيين فكانوا يقدرون فيه إمكانياته العملية وحصيلته من المعلومات المفيدة، وكان حجمه الضخم يوحى بالثقة. وكان أنطونيوس كايوس يحبه، لأن جراكوس كان رجلا لا تهزه الأحكام الأخلاقية على الإطلاق، وكان يشير إلى جراكوس عادة على أنه الرجل الوحيد الأمين أمانة كاملة من بين من عرف فى حياته.

لم يفت جراكوس إلا قليل مما دار فى تلك الأمسية. فهو يقدر الأشياء ويزنها، لكنه لا يصدر أحكاما. فهو لا يكن لكايوس إلا الاحتقار. أما القائد الكبير الثرى كراسوس فهو بالنسبة له رجل مسل. أما شيشرون فقد قال عنه لمضيفه :

– إنه يملك كل شيء إلا العظمة. وأعتقد أنه من النوع الذى يذبح أمه لو كان فى ذلك خدمة لأهدافه.

– لكن ، ليس لأهداف شيشرون كل هذه الأهمية.

– تماما. ولهذا فسيفشل فى كل شيء تقريبا. فهو إنسان لا خوف منه ما دام هو إنسانا لا يثير الإعجاب.

وكان هذا تعليقا نافذا يعلو على فهم أنطونيوس كايوس، الإنسان الجدير بالإعجاب، على الرغم من أن ميوله الجنسية قد توقفت عند المستوى الخاص بصبى فى الثانية عشرة من عمره. وكان جراكوس على استعداد لأن يعترف بينه وبين نفسه أن الأرض التى يقف عليها تميد به من تحته وتستحيل إلى وحل، وأن عالمه يتفكك وينحل، لكنه لم يرغب فى خداع نفسه ما دام سير التفكك بطيئا كل البطء، وما دام هو نفسه بعيداً كل البعد عن أن يكون خالداً. وهو قادر على أن يرى ما يدور من حوله دون أن يتحيز لجانب إذ لم يكن فى المظهر الذى يظهر به ما يدعوه إلى التحيز لجانب ما .

ظل فى تلك الأمسية بالذات مستيقظا بعد أن نام بقية أهل البيت. فهو قليل النوم، وإذا نام فلا ينام نوما عميقا، لذا راح يجول فى الحدائق فى ضوء القمر المنير. ولو أنه

سئل لاستطاع أن يقدم تقريراً دقيقـاً واضـحـاً عن العـلاقـات الخاصـة بين الناس. لكنه قد لاحظ ذلك وأدركه دون تجسس، ولم يشعـر بأى امـتـعـاض، فـهـذه هى رومـا، والأحمق وحده هو الذى لا يدرك ذلك .

وبينما هو يسير إذ شاهد جوليا تجلس على أريكة من الحجر كشبح حزين فى الليل، مسلوبة الإرادة، يعصف بها الذعر من الطريقة التى رفض بها كايوس عرضها لنفسها. فاستدار متجها إليها وقال لها :

– نحن وحدنا عشاق الليل. إنها ليلة رائعة الجمال. أليست كذلك يا جوليا؟

– إذا كنت تشعر بالجمال.

فراح يرتب عباءته الرومانية، ثم قال:

– وأنت، ألا تشعرين بالجمال يا جوليا؟ أتودين أن أجلس معك برهة؟

– أرجو أن تجلس.

وجلس صامتًا زمنًا، مستجيبًا فى رقة لجمال الحدائق التى يضيئها نور القمر، والبيت الأبيض الكبير يسمق رائعًا من مرقده بين الشجيرات والنباتات دائمة الخضرة، والشرفة، والنافورات، والالتماعة الشاحبة للتماثيل هنا وهناك، والأشجار ومن تحتها الأرائك الرابعة من الرخام الوردى الشاحب أو الأسود الداكن. لقد نجحت روما فى تحقيق قدر كبير من الجمال !

وفى النهاية قال :

– يبدو يا جوليا أن كل هذا يجب أن يرضينا .

– أجل. يبدو ذلك .

– إنها ميزة أن يكون الشخص رومانيا .

فأجابت جوليا فى هدوء:

- أنــت لا تقــول هــذه التفاهات الحمقاء أبداً إلا عندما تكون معى.

- حقا؟

- أجل. أظن ذلك. قل لى، هل سمعت قط عن فارينيا؟

- فارينيا؟

- ألا تقـرر شـيـئًـا أبداً قبل أن تديره فى ذهنك خمس مـرات على الأقل؟ أنا لا أحاول المكر بك يا عزيزى.

وأراحت يدها على مخلبه الضخم ثم قالت :

- فأنا لا أستطيع. كانت فارينيا زوجة سبارتاكوس.

- أجل، لقـد سـمـعت عنـهـا. والحـقـيـقـة، أنكم تحـيـون هنا وشـبـح سـبـارتـاكـوس فى مخيلتكم. فأنا لم أسمع الليلة عن شىء عداه.

- الحق، إنه لم يدمر فيلا سالاريا، ولست أدرى أشكر له ذلك أم لا. لكنى أظن أن السبب فى ذلك هو رموز العقاب. لم أخرج إلى الطريق بعد، أهى مخيفة جدا؟ .

- مـخـيفـة. لا أعرف أنى أعـرتـهـا كـثيـرا من التـفـكـيـر. فـهـى هنـاك، وهذا كل شىء تقريبا. الحياة رخصية، والعبيد لا قيمة لهم تقريبا فى هذه الأيام. لماذا تسـأليننى عن فارينيا؟

- كنت أحاول التفكير فى شخص أحسده. أظن أنى أحسدها.

- حقا يا جوليا؟ تحسدين أمة بربرية حقيرة ؟ أتودين أن أبعث غدا بمن ينتقى لك اثنتى عشرة واحدة شكلها من السوق ويرسلهن إلى هنا؟

- أنت لا تعرف الجد أبدا. ألست كذلك يا جراكوس؟

- قليل جدا ما يستحق الجد. لماذا تحسدينها؟

– لأنى أكره نفسى .

فقال فى صوت كالهزيم :

– هذا أمر كثير التعقيد بالنسبة لى أتستطيعين أن تتصورى شكلها وهى قذرة، تمسح أنفها بيدها، وتتنخم، وتبصق، وأظافرها مكسورة قذرة، ووجهها تغطيه الدمامل؟ هذه هى أميرتك الأمة أما زلت تحسدينها؟

– وهل كانت بهذه الصورة؟

فضحك جراكوس وقال :

– من يدرى يا جوليا؟ السياسة أكذوبة والتاريخ تسجيل للأكذوبة. لو أنك ذهبت إلى الطريق غدا ونظرت إلى تلك الصلبان فسترين الحقيقة الوحيدة عن سبارتاكوس. الموت. ولا شىء عداه. وكل شىء عدا ذلك ليس إلا تلفيقا. أنا أعرف.

– أنا أنظر إلى عبيدى!

– ولا ترين سبارتاكوس ممثلا فيهم؟ طبعا. كفاك تعذيبا لنفسك يا جوليا. أنا أكبر منك سنا، ولى الحق فى أن أوجه إليك النصح. نعم ولو بمخاطرة التدخل فيما لا شأن لى به. انتقى من بين عبيدك من يعجبك.

– كفى يا جراكوس .

وطفقت تبكى. وجراكوس لم ير كثيراً من نساء طبقته يبكين فشعر فجأة بالحرج والحماقة. وبدأ يسألها هل أخطأ، فهو لم يقل شيئًا مهينا بالذات، لكن أكان ذلك خطأ منه؟

– لا. لا. أرجوك يا جراكوس. أنت واحد من أصـــدقائى القلائل. لا تكف عن صداقتك لى لأنى على هذا القدر من الحماقة.

وجففت عينيها واعتذرت وتركته هناك وهى تقول :

– أنا شديدة التعب. أرجو ألا تأتى معى.

- ٢ -

كان لجراكوس، مثل شيشرون، إحساس بالتاريخ، ولكن كان الفارق الكبير بينهما أن جراكوس لم يحير نفسه يوما فى فهم مكانه ودوره، فاستطاع لذلك أن يرى كثيرا من الأشياء أوضح مما كان يراها شيشرون .. جلس وحدة فى تلك اللحظة من ليل إيطاليا الدافئ الرقيق، وراح يقلب فى ذهنه الحالة الغريبة للسيدة الرومانية النبيلة التى تحسد أمة بربرية. ففكر أولا هل كانت جوليا صادقة، وقرر أنها صادقة فعلا. إذ إن فارينيا، لسبب ما، تلقى الضوء على جوهر المأساة المثيرة للشفقة التى تعيش فيها جوليا - وتساءل هل معنى حياة الاثنين متضمن بنفس الطريقة فى رموز العقاب التى لا حصر لها والتى تخطط الطريق الأبيوسى .. وجراكوس لا تزعجه الأخلاقيات، فهو يعرف شعبه، وليس هو من تخدعه أسطورة السيدة الرومانية والعائلة الرومانية. لكنه، لسبب ما لا يدريه، كان منزعجا فى أعماقه لما قالته جوليا. وظلت هذه المسألة عالقة بذهنه ترفض أن تفارقه.

وجاءه الجواب على تساؤله فى لمحة من الفهم تركته باردا مهزوزا بطريقة لم تهزه من قبل إلا نادرا، وتركته مليئا بالخوف من الموت ومن الظلام المطبق المخيف ومن العدم الذى يعقب الموت. فقد بدد الجواب قدرا كبيرا من اليقين الساخر الذى يسنده فى حياته وتركه يجلس هناك على الأريكة الحجرية مثقلا، رجلا عجوزا سمينا مستكرشا، ارتبط مصيره كشخص فجأة بحركة هائلة من تيارات التاريخ.

رأى ذلك بوضوح. فالشيء الذى دخل إلى العالم حديثا هو مجتمع كامل يقوم على ظهور العبيد، ولغة هذا المجتمع هى قرقعة السياط. وماذا قدم هذا العالم لهؤلاء الذين يجيدون استعمال هذا السوط؟ ماذا كانت جوليا تعنى بقولها؟ هو لم يتزوج قط،

فقد حالت نواة لهذا الفهم الحالى بينه وبين اتخاذ زوجة، فاشترى النساء والمحظيات ليبقين فى بيته عندما يحتاج إليهن. لكن أنطونيوس كايوس يحتفظ بحظيرة من المحظيات مثلما يحتفظ كل سيد من معارفه بعدد من النساء، كما يحتفظ المرء بعدد من الخيول أو الكلاب. والزوجات يعرفن هذا ويقبلنه ويعملن نفس الشىء مع العبيد.

لم يكن الأمر مجرد فساد بسيط، إنما هو هول مخيف قلب العالم رأسا على عقب. وهؤلاء الناس المجتمعون الليلة معا فى فيلا سالاريا يحيون فى رعب من شبح سبارتاكوس لأن سبارتاكوس كان كل ما لم يكونوه هم: قد لا يفهم شيشرون أبداً من أين نبع فضل هذا العبد الغامض، لكنه هو جراكوس قد فهم. فالعبيد كانوا يدافعون عن البيت والأسرة والشرف والفضيلة وعن كل ماهو طيب ونبيل، كما كانوا يملكون كل هذا لا لأنهم طيبون نبلاء، إنما لأن سادتهم قد تركوا لهم كل ما هو مقدس.

وكما استطاع سبارتاكوس أن ينفذ ببصيرته إلى ما قد يحدث مستقبلا – وهى الرؤيا النابعة من نفسه – كذلك استطاع جراكوس أن ينفذ بطريقته الخاصة إلى رؤية ما قد يحدث مستقبلا. وجعله ما رآه فى المستقبل يحس بالبرودة والمرض والخوف، فنهض وجمع عباءته الرومانية حول جسده ومشى بطيئا بخطوات ثقيلة متجها إلى غرفته ومرقده.

لكنه لم يستطع النوم بسهولة. وحقق رغبة جوليا فى الإبقاء على صداقته لها فبكى من أجلها كصبى صغير بدموع جافة صامتة، من أجل زميلة له فى وحدته. وتظاهر كصبى، بأن الأمة فارينيا تشاركه مرقده. وزاد الرعب من رغبته الحزينة فى الفضيلة، وراحت يداه السمينتان المحلاتان بالخواتم تربتان على شخص وهمى يرقد على ملاءة سريره. ومرت الساعات وهو يرقد هناك مع ذكرياته.

كلهم يكرهون سبارتاكوس. وروح سبارتاكوس تملأ هذا البيت، وليس فيهم من يعرف هيئته أو شكله، أو أفكاره أو سلوكه، ومع ذلك فهو موجود فى كل مكان فى هذا

البيت، كما هو موجود فى كل مكان فى روما. ووهم مطلق أن يقال إنه هو، جراكوس، كان خلوا من تلك الكراهية لسبارتاكوس. على العكس، فإن كراهيته لسبارتاكوس، التى أخفاها بمهارة على الدوام، لهى أكثر عنفا، وأكثر مرارة، وأكثر توقدا من كراهيتهم لسبارتاكوس.

وبينما هو يصطرع مع ذكرياته، راحت ذكرياته تتخذ لنفسها شكلا وهيئة ولونا وواقعا. تذكر كيف كان يجلس فى مجلس الشيوخ، وما من مرة جلس فيها فى قاعة المجلس إلا أحس واستقبح شعوره الخاص بالكبرياء لوجوده هناك بين العظماء الأرستقراطيين. عندما جاءت الأنباء بالبريد العاجل من كابوا بأنه قد حدث تمرد بين المجالدين فى معهد لنتولوس باتياتوس، وأن التمرد يتسع وينتشر فى الريف. وتذكر موجة الخوف التى انتشرت فى مجلس الشيوخ وكيف بدءوا ينقنقون كسرب كبير من الإوز، إذ راحوا يتكلمون كلهم فى نفس الوقت، يقولون كلهم أشياء عنيفة مذعورة لا لشىء إلا لأن حفنة من المجالدين قد قتلوا مدربيهم. وتذكر اشمئزازه منهم. وتذكر كيف نهض وهو يجمع عباءته حول جسده ويلقى بطرفها فوق كتفه ويومئ إيماءته المكتسحة التى أصبحت علامة مميزة له، ويصيح كالرعد مخاطبا زملاءه الأجلاء.

– يا سادة، ياسادة أنتم تنسون أنفسكم .

فكفوا عن نقنقتهم واستداروا له.

– يا سادة، نحن نواجه جريمة ارتكبها حفنة من العبيد القصابين القذرين التعسين. لسنا نواجه غزوا بربريا. وحتى إذا كنا، فإنه يبدو لى يا سادة أن من واجب مجلس الشيوخ أن يسلك سلوكا مخالفا لهذا. يبدو لى أننا مطالبون تجاه أنفسنا بقدر من الوقار.

فأشعلت عباراته غضبهم نحوه، لكنه كان شديد الغضب منهم. فهو يعتبر السيطرة الدائمة على الأعصاب مظهراً من مظاهر الكبرياء. لكن هذه المرة كانت إحدى

المرات التى فقد فيها السيطرة الدائمة على أعصابه، فأهان، هو، الوضيع المنبت والنشأة، السوقى، وحقر أكبر وأجل هيئة فى العالم بأسره. ومع ذلك فقد قال لنفسه:

- اللعنة على ذلك.

وخرج من القاعة ودفاعهم الورع عن كرامتهم يدوى فى أذنيه وعاد إلى بيته.

كان ذلك اليوم يحيا فى ذاكرته. كل دقيقة من ذلك اليوم عاشت معه. لقد أصابه الفزع أول الأمر. فقد خان القواعد المقدسة التى استنها لسلوكه، ففقد السيطرة على أعصابه، وخلق لنفسه خصوما. ومشى فى شوارع مدينته المحبوبة روما وهو ملىء بالمخاوف مما فعل. لكن الخوف كان ممزوجا بالاحتقار لزملائه، والاحتقار لنفسه، لأنه لم يستطع حتى حينذاك أن يتغلب على رهبته من مجلس الشيوخ ومن الاحترام الذى تشبعت به نفسه لأولئك الحمقى الذين يحتلون مقاعد المجلس.

ولأول مرة فى حياته يعمى عن روائع وأصوات ومناظر محبوبته روما. فجراكوس مولود فى روما وفيها نشأ، وروما مسكنه ومأواه، وهى جزء منه، وهو جزء منها. وربى فى نفسه احتقاراً كاملا للآفاق المفتوحة والأودية الخضراء والجداول الرقراقة، وتعلم السير والجرى والقتال فى المسالك المتعرجة ومجارى المياه القذرة فى روما، وتسلق فى طفولته كالعنزة الأسطح العالية لمنازل السكنى التى لا حصر لها، وأصبحت رائحة الفحم المحترق التى تسود هذه المدينة أحلى عطر عرفه. كانت هذه إحدى فترات حياته التى لم تستطع طبيعته الساخرة أن تنفذ إليها قط. إذ كان السير فى شوارع الأسواق الضيقة ، بما يزحمها من عربات اليد والأكشاك حيث تعرض وتباع تجارة العالم بأسره ، مغامرة جديدة بالنسبة له على الدوام. ونصف المدينة يعرفه بالنظر، والتحيات تلقى إليه.. «مرحى جراكوس» هنا، و«أهلا جراكوس» هناك دون احتفال أو اهتمام من جانبه. والباعة المتجولون والإسكافية والشحاذون والمتعطلون وسائقو عربات النقل والبناءون والنجارون يحبونه لأنه واحد منهم كافح وجاهد فى سبيل شق طريقه إلى

القمة. وهم يحبونه لأنه يدفع أعلى الأسعار ثمنا لشراء الأصوات الانتخابية. وهم يحبونه لأنه لا يتظاهر بما ليس فيه ولأنه يفضل أن يمشى على قدميه بدلا من الركوب فى محفة، ولأن لديه على الدوام الوقت لتحية صديق قديم، أما كونه لم يقدم لهم علاجا لشقائهم المتزايد ولفقدانهم الأمل فى عالم يجرفهم فيه العبيد نحو التعطل والشحاذة والحياة على صدقات الدولة، فهذا لم يغير حبهم له فى قليل أو كثير. لأنهم لم يكونوا ليعرفوا لوضعهم علاجا . وكان بدوره يحب عالمهم، عالم الكآبة، حيث تكاد رءوس منازل السكنى العالية تلتقى فوق الطرقات الضيقة القذرة فيضطرون إلى إبعاد بعضها عن البعض بعروق الخشب، عالم الشوارع الصاخبة القذرة التعسة فى أكبر مدينة فى العالم .

لكنه كان أعمى غافلا عن كل هذا فى ذلك اليوم الذى يذكره الآن بكل وضوح. إذ راح يسير فى الشوارع غير عابئ بالتحيات الموجهة إليه. ولم يشتر شيئا من الأكشاك. حتى شرائح لحم الخنزير المملح المقلية ذات الطعم الجميل، والسجق المدخن، والجلد المحشو، التى كانت تطهى فوق كثير من عربات اليد لم تجذبه إليها. فهو لا يستطيع عادة مقاومة إغراء الطعام المطهو فى الشارع .. فطائر العسل والسمك المدخن وأسماك السردين المملحة المجففة والتفاح المخلل والبطارخ، لكنه غفل عن كل هذا فى ذلك اليوم – وعاد إلى بيته غارقا فى كآبته.

لم يرض جراكوس لنفسه قط، وهو فى مثل ثراء كراسوس تقريباً، أن يشيد أو يشترى لنفسه إحدى الفيلات الخاصة التى كانت تنشأ فى الجزء الجديد من المدينة بين الحدائق والمتنزهات إلى جانب النهر. وفضل أن يشغل الدور الأرضى فى منزل للسكنى فى حيه القديم، وترك أبوابه مفتوحة على الدوام لكل من يرغب فى مقابلته. والجدير بالذكر أن كثيرا من العائلات الثرية كانت تعيش فى هذه الأدوار الأرضية، إذ كانت خير ما يسكن فى منازل السكنى. فقد كان الإيجار فى منازل السكنى الرومانية يقل والتعس يزيد كلما صعد المرء فى السلالم الواهنة المؤدية إلى الأدوار العليا. كما

جرت العادة على أن ينعم الطابقان الأول والثاني وحدهما بالمياه عن طريق الأنابيب وبدورات المياه والحمامات الجديرة بحمل أسمائها. ولم يكن المجتمع القبلى قد أوغل فى القدم بعد حتى يمكن الفصل فصلا كاملا بين الفقراء والأغنياء فى كل مكان. فكان الكثير من التجار الأغنياء أو المصرفيين يقطنون مساكن تحمل فوق رءوسها عشا حقيقيا للفقر يعلو سبعة طوابق .

وهكذا يذكر جراكوس كيف عاد إلى بيته فى ذلك اليوم دون أن يلقى كلمة ترحيب أو تحية لأى إنسان ، وكيف دخل إلى مكتبه وهو يلقى إلى عبيده أمرا غير عادى بألا يدخل عليه إنسان. وكان كل عبيده من النساء، وكان يصر على ذلك ويرفض أن يشاركه عبد ذكر فى سكناه. ومع ذلك فلم يبالغ فى شراء الإماء كما كان الكثير من أصدقائه يفعلون. فاكتفى بأربع عشرة أمة لسد كل حاجياته. ولم يكن ليحتفظ لنفسه بحريم خاص كما كان العزاب يفعلون عادة .

ولما لم يكن ليرغب فى تعقيد حياته المنزلية، كان يبيع من تحمل من إمائه إلى مالك ضيعة لأنه كان يرى أن من الخير للأطفال أن يشبوا فى الريف. ولم يكن ليجد فى ذلك التصرف من جانبه شيئا قاسيا أو منافيا للأخلاق .

ولم يكن يفضل امرأة من نسائه على أخرى - ما دام أنه لم يكن ليقدر على أكثر من مجرد العلاقة العابرة مع أى امرأة. وكان مغرما بترديد أن بيته أكثر نظاما وأكثر هدوءا وسلاما من غالبية البيوت. لكنه الآن وهو يرقد فى سريره فى فيلا سالاريا ويسترجع ذلك اليوم لا يجد فى ذكرياته عن بيته دفئا ولا بهجة. فقد استولى عليه معيار أخلاقى جديد وأسقمه التفكير فى طريقة حياته السابقة. ومع ذلك فقد راح يتابع أحداث ذلك اليوم. رأى نفسه من وجهة نظر امتيازه، رجلا سمينا ضخما يلتف بالعباءة الرومانية ويجلس وحيدا فى الغرفة العارية التى يسميها مكتبه. ولا بد من أنه قد أمضى هناك ما يزيد على الساعة جالسا قبل أن يزعجه أحد. إذ سمع طرقا على الباب فسأل قائلا :

- ماذا جرى ؟

فقالت الأمة:

- جماعة من السادة يرغبون فى مقابلتك .

- لا أريد أن أقابل أحدا.

كم كان هذا التصرف صبيانيا من جانبه.

- إنهم سادة أجلاء ورجال نبلاء من مجلس الشيوخ .

إذن فقد جاءوا إليه، ولم يضع أو يطرد من دوائرهم بعد. ما الذى دفعه إلى التفكر فى أنهم سيطردونه؟ من الطبيعى أن يأتوا إليه. وشعر بالحياة تعود إليه من جديد. وعادت إليه نفسه فقفز من مقعده وفتح الباب على مصراعيه وعاد من جديد جراكوس القديم الباسم الواثق من نفسه الكفؤ. وقال :

- يا سادة، مرحبا بكم يا سادة.

كانوا خمسة من أعضاء لجنة المجلس من بينهم اثنان من القناصل، أما الثلاثة الآخرون فكانوا من النبلاء ذوى المكانة والحكمة. لقد رأت لجنة المجلس ألا تدع هذه الحالة الطارئة الحديثة تزيد من أى خلاف سياسى قد يفكر جراكوس فى إثارته؛ فمزجوا بين الألفة والتعاظم وهم يؤنبونه قائلين:

- ماذا دهاك يا جراكوس؟ أكنت تجلس فى مجلس الشيوخ طيلة هذا العام فى انتظار فرصة لإهانتنا؟!

فاعتذر جراكوس قائلا:

- لست أملك لا القريحة ولا البراعة لأطلب منكم الصفح كما يجب.

- بل أنت تملك الاثنتين. لكن هذا خارج عن الموضوع .

وطلب مقاعد وجلسوا فى دائرة من حوله، خمسة رجال يزينهم السن والوقار يلتفون فى العباءات الرومانية البيضاء الفاخرة التى أصبحت رمزا للحكم الرومانى للعالم بأسره، وجاء الشراب وصينية من الحلوى. وتولى القنصل كاسبيوس الحديث باسم الجميع. فتملق جراكوس وحيره لأن جراكوس لم ير فيما حدث أزمة لها كل هذه الضخامة، وهو طالما حلم بأن يصبح قنصلا، لكن ذلك لم يكن ممكنا فهو لم يكن يملك المواهب أو الصلات العائلية الخاصة اللازمة لذلك، وحاول أن يخمن ما يسعون إليه فكان كل ما انتهى إليه تخمينه هو أن للموضوع صلة بإسبانيا، حيث استحالت الثورة ضد مجلس الشيوخ - وروما بالطبع - التى يقودها سيرتوريوس إلى نزاع حول السلطان بين سيرتوريوس وبومبى. وكان لجراكوس تقديره الخاص لهذا الموضوع، فهو يحتقر الخصمين المتنافسين وكان قد عقد العزم على ألا يحرك ساكنا وأن يتركهما ليحطم كل منهما الآخر. وكان يعرف أن للسادة الخمسة الجالسين حوله نفس الرأى .

وقال كاسبيوس:

- أنت ترى إذن أن هذه الثورة التى نشبت فى كابوا تنذر بخطر عظيم .

فأجابه جراكوس فى صراحة:

- أنا لا أرى هذا على الإطلاق.

- لو وضعنا فى اعتبارنا ما قاسيناه من ثورات العبيد.

فسأله جراكوس فى مزيد من الرقة عن ذى قبل:

- ماذا تعرفون عن هذه الثورة؟ كم عدد العبيد المشتركين فيها؟ من هم؟ وأين ذهبوا؟ وما مدى الصحة فى هذا الجزء من جانبكم؟

فأجاب كاسبيروس عن أسئلته واحدا إثر واحد قائلا:

- لقد داومنا على الاتصال بكابوا. تقول التقارير إن المجالدين وحدهم هم الذين قاموا بالثورة فى أول الأمر. ويقول تقرير إنه لم يهرب من المجالدين سوى سبعين. ثم

جاء فى تقرير وصل بعد ذلك أن عدد الهاربين يزيد على المائتين وهم التراقيون والغاليون وعدد من الإفريقيين السود. وتزيد التقارير التى وردت بعد ذلك من عددهم وقد يكون هذا نتيجة للذعر. ومن ناحية أخرى، من المحتمل أن تكون الاضطرابات قد سادت الضيعات. ويبدو أن الثوار قد تسببوا فى إحداث خسائر كبيرة، لكن التفاصيل لم ترد بعد. أما أين ذهبوا، فيبدو أنهم يتقدمون فى اتجاه جبل فيزوف .

فانفجر جراكوس يقول وهو نافد الصبر:

– ليس هناك أكثر من، «يبدو أنهم». أهم من الحماقة فى كابوا إلى حد أنهم لا يستطيعون تقدير ما حدث بين ظهرانيهم؟ لديهم قوات للحراسة هناك. لماذا لم تقم هذه القوات بإخماد هذا الشىء بسرعة وفى الحال ؟

فتطلع كاسبيوس إلى جراكوس فى هدوء وقال:

– ليس فى كابوا إلا كتيبة واحدة.

– كتيبة واحدة ؟ وكم من القوات تحتاج لتؤدب قلة من المجالدين التعسين ؟

– أنت تعرف كما أعرف أنا ما يمكن أن يكون قد حدث فى كابوا.

– أنا لا أعرف، لكنى أستطيع أن أخمن. وتخمينى هو أن قائد قوات الحراسة يتناول أجراً من كل متعهدى المجالدين القذرين الذين يعملون فى المنطقة. عشرون جنديا هنا، واثنا عشر جنديا هناك. كم من القوات كان موجودا فى المدينة؟

– مائتان وخمسون جنديا، هذا ما تبقى، ولا حاجة بك إلى مطالبة الناس بالاستقامة يا جراكوس. لقد هزم المجالدون قواتنا. وهذا ما يزعجنا غاية الإزعاج يا جراكوس. ونحن نحس أن من الضرورى أن نبعث بكتائب المدينة إلى كابوا على وجه السرعة.

– وكم عددهم؟

– ست كتائب على الأقل – ثلاثة آلاف رجل على الأقل :

- متى؟

- فى الحال.

فهز جواكوس رأسه. فهذا بالضبط هو ما كان يتوقعه. وفكر فيما ينوى أن يقول. وأعاد التفكير فيه بعناية كبيرة. وجمع فى ذهنه كل ما يعرفه وكان ما عرفه عن نفسية العبيد. ثم قال.

- لا تفعلوا.

وكان معتادا على معارضتهم فطلب الجميع معرفة السبب؛ فقال:

- لأنى لا أثق فى كتائب المدن. دعوا العبيد وشأنهم فى الوقت الحاضر. دعوا قليلا من الفوضى والفساد يدب فيهم. لا ترسلوا كتائب المدن.

- ومن نرسل إذن؟

- استدعوا فيلقا من الفيالق.

- من إسبانيا؟ وبومبى؟

- دعوا بومبى يتعفن ويذهب إلى الجحيم. حسنًا لندع إسبانيا جانبا. استدعوا الفيلق الثالث من بلاد الغال (عبر الألب) ولا تتعجلوا فما هم إلا عبيد، حفنة من العبيد. ولن يصبح الأمر شيئا إلا إذا جعلتم أنتم منه شيئا.

وراحوا يتجادلون ويتناقشون. واسترجع جراكوس تلك المناقشة حية فى ذاكرته من جديد وفقدها مرة ثانية، ثم رآهم يقررون، وهم فى خوفهم غير المعقول من ثورة العبيد، إرسال ست من كتائب المدينة. ونام جراكوس قليلا واستيقظ عند مطلع الفجر، كما يفعل دائمًا، بغض النظر عن الزمان والمكان الذى ينام فيه، وحمل الماء والفاكهة اللذين يتناولهما كل صباح إلى الشرفة حيث جلس يتناولهما.

- ٣ -

يبدد ضوء النهار مخاوف الإنسان وحيرته. بل هو فى كثير من الأحيان بلسم وبركة. نقول فى كثير من الأحيان ولكن ليس بصفة دائمة لأن من المخلوقات البشرية فئات معينة لا ترحب بضوء النهار. فالسجين يحتضن الليل ويعتبره رداء يبعث فيه الدفء ويحميه ويبعث الراحة إلى نفسه، بينما لا يحمل ضوء النهار إلى المحكوم عليه بالإعدام أى بهجة. لكن ضوء النهار يمحو فى معظم الأحوال ما ضمه الليل من بلبلة وحيرة. ففى كل صباح يتشح الرجال العظام بوشاح عظمتهم من جديد. ذلك لأنه حتى الرجال العظام يصبحون كغيرهم من الرجال فى أثناء الليل، ويقترف بعضهم خلاله أعمالا حقيرة بينما يبكى البعض، ويتزاحم الخوف من الموت فى نفوس البعض الآخر والخوف من ظلمة أعمق من الظلمة المحيطة بهم. أما فى الصباح فإنهم يعودون رجالا عظاما من جديد. وكان جراكوس وهو جالس فى الشرفة متشحا بعباءة جديدة بيضاء كالثلج ووجهه الضخم السمين بشوش فيه ثقة بالنفس، كان صورة لما يجب أن يكون عليه عضو مجلس الشيوخ الرومانى. فقد قيل أكثر من مرة، فى ذلك الوقت وفيما تلاه من الأزمان، إن العالم لم يشهد هيئة من الرجال اجتمعت لمناقشات تشريعية أحسن أو أنبل أو أحكم من مجلس الشيوخ فى الجمهورية الرومانية. وكانت النظرة إلى جراكوس تميل بالإنسان إلى تصديق ذلك. حقيقة لم يكن جراكوس نبيل المولد، وكانت الدماء التى تجرى فى عروقه من سلالة مشكوك فى أمرها إلى حد كبير، ولكنه كان واسع الثراء. وكان من فضائل الجمهورية أن تقدير الرجل كان يقاس على أساس ما حققه هو نفسه، وعلى أساس الأصل الذى ينحدر منه بنفس القدر. وكان ذلك مصداقا للحقيقة القائلة بأن الآلهة عندما منحت الإنسان الثروة كان ذلك دليلا على مميزاته الشخصية. وأن

المرء إذا أراد البرهان على ذلك فكل ما عليه هو أن يرى أن كثرة الناس من الفقراء وأن الأغنياء قلة قليلة.

وانضمت بقية الجماعة، التى زادت فيلا سالاريا رواء، إلى جراكوس وهو جالس هناك. وكانت جماعة غير عادية من الرجال والنساء اجتمعت هناك لقضاء الليل ويستمتع أفرادها بمعرفة أنهم أشخاص مرموقون ومن ذوى الحيثية. وساعد هذا على تيسير التعامل فيما بينهم وأكد ثقتهم فى أنطونيوس كايوس الذى لم يخطئ قط بالجمع بين أشخاص غير متكافئين فى ضيعته. لكنهم بالنسبة للظروف العامة للحياة فى الريف الرومانى لم يكونوا غير عاديين إلى حد كبير. حقيقة أن من بينهم أثنين من أغنى أغنياء العالم، وامرأة شابة ستصبح بغيًا شهيرة على مدى الأجيال، وشاب سيظل شهيرا خلال أجيال عديدة قادمة عن طريق حياته القائمة على التآمر وإعداد الخطط فى هدوء بارد وحساب دقيق، وشاب آخر سيصبح انحلاله موضوعا للشهرة فى حد ذاته، إلا أن فيلا سالاريا كانت تشهد جماعات مماثلة فى كل وقت تقريبا.

اجتمعوا هذا الصباح حول جراكوس. وكان هو الوحيد من بينهم الذى يرتدى العباءة الرومانية، مثال للقاضى الكبير الذى لا يهتز وهو جالس هناك وأمامه الماء المعطر يقشر تفاحة ويلقى بكلمة هنا وهناك. وقال لنفسه وهو ينظر إلى الرجال المصففة شعورهم فى دقة وإلى النساء المزوقات فى عناية، فشعورهن صففتها يد خبيرة فى شكل جميل وطلاء الشفاة وأحمر الخدود قد وضعتهما يد فنانة.

– إنهم سرعان ما يعودون إلى أنفسهم.

إذ راحوا يتحدثون عن هذا الشىء وعن ذاك. وكان حديثهم بارعا أجيد تدريبهم عليه. إذا تكلموا عن النحت اتخذ شيشرون سمة المسئول، كما هو المتوقع من جانبه وقال:

– لقد سئمت كل هذا الحديث عن اليونان. هل عملوا شيئا لم يعمله المصريون قبلهم بألف عام؟ فى كلا الحالتين تجدون فى نحتهم انحلالا من نوع خاص، تجدون فيه

شعبا غير قادر على النمو أو السلطان. هذا ما يعكسه النحت عندهم. بينما يصور الفنان الرومانى ما هو موجود على الأقل.

فاحتجت هيلينا، فخر الشباب، هيلينا المثقفة، والمرأة فى نفس الوقت قائلة:

– لكن من الممكن أن يكون ما هو موجود باعثا على الملل.

وكان المتوقع من جراكوس أن ينفى معرفته أى شىء عن الفن على الإطلاق. ومع ذلك فقد ظهر أن جراكوس يعرف الكثير عن الفن إذ قال:

– أنا أعرف ما أحب.

فهو يشترى الفن المصرى لأنه يمس وترا معينا من نفسه. بينما لم تكن لكراسوس آراء قوية عن الفن. وكان مما يلفت النظر قلة الآراء القوية عنده ومع ذلك فقد كان قائدا خبيرا كما أثبتت التجربة وامتعض فى نفس الوقت من رأى شيشرون لما فيه من زهو وثقة، فمن الرائع أن تتكلم عن الانحلال عندما لا تكون مضطراً إلى محاربة من تصفهم بالانحلال.

وعلق أنطونيوس كايوس قائلا :

– أحب أن أقول إنى أفضل النحت اليونانى فهو رخيص ويصبح أكثر بهجة ما إن يزول عنه الطلاء. وما أملكه منه طبعا هو هذه القطع القديمة الخالية من اللون التى يجدها المرء من حوله. لكن منظرها يبدو جميلا إذا وضعت فى حديقة، وأنا أفضل رؤيتها فى هذا الإطار.

– إذن كان من الممكن أن تشترى آثار سبار تاكوس قبل أن يأمر صديقنا كراسوس بتحطيمها .

وابتسم شيشرون. فسألت هيلينا قائلة :

– آثار؟

فقال كراسوس فى هدوء:

- كان من الضرورى تحطيمها.

- أية آثار؟

فقال شيشرون:

- إذا لم أكن مخطئا، كان جراكوس هو الذى وقع الأمر بتحطيمها.

فهدر جراكوس يقول:

- أنت لا تخطئ أبدا. ألست كذلك أيها الشاب؟ أنت على صواب تام.

ثم قال يشرح لهيلينا:

- أقام سبارتاكوس على السفح الشرقى لجبل فيزوف تمثالين كبيرين نحتا من الحجر البركانى. لم أرهما قط لكنى وقعت الأمر بتحطيمهما.

فسألته هيلينا:

- كيف أقدمت على ذلك؟

- وكيف لا أقدم على ذلك؟ إذا أقامت القذارة رمزا من القذارة فعليك أن تزيليه.

وسألت كلوديا قائلة:

- وكيف كان شكلها؟

فهز جراكوس رأسه مبتسما فى حسرة أسفا على الطريقة التى تتدخل بها أشباح العبيد وشبح قائدهم فى المحادثة مهما كان الموضوع الذى تبدأ منه المحادثة. ثم قال:

- لم أرهما قط يا عزيزتى. كراسوس هو الذى شاهدهما فاسأليه.

فقال كراكوس :

- لا أستطيع أن أبدى لك فيهما رأى فنان. لكن شكل هذه الأشياء يكون مثل ما هو مطلوب منها أن تمثله. كان هناك تمثالان، يمثل الأول عبدا أستطيع أن أقول إن طوله يبلغ نحو خمسين قدما يقف متباعد الساقين وقد حطم أغلاله لأنها ما زالت تحيط بجسده وهي محطمة، ويضم إلى صدره طفلا على إحدى ذراعيه، ويتدلى من يده الأخرى سيف إسبانى. كان هذا واحدا من الاثنين، وتستطيعين أن تصفيه بأنه هائل فيما أعتقد. وكان متقن الصنع بقدر ما أستطيع أن أرى، ولو أنى لست من يحكم على الأعمال الفنية كما قلت، لكنه كان منحوتا فى بساطة. وكان الرجل والطفل جميلي التكوين إلى حد يبرز حتى التفاصيل الصغيرة أمثال القروح والآثار الجسدية التى من الطبيعى أن تحدثها السلاسل. وأذكر كيف راح كايوس تانريا الشاب يوضح لى التكوين القوى لكتف العبد والعروق البارزه على اليدين كما ترين فى أى عبد وراء المحراث تمامًا. وأنت تعرفين أنه كان مع سبارتاكوس عدد كبير من اليونانيين. واليونانيون بارعون فى هذا النوع من الأشياء. لم يجدوا الفرصة لطلاء التمثال قط أو لعلهم لم يستطيعوا الحصول على أية صبغة وكان التمثال فى مجموعه يذكرنى ببعض التماثيل القديمة التى ترينها فى أثينا، التماثيل التى زال من عليها الطلاء. وأوافق كايوس على أنه شكلها أفضل من غير طلاء - ورخيصة جدا كذلك.

أما التمثال الآخر فلم يكن بمثل هذا الطول. إذ لم يزد طول الأجسام عن عشرين قدما، لكنها هى الأخرى كانت دقيقة الصنع. كان هذا التمثال يمثل ثلاثة مجالدين، تراقى وغالى وأفريقى. والطريف حقا أن تمثال الأفريقى كان منحوتا من الحجر الأسود، أما الآخران فكانا من الحجر الأبيض. كان الأفريقى يقف فى الوسط وأطول بعض الشىء من زميليه ويمسك بمدراته في كلتا يديه فى قوة. وعلى جانب منه وقف التراقى ممسكا بالسكين فى يده وفى الجانب الآخر وقف الغالى والسيف فى يده. وكان متقن الصنع لأنك كنت تستطيعين أن ترى أنهم كانوا يقاتلون لأن أذرعتهم وسيقانهم

كانت مغطاة بجراح عميقة. ومن خلفهم تقف امرأة. تقف فى كبرياء بالغة ويقولون إنه تمثال فارينيا. وكانت المرأة تمسك بمسطرين فى إحدى يديها وبمعول فى اليد الأخرى. ومن واجبى أن أعترف بأنى لم أستطع على الإطلاق أن أفهم مغزى ذلك.

فسأله جراكوس في هدوء قائلا :

- فارينيا؟

وسألته هيلينا قائلة:

- لماذا كنت مضطرا إلى تحطيمها؟

فتولى جراكوس الرد عليها إذ قال:

- أكان من الممكن أن تتركى تماثيلهم قائمة؟ أكان من الممكن أن تتركيها قائمة هناك ليشير إليها الجميع وليقولوا هذا ما فعله العبيد؟

فقالت هيلينا تعلن عن رأيها:

- إن روما من القوة إلى حد أن تسمح ببقائها - أجل وأن يشار إليها.

فعلق شيشرون قائلا :

- كلام طيب.

لكن كراسوس كان يفكر فيما كانت عليه الأحوال حينذاك، وعشرة آلاف مقاتل من خيرة قواته يسبحون فى دمائهم فى ميدان القتال، والعبيد يرحلون كأسد غاضب لم ينجحوا إلا فى إزعاجه وفشلوا فى الإضرار به.

وسأله جراكوس، وهو يحاول أن يجعل سؤاله يبدو كما لو كان قد جاء عرضا:

- وكيف كان شكل تمثال فارينيا؟

– لا أظن أنى مستطيع أن أسترجعه فى ذاكرتى جيدا. إذ كنت تحسبها امرأة ألمانية أو غالية، لها شعر طويل ومئزر واسع فضفاض.. وكل هذه الأشياء. الشعر مضفر ومعقوص بالطريقة التى تعقص بها الألمانيات وبنات الغال شعورهن. صدر جميل – جسد جميل قوى مثل بعض تلك الألمانيات اللاتى تراهن فى الأسواق هذه الأيام ويقبل الناس على شرائهن. بالطبع لا أحد يدرى أكانت تلك فارينيا حقيقة أم لا. ككل شيء آخر فى قصة سبارتاكوس. فالمرء لا يكاد يعرف شيئا عنها. اللهم إلا إذا أردت أن تصدق الدعاية كاملة وتدع الأمر عند هذا الحد. كل ما أعرفه عن فارينيا هو ما رواه لى ذلك المتعهد القديم القذر باتياتوس، وكان ما رواه لى قليلا جدا، عدا أن لسانه تدلى وسال لعابه لمجرد ذكراها. ولذا لا بد من أنها كانت جميلة.

وقالت هيلينيا:

– وحطمت هذا التمثال أيضاً؟

فأحنى كراسوس رأسه. فلم يكن هو بالرجل السهل إزعاجه. وقال لهيلينيا:

– يا عزيزتى كنت جنديا وكنت أنفذ تعليمات مجلس الشيوخ. وستسمعين أن حرب العبيد كانت شيئًا بسيطا. ومن الطبيعى جدا أن يتخذوا منها هذا الموقف ما دامت روما لن تفيد كثيراً من مصارحة العالم بحقيقة ما عانيناه من جماعة من العبيد. لكننا نستطيع هنا على هذه الشرفة البهيجة فى بيت صديقنا العزيز الطيب أنطونيوس كايوس وفى هذه الصحبة أن نصرف النظر عن الأساطير، لم يوشك إنسان على تحطيم روما كما أوشك سبارتاكوس، ولم يستطع أحد أن يصيبها بمثل هذه الجراح الرهيبة. أنا لا أريد أن أفخم فيما فعلت، فليكن بومبى هو البطل فليس إخماد فتنة للعبيد بالأمر الخطير، لكن الحقيقة تبقى. وإذا كانت رموز العقاب أمرا لا يسر، فلتفكرى فيما أحسسته عندما رأيت الأرض مغطاة بجثث جنود أحسن القوات فى روما. لذلك لم أفزع أو أتراجع عن تحطيم بعض التماثيل الحجرية التى أقامها العبيد.

على العكس تماما لقد أحسست رضاء نفسيا معينا فى القيام بذلك. لقد حطمنا التماثيل تحطيما كاملا وسحقناها ترابا حتى لا يبقى منها أثر. وكذلك حطمنا سبارتاكوس وجيشه وكذلك سنحطم فى الوقت المناسب - وتبعا للضرورة - مجرد ذكرى ما فعل وكيف فعل ذلك. ما أنا إلا مجرد رجل بسيط، ولست بارعا براعة خاصة لكنى أعرف هذا، أعرف أن نظام الأشياء هو أن البعض يجب أن يحكم وأن البعض الآخر يجب أن يخدم. هكذا نظمت الآلهة الأشياء وأرادتها. وهكذا ستكون.

وكان من صفات كراسوس أنه يستطيع أن يستثير عواطف الآخرين دون أن ينفعل هو أدنى انفعال. وكانت تقاطيع وجهه المنسقة القوية العسكرية تزيد من وزن ما يقول. كان يمثل الصقر البرونزى رمز الجمهورية بكل معانى الكلمة.

وراح جراكوس يرقبه من تحت جفونه المسدلة. إذ جلس جراكوس هناك يتطلع إليهم الواحد بعد الآخر، شيشيرون النحيل الوجه، النهاب، وكايوس الغندور الشاب، وهيلينا، وجوليا الصامتة المعذبة المثيرة للضحك إلى حد ما ، وكلوديا الناعمة القانعة، أنطونيوس كايوس، وكراسوس - كلهم راح يرقبهم ويصغى إلى ما يقولون. وعاد بذاكرته من جديد إلى يوم جاءت لجنة مجلس الشيوخ وراءه بعد أن تركها وخرج. كانت تلك هى البداية طبعًا - عندما أرسلت اللجنة الكتائب الستة. والبداية معرضة للنسيان وكذلك النهاية كما قال كراسوس - اللهم إلا إذا كانت النهاية لم تأت بعد - كما هو محتمل .

كان قرار مجلس الشيوخ فى أول الأمر هو إرسال ست من كتائب حراسة المدنية إلى كابوا فى التو لإخماد ثورة العبيد. وكان هذا هو القرار الذى عارضه جراكوس والذى نفنوه من ناحية ليلقنوه مبادئ التحقير. وكان جراكوس يتذكر مسألة التحقير هذه فى ضوء ما حدث بعد ذلك فى رضاء معين مرير.

كانت كل كتيبة من كتائب حراسة المدن تتكون من خمسمائة وستين جنديا - مسلحين كتسليح جنود الفيالق العاديين - إنما فى مظهر أفضل وبمعدات أغلى ثمنا. فالمدينة مكان طيب للإقامة. أما الفيالق فتذهب إلى أطراف المعمورة ولا تعود أبدا فى كثير من الأحيان، ومنها من تدفن فى أرض غريبة ولا تعود فى كثير من الأحيان كذلك إلا بعد خمس أو عشر أو خمس عشرة سنة. وجنود الفيالق يمشون طيلة اليوم على حفنة من الطعام ويعرقون ويعملون ويشقون الطرق ويشيدون المدن فى الفيافى وتصبح روما المدينة الكبيرة بالنسبة لهم مجرد ذكرى فى بعض الأحيان. أما جنود كتائب حراسة المدن فيعيشون على خيرات الأرض، ولا نهاية للنساء والشراب والألعاب بالنسبة لهم. حتى الجندى البسيط فى كتيبة لحراسة المدينة كان يمثل عاملا سياسيا وكانت قطرات المال تداعب راحته على الدوام. وكان لكثير من رجال الكتائب فى المدينة مساكن جيدة لأوقات الفراغ. وكان البعض يملك عددا من الإماء يصل إلى ستة نساء. وقد رويت قصة عن أحد جنود المدينة كان يملك أربع عشرة محظية فى مسكن كبير فى روما ويدير عملا رابحا من إنجاب الأطفال وتربيتهم حتى سن السادسة ثم بيعهم فى الأسواق. كما كانت تروى قصص كثيرة مشابهة.

كان جنود كتائب حراسة المدن يرتدون سترات رسمية أنيقة، ويقود كل كتائب

الحراسة ضباط شبان من أبناء العائلات الطيبة الذين كانوا يبنون مستقبلهم فى الجيش لكنهم يرغبون فى ألا يكون مستقبلهم بعيدا عن المسرح وساحة القتال والمطاعم الجديدة. وكان نصفهم من أصدقاء كايوس، وداعبته مرة أو مرتين فكرة الالتحاق بمثل هذا العمل، لكنه نبذ الفكرة لأنها لا تتلاءم مع مواهبه الخاصة. لكن هذا النوع من السلطان بالإضافة إلى حقيقة أن الكتائب كانت تستدعى للقيام بالاستعراضات العسكرية فى كل احتفال رسمى عام تقريبا، أديا إلى حدوث تنافس طبيعى بين السادة الشبان حول قيادة أحسن الفصائل مظهرا. ففى المدينة كانت السراويل الجلدية القذرة المشربة بالعرق التى يرتديها جندى الفيالق يستبدل بها جلد أنثى الغزال الجميل الصباغة الرقيق الدباغة. كما كان لكل فصيلة لونها الخاص بها. وكانوا فى العادة يمنحونهم امتياز تثبيت الريش فى الخوذات. وكانت الشرائح الحديدية التى توضع على الكتف وتنزل على الصدر من الأمام وتتداخل في الشريحة التى توضع على الصدر كثيرا ما تطلى بالذهب أو الفضة. وكانت دروع إحدى الكتائب كلها من النحاس الأصفر كما كان لكل فصيلة حذاء متميز يعلو حتى الركبة وتزينه الأجراس الفضية الصغيرة. وكان نصف جنود فصائل المدينة يستعمل دروع الساقين البرونزية التى أقلعت فيالق الحدود عن استعمالها منذ زمن بعيد لأنها وجدت أن مشى الأميال فى اليوم الواحد أمر مستحيل بالنسبة لرجال سيقانها مغلفلة بالمعدن. وكان لكل كتيبة تصميم مختلف لواجهة الدروع وكانت أسلحتها ودروعها من نوع لا نظير له فى كل إيطاليا.

لم تكن الكتائب مفتقرة إلى التدريب، فقد كانت تقوم بتدريباتها كل يوم فى تلك الفترة. إذ كانت تتدرب عادة فى الصباح المبكر فى ساحة مكسيموس المستديرة التى كانت حينذاك ميدانا مفتوحا للسباق فى منخفض وادى موراسيا. وكانت مشاهدة الجنود وهى تقوم بتدريباتها على إيقاع الموسيقى الصادرة عن مائة صفارة أمرا يبعث البهجة إلى النفس. فكانت سفوح التلال المحيطة بالساحة المستديرة تزدحم كل صباح بأطفال روما الذين كانوا يرقبون المشهد العسكرى فى غبطة وحسد.

ولكن حقيقة الأمر كانت أن الكتائب لم تكن فى قوة الفيالق. فتشتيت جمهرة من المتعطلين الجائعين اليائسين، والاشتراك فى خصام سياسى فى شوارع المدينة الضيقة شىء، أما قتال الإسبان أو الغاليين أو الألمان، أو التراقيين أو اليهود أو الإفريقيين فذلك شىء آخر مختلف تماما. ومع ذلك لم يكن هذا أكثر من تمرد قامت به حفنة من العبيد. وست من كتائب المدن، مع كل ما فيها من نواحى النقص تضم أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى رومانى. وكان جراكوس نفسه يسلم بذلك ولو فى القليل. إذ لم يكن ليرضى من ناحية المبدأ أن يرى الكتائب تبعد عن جدران المدينة أكثر من مسيرة يوم واحد. لكن عدد الكتائب كان سبعه وعشرين. وحتى جراكوس سلم بأن فى استطاعتها أن تقوم بما كلفت به. إنما قامت معارضته بصورة أكبر على أساس من خوف عميق من هذه الفصائل السياسية التى لا تتكون من الجنود الفلاحين إنما من أبناء المدينة التى ولدوا وعاشوا فيها ومن المتعطلين فاقدى الضمير والطفيليات. المتعفنة فى روما ومن المنبوذين وفاقدى الأمل الذين كانوا يحيون حياتهم محصورين بين كتلة العبيد التى يقوم عليها المجتمع وحفنة الحكم التى تنهض فوقها. وكانوا يزيدون فى عددهم عن عمال روما، جوهر الصناع وأصحاب الحوانيت الذين كانوا فى تناقص مستمر. وكانوا ينفقون أيامهم فى الشوارع أو فى الساحة، ويعيشون على مرتباتهم الضئيلة ويقامرون ويراهنون فى السباق ويبيعون أصواتهم الانتخابية فى كل انتخابات، ويخنقون أولادهم عقب ولادتهم ليهربوا من مسئولية تربيتهم. وكان جنود الكتائب يمضون الساعات فى الحمامات ويحيون فى المساكن الصغيرة القذرة فى منازل السكنى العالية – ومن كل هؤلاء كانوا يجندون الجند لكتائب حراسة المدن.

تحركت الكتائب الست فى مطلع الفجر فى اليوم التالى لقرار مجلس الشيوخ. وأعطيت قيادتها لعضو شاب فى مجلس الشيوخ يدعى فارينيوس جلابروس، وأعطوه شارة السفارة، وبعثوا به ممثلاً لمجلس الشيوخ وله سلطات المجلس. ولم تكن روما لتخلو من الرجال الأكبر سنا من فارينيوس من ذوى الخبرة العسكرية الطويلة، لكن

الصراع الداخلى فى سبيل السلطان كان يمزق روما منذ سنوات طويلة وكان مجلس الشيوخ شديد الحذر من وضع قوة عسكرية بين يدى أى فرد خارج المجلس. وكان فارينيوس جلابروس مغرورا أميل إلى الغباء وموثوقا به سياسيا.

وكان فارينيوس فى التاسعة والثلاثين من عمره فى ذلك الوقت، وكانت له عن طريق أمه علاقات عائلية طيبة، فلم يكن طموحه ليفتقر إلى السند ومن ثم رحب هو وعائلته بهذا الاختيار كفرصة لقدر من المجد لا يشوبه احتمال الفشل. وكانت أغلبية الأعضاء فى مجلس الشيوخ، باختيارهم لفارينيوس تقوى موقفها من فريق كامل من النبلاء. إذ سيقوم الضباط تحت إمرته بتنفيذ ما يجب عمله عسكريا، أما القرارات القليلة التى قد يضطر إلى اتخاذها فقد أعطيت له التعليمات الدقيقة الصريحة بشأنها، عليه أن يقود رجاله إلى كابوا بسرعة السير فى ميادين القتال أى عشرين ميلا فى اليوم وهذه المسافة كلها على الطريق الأبيوسى، ومعنى ذلك أن العربات هى التى ستحمل الطعام والماء الذى يحمله جندى الفيلق على ظهره عادة. وعليه أن يعسكر للراحة برجاله خارج جدران كابوا وعليه ألا يمضى فى تلك المدينة أكثر من يوم واحد فى جمع المعلومات عن مدى تقدم ثورة العبيد ولوضع خططه لقمعها، وعليه بعد ذلك أن يبعث بخططه إلى مجلس الشيوخ على أن يشرع فى تنفيذها فوراً دون انتظار اعتمادها من المجلس. وعليه أن يتصرف فى العبيد بما يراه واجبا، لكن يجب أن يبذل كل جهد ممكن للقبض على قادة الثورة وأن يعود بهم وبأكبر عدد يمكن أسره إلى روما لمحاكمتهم محاكمة علنية وتوقيع العقاب بهم. وإذا طلب مجلس مدينة كابوا رموز عقاب، فله الحق فى صلب عشرة من العبيد خارج كابوا – لكن على شريطة أن يكون هذا العدد أقل من نصف الأسرى. وأصدر مجلس الشيوخ أمراً صريحًا يقضى بمصادرة كل حقوق ملكية العبيد لحساب المجلس. وصدرت التعليمات لفارينيوس بأن يرفض قبول أى مطالبات بالعبيد ولو أن من الممكن قبول أى إعلانات قضائية لقضايا تترتب على ذلك وأن تسلم هذه الإعلانات إلى لجنة المطالب.

حـدث هذا قـبل أن يكون لدى رومـا أى فكرة عن قـائد الثـورة. ولم يكن اسم سبارتاكوس قد عرف بعد، كما لم يكن مفهوما بصورة واضحة كيف قامت الثورة فى مدرسة باتياتوس. تجمع كتائب حراسة المدينة للقيام باستعراض عسكرى عند مطلع الفجر. ولكن حدث بعض التأخير نتيجة للخلاف بين الضباط حول مواضع الكتائب. فكانت الشمس قد صعدت إلى السماء عندما بدأت الكتائب تتحرك. ودوت فى أنحاء المدينة الموسيقى العسكرية المثيرة الصادرة عن طبولها وصفارتها. وعندما وصلت الكتائب إلى أبواب المدينة، كان جمهور كبير قد احتشد لمشاهدتها وهى ترحل.

جراكوس يتذكر كل ذلك جيدا - جيدا جدا. فقد انضم هو واثنان من أعضاء المجلس إلى الجمهور المحتشد عند أبواب المدينة. وتذكر جمال منظر الكتائب وهى تسير، والفرق الموسيقية تعزف، والأعلام تتطاير، والألوية تتمايل فى كبرياء، وخوذات الجنود بما فيها من ريش تهتز فى أثناء سيرهم، وفارينيوس على رأس الصفوف يضع على صدره درعا من النحاس اللامع ويمتطى صهوة جواد أبيض رائع، ويلوح للجماهير التى راحت تحييه. ليس فى العالم ما يثير مثل استعراض لجنود أجيد تدريبهم. جراكوس يتذكر ذلك جيدا جدا.

وهكذا عرف مجلس الشويخ اسم سبارتاكوس. ويستطيع جراكوس أن يذكر أول مرة سمع فيها الاسم. ولعل ذلك كان أول مرة ينطق فيها الاسم فى روما. فقد علق عليه فارينيوس فى التقرير الذى بعث به بالبريد العاجل من كابوا إلى مجلس الشيوخ فى روما تعليقا عابرا دون اهتمام خاص وبلا احتفال. ولم تكن لتقرير فارينيوس أهمية خاصة فقد بدأ بالعبارة التقليدية .. «أرجو أن يسر مجلس الشيوخ الموقر» ثم راح يعدد تفاصيل الحوادث القليلة التى حدثت فى أثناء سير القوات على الطريق الأبيوسى والمعلومات التى جمعها فى كابوا. وكان أهم ما حدث فى أثناء المسير هو أن جنود الكتائب الثلاث التى يضع جنودها الدروع على سيقانهم قد أصيبوا بقروح مؤلمة فى ظاهر القدم فقرر فارينيوس أن يخلعوا دروع السيقان وأن تعود إحدى العربات بالدروع إلى روما. ورأى ضباط هذه الكتائب الثلاث فى ذلك مساساً بشرفهم العسكرى وإهانة لرجالهم وأن فى الإمكان التغلب على هذه المشكلة بقليل من شحم القدم. فنزل فارينيوس على رغباتهم واضطروا نتيجة لذلك إلى ترك أكثر من مائة رجل فى كابوا لأنهم غير صالحين للخدمة، بينما راحت عدة مئات غيرهم تعرج. ومع ذلك فالشعور العام هو أنهم سيكونون صالحين للاشتراك فى الحملة ضد العبيد :

(وجفل جراكوس عندما سمع كلمة الحملة). أما بالنسبة للحديث عن الثورة فكان من الواضح أن فارينيوس كان موزعًا بين رغبته فى تقرير الحقائق بطريقة تهون من أمرها وبين الفرصة للتقدم والرقى. ومعنى هذا المبالغة فى وصفها وتضخيم أمرها. فحشر فى تقريره عبارة لباتياتوس تناول فيها أصل الثورة وأشار إلى «أنه يبدو أن الثورة بقيادة من يدعى سبارتاكوس وهو تراقى وآخر غالى يدعى كريكوس» والاثنان

من المجالدين. ولكن كان من المستحيل معرفة عدد المقاتلين المشتركين فى الثورة من التقرير. ووصف فارينيوس بالتفصيل كيف أحرقت ثلاث مزارع متباعدة، وأن العبيد فى هذه المزارع كانوا غاية فى الولاء، لسادتهم، وكيف اضطر العبيد تحت التهديد بالقتل إلى الانضمام إلى العبيد الثائرين، وأن كل من رفض قتلوه فى التو.

(وهز جراكوس رأسه موافقا. فهذه هى الطريقة الوحيدة لحسم الموقف) وحاول اثنان من أصحاب المزارع الاحتماء فى كابوا، لكن المجالدين قطعوا عليهما الطريق وذبحوهما واضطر عبيدهما إلى الانضمام إلى الثورة. وبالإضافة إلى هذا فقد فرت أعداد من عبيد المنطقة المتذمرين وانضموا إلى الثائرين. وأضاف فارينيوس قائمة طويلة بالأعمال الوحشية التى زعموا أن العبيد قد اقترفوها. وأرفق بتقريره ثلاثة إقرارات منفصلة جمعت وصودق عليها. وعددت هذه الإقرارات أعمالا وحشية أخرى زعموا أن العبيد قد اقترفوها.

وأنهى تقريره بأن قرر، على قدر معرفته، أن العبيد قد أقاموا مقر قيادتهم على سفح جبل فيزوف الصخرى الموحش، وأنه ينوى أن يتقدم إلى هناك فى التو وينفذ مشيئة مجلس الشيوخ فيهم.

تلقى مجلس الشيوخ تقرير فارينيوس وقبله. وتقدم كذلك أحد الأعضاء بقرار أجازه مجلس الشيوخ يقضى بتقديم ثمانين عبدا من الفارين المقرر عقابهم بإرسالهم إلى المناجم لإعدامهم كرموز للعقاب «كى يجد كل عبيد المدينة فى مصير زملائهم نذيرا ودرسا». وفى نفس اليوم صلبوا هؤلاء التسعين المساكين فى ساحة مكسيموس المستديرة فى فترة الاستراحة فى أثناء السباق، وتدلى العبيد فوق صلبانهم بينما كان الجواد الأثير أريستونيز وهو مهر آسيوى رائع قد انطلق دون توقع على شاروس المهرة النوبية فتسبب بذلك فى إفلاس قسم كبير من هواة السباق فى روما.

لكن أخبار فارينيوس وكتائب حراسة المدينة انقطعت ستة أيام متوالية. وفى نهاية

اليوم السادس وصل تقرير مقتضب يقول إن العبيد هزموا كتائب حراسة المدينة. كان تقريرا مقتضبا خاليا من الحقائق التى تدعمه، فانتظر مجلس الشيوخ وانتظرت روما أربع وعشرين ساعة يترقبون الأنباء مشدودى الأعصاب، وتحدث كل إنسان عن ثورة العبيد الجديدة دون أن يعرف أحد شىء عنها، ومع ذلك فقد ساد الخوف المدينة بأسرها.

- ٦ -

وعقد مجلس الشيوخ اجتماعا سريا متكامل الأعضاء، وتجمعت الجماهير فى الخارج وظلت أعدادها تتزايد حتى امتلأ الميدان وسدت الشوارع المؤدية إليه. وانتشرت الشائعات فى كل مكان لأن مجلس الشيوخ كان يستمع فى تلك اللحظة إلى ما أصاب كتائب حراسة المدينة .

لم يخل من مقاعد المجلس إلا مقعد أو مقعدان. وقرر جراكوس، وهو يتذكر ذلك الاجتماع، أن مجلس الشيوخ يكون فى أبهى لحظاته فى مثل تلك اللحظات - لحظات الأزمة والمعرفة المريرة. كانت عيون الشيوخ الغارقين فى الصمت وفى عباءاتهم الرومانية مليئة بالاهتمام وإن لم يزعجها الخوف. بينما كانت وجوه من يصغرونهم سنا قاسية غاضبة لكنهم جميعًا كانوا يحسون إحساسا حادا بكرامة مجلس الشيوخ الرومانى. ومن ثم استطاع جراكوس أن يطفئ غلة سخريته المريرة فى ذلك المحيط. فهو يعرف هؤلاء الرجال ويعرف أية أساليب رخيصة فاسدة، اشتروا بها مقاعدهم، وأية ألاعيب سياسية قذرة لعبوها. وهو يعرف كل واحد منهم، ويعرف كل أنواع القذارات التى يقيم عليها كل واحد منهم، وكلهم حياته الخاصة .. ومع ذلك فقد كان يحس بهزة النشوة والكبرياء لوجوده بين صفوفهم.

إلا أنه لم يستطع فى تلك اللحظة أن يمضى فى تأمل انتصاره الشخصى بوجوده بينهم لأن انتصاره الشخصى كان جزءًا لا يتجزأ مما كانوا يواجهون. ومن هنا اختاروه ليكون مقرراً للمجلس فاضطر إلى أن يحمل همهم وأن يضع نصره الصغير جانبا. ووقف أمامهم يواجه الجندى الرومانى الذى عاد من المعركة، الجندى الرومانى

الذى تربى ونشأ فى شوارع وطرقات المدينة، لكنه يقف الآن ولأول مرة فى حياته أمام مجلس الشيوخ الموقر. كان رجلا نحيل الوجه أسود العينين وجلا خائفا تطرف إحدى عينيه ويلعق لسانه شفتيه فى قلق المرة بعد المرة. وكان ما زال مرتديا دروعه، لا يحمل سلاحًا كما هو الحال عندما يمثل المرء أمام مجلس الشيوخ، حليقا، غسل بعض أجزاء جسمه على الأقل وإن كانت تحيط بذراعه ضمادة مشربة بالدم، وكان فوق ذلك بالغ التعب. وأقدم جراكوس على ما لم يكن ليقدم عليه سواه. طلب قبل أن يبدأ توجيه الأسئلة الشكلية من أحد الأتباع أن يحضر نبيذا ويضعه على منضدة صغيرة إلى جانب الجندى، فقد كان الرجل ضعيفًا ولم يرد جراكوس أن يقع على ركبتيه مغشيا عليه فذلك لن يساعد فى شيء. وكان الرجل يمسك بين يديه القضيب العاجى الصغير الذى يحمله سفير مجلس الشيوخ، القضيب الذى كان - إنهم لا يجرءون على القول - أقوى فى سلطته من جيش غاز، الذى كان يمثل السلاح والسلطان والقوة المركزة فى مجلس الشيوخ.

بدأ جراكوس بقوله:

- لك أن تعطينى إياه.

لم يفهم الجندى أول الأمر ما يعنيه فأخذ جراكوس القضيب من يديه ووضعه فوق المذبح وهو يشعر بحلقه يضيق وبالألم يعتصر قلبه. فهو يستطيع أن يكن الاحتقار للرجال نظرا لما جبلوا عليه من طبائع، لكنه لا يستطيع أن يكن احتقاراً لهذا القضيب الصغير الذى يمثل كل ما تعنيه حياته من كرامة وقوة ومجد، والذى سلموه لفارينيوس منذ أيام قليلة ليس إلا.

ثم سأل الجندى :

- اسمك أولا .

- أرالوس بورتوس .

– بورتوس؟

فأعاد الجندى قوله :

– أرالوس بورتوس.

وأحاط أحد أعضاء المجلس أذنه براحة يده وقال :

– ارفع صوتك، ألا تستطيع أن ترفع صوتك؟ أنا لا أسمعك.

فقال جراكوس:

– ارفع صوتك. لن يصيبك أذى هنا. أنت هنا فى القاعة المقدسة لمجلس الشيوخ وعليك أن تقول الصدق كاملا بحق الآلهة التى لا تموت. ارفع صوتك.

فاحنى الجندى رأسه موافقًا.

وقال جراكوس :

– خذ بعض النبيذ.

وراح الجندى يدير بصره من وجه إلى وجه، إلى صفوف من الرجال الأغنياء الذين يرتدون ملابس بيضاء، وإلى المقاعد الحجرية التى جلسوا عليها كتماثيل منحوتة ثم صب بيد مرتعدة كوبا من النبيذ وظل يصب حتى فاض الكوب وشربها دفعة واحدة ثم لعق شفتيه ثانية.

وسأله جراكوس:

– كم عمرك؟

– خمسة وعشرون عامًا.

– وأين ولدت؟

– هنا – فى المدينة.

– ألك تجارة؟

فهز الرجل رأسه نفياً.

– أريد منك الإجابة على كل سؤال. أريد منك أن تجيب بلا أو نعم على الأقل. وإذا استطعت أن تجيب بمزيد من التفاصيل فافعل.

فقال الجندى:

– لا، ليست لى تجارة غير الحرب.

– أية فصيلة كانت فصيلتك؟

– فى الكتيبة الثالثة.

– وكم مضى عليك من الزمن وأنت جندى فى الكتيبة الثالثة؟

– سنتان وشهران.

– وقبل ذلك؟

– كنت أعيش على الإعانة الحكومية.

– ومن كان قائدك فى الكتيبة الثالثة؟

– سيلفيوس كايوس سالفاريوس.

– ومن كان قائد فصيلتك؟

– ماريوس جراكوس ألفيو.

– حسن جدا يا أرالوس بورتوس، أريد منك الآن أن تقص علىَّ وعلى أعضاء المجلس الموقرين المجتمعين هنا كل ما حدث بالضبط بعد أن سارت كتيبتك والكتائب

الخمس الأخرى جنوبا من كابوا . وعليك أن تقص علىَّ ما حدث بوضوح وبلا استطراد . لن نؤاخذك على شىء مما ستقول، ولن يحل بك أى أذى هنا فى هذه القاعة المقدسة.

ومع ذلك فلم يكن من اليسير على الجندى أن يتحدث فى اتساق. أما بالنسبة لجراكوس فقد كانت ذكرى الصور القاسية المشئومة التى أثارتها كلمات الجندى تعود إليه وهو يجلس فى شرفة فيلا سالاريا فى ذلك الصباح الرقيق من أيام الربيع بعد الحادث بسنوات، أكثر وضوحا من الكلمات نفسها، لم يكن الجيش الذى تقدم جنوبا من كابوا تحت قيادة فارينيوس جلابروس كثير البهجة أو الرضاء فقد استحال الجو حارا فى غير موسمة فقاست كتائب حراسة المدينة الكثيرة نظراً لعدم اعتيادها على السير المتواصل. وعلى الرغم من أن أحمال الجندى كانت تقل عشرين رطلا عما يحمله جندى الفيالق فى أثناء السير، فقد ضاق الجنود بثقل الخوذة والدروع والترس والحربة والسيف. وتقرحت أجسادهم فى الأماكن التى كانت أطراف المعدن الساخن تحك فيها لحم أجسادهم، وتبين لهم أن أحذية الاستعراضات الرقيقة الجميلة التى كانوا يتيهون بها وهم يخطرون جيئة وذهابا فى ساحة مكسيموس المستديرة أقل نفعًا فى السيرة على الطريق وفى ميدان القتال. وأغرقتهم شآبيب المطر التى هطلت بعد الظهر، فما إن جاء المساء حتى كانت المرارة والاكتئاب قد أخذا بخناقهم.

كان فى استطاعة جراكوس أن يتصورهم أحسن التصور، الطابور الطويل من الجنود، وقد خرجوا عن الطريق الأبيوسى وراحوا يمشون فى تثاقل فيما تخلفه العربات من دروب قذرة والريش المبلل يتدلى من خوذاتهم النحاسية، وقد أسكت الشعور بالتعب كل شىء فيهم حتى الرغبة فى الشكوى. كان ذلك الوقت تقريبا هو الذى أمسكوا فيه بأربعة من عبيد الحقول وقتلوهم – ثلاثة رجال وامرأة.

فقاطعه جراكوس قائلا:

– ولماذا قتلتموهم؟

– كنا نحس أن كل عبد فى ذلك الجزء من البلد ضدنا.

– لو أنهم كانوا ضدكم، لماذا كانوا ينزلون من سفوح الجبال إلى الطريق ليرقبوا الطوابير وهى تسير؟

– لا أدرى. كانت الكتيبة الثانية هى التى فعلت ذلك. خرجوا من الصفوف وأمسكوا بالمرأة. وحاول الرجال حمايتها فطعنوهم بالحراب. لم يستغرق ذلك إلا دقيقة ثم مات الرجال. وعندما وصلت إلى هناك ..

فسأله جراكوس قائلا:

– أتعنى أن فصيلتك خرجت من الصفوف هى الأخرى؟

– أجل يا سيدى، الجيش بأسره. تزاحمنا حولها– كل من استطاع منا الاقتراب مما كان يدور.

فقاطعه جراكوس:

– لا حاجة بك إلى الخوض فى تفاصيل ذلك. هل تدخل ضباطكم فى الموضوع؟

– كلا يا سيدى.

– أتعنى أنهم سمحوا بالاستمرار فى ذلك دون تدخل من جانبهم؟

فتوقف الجندى لحظة دون أن يجيب.

– أريدك أن تصدق فى إجابتك ولا أريدك أن تخاف من الصدق فى الإجابة.

– لم يتدخل الضباط.

– وكيف قتلت المرأة؟

فاستجاب الجندى لدعوته فى صوت خفيض وقال:

- ماتت مما كانوا يفعلونه بها.

عند ذاك اضطروا إلى مطالبته من جديد بأن يرفع من صوته فقد كاد صوته يتلاشى تماماً.

وقص عليهم كيف عسكروا فى تلك الليلة. لم تنصب كتيبتان حتى خيامهما فقد كانت الليلة دافئة ونام الجنود فى حقل فى العراء.

هنا قوطع حديث الجندى:

- هل حاول قائدكم أن يقيم معسكراً محصنا؟ هل تعرف ما إذا كان قد فعل أم لم يفعل؟

وكان مما يفخر به الجيش الروماني أن الفيلق لا يعسكر فى أى مكان ولو لليلة واحدة دون أن يقيم معسكراً محصناً محاطاً بسياج من الأعمدة الخشبية، أو بحائط يقام، وبخندق وبأوتاد، ويقام كقلعة صغيرة أو مدينة.

- أنا أعرف ما قاله الرجال.

- قل لنا ذلك.

- قالوا إن فارينيوس جلابروس كان يريد ذلك لكن قادة الفصائل قاوموا رغبته. وقال الرجال إنه حتى لو أنهم وافقوا كلهم فلم يكن معنا مهندسون وأن الحملة بأسرها لم تصمم على أساس من الفهم أو المعقولية. وقالوا ... أرجو المجلس الموقر.

- قل لنا ما قالوه دون خوف.

- أجل، قالوا إن الطريقة التى نظمت بها الحملة خلت من المعنى والإدراك. لكن الضباط تجادلوا حول أن حفنة من العبيد لم تكن لتمثل أى خطر عليهم. وكان الليل قد بدأ ينزل فعلا وكانت حجة الضباط، كما سمعتها، أنه إذا كان فارينيوس جلابروس يريد معسكراً محصناً، فلماذا جعلنا نواصل السير حتى الغسق؟ وكان الجنود بدورهم

يرددون نفس الكلام، وكان ذلك أسوأ جزء قطعناه من الرحلة كلها. فقد مشينا أولا على الطريق المتربة واختنقنا بالتراب إلى حد أننا لم نستطع التنفس، ثم مشينا بعد ذلك تحت المطر المنهمر. ولم يكن ذلك ليضير الضباط فى شىء، كما قال الجنود، إذ كانوا يركبون جيادهم، أما نحن فقد كنا مضطرين إلى المشى. لكن الجدال كان حول أنه ما دامت العربات معنا، وتحمل عنا متاعنا، وما دامت العربات موجودة، فيجب أن نقطع أكبر مسافة ممكنة .

– وأين كنتم حينذاك؟

– ملاصقين للجبل.

نعم كان استرجاع الحادث فى الصور التى أثارها حديث الجندى خيراً منه فى الكلمات التافهة التى أدلى بها الجندى الخائف عديم الخيال الذى كان يدلى بشهادته. وكان بعض هذه الصور من الوضوح فى ذهن جراكوس إلى حد أنه يكاد يعتقد أنه رآها مرأى العين. الطريق القذر وهو يضيق حتى يصبح مجرد درب للعربات، والحقول الجميلة والمراعى فى الضيعات وهى تنتهى لتبدأ الغابات المتشابكة، وشظايا الصخور النارية المقفرة المحيطة بفوهة البركان، ويسمو فوق كل هذا جبل فيزوف فى عظمته المتأملة. وانتظمت الكتائب الست على طول ميل من الطريق. وراحت عربات المتاع تتمايل مترنحة فى الأخاديد والرجال ساخطون متعبون. وعند ذاك لاحت أمامهم حافة كبيرة من الصخر ومن تحتها حقل صغير منبسط يجرى فيه جدول من الماء وتكسوه الشقائق الصفراء والأقاح والحشيش الناعم والليل فى طريقه إلى النزول.

هناك أقاموا معسكرهم ونزل فارينيوس على رأى الضباط فيما يختص بمسألة التحصينات. وذلك أيضا كان جراكوس يستطيع أن يتصوره. سيقول قادة الفصائل إنهم كانوا يقودون أكثر من ثلاثة آلاف من الجنود الرومانيين المثقلين بالأسلحة. ولم يكن هناك أى احتمال للهجوم. كما لم يكن هناك أى خطر من الهجوم، فقد كان عدد

المجالدين، حتى عند بداية الثورة، مائتين أو نحو ذلك ليس إلا، وقد قتل الكثير من هؤلاء. وكان الرجال شديدى التعب فرقد بعضهم على الحشائش وسرعان ما ناموا. ونصبت فصائل قليلة الخيام وحاولت أن تشق الطرق بين خيام الفصائل بطريقة منظمة. وأشعلت معظم الفصائل النيران للطهى، إلا أن بعضها استغنى حتى عن ذلك نظراً لوجود كميات كبيرة من الخبز فى عربات الأمتعة. هكذا كانت صورة المعسكر الذى أقيم فى ظل الجبل. ونصب فارينيوس خيمته فى وسط المعسكر تماما. وهناك عقد لواءه والبيرق الذى يمثل مجلس الشيوخ. وكان سكان كابوا قد أعدوا لهم سلالا كبيرة من أطايب الطعام الجميلة الطهى. لا بد من أنه جلس مع ضباطه العظام ليأكلوها - ولعله كان قد استراح إذ لم يعد مضطراً إلى القيام بعملية بناء الاستحكامات الشاقة. وبعد فليست هذه بأسوأ حملة فى العالم فهى إن كان فيها تشريف له فمن المحتمل ألا يكون فيها إلا القليل من المجد، وما هى إلا مسيرة أيام قليلة من المدينة الكبيرة.

وهكذا راح جراكوس يتصور ويسترجع الصور التى كونت البداية فى ذاكرته، معتمدا فى ذلك على بصيرته الباطنة التى ترفعه عن مستوى الحيوان وتفصل بينه وبين الحيوان. فالذاكرة متعة للبشرية ومصدر أسى لها. جلس جراكوس ممدد الأطراف فى الشمس ينظر إلى كوب ماء الصباح وهو ممسك به فى يده، ويصغى إلى الصدى البعيد لجندى تعس عاد يحمل فى يده القضيب العاجي الذى يحمله السفير وجاءته الصور. كيف يكون حال من يتربص بهم الموت بعد ساعات قليلة وهم لا يعرفون؟ هل سمع فارينيوس جلابروس باسم سبارتاكوس قط ؟ ربما لا.

وقال الجندى لأعضاء المجلس ذوى الوجوه المتحجرة:

- أذكر كيف نزل الليل وسطعت كل النجوم فى السماء.

الجمال البسيط فى حديث جندى أحمق. نزل الليل ولا بد من أن فارينيوس جلابروس جلس هو وضباطه فى فسطاطه الكبير يشربون النبيذ ويأكلون بتأن اللحم

من صغار الحمام المطهو بالعسل. ولا بد من أن حديثًا شائقًا قد دار فى تلك الليلة، حديثا بارعا، فتلك مجموعة من السادة الشبان من أكثر المجتمعات التى شهدها العالم تحضراً. علام تراهم قد تحدثوا؟ حاول جراكوس أن يتذكر اليوم، وبعد سنوات أربع، ما كان شائعًا فى ذلك الوقت - فى المسرح، فى ميادين السباق، وفى ساحات القتال. ألم يكن ذلك بعد الإخراج الجديد لمسرحية باكوفيوس «اللعب بالسلاح» مباشرة؟ ألم يغنى فلافيوس جاليس الدور الرئيس كما لم يغنه أحد من قبل؟ (أم هل كان ذلك مجرد تخيل كما هى العادة، أن يقال إن المغنى أو الممثل قام بغناء أو تمثيل الدور كما لم يغنه أو يمثله أحد من قبل؟) ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون ذلك صحيحًا. ولعل الشباب من كتائب حراسة المدينة قد رفعوا عقيرتهم وهم يشربون النبيذ ويغنون .

«هؤلاء يجب أن يخافوا ضياع الروح المصونة مثلما يجب أن أخاف».

ويمضون فى الغناء وأصواتهم مسموعة فى أنحاء المعسكر - من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث فالذاكرة أمر خيال. لا بد من أن التعب قد ساد كل أنحاء ذلك المعسكر. فرقد رجال كتائب حراسة المدينة الذين لم ينصبوا خياما على ظهورهم يمضغون العيش وينظرون إلى النجوم. وهكذا غشيهم النوم، غشى النوم الرقيق جنود روما البالغ عددهم ثلاثة آلاف وعدة مئات الذين تقدموا جنوبا إلى جبل فيزوف ليعلموا العبيد أن العبيد يجب ألا يرفعوا أيديهم ضد ساداتهم.

كان جراكوس مقرر المجلس ومهمته أن يوجه الأسئلة، وكان يرين على قاعة مجلس الشيوخ فى فترات الصمت التى تخللت إجابات الجندى، صمت يكاد المرء أن يسمع لفرطه أجنحة الذبابة وهى تحتك بالهواء.

وسأله جراكوس:

- وهل نمت أنت؟

فأجابه الجندى الوحيد المذعور الذى عاد ليدلى بشهادته:

– أنا نمت.

– وما الذى أيقظك؟

وهنا جاهد الجندى من أجل الكلام وأضحى وجهه شديد البياض. وظن جراكوس أنه سيقع مغشيا عليه لكنه لم يغم عليه. وهنا أصبح تقريره دقيقًا واضحاً ولكنه خال من العاطفة. وهذا ما قال إنه حدث كما رآه.

– نمت. ثم استيقظت لأنه كان هناك إنسان يصرخ ظننت أن رجلا واحداً على الأقل هو الذى كان يصرخ، لكننى أدركت عندما استيقظت أن الهواء كان مليئًا بصراخ كثير من الرجال. وكان الهواء مليئا به استيقظت واستدرت فى الحال لأنى أنام على بطنى ولهذا استدرت. وكان ينام إلى جانبى كاليوس الذى لا يحمل إلا اسما واحداً لأنه يتيم من أبناء الشوارع، لكنه كان أقرب وأصدق صديق لى. وكان ذراعى الأيمن ولهذا كنا ننام جنبا إلى جنب. وعندما استدرت غاص رسغى الأيمن فى شىء مبلل ساخن وناعم الملمس وعندما نظرت تبين لى أنه عنق كاليوس، لكن العنق كان مقطوعا قطعًا كاملا. وظلت تلك الصرخة تتردد طيلة الوقت. ثم وجدت نفسى أجلس فى بركة من الدماء. ولم أدر هل كانت تلك الدماء دمائى أم دماء غيرى، لكن جثث الموتى كانت تحيط بى من كل جانب فى ضوء القمر حيث نام أصحابها. وكان المعسكر بأسره مليئًا بعبيد مسلحين بمدى فى حدة الموسى، والمدى تعلو وتهبط مرسلة وميضها فى ضوء القمر. وبهذه الطريقة قتلونا، قتلوا نصفنا وهم نيام. وعندما كان رجل يقفز واقفا على قدميه كانوا يقتلونه هو الآخر. وتجمع قليل من الجنود هنا وهناك فى جماعات صغيرة لكنهم ما كانوا ليقاتلوا طويلاً. كان ذلك أبشع شىء رأيته فى حياتى إلا أن العبيد لم يتوقفوا عن القتل لحظة واحدة. ثم فقدت صوابى وبدأت أصرخ أنا الآخر. ولا أجد خجلا فى التصريح بذلك. وجردت سيفى واندفعت داخل المعسكر وأهويت بسيفى على عبد وقتلته فيما أعتقد، لكنى عندما وصلت إلى طرف المرج واجهت صفا حديديا من الحراب كان يحيط بالمعسكر من كل جوانبه. وكانت غالبية حملة الحراب من النساء. لكنهن لم يكن

نساء مثل من رأيت أو حلمت بهن، إنما كن أشياء رهيبة متوحشة تتطاير شعورهن فى ريح الليل وأفواههن مفتوحة تصدر صيحة كراهية رهيبة. كان هذا جزءاً من الصراخ. واندفع من جانبى جندى وألقى بنفسه على الحراب فانغرست فيه لأنه لم يكن يظن أن النساء سيطعنه بالحراب، لكنهن طعنه. ولم يهرب إنسان من ذلك المكان. وعندما كان الجرحى يزحفون قادمين كن يغرسن الحراب فيهم هم الآخرين. جريت حتى وصلت إلى الصف فغرسن حربة فى ذراعى فانتزعتها وعدت أجرى إلى المعسكر ثم سقطت فى الدماء ورقدت فيها. رقدت فيها وذلك الصراخ يملأ أذنى. ولا أدرى كم من الوقت رقدت هناك. لكن ذلك لم يبد لى طويلا جدا. قلت لنفسى انهض وقاتل ومت، لكنى انتظرت. ثم تناقص الصراخ وأمسكت بى أياد وأوقفتنى على قدمى، وفكرت فى أن أضربهم بسيفى، لكنهم أوقعوا به من يدى. ولم تكن يدى لتقوى على ذلك نتيجة للألم الذى سببه جرح الحربة. أمسك بى العبيد وارتفع سكين ليقطع عنقى فأدركت عند ذاك أن كل شىء قد انتهى وأنى سأموت أنا الآخر. لكن شخصاً صاح قائلا. انتظر. انتظر. فانتظر السكين. انتظر على بعد بوصة من عنقى. ثم خطا عبد قادما وكان يحمل بدوره سكينا تراقيا فى يده، وقال لهم: انتظروا. أظنه الوحيد الباقى. فوقفوا هناك وانتظروا. وتعلقت حياتى منتظرة. ثم جاء عبد أحمر الشعر وراحا يتحدثان وهما يذرعان المكان جيئة وذهابا. كنت أنا الوحيد الباقى على قيد الحياة ولذلك لم يقتلونى. كنت أنا الوحيد الباقى على قيد الحياة أما الباقى فقد ماتوا كلهم، وأخذونى عبر المعسكر وكانت الكتائب كلها قتلى. ماتت غالبيتهم حيث كانوا ينامون. لم يستيقظوا قط. أخذونى إلى فسطاط فارينيوس جلابروس سفير المجلس، لكن السفير كان ميتا. كان يرقد على سريره ميتا. وكان فى الفسطاط بعض من ضباط الكتائب وفيها قتلوا. كلهم موتى. ثم ضمدوا لى جرح ذراعى وتركونى هناك فى حراسة بعض العبيد. فى ذلك الوقت استحالت السماء رمادية اللون وبدأ الفجر يقترب، لكن الكتائب كانت كلها قتلى.

قال الجندى هذا دون انفعال وفى أسلوب روائى مباشر واقعى، لكن عينه ظلت تطرف طيلة الوقت، ولم يتطلع قط إلى صفوف أعضاء مجلس الشيوخ الذين جلسوا وقد تحجرت منهم الوجوه.

– وسأله جراكوس قائلا:

– وكيف عرفت أن كلهم قد ماتوا؟

حجزونى فى الفسطاط حتى طلع الفجر، وكانت جوانب الفسطاط مطوية مرفوعة فاستطعت أن أرى كافة أنحاء ساحة استراحة الجنود. كان الصراخ قد توقف عند ذاك لكنى كنت لا أزال أسمعه يتردد داخل رأسي. كان فى استطاعتى أن أتطلع فيما حولى وأينما نظرت كان الموتى يرقدون على الأرض. وكانت رائحة الدم والموت تملأ الجو. وكانت غالبية النساء اللاتى كن يكوِّن دائرة الحراب قد اختفين عند ذاك. ذهبن إلى مكان ما. لا أدرى أين ذهبن لكنى استطعت أن أميز رائحة الشواء من خلال رائحة الدم. لعل النساء كن يطهين اللحم لطعام الإفطار. وجعلنى التفكير فى أن من الناس من يستطيع أن يأكل حينذاك أشعر بالغثيان فتقيأت. وجرنى العبيد إلى خارج الفسطاط حتى فرغت من القيء. كانت الدنيا تزداد نورا عند ذاك فشاهدت جماعات من العبيد تخترق المعسكر، كانوا ينزعون عن الموتى ما يحملون. ونشروا خيامنا على الأرض هنا وهناك. واستطعت أن أرى تلك المساحات البيضاء تنتشر على الأرض فى كل أنحاء المكان. أخذوا كل ما كان الموتى يرتدون، الدروع والملابس والأحذية وكوموها فى الخيام المنشورة على الأرض. وغسلوا السيوف والحراب والدروع فى مياه الجدول، وكان الجدول يجرى قريبا من الفسطاط فاستحالت مياهه إلى لون الصدأ من مجرد غسل الأسلحة الملوثة بالدماء والدروع فى مياهه. وأخذوا أوعية الشحم التى كنا نحملها معنا وراحوا يدهنونها بالشحم بعد أن جففوها. وكانت إحدى الخيام منشورة على بعد خطوات من الفسطاط، على هذه الخيمة المنشورة رصصوا السيوف، آلاف من السيوف.

وسأله جراكوس:

– كم كان عدد العبيد؟

– سبعمائة، ثمانمائة – ربما ألف، لست أدرى، كانوا يعملون فى جماعات من عشرات. وكانوا يعملون بهمة كبيرة. وأسرج بعضهم عرباتنا التى كانت تحمل الأمتعة وحملوها بما انتزعوه عن جثث الموتى وساقوها أمامهم. وبينما هم يعملون عاد بعض النسوة يحملن سلالا من اللحم المشوى فكانت الجماعات تتوقف عن العمل واحدة فواحدة لتأكل، وأكلوا أنصبتنا من الخبز كذلك.

– وماذا فعلوا بالموتى؟

– لا شىء، تركوهم حيث كانوا يرقدون، وكانوا يتجولون فى أنحاء المكان كما لو كان الموتى غير موجودين هناك على الإطلاق بعد أن فرغوا من نزع كل شىء عنهم. وكان الموتى فى كل مكان. كانوا يغطون الأرض، وكانت الأرض مشربة بالدماء. وكانت الشمس قد طلعت حينذاك فكان ذلك أسوأ ما شاهدت فى حياتى. استطعت عند ذاك أن أرى جماعة من العبيد تقف على أحد جوانب الحقل ترقب ما يدور، كانت الجماعة مكونة من ستة أحدهم أسود، إفريقى، كانوا من المجالدين.

– وكيف عرفت؟

– لأنى استطعت أن أتبين عندما جاءوا إلى الفسطاط، حيث كنت، إنهم مجالدون. فقد كانت رءوسهم محلوقة بالموسى وكانت آثار الجروح تنتشر فى كل مكان من أجسادهم. وليس من العسير أن تتعرف على المجالد، وكانت أذن واحد منهم مقطوعة ولآخر شعر أحمر. لكن قائد الجماعة كان تراقيا له أنف مكسور وعينان سوداوان تنظران إليك دون أن تتحركا أو تطرفا.

عند ذاك طرأ تغيير على أعضاء مجلس الشيوخ تغيير يكاد يكون غير محسوس لكنه موجود مع ذلك. فقد أخذوا يصغون بطريقة جديدة، كانوا يصغون فى كراهية

وتوتر وعنف زائد. جراكوس يذكر تلك اللحظة جيداً فقد كانت هى اللحظة التى برز فيها سبارتاكوس إلى الوجود، خرج إلى الوجود من لا مكان ليهز العالم بأسره. لغيره من الرجال جذور وماض وبداية ومكان وأرض وبلد - أما سبارتاكوس فلم يكن له شىء من ذلك. فقد ولد على شفتى جندى عاش بعد المعركة ودبر سبارتاكوس بقاءه لهذا الغرض بالذات - أن يعود إلى مجلس الشيوخ ليصفه لهم ويعدد صفاته، إنه ليس عملاقا وليس وحشا، وليس رهيبا إنما مجرد عبد، لكن الجندى كان قد شاهد شيئا يحسن أن نذكره بالتفصيل.

- وذكرنى وجهه بالأغنام. كان يرتدى مئزرا وحزاما ثقيلاً من النحاس اللامع وحذاء طويل العنق. لكنه لم يكن يرتدى دروعا أو خوذة. وكان يحمل فى حزامه سكينا كانت هى كل ما يحمل من سلاح. وكانت الدماء تتناثر فوق مئزره. كان وجهه من النوع الذى لا تنساه، وحملنى مظهره على الخوف منه بينما لم أشعر بالخوف من الآخرين، لكن خفت منه.

وكان من المحتمل أن يحدثهم الجندى عن مشاهدته لذلك الوجه فى أحلامه وقيامه من نومه مغطى بالعرق البارد، لمشاهدته ذلك الوجه المسطح الملوح ذا الأنف المكسور والأعين السوداء، لكن لم تكن هذه التفاصيل لمعلوماته بالتى تقدم لمجلس الشيوخ فلم يكن المجلس ليهتم بأحلامه.

- وكيف عرفت أنه تراقى؟

- ميزته من لهجته. فقد كانت لغته اللاتينية رديئة، وقد سمعت التراقيين يتكلمون. وكان واحد من الآخرين تراقيا - وربما كان الباقون من بلاد الغال. ونظروا إلىَّ مجرد نظرة، مجرد نظرة سريعة جعلتنى أشعر أنى ميت مع الآخرين. نظروا إلىَّ نظرة سريعة ومروا من أمامى إلى الجزء الآخر من الفسطاط. كانت جثث الموتى قد أخرجت عند ذاك من الفسطاط وألقيت فى الخارج مع بقية جثث الجنود، لكنهم كانوا قبل ذلك

قد نزعوا كل شيء عن فارينيوس جلابروس وعروه وكوموا كل دروعه وكل ما كان له على أريكته وكان شارة سفارته على الأريكة كذلك. وعاد العبيد وتجمعوا حول الأريكة يتطلعون إلى الدروع ومقتنيات القائد. والتقطوا السيف وفحصوه ومرروه فيما بينهم. كان له مقبض من العاج تغطيه الصور المحفورة على العاج. تطلعوا إليه ثم ألقوا به على الأريكة مرة ثانية. ثم فحصوا شارة السفارة. ثم استدار لى الرجل ذو الأنف المكسور - واسمه سبارتاكوس - ورفع شارة السفارة فى يده وسألنى قائلا: «أيها الرومانى أتعرف ما هذه؟»، فأجبتهم قائلا:

- إنها سلاح مجلس الشيوخ الموقر.

لكنهم لم يدركوا ما أعنيه. فاضطررت إلى أن أفسره لهم. وجلس سبارتاكوس والغالى ذو الشعر الأحمر على الأريكة بينما ظل الباقون وقوفا. ووضع سبارتاكوس ذهنه بين يديه ومرفقيه على ركبتيه وظل مثبتا عينيه علىَّ. أحسست ما يحسه المرء عندما ينظر إليه ثعبان. وعندما فرغت من كلامى لم يقولوا شيئا وظل سبارتاكوس على تحديقه ؟ واستطعت أن أشعر بالعرق يتدفق فوق كل أنحاء جلدى. ظننت أنهم سيقتلوننى. ثم عرفنى باسمه قال:

«اسمى سبارتاكوس. اذكر اسمى أيها الرومانى».

ثم قال سبارتاكوس:

«لماذا قتلتم العبيد الثلاثة بالأمس يا رومانى؟ لم يؤذكم العبيد. لقد هبطوا السفح ليشاهدوا الجنود وهى تمر. وهل كل نساء روما من العفة إلى حد أن يضطر فيلق كامل إلى اغتصاب أمة واحدة مسكينة. لماذا فعلتم ذلك يا رومانى؟»

حاولت أن أروى له ما حدث. قلت له إن الكتيبة الثانية هى التى اغتصبتها وقتلت العبيد. وقلت له إنى كنت فى الكتيبة الثالثة وإنه لم يكن لى يد فى الأمر وإنى لم أغتصب المرأة. ولا أدرى كيف عرفوا بذلك الأمر لأنه لم يبد أنه كان هناك إنسان غيرنا

عندما قتلوا العبيد الثلاثة. لكنهم كانوا يعرفون كل شىء عملناه. عرفوا متى وصلنا إلى كابوا وعرفوا متى بارحناها. كان كل ذلك واضحا فى عينيه السوداوين كعينى الثعبان اللتين لا تطرفان أبدا. كان كل ذلك واضحا فى صوته. ولم يكن يرفع صوته أبدا فقد تحدث إلى كما يتحدث المرء إلى طفل لكنه لم يكن يخدعنى بالحديث إلى بتلك الطريقة. كان قاتلا. كانت عيناه تنطقان بذلك. كانت عيونهم كلهم تنطق بذلك. إنهم كلهم قتلة. أنا أعرف مجالدين من هذا النوع. فالمجالدون يصبحون قتلة. ولا يستطيع أحد غير المجالدين أن يقتل بتلك الطريقة التى قتلوا بها فى تلك الليلة. أنا أعرف مجالدين هم ...

فقاطعه جراكوس. فقد كان الجندى واقعا تحت سحر حديثه الشخصى كرجل فى غيبوبة. قال له جراكوس فى قليل من الحدة:

– لا يهمنا ما تعرفه يا جندى. إنما يهمنا ما دار بينك وبين العبيد.

فبدأ الجندى يقول:

– حدث هذا ...

ثم توقف وعاد إلى يقظته وراح يتطلع إلى وجوه أعضاء مجلس شيوخ روما العظيمة وجها بعد وجه. ثم ارتعد وقال:

– ثم انتظرت أن يعرفونى بما ينوونه بالنسبة لى. فقد جلس سبارتاكوس هناك وهو ممسك بشارة السفارة بين يديه وراح يمرر أصابعه عليها بطولها، ثم دفعها إلىَّ فجأة فلم أدرك أول الأمر ما يعنيه أو ما يريده، ثم قال:

«خذها يا جندى. خذها يا رومانى، خذها»

فأخذتها، وقال:

«أنت الآن سفير مجلس الشيوخ الموقر».

ولم يكن يبدو عليه الغضب. ولم يرفع صوته قط. إنما كان يقرر مجرد حقيقة – أقصد أنها كانت حقيقة بالنسبة له. كان ذلك ما يبغيه ولم يكن فى استطاعتى أن أعمل

شيـئا وإلا لآثرت الموت على أن أمس القضيب المقدس. ما كنت لأمسه فأنا رومانى، أنا مواطن.

فقال جراكوس :

– لن تعاقب على ذلك ، أكمل.

– قال سبارتاكوس مرة ثانية:

«أنت الآن سفير مجلس الشيوخ الموقر. وللمجلس الموقر ذراع طويل وكل ما تبقى على طرفه الآن هو أنت».

فـأخذت القضيب وأمسكت به وظل هو جالسا هناك وعيناه. مثبتتان على ثم سألنى قائلا:

«هل أنت مواطن حر يا رومانى؟»

فأجبته بأنى مواطن، فهز رأسه وابتسم ابتسامة واهنة ثم قال:

«أنت الآن سفير، سأحملك رسالة. احملها إلى مجلس الشيوخ الموقر – احملها إليهم كما أمليها عليك كلمة كلمة».

ثم توقف الجندى عن الكلام وانتظر مجلس الشيوخ وانتظر جراكوس كذلك. لم يرد أن يطلب منه رسالة عبد، ومع ذلك فلا بد للرسالة من أن تقال. لقد خرج سبارتاكوس من لا مكان لكنه الآن يقف وسط قاعة مجلس الشيوخ. ورآه جراكوس عند ذاك كما رآه مرات عديدة فيما بعد حتى وإن كان لم ير سبارتاكوس بلحمه ودمه حيا قط.

وفى النهاية أمر جراكوس الجندى أن يتكلم.

– لا أقدر.

– مجلس الشيوخ يأمرك أن تتكلم.

– كانت هذه كلمات عبد. ليجف لساني قبل..

فقال جراكوس:

– كفاك. قل لنا ما قاله لك هذا العبد لتحمله إلينا

فنطق الجندى بكلمات سبارتاكوس. كان هذا ما قاله له سبارتاكوس بقدر ما يستطيع جراكوس أن يتذكر بعد كل هذه السنين. وكون جراكوس لنفسه، وهو يتذكر، صورة لما كان لا بد من أن يكون عليه الفسطاط، الفسطاط الكبير لقائد رومانى بما فيه من شرائط زاهية زرقاء وصفراء وهو مقام وسط ذلك الحقل المغطى بجثث القتلى العارية، والعبد سبارتاكوس يجلس على أريكة القائد وأركان حربة من المجالدين يتجمعون من حوله ويقف أمامه الجندى الرومانى الجريح المذعور، الوحيد الباقى على قيد الحياة وقد أمسك به عبدان ، وهو يمسك بدوره القضيب الرقيق الذى يمثل القوة، شارة السفارة، درع مجلس الشيوخ.

– قال سبارتاكوس:

«عد إلى مجلس الشيوخ واعطهم القضيب العاجى. لقد اخترتك سفيرا. عد وارْوِ لهُمْ ما شاهدته هنا. قل لهم إنهم أرسلوا كتائبهم ضدنا وإننا قد حطمنا كتائبهم. قل لهم إننا عبيد – ما يسمونهم الآلة الناطقة. الآلة ذات الصوت. ارو لهم ما تقوله أصواتنا، نحن نقول إن العالم قد ضاق بوجودهم، ضاق بمجلس شيوخكم العفن وبروماكم العفنة العالم قد ضاق بالثروة والفخفخة اللتين اعتصرتموهما من دمائنا وعظامنا. العالم قد سئم أنشودة السوط فهى الأنشودة الوحيدة التى يعرفها الرومان النبلاء لكننا لا نرغب فى سماع تلك الأنشودة بعد الآن. كان الرجال سواء فى البداية وعاشوا فى سلام وتقاسموا فيما بينهم ما كانوا يملكون، أما اليوم فيوجد نوعان من الرجال: السيد والعبد. لكن أعدادنا أكثر من أعدادكم، أكثر بكثير. ونحن أقوى منكم

وأفضل منكم. كل ما هو طيب وخير فى البشر موجود فينا. فنحن ندلل نساءنا ونقف إلى جانبهن ونحارب معهن جنبا إلى جنب. أما أنتم فتجعلون من نسائكم عاهرات ومن نسائنا ماشية. نحن نبكى عندما تنتزع أطفالنا من أحضاننا ونخفى أطفالنا بين الأغنام لنستطيع أن نحتفظ بهم وقتا أطول قليلا - لكنكم تربون أطفالكم كما لو كنتم تربون ماشية. أنتم تنجبون الأطفال من نسائنا وتبيعونهم فى سوق العبيد لمن يدفع أغلى ثمن وتجعلون من الرجال كلابا وتبعثون بهم إلى ساحات القتال ليمزقوا أنفسهم إربا كيما تبتهجون. وبينما ترقبنا نساؤكم الرومانيات النبيلات والواحد منا يقتل الآخر، يدللن الكلاب فى حجورهن ويطعمنها اللقمة السائغة الغالية. أى جماعة فاسدة أنتم وإلى أى فوضى قذرة قد أحلتم الحياة. جعلتم من كل ما يحلم به البشر ومن كل ما تنتجه أيدى البشر ومن عرق جباه البشر مادة للسخرية . يعيش مواطنوكم على الصدقة ويمضون أيامهم فى ميادين السباق وساحات القتال. قلبتهم الحياة الإنسانية سخرية وسلبتموها كل قيمتها. أنتم تقتلون حبا فى القتل ومتعتكم الرقيقة هى رؤية الدم يتدفق. تزجون بالأطفال الصغار فى مناجمكم وترهقونهم بالعمل حتى يموتوا فى أشهر قليلة وشيدتم عظمتكم على سرقة العالم بأسره. حسن. لقد انتهى هذا. قل لمجلس شيوخكم إن كل هذا قد انتهى. هذا هو صوت الآلة. قل لمجلس شيوخكم أن يبعث بقواته لقتالنا وسندمر هذه الجيوش كما دمرنا هذا الجيش، وسنسلح أنفسنا بأسلحة الجيوش التى ستبعثون بها إلينا. سيسمع العالم بأسره صوت الآلة - وسنصيح بعبيد العالم أن هبوا وانزعوا عنكم أغلالكم. سنتقدم فى كل إيطاليا. وأينما ذهبنا سينضم إلينا العبيد. وفى يوم من الأيام سنهاجم مدينتكم الخالدة ولن تبقى خالدة حينذاك. قل هذا لمجلس شيوخكم.

قل لهم إننا سنخطرهم بموعد قدومنا، وعند ذاك سنحطم جدران روما. ثم سنذهب إلى البيت الذى يجتمع فيه مجلس شيوخكم وسننتزعهم من مقاعدهم العالية صاحبة السلطان. وسننزع عنهم ثيابهم كى يقفوا عراة وهم يحاكمون كما حوكمنا

نحن على الدوام. لكننا سنتحرى العدالة فى محاكمتهم وسننفذ فيهم العدالة كاملة. سيحاكمون على كل جريمة ارتكبوها، وسيؤدون عنها الحساب كاملا. قل لهم هذا حتى يتاح لهم الوقت ليتأهبوا وليدرسوا أنفسهم، فسندعوهم لأداء الشهادة. ونحن نستمتع بذاكرة ليست سريعة النسيان. وعندما تتحقق العدالة سنقيم مدنا أفضل، مدنا نظيفة جميلة بلا جدران - يعيش فيها البشر معا فى سلام وسعادة. هذه كل رسالتى إلى مجلس الشيوخ. احملها إليهم وقل لهم إنها من عبد يدعى سبارتاكوس».

هكذا نقل الجندى الرسالة، أو هكذا كانت بالتقريب فقد حدث ذلك من زمن بعيد، كما تذكر جراكوس، وهكذا سمعها أعضاء مجلس الشيوخ ووجوههم كالحجر. لكن ذلك حدث منذ زمن بعيد، حدث ذلك منذ زمن بعيد جدا. وقد نسى الجميع القصة بالفعل ولم تدون كلمات سبارتاكوس ولم يعد لها وجود إلا فى ذاكرة عدد قليل من الرجال. إذ استبعدت هذه الكلمات حتى من مضابط مجلس الشيوخ. وكان ذلك حقا. طبعا كان ذلك حقا - تماما كما كان حقا تحطيم تلك التماثيل التى أقامها العبيد وسحقها إلى أحجار صغيرة. كراسوس يفهم ذلك حتى على الرغم من أن كراسوس كان أميل إلى الحمق. فالمرء لا بد من أن يكون أحمق بعض الشىء ليصبح قائداً كبيراً. اللهم إلا إذا كان هذا المرء هو سبارتاكوس لأن سبارتاكوس كان قائداً عظيما. فهل كان أحمق هو الآخر؟ وهل هذه الكلمات كلمات شخص أحمق؟ إذن كيف استطاع شخص أحمق أن يقف فى وجه قوة روما طيلة أربع سنوات طويلة ويحطم الجيوش الرومانية الواحد بعد الآخر ويجعل من إيطاليا مقبرة للفيالق؟ كيف حدث ذلك إذن؟ يقولون إنه مات، لكن غيرهم يقول إن الموتى يحيون. أهذه صورة حية له - التى تتقدم نحو جراكوس - هائل الحجم، عملاق ومع ذلك فهو كثير الشبه به، الأنف المكسور، والعينان السوداوان، والجدائل المتماسكة فوق رأسه؟ هل يمشى الموتى على أقدامهم؟

- ٧ -

قال أنطيونيوس كايوس وهو يبتسم للطريقة التى انحدرت بها رأس السياسى الضخمة إلى الأمام - وظل مع ذلك ممسكا بقدح الماء المعطر متوازنا فلم ترق منه قطرة واحدة وقال :

- انظروا إلى جراكوس العجوز.

فقالت جوليا:

- لا تسخر منه.

فقال شيشرون:

- ومن يسخر من جراكوس؟ لا أحد فى رأيى يا عزيزتى جوليا. سأكافح طيلة حياتى لأصبح على مثل هذا الوقار.

ففكرت هيلينا قائلة لنفسها:

- وستفشل على الدوام قبل الوصول إلى ذلك بمسافة كبيرة.

واستيقظ جراكوس وهو يطرف بعينيه وقال :

- أكنت نائمًا؟

وكان من خصائصه أن يستدير إلى جوليا ويقول لها:

- معذرة يا عزيزتى، كانت أحلام يقظة.

- بأشياء جميلة؟

– بأشياء قديمة . لا أظن أن الذاكرة نعمة للبشر بل هى على الأغلب لعنة عليه. وعندى كثير من الذكريات.

فقال كراسوس:

– لست فى هذا بأكثر منى. كلنا لنا ذكريات وكلها تتساوى فى كآبتها.

فسألته كاوديا قائلة:

– وليس فيها ما هو بهيج قط؟

فهمهم جراكوس يقول:

– ستكون ذكراك يا عزيزتى كضوء الشمس بالنسبة لى حتى يوم مماتى. اسمحى لرجل عجوز بقول ذلك.

فضحك أنطونيوس كايوس وقال:

– وستسمح لشاب بذلك أيضًا. كان كراسوس يحدثنا فى أثناء نومك.

فصاحت جوليا تقول:

– أمن الضرورى ألا تتكلم عن شىء إلا سبارتاكوس؟ ألا يوجد إلا السياسة والحرب؟ أنا أمقت هذا الحديث.

فقاطعها أنطونيوس كايوس قائلا:

– جوليا.

فتوقفت عن الكلام وتراجعت فى عجلة ثم نظرت إليه. كان يخاطبها كما يخاطب الإنسان طفلا مشاكسا. قال:

- جوليا، كراسوس ضيفنا، ويسر المجموعة أن تستمع إليه وهو يحدثنا عن أشياء ليس فى الإمكان معرفتها إلا عن طريقه. وقد يكون فيها ما يسرك أنت كذلك يا جوليا لو أنك أصغيت.

فتصلبت شفتاها واحمرت عيناها وتندتا بالدموع وأحنت رأسها. لكن كراسوس كان كريما فى اعتذاره إذ قال:

- هو حديث يبعث فى نفسى الملل كما يفعل بك تماما يا جوليا يا عزيزتى. سامحينى.

فقال أنطونيوس كايوس:

- أظن أن جوليا ترحب بالإصغاء، ألست كذلك يا جوليا؟ ألا ترحبين بالإصغاء يا جوليا؟

فهمست تقول:

- أجل، أرجو أن تكمل يا كراسوس.

- لا .. لا، على الإطلاق.

فقالت جوليا كما لو كانت تستذكر درسا محفوظا:

- كنت حمقاء وأسأت التصرف. أرجو أن تكمل.

تدخل جراكوس فى الموقف الذى كان يتدهور ليصبح موقفا بالغ السوء. فحول الحديث بعيداً عن جوليا إلى كراسوس إذ قال:

- أنا واثق من أنى أستطيع أن أخمن نظرية القائد. كان يقول لكم إن العبيد كسبوا المعارك التى خاضوها لأنهم كانوا لا يقيمون اعتباراً للحياة الإنسانية فتدفقت جحافلهم علينا وأربكتنا. هل أنا مصيب يا كراسوس؟

فضحكت هيلينا وقالت:

- لا يمكن أن تكون أكثر خطأ.

وسمح جراكوس لنفسه أن يكون أضحوكة وتسامح حتى مع شيشرون عندما قال الشاب:

- كنت دائم الشك يا جراكوس فى أن أى إنسان تصل دعايته فى جودتها إلى مستوى دعايتك، من الضرورى أن يصدقها.

فأقره جراكوس على رأيه قائلا فى تسامح :

- بعض منها فقط. روما عظيمة لأن روما موجودة. سبارتاكوس محتقر لأن سبارتاكوس لم يعد أكثر من رموز العقاب هذه. هو العامل الذى يجب أن يعمل المرء حسابه. ألا توافقنى يا كراسوس؟

فأحنى القائد رأسه موافقا. وقال شيشرون:

- ومع ذلك فقد كسب سبارتاكوس خمس معارك كبيرة. ولست أعنى تلك المعارك التى رد فيها الفيالق على أعقابها- ولا حتى تلك المعارك التى حملها فيها على الفرار. إنما أشير إلى المرات الخمس التى حطم فيها جيوش القناصل ومحاها من الوجود واستولى على أسلحتها. كان كراسوس يريد أن يقول إن سباتاكوس كان قائدا محظوظا أو غير محظوظ - كما ترونه أنتم - لجماعة معينة من الناس، أكثر منه أستاذا ذكيا فى فن إدارة المعارك. كان من المستحيل هزيمة العبيد لأن الهزيمة بالنسبة لهم كانت ثراء لا يقدرون عليه.

أليس هذا ما أردت أن تقول يا كراسوس؟

فأقره القائد قائلا:

- إلى حد ما .

وابتسم لجوليا وقال:

- سأوضح لكم رأيي بقصة ستسرك أنت يا جوليا أكثر منا. فيها بعض من الحرب وبعض من السياسة وشيء عن فارينيا التي كانت امرأة سارتاكوس كما تعلمين.

فأجابته جوليا في رقة قائلة:

- أعرف ذلك.

ونظرت إلى جراكوس في شعور باد وشكر.

وقال جراكوس لنفسه:

- أنا أعرف، أنا أعرف يا عزيزتي جوليا أن كلينا مثير للعطف بعض الشيء، ومضحك بعض الشيء كذلك. والفارق الأساسي بيننا هو أنني رجل وأنت امرأة. فأنت كامرأة لا تستطيعين ادعاء العظمة. لكننا من ناحية الجوهر شيء واحد ففي حياتينا نفس المأساة الفارغة. كلانا يحب الأشباح لأننا لم نتعلم يوما كيف نحب أو كيف نجعل المخلوقات الإنسانية تحبنا.

وقالت كلوديا، ولم يكن أحد يتوقع قولها:

- كنت طول الوقت أظن أن قصتها من نسج خيال أحد الناس.

- لماذا يا عزيزتي؟

فقالت كلوديا مباشرة:

- لأنه لا وجود لمثل هاته النساء.

- لا ؟ حسن. ربما. من العسير أن نقرر ما هو صدق وما هو ليس كذلك. فقد قرأت عن معركة اشتركت فيها أنا بنفسي ولم أجد فيما قرأت إلا قليل القليل من

الحقيقة. هكذا تسير الأمور، وأنا لا أقطع بصدق هذه القصة، ولكن عندى كل الأساب التى تدفعنى إلى تصديقها. أجل أعتقد أنى أصدقها.

وكانت فى صوته رنة غريبة. وأدركت هيلينا فجأة وهى تتطلع إليه فى حدة مدى وسامته. فقد كان فى وجهه القوى الوسيم ووهو جالس هناك فى الشرفة فى نور شمس الصباح ما يذكرها بالماضى الأسطورى للجمهورية الفتية. لكن الفكرة لم ترقها لسبب من الأسباب. فنظرت جانبا إلى أخيها. كان كايوس قد ثبت عينيه على القائد فى نوع من التقديس المدله. ولم يلحظ الآخرون ذلك فقد كان كراسوس يفرض على الحاضرين الانتباه إليه. وكان صوته المنخفض الصادق يمسك بهم ويقيدهم إليه، حتى شيشرون فقد راح ينظر إليه فى وعى جديد. ولاحظ جراكوس من جديد ما كان قد لاحظه من قبل، وهو الخاصية التى يستطيع بها كراسوس أن يثير العواطف فى الآخرين دون أن يحس هو أى انفعال عاطفى. بدأ كراسوس يقول:

– مجرد كلمة عامة كمقدمة للقصة. عندما توليت القيادة كانت الحرب مشتعلة منذ سنوات كثيرة كما تعلمون. والاضطلاع بقضية خاسرة أمر حساس على الدوام. وعندما تكون الحرب ضد العبيد لا يعنى النصر فيها إلا مجداً ضئيلاً لا يغنى وتعنى الهزيمة فيها عارا لا يوصف. وشيشرون محق كل الحق فقد حطم سبارتاكوس خمسة جيوش تحطيما كاملا.

ثم أحنى رأسه لجراكوس وقال:

– وجهة نظرك كثيرة الإغراء لكنك تقرنى على أنى كنت مضطرا إلى النظر إلى الموقف كما كان.

– طبعا.

– وجدت أنه لا توجد قبائل من العبيد. وإذا أردنا أن نتحرى الصدق كاملا فلم يحدث فى مرة واحدة أن لم نفقهم عددا. كان هذا صحيحا فى البداية وكان صحيحا

فى النهاية. ولو أن الظروف أتاحت لسبارتاكوس يوما أن يكون تحت قيادته الثلاثمائه ألف رجل الذين كان من المفروض أن يتولى قيادتهم، لما كنا نجلس هنا اليوم فى هذا الصباح البهيج فى أجمل قصر ريفى فى إيطاليا كلها، ولكان سبارتاكوس قد استولى على روما والعالم بأسره. قد يشك الآخرون فى صحة ذلك. لكنى حاربت سبارتاكوس عددا من المرات يكفى لئلا أشك فيها. أنا أعرف. الحقيقة الكاملة هى أن كتلة عبيد إيطاليا لم تنضم كاملة إلى سبارتاكوس قط. هل تظنون أنهم إذا كانوا كلهم من معدن سبارتاكوس، إننا كنا نجلس هنا على حالنا هذا فى مزرعة يفوقنا عدد العبيد فيها مائة مرة؟ انضم إليه الكثير منهم طبعا، لكنه لم يتول يوما قيادة أكثر من خمسة وأربعين ألف مقاتل - وكان هذا وهو فى ذروة قوته فقط. ولم تكن لديه خيالة قط، كما كان الحال مع هانيبال، ومع ذلك فقد كاد يرغم روما على أن تجثو على ركبتيها بصورة لم يحققها هانيبال - روما التى وصلت إلى قوة كانت تكفى لسحق هانيبال فى معركة واحدة. لا، لم ينضم إلى سبارتاكوس إلا أحسن العبيد وأكثرهم وحشية وأكثرهم بأسا.

كان ذلك شيئا اضطررت إلى أن أتبينه بنفسى. وكنت خجلا من روما لما تبينته من حالة الفزع والوهم التى خلقها هؤلاء العبيد فيها. كنت أبحث عن الحقيقة. أردت أن أعرف على وجه الدقة ما أحاربه، أى نوع من الرجال وأى نوع من الجيوش. أردت أن أعرف السر فى أن أحسن القوات فى العالم التى حاربت كل شىء من الألمان إلى الإسبان إلى اليهود تلقى بسلاحها وتفر من مجرد مرأى هؤلا ء العبيد. كنت قد أقمت معسكرى حينذاك فى بلاد الغال عبر الألب، وكان معسكرا يفكر سبارتاكوس مرتين قبل أن يهاجمه، ثم شرعت فى العمل. وفى قليل من الفضائل لكن إحداها هى الدقة. وأعتقد أنى قد تحادثت مع مائة شخص وقرأت ألف وثيقة. ومن بين هؤلاء كان باتياتيوس متعهد المجالدين وعدد كبير من الجنود والضباط الذين حاربوا ضد سبارتاكوس، وقد روى لى واحد منهم هذه القصة وأنا أصدقها.

وعلق أنطونيوس كايوس قائلا:

– إذا كانت القصة في مثل طول المقدمة فسنتناول غداءنا هنا.

وكان العبيد قد شرعوا بالفعل في إحضار البطيخ المصرى والعنب ونبيذ خفيف للصباح. وكان الجلسة في الشرفة رطبة بهيجة إلى درجة جعلت حتى من عقدوا العزم على مواصلة رحلتهم في ذلك اليوم ليسوا في عجلة من أمرهم.

– هي أطول. لكن الناس تصغى إلى الرجل الغنى.

فقال جراكوس في خشونة:

– أكمل.

– أنا أنوى ذلك. فهذه القصة لجوليا. بعد إذنك يا جوليا.

فأحنت رأسها موافقة. وفكر جراكوس لنفسه قائلا:

– يشك المرء في أنه نافذ البصيرة فإلام يهدف بالله؟

وقال كراسوس وفي صوته رنة خبيثة:

– حدث ذلك في الوقت الذي حطم فيه سبارتاكوس جيشا رومانيا للمرة الثانية. أما المرة الأولى، وهي التي تحطمت فيها كتائب حراسة المدينة، فأظن أن صديقي جراكوس يذكرها جيداً كما نذكرها نحن بالطبع. بعد ذلك بعث مجلس الشيوخ ببليوس لمقاتلته على رأس فيلق كامل، ومن أحسن الفيالق فيما أظن. كان هو الفيلق الثالث، أليس كذلك يا جراكوس؟

– الدقة فضيلتك وليست فضيلتي.

فقال كراسوس:

– أعتقد أني مصيب، وإذا لم أكن مخطئًا فقد صحب الفيلق بعض من خيالة المدينة – فأصبح مجموعهم نحو سبعة آلاف رجل. وأرجو أن تؤمني يا جوليا بأن

حرفة الحرب ليس فيها شيء غامض بالذات. فكسب المال أو نسج قطعة من الكتان تحتاج إلى إعمال الذهن أكثر مما يحتاج إليه المرء ليصبح قائداً ممتازاً. ومعظم من صناعتهم الحرب ليسوا على قدر كبير من المهارة - لأسباب واضحة. أما سبارتاكوس فكان بارعا كل البراعة. كان يعرف بعض قواعد الحرب البسيطة، وكان يعرف مواطن الضعف والقوة فى الأسلحة الرومانية. وهذا أمر لم يعرفه إلا القليل غيره من بينهم هانيبال مع قليل غيره. بينما لا يعرفه فيما أخشى معاصرنا الموقر بومبى.

وسأله شيشرون:

- أمن الضرورى أن نسمع هذه الأسرار العليا؟

- ليست أسراراً عليا أو سرية بالذات. إنما أكررها من أجل جوليا لأن هذه القواعد تبدو شيئًا من المستحيل على الرجل أن يتعلمه. القاعدة الأولى هى ألا تجزأ قواتك قط اللهم إلا إذا كان ذلك ضروريا للنجاة. والقاعدة الثانية هى أن تبدأ بالهجوم إذا كنت ستقاتل، أما إذا كنت لن تبدأ بالهجوم، فتجنب المعركة. والقاعدة الثالثة هى أن تختار زمان ومكان المعركة بنفسك، وألا تترك هذا الاختيار للعدو أبدا. والقاعدة الرابعة هى أن تتجنب أن يحاط بك بأى ثمن. والقاعدة الأخيرة هى أن تهاجم العدو وتحطمه فى أضعف نقطة فيه.

فعلق شيشرون على ذلك بقوله:

- هذا النوع من المبادئ الأولية موجود فى أى كتاب أولى. عن الحرب يا كراسوس ويعوزه العمق إذا جاز لى القول. فالأمر كله على قدر كبير من البساطة.

- ربما . لكن أى شيء على هذا القدر من البساطة يعوزه العمق- أؤكد لك.

وقال جراكوس :

- وكى ما نكمل ما بدأت، ما هذه المواطن للضعف والقوة فى الأسلحة الرومانية ؟

– شىء فى نفس بساطة القواعد، وأنا على ثقة من أن شيشرون سيخالفنى الرأى مرة ثانية.

فقال شيشرون فى خفة:

– أنا تلميذ راغب فى المعرفة عند قدمى قائد كبير.

فهز كراسوس رأسه وقال:

– حقا لا. شيئان يؤمن كل الرجال بأن عندهم موهبة القيام بهما دون إعداد أدراسة، هما تأليف كتاب وقيادة جيش. ولهم فى ذلك سند قوى ما دام مثل هذا العدد المذهل من الحمقى يعمل الشيئين.

ثم أضاف فى أسلوب مفحم:

– وأنا أشير إلى نفسى طبعًا.

فقالت هيلينا:

– هذه مهارة كبيرة منك.

فأحنى كراسوس رأسه لها. على أية حال، كان رأى هيلينا فيه أنه يحفل بالنساء لكنه لا يهتم بهن اهتماما حقيقيا. ومضى كراسوس يقول:

– يمكن تلخيص نواحى الضعف والقوة فى جيشنا نحن فى كلمة واحدة هى النظام. فجيشنا أكثر جيوش العالم نظاما، وقد يكون هو الجيش الوحيد المنظم. فالفيلق الجيد يدرب قواته خمس ساعات كل يوم سبعة أيام فى الأسبوع. والتدريب يعد الجندى لمواجهة سلسلة من الأمور غير المنظورة فى المعركة، لكنه لا يستطيع أن يعده لمواجهة كل شىء. وهذا النظام آلى إلى حد ما. وعندما تطرأ الطوارئ الجديدة يكون ذلك امتحانًا للنظام. ونحن نملك كذلك جيشًا ممتازًا فى الهجوم، كل ميزته هى الهجوم، وأسلحته أسلحة هجوم. وهذا هو السبب فى أن الفيلق يشيد معسكرًا محصنا فى أى

وقت يتوقف فيه لقضـاء الليل. وكعب أخيل، أو نقطة الضعف فى الفيلق هى الهجوم الليلى عليه. وأول قاعدة حربية للجيوش الرومانية هى اختيارنا بأنفسنا لأرض المعركة. لكن هذا ترف لم يسمح لنا به سبارتاكوس إلا فيما ندر. وقد خرق ببليوس كل هذه الآراء البالغة البساطة عندما قاد الفيلق الثالث جنوبا. وهذا مفهوم لأنه لم يكن لسبارتاكوس سوى الاحتقار.

وانضمت ابنتا أنطونيوس كايوس إلى المجموعة فى الشرفة حينذاك. جاءتا تعدوان وقد توردتا من الضحك واللعب والانفعال واحتمتا بين ذراعى جوليا فى الوقت الذى كان كراسوس ينهى فيه كلامه فسمعتا كلماته الأخيرة.

فسألته الابنة الكبيرة قائلة:

– هل كنت تعرف سبارتاكوس؟ هل رأيته؟

فابتسم كراسوس وقال:

– لم أره قط، لكنى كنت أحترمه يا عزيزتى.

وراح جراكوس يقشر تفاحة فى رصانة وهو يتأمل كراسوس وقد ضيق عينيه. لم يكن يحب كراسوس وتذكر أنه لم يقابل رجلا عسكريا قط أحس نحوه بأية حرارة أو حب. وأمسك بقشرة التفاحة سليمة فى شريحة واحدة طويلة فصفقت الفتاتان الصغيرتان بأيديهما حبوراً وحاولتا أخذها لكن جراكوس أصر على أن تتمنى كل منهما شيئًا أولا. ثم قال:

– ثم اطويا القشرة حول الأمنية فالتفاحة تحوى كل المعرفة.

فعلقت جوليا قائلة:

– ودودة فى بعض الأحيان. كانت هذه القصة عن فارينيا يا كراسوس.

– سنقابلها وشيكا. إنما أصور ظروف القصة ليس إلا. كان سبارتاكوس ما زال معسكرًا فى منطقة جبل فيزوف فى ذلك الوقت. وقسَّم ببليوس، بحماقته، قواته إلى

ثلاثة أقسام، ضم كل قسم منها أكثر من ألفى رجل، وبدءوا يضربون فى تلك المنطقة الوعرة بحثًا عن سبارتاكوس. فمحا سبارتاكوس جيش ببليوس من الوجود فى ثلاثة التحامات منفصلة. وكان يعمل نفس الشىء فى كل مرة يحصرهم فى مضيق، ضيق بين جبلين حيث لا تستطيع الفصائل أن تنتشر ويحطمها. على كل حال حدث فى إحدى هذه المرات أن تمكنت كتيبة كاملة من الخيالة وجزء كبير من كتيبة مشاة من أن يشقا طريقهما خارجين من الحصار، والمشاة تتعلق بأذيال الجياد والجياد تجرى هاربة من الجحيم. وأنت إذا عرفت كيف كان العبيد يقاتلون، لعرفت أنهم ما كانوا ليسمحوا لمثل هذا الشىء بصرفهم عن المعركة. فقد كانوا يركزون اهتمامهم على ما بين أيديهم وهذا ما فعلوه. فتقهقرت المئات الثمانية أو التسعة من المشاة والخيالة إلى الغابات وضلت طريقها حتى وصلت إلى معسكر العبيد حيث النساء والأطفال. أقول معسكراً، لكنه كان أقرب إلى القرية الصغيرة. إذ كان يحيط به خندق وحائط من القذراة فوق قمته سياج من الخشب. ولا بد من أن عدداً كبيراً من الجنود الفارين من الفيالق كان قد انضم إلى سبارتاكوس لأن ذلك المعسكر كان مشيداً بنفس الطريقة التى نقيم بها معسكراتنا إذ كانت الأكواخ فى الداخل مقامة على شوارع مستقيمة منتظمة. حسن. كانت أبواب المعسكر مفتوحة وعدد من الأطفال يلعبون خارجها وبعض النساء يرقبنهن. ويجب أن تدركوا أن الجنود عندما تحل بهم الهزيمة ويفرون يفقدون معظم الاعتبارات الخلقية. وأنا لا أصدر أحكاما على من يقتلون العبيد سواء كانوا أطفالا أو نساء أو رجالا. فلدينا من الأسباب ما يكفينا لكراهية القذارة. وكان أولئك الجنود يطفحون بالكراهية، فانقضوا على المكان، وطعن الفرسان الخيالة الأطفال بالحراب كما نفعل بالأرانب، وقتلوا كذلك فى هجمتهم الأولى عدداً من النساء. لكن غيرهن من النساء هجمن على الجنود ثم تدفقت النسوة اللائى كن فى القرية خارجات من باب المعسكر مسلحات بالمدى والسيوف والحراب. لست أدرى ماذا كان يدور بخلد الجنود، أكثر من الكراهية والرغبة فى الانتقام. كان من الممكن، فيما أعتقد، أن يقتلوا بعض النسوة ويغتصبوا الأخريات. وتذكرون أن شعوراً سيئا للغاية نحو العبيد كان يسود البلد كلها فى ذلك

الوقت. أما قبل عهد سبارتاكوس، فلو أن رجلا قتل إحدى إمائه، ما كان ليستطيع أن يخرج إلى الطريق مرفوع الرأس. فقد كان ذلك يعتبر عملا يحط من الكرامة مهما كانت الأحوال. وكانت غرامة كبيرة تفرض على سيد الأمة المقتولة لو أمكن إثبات أن القتل كان بلا سبب. لقد غيروا هذا القانون منذ ثلاث سنوات، أليس كذلك يا جراكوس؟

فقال جراكوس دون بهجة:

– كذلك. لكن استكمل قصتك. كانت عن فارينيا.

– صحيح ؟

وبدا على كراسوس لحظة أنه قد نسى ذلك. وكانت جوليا تنظر من فوق أكتافه إلى المروج. ثم قالت لطفلتيها.

– هيا اجريا الآن .. اجريا والعبا.

وأرادت كلوديا أن تعرف بقية القصة فسألته:

– أتعنى أن النسوة قاتلن الجنود.

فأحنى كراسوس رأسه موافقا.

– هذا هو بيت القصيد. إذ دارت معركة رهيبة هناك أمام باب المعسكر. نعم ، لقد قاتلت النسوة الجنود. فجن الجنود ونسوا أنهم إنما يقاتلون نساء. وأظن أن المعركة دامت نحو ساعة. وكانت تقود النسوة، كما جاء فى القصة، تلك المتوحشة ذات الشعر الأصفر التى كان المفروض أن تكون فارينيا. كنت تجدها فى كل مكان، وتمزقت ثيابها وقاتلت بالحربة وهى عارية. كانت كاسرة كإحدى آلهات الانتقام.

فقاطعه جراكوس قائلا:

– أنا لا أصدق شيئًا من هذا.

فأحنى كراسوس رأسه وهو يدرك أن قصته قد فشلت فشلا مؤسفا وقال:

– لا حاجة بك إلى تصديقها إذا لم ترد، فأنا لم أروها إلا لجوليا.

فسألته جوليا قائلة:

– ولماذا لى أنا؟

وقالت هيلينا وهى تحدق إليه بإمعان:

– أرجــو أن تكمل القصة سواء كانت صادقة أو غير صادقة. إن لها نهاية. أليست كذلك ؟

– نهاية عادية. فلكل المعارك نفس النهاية أساسا. فأنت إما أن تكسبيها وإما أن تخسريها. وقد خسرنا هذه المعركة. إذ عاد بعض العبيد ولم يفر من براثنهم وبراثن النساء إلا حفنة من الخيالة عادت لتقدم تقريرها عما حدث.

– لكن فارينيا لم تقتل؟

– لو كانت تلك المرأة هى فارينيا فهى لم تقتل بكل تأكيد لأنها ظهرت بعد ذلك مرات ومرات.

وسألته كاوديا:

– وهل ما زالت على قيد الحياة حتى الآن؟

فأعاد كراسوس قولها:

– هل ما زالت على قيد الحياة حتى الآن ؟ لا أهمية لذلك. أليس كذلك؟

عند ذاك نهض جراكوس وألقى بعباءته إلى الخلف فى إيماءة مميزة ومشى فى تثاقل مبتعداً. وساد الصمت لحظات. ثم قال شيشرون يسأل:

– ما الذى يضايق الرجل العجوز؟

– الله وحده يعلم.

وأرادت هيلينا أن تعرف فقالت:

– لماذا تقول إنه ليس من المهم هل فارينيا على قيد الحياة حتى الآن؟

فقال كراسوس مباشرة :

– لأن الأمر كله قد انتهى. أليس كذلك؟ سبارتاكوس قد مات، وفارينيا أمة، والسوق فى روما متخم بهن. فارينيا وعشرة آلاف من مثيلاتها .

وامتلأ صوته بالغضب فجأة.

واعتذر أنطونيوس كايوس وقام يلحق بجراكوس فقد أزعجه أن يتخاصم رجلان مثل جراكوس وكراسوس وهما من تربط بينهما السياسة على لا شىء على الإطلاق. وهو لم يعرف عن جراكوس قط مثل هذا السلوك من قبل. وتساءل، أيمكن أن يكون الخصام حول جوليا؟ لا . ليس بالنسبة لجراكوس، ليس بالنسبة لجراكوس العجوز السمين.

ووجد جراكوس يجلس مكتئبا فى بيت النباتات الزجاجى، فمشى إلى صديقه القديم ولكزه فى رقة وهو يقول:

– لا عليك – أيها العجوز – لا عليك .

فقال جراكوس :

– فى يوم من الأيام سيثبت أن العالم أصغر من أن يضم كراسوس وجراكوس.

الجزء السادس

ويتضمن قصة الرحلة التى قام بها فريق من المجتمعين فى فيلا سالاريا إلى كابوا، وبعض التفاصيل عن تلك المدينة الجميلة وكيف شهد المسافرون صلب آخر المجالدين .

- ١ -

فى ذلك اليوم نفسه ودع شيشرون وجراكوس الموجودين وسافرا إلى روما. أما كراسوس وجماعة كايوس من الشباب فقد أمضوا يوما آخر فى فيلا سالاريا بناء على نصح أنطونيوس. واتفقوا على أن يرحلوا فى صباح اليوم التالى مبكرين، ويقطعوا بذلك فى يومهم شقة طيبة من الطريق. وكان كراسوس قد اقترح بالفعل على كايوس أن يسافروا جماعة، فابتهجت هيلينا وكاوديا لفكرة السفر فى رفقة القائد الشهير.

تركوا الضيعة بعد شروق الشمس بقليل، فكونت المحفات الأربع، ومختلف الأتباع، وحملة الأمتعة موكبا ضخما على الطريق وعندما وصلوا إلى الطريق الأبيوسى، صحب كراسوس حرس شرف مكون من عشرة من جنود الفيالق. فقد كان كراسوس مدعوا إلى كابوا لحضور الاحتفالات التى تقام احتفالا بإخماد ثورة العبيد نهائيا فى المكان الذى نشبت فيه الثورة نفسها. وكانوا قد انتخبوا مائة من المجالدين من بين من أسروهم بعد هزيمة سبارتاكوس وموته، ومنذ أسابيع والاحتفال بقتال المجالدين فيما بينهم قائم. وكان قتال المجالدين فيما بينهم يجرى على أساس التصفية التى لا يبقى بعدها إلا مجالد واحد. فكلما تقاتل اثنان جمعوا بين الواحد الباقى ومجلد آخر، فكانت رقصة للموت لا تكاد تعرف النهاية.

وقال كايوس :

– أعتقد أنكم كنتم ترغبون فى مشاهدتها.

وكانت المحفات الأربع تسير جنبا إلى جنب ليتمكنوا من تبادل الحديث فى أثناء تقدمهم على الطريق. وكان جنود الفيالق يبعدون حركة المرور القادمة من الاتجاه المضاد إلى حافة الطريق.

وكان الناس عندما يرون حجم وثراء الموكب يسلمون بأفضليته في حق المرور.

كان كايوس وكراسوس يجلسان جنبا إلى جنب، وكلوديا إلى جانب كراسوس، أما هيلينا فقد جلست إلى جوار أخيها. وكان كراسوس قد اعتبر نفسه مضيفًا لهم نظراً لسنه ولمشاعر معينة كان يحسها نحوهم. وكان عبيده مدربين خير تدريب، وكان قد أعد العدة لتلبية احتياجات ورغبات رفاقه، حتى والمحفات تتقدم على الطريق الرائع، سواء كانت نبيذا جديدا مثلجا رائعًا من نبيذ اليهودية، أو عنبا مصريا ريان، أو ريشة من العطر لتنقية الجو لهم. وكان، شأنه شأن كثير من كبار الأغنياء، يكثر من التفكير تفكيرا ماديا تجاه أبناء طبقته الاجتماعية. ومن هنا قام بدور الضيف والرفيق والدليل لهم.

وقال ردا على سؤال كايوس:

– لا . وقد يدهشك هذا يا كايوس، لكنى أكاد أكون قد فقدت لذة مشاهدة قتال المجالدين الآن. أجل، في بعض الأحيان إذا كان المجالدون المتقاتلون بارعين ومن نوع خاص. لكني أخشى ألا تفلح هذه التصفيات بين المجالدين إلا فى بعث الملل إلى نفسى.

لكنى لو علمت أنك راغب فى مشاهدتها.

– ليست بذات بال.

فقالت كلوديا:

– لكن التصفية تسفر عن واحد فى النهاية.

– ليس ضروريا. فمن الممكن أن يصاب آخر اثنين بجراح عميقة.

لكن من المتحمل إلى حد كبير، إذا تبقى واحد من المجالدين أن يصاب، من باب الرمز، أمام أبواب المدينة. وللمدينة سبعة أبواب كما تعلمون. وعندما نصبوا رموز العقاب، بدءوا بسبعة صلبان: واحد أمام كل باب. وسيحل من تبقى محل الجثة

المصلوبة أمام الباب الأبيوسى.

ثم سأل كلوديا قائلا:

– هل سافرت إلى كابوا من قبل؟

– لا. لم أذهب.

– إذن ففى انتظارك مجال كبير للمشاهدة. فهى مدينة كثيرة الجمال، بل إنى لأظن فى بعض الأحيان أنها أجمل مدينة فى العالم بأسره. فعندما يكون اليوم مشرقا، ترين من فوق الأسوار الخليج الرائع وقمة جبل فيزوف البيضاء على بعد. أنا لا أعرف لها مثيلا. وأنا أملك بيتا ريفيا صغيرا هناك، ويسعدنى أيما سعادة أن تنزلوا كلكم ضيوفا على.

فشرح له كايوس أن خاله الكبير فلافيان يتوقع مجيئهم وأنهم لا يستطيعون تغيير مشاريعهم الآن.

فقال لهم فى كرم:

– أعلى أية حال، نستطيع أن نتقابل. ستكون الأيام القليلة الأولى مملة. لكننا نستطيع، بعد أن تنتهى احتفالات الترحيب الرسمية، وإلقاء الكلمات، وبقية الأشياء، أن نمضى تسع ساعات فى الخليج فى قارب شراعى – فهذا سيد أنواع الرياضة كما تعلمون. وقد نقوم برحلة. وسنمضى بعد ظهر أحد الأيام بين مصانع العطور قطعا. إذ لا يمكن الفصل بين كابوا وعطورها. وأنا أملك نصيبا فى مصنع هناك، وعندى فكرة عن فن العطور.

ثم قال فى كرم أصيل:

– وسيكون من دواعى بهجتى أن أقدم لكم أى عطر ترغبون فيه.

فقالت هيلينا:

- أنت كثير الطيبة.

- فلنقل إن الطيبة لا تكلفنى إلا القليل جدا، وتعود على بأحسن الجزاء، على أية حال، أنا أحب كابوا وكنت دائم الفخر بها، فهى مدينة قديمة ممعنة فى القدم. قد لا تعرفون أن هناك أسطورة تقول إن الأتراسكانيين أقاموا اثنتى عشرة مدينة فى هذا الجزء من إيطاليا - وأسموها الجواهر الاثنتى عشرة فى العقد الذهبى. وكان اسم واحدة منها فولتورنوم، ومن المفروض أنها هى التى أصبحت اليوم كابوا الحديثة. هذه مجرد أسطورة طبعًا. وأعاد السمنيون الذين استولوا عليها من الأتراسكانيين منذ نحو ثلاثمائة وخمسين سنة مضت بناء غالبيتها - وعندما استولينا عليها منهم، أقمنا أسوارا جديدة، وشققنا الشوارع الجديدة فى كل مكان. إنها مدينة تفوق روما جمالا إلى حد كبير.

ومضوا فى سفرهم على الطريق الأبيوسى. وكانوا حينذاك لا يبدون إلا اهتمامًا قليلاً، أو لا يبدون اهتماما قليلاً، أو لا يبدون اهتماما على الإطلاق برموز العقاب. وعندما كانت الريح تهب حاملة إليهم رائحة اللحم المتعفن، كانت ريشة من العطر تعطر الهواء، إلا أنهم كانوا فى معظم الوقت لا يتطلعون إلى الصلبان إلا لماما. ولم يقع من الحوادث ما له أهمية عدا حركة المرور العادية على الطريق. وأمضوا ليلتين فى فنادق الريف. وليلة فى إحدى المحطات المقامة عند نهاية كل ميل، وكانت بالغة الفخامة. ووصلوا فى النهاية إلى كابوا بعد مراحل من السفر مريحة.

- ٢ -

كانت كابوا فى حالة فرح واحتفال، مدينة فى قمة شهرتها ومجدها وثرائها - بعد أن محت عن جبينها لطخة حرب العبيد نهائيا. وكان اثنا عشر ألف علم يتطاير فوق أسوار المدينة البيضاء. وكانت الأبواب السبعة الشهيرة مفتوحة على مصراعيها، فقد عم السلام ولم يعد للخوف وجود. وكانت أنباء قدومهم قد سبقتهم، فاجتمع عشرات من أعيان المدينة للترحيب بهم، وعزفت فرق موسيقى المدينة المكونة من مائة وعشر آلات موسيقية من الآلات النحاسية والصفارات والطبول، عزفت التحية لهم، ورافقتهم كتيبة حراسة المدينة الغارقة فى الدروع المطلية بالفضة وهم يدخلون من الباب الأبيوسى. كان ذلك الحدث عظيم الإثارة بالنسبة للفتاتين، وحتى كايوس، رغم تظاهره بعدم المبالاة، أثاره الترحيب غير العادى الحافل بالمباهج الذى تقاسموه مع رفيقهم الشهيد. وما إن دخلوا إلى المدينة، حتى افترقوا عن كراسوس وذهبوا إلى بيت أقربائهم، إلا أن دعوة من القائد وصلت إليهم بعد ساعات قليلة يدعو فيها كايوس وأخته وصديقتها وأسرته كذلك ليكونوا ضيوف كراسوس فى المأدبة الرسمية التى ستقام مساء اليوم نفسه. وتاه كايوس كبرياء وفخرا إذ أصبح محط عناية ورعاية القائد، وظل كراسوس طيلة المأدبة الطويلة الباعثة على الملل يبدى لهم ألوانا من الرعاية والحفاوة. ولم يذق كايوس وكلوديا وهيلينا إلا القليل من ألوان الطعام الخمسة والخمسين التى قدمت تقديراً لمكانة القائد المرموقة ومجده. وكانت كابوا ما زالت تتمسك بالتقاليد الأتراسكاتية القديمة فى طهى الحشرات طهيا بارعا لذيذا. لكن كايوس لم يستطع أن يقنع نفسه بالاستمتاع بالحشرات حتى وهى مقرية فى العسل أو بعد حشوها فى

فطائر رقيقة مع لحم الكركند المقرى. وكان من بين مظاهر الاحتفال فى ذلك المساء رقصة جديدة وضعت خصيصا احتفالا بكراسوس.

وكانت اللوحات تؤدى بإخلاص كبير فى الرقصة البالغة الروعة التى دامت ساعة. وعندما انتهت الرقصة بذبح العبيد فى النهاية، تناثرت الزهور البيضاء هابطة كالثلج من سقف القاعة الكبيرة.

ولاحظت هيلينا أن كراسوس أخذ يقلل من الشراب مع تقدم المساء مع أن المئات العديدة من الأضياف فى المأدبة كانوا قد بلغوا حالة بينة من السكر. فكان يكتفى بتذوق النبيذ ولم يذق الشراب القوى المصنوع من البرقوق الذى اشتهرت كابوا بصنعه والذى كانوا يقطرونه كما يقطرون عطورهم ذات الشهرة العالمية. وكان القائد مزيجا غريبا من خشونة الطبع والرغبات الحسية. وكانا يكثران عند ذاك من تبادل النظرات، وكانت الصفتان واضحتين فى عينيه. أما كايوس وكاوديا، من الناحية الأخرى، فكانا فى قمة السكر.

وانتهت المأدبة فى وقت متأخر جدا، لكن هيلينا كانت تحس ميلا غريبا عنيدا إلى مشاهدة مدرسة لنتولوس باتيانوس، المكان الذى شهد البدايات الأولى لثورة العبيد. وسألت كراسوس هل يوافق على أن يأخذهم إليها ويكون دليلهم ومرشدهم. وكانت الليلة رائعة رطبة عطرة مليئة برائحة زهور الربيع التى كانت قد أينعت فى كل أنحاء المدينة. وكان قمر أصفر كبير قد أخذ لتوه فى الطلوع فى السماء، فلن يجدوا مشقة فى تبين طريقهم فى الظلام.

كانوا يقفون فى الساحة العامة، يحيط بالقائد جمهرة من الناس وكان عليهم كذلك أن يحلوا مسألة انتزاع الفتاتين من أسرة هيلينا فى ديبلوماسية. لكن هيلينا حثت كايوس على أن يقوم بدور الرفيق الحارس. وكان كايوس فى حالة من السكر شديدة إلى حد أنه وافق بكل استعداد. ووقف يترنح قليلا ويتطلع إلى كراسوس بعينين كلهما

تقديس. وتمكن القائد من التخلص من الرسميات. وبعد فترة قصيرة كانوا فى محفاتهم فى طريقهم إلى الباب الأبيوسى وحيا الحراس الواقفون بالباب القائد، ومازحهم هو بعض الشىء ووزع عليهم حفنة من النقود الفضية وسألهم كذلك عن الطريق .

فسألته هيلينا قائلة:

– إذن فأنت لم تذهب إلى هناك من قبل؟

– لا .. لم أر المكان قط.

فعلقت هيلينا قائلة:

– يا للغرابة. أظن أنى لو كنت فى مكانك لرغبت فى مشاهدة الطريقة التى تتداخل بها حياتك وحياة سبارتاكوس فى هذه النقطة .

فقال كراسوس فى هدوء.

– حياتى وموت سبارتاكوس.

وقال لهم قائد الحرس على باب المدينة:

– لم يتبق من المدرسة الكثير. كانت عملية استغلال ضخمة قام بها المتعهد القديم. وكان من الواضح أنه فى طريقه إلى أن يصبح مليونيراً. لكن سوء الحظ اختفى أثره بعد الثورة. وعندما قتله واحد من عبيده، وقعت المدرسة فى منازعات قضائية لم تنته حتى اليوم، وانتقلت غيرها من المدارس الكبيرة إلى المدينة، واستأجرت اثنتان منها منازل سكنية.

وتثاءبت كلوديا ونام كايوس فى محفته. وتابع قائد الحرس حديثه مبتهجا.

– جاء فى تاريخ الثورة الذى كتبه فلاكيوس مونايا وصف لمدرسة باتياتوس على أنها فى قلب المدينة. ونحن الآن نقود السياح إليها. وصدقونى، إن كلامى لا قيمة له

إلى جانب كلمات مؤرخ. ولكن العثور على مدرسة باتياتوس أمر يسير جدا. اتبعوا هذا الممر الصغير على طول الجدول، وهذا القمر الذى يضىء الدنيا ويجعلها نهاراً، فلن تخطئوا المجتلد، والمنصة الخشبية الكبيرة عالية واضحة.

ومر من باب المدينة فى أثناء حديثهم جماعة من العبيد يحملون أرفاشا ومعاول، ويحملون كذلك سلما وسلة من القش المجدول. وذهب العبيد إلى حيث يقوم الصليب الكبير أول رموز العقاب وأكثرها رمزية، أول الصلبان التى بلغ عددها ستة آلاف، والتى قامت على الطريق إلى روما. وعندما أسندوا السلم إلى الصليب تطاير سرب من الغربان غاضباً مبتعداً.

وسألت كلوديا فجأة:

– ماذا يفعلون؟

فأجابها قائد حرس الباب فى لهجة عرضَية:

– ينزلون كلبا كى نرفع كلبا آخر فى مكانه. ففى الصباح سينال العبد الباقى من «القتال بلا نهاية» نصيبه من التشريف تبعًا لحقوقه. فوق هذا الصليب سيموت آخر عبد كان مع سبارتاكوس.

فارتعدت كلوديا وقالت لكراسوس:

– لا أظن أنى راغبة فى الذهاب معكم.

– لك أن تعودِ إلى البيت إذا أردت.

ثم سأل قائد الحرس قائلا:

– هلا بعثت معنا باثنين من رجالك؟

لكن كايوس ذهب معهما وهو نائم مستريح يشخر. وأرادت هيلينا أن تسير على قدميها، فأحنى كراسوس رأسه موافقًا وترك محفته ليسير إلى جوارها. وسبقتهما

المحفات وتبعها الرجل المالى الكبير القائد والمرأة الشابة يسيران معا فى ضوء القمر. وعندما مرا بالصليب ، كان العبيد ينزلون البقايا العفنة التى لوحتها الشمس ونهشتها الطيور للرجل الذى مات على الصليب، وكانت جماعة أخرى من العبيد تحفر حول قاعدة الصليب وتدق أوتاراً لتساعد على استقامة الصليب وتقويته.

وسأل كراسوس هيلينا قائلا:

– ألا شىء يزعجك حقا؟ أليس كذلك؟

– ولماذا يزعجنى شىء مثل هذا؟

فهز كراسوس كتفيه وقال:

– لم أقصد بقولى هذا أن أنتقدك كما تعلمين. إنما أظن أنه أمر مثير للإعجاب إلى حد كبير.

– ألا تكون المرأة امرأة؟

فأجابها كراسوس وهو لا يريد أن يلتزم برأى:

– أنا أقبل العالم الذى نعيش فيه، فأنا لا أعرف عالما غيره أتعرفين أنت؟

فهزت هيلينا رأسها دون أن تجيب وواصلا السير معا. لم تكن المسافة إلى المدرسة كبيرة، وكانت المنطقة، الجميلة فى ضوء النهار، قد استحالت تحت ضوء القمر إلى منطقة شاعرية كأرض الأساطير الخرافية، واستطاعا فى تلك اللحظة أن يشاهدا على مبعدة أمامهما جدار المجتلد. فأمر كراسوس حملة المحفات بجمع المحفات معا، والبقاء إلى جانبها حتى يعود. وسار هو وهيلينا.

كان المكان صغيراً حقيراً فى خوائه. وكان الكثير من حديد السور المحيط بأرض التمرين قد سرق. وكان البلى قد دب بالفعل فى الألواح الخشبية، وانهار نصف حائط المجتلد. وقاد كراسوس هيلينا فوق الرمال، ووقفا هناك يتطلعان إلى المنصة الكبيرة. وبدا المجتلد صغيراً رثا للغاية، لكن الرمال كانت كاللجين فى ضوء القمر.

وقالت هيلينا:

- سمعت أخى يتكلم عن هذا المكان لكنه أطنب فى امتداحه بينما يبدو الآن على هذا القرار من الضآلة.

وحاول كراسوس أن يربط فى ذهنه بين ميادين الموت، والمعارك الدموية، والحملات الساحقة التى لا نهاية لها، وبين هذه المدرسة الصغيرة الرثة، لكنه لم يستطع. إذ لم يعن ذلك شيئًا بالنسبة له ولم يحس هو رغبة فى ذلك.

وقالت هيلينا:

- أريد أن أصعد إلى المنصة.

- كما تشائين. لكن بحذر. فقد يكون الخشب متآكلا.

وشقا طريقهما صاعدين إلى المقصورة التى كانت فخر باتيانوس ومبعث بهجته فى يوم من الأيام، وكانت المظلة المخططة تتدلى فى أسمال خلقة، وانطلقت الجرذان هاربة من بقايا الحشيات القديمة. وجلست هيلينا فوق إحدى الأرائك، وجلس كراسوس إلى جوارها، ثم قالت هيلينا:

- ألا تشعر بأى شىء نحوى؟

فأجابها كراسوس قائلا:

- أشعر بأنك سيدة شابة كثيرة الجمال والذكاء.

فقالت هى فى هدوء:

- أما أنا فأشعر أيها القائد الكبير بأنك خنزير.

فانثنى نحوها، فبصقت فى جمع وجهه واستطاعت أن ترى رغم ضعف الضوء، كيف أضاء الغضب عينيه. هذا هو القائد، وهذا هو الانفعال الذى لا يظهر أبدا فى

حديثه. وأهوى عليها بيده، وقذفت بها الضربة من فوق الأريكة، فاصطدمت بالسور البالى الذى انشق تحت ثقل جسمها. ورقدت هناك ونصفها مدلى فوق حافة الشرفة على ارتفاع عشرين قدما عن أرض المجتلد لكنها تماسكت وشدت نفسها إلى الأمام.

وظل القائد ساكنا فى مكانه. ثم انقضت عليه كقطة متوحشة، تخدش وتخمش، لكنه أمسك برسغيها وأبعدها عنه وهو يبتسم لها فى هدوء ويقول:

– الشىء الحقيقى يختلف عن هذا يا عزيزتى، أنا أعرف.

وانتهت ثورة الغضب والعنف وطفقت تبكى. راحت تبكى كفتاة صغيرة أفسدها التدليل.

وأزالت الكحل الأسود الذى سال نازلا على خدودها فى أثناء البكاء. ثم عادت إلى المحفات، وزحفت إلى محفتها فى صمت. وسار كراسوس على قدميه.

وانطلق حملة المحفات عائدين على الطريق الصغير المؤدى إلى كابوا. وكان كايوس ما زال نائما. كان الليل قد تجاوب نهايته وبدأ القمر يفقد تألقه اللامع. وبدأ نور جديد يغمر الأرض. وعما قليل يمزج السحاب الرمادى الشامل ضوء القمر بضوء النهار.

وشعر كراسوس، لسبب ما، بهزة متجددة من الحياة والقوة. وغمره شعور لم يجربه إلا نادراً، شعوراً بالحياة والحيوية قوى إلى حد كاد يدفعه إلى تصديق الأساطير القديمة التى تزعم أن هناك صفوة مختارة من البشر تضع الآلهة بذورها فى نساء البشر. وفكر لنفسه قائلا: أليس من الممكن أن يكون هو واحداً من هؤلاء! لنضع فى اعتبارنا فقط كيف حابته الحياة. لماذا لا يمكن إذن أن يكون هو واحداً من هؤلاء؟

وقادته خطواته الواسعة إلى جوار محفة هيلينا، فنظرت إليه فى استغراب وقالت:

– ماذا كنت تعنى منذ فترة عندما قلت لى إن الشىء الحقيقى يختلف؟ ألست إنسانة حقيقية؟ لماذا قلت مثل هذا الشىء الرهيب؟

– أكان رهيبًا إلى هذا الحد؟

– أنت تعلم كم كان رهيباً. ما الشىء الحقيقى؟

– المرأة.

– أية امرأة؟

فتغضن جبينه وهز رأسه. وجاهد فى بسالة ليحتفظ بشعوره بالعظمة، فاستطاع الاحتفاظ بقدر كبير منه وترك محفتها عند الباب الأبيوسى، وذهب إلى قائد حرس الباب وقال له فى شبه جفاء:

– ابعث معها فصيلة من الجنود لتوصيلها حتى بيتها فى سلام.

فأطاع القائد، ورحلت هيلينا فى رعايتهم، دون حتى تحية المساء. ووقف كراسوس يفكر، فى الظل القاتم للباب. وراح قائد حرس الباب والقوات المنوط بها حراسته يرقبونه فى حب استطلاع، ثم سأل كراسوس:

– ما الوقت الآن؟

– الساعة الأخيرة على وشك النهاية. ألست متعباً يا سيدى؟ فقال كراسوس:

– لا لست متعبا، لست متعبا على الإطلاق أيها القائد.

ورق صوته بعض الشىء ثم قال :

– لقد مضى وقت طويل منذ أن وقفت مثل وقفة الحراسة هذه.

فأقرّه قائد الحرس قائلا:

– الليالى طويلة جدا. بعد نصف ساعة من الآن، سيصبح هذا المكان مختلفا تمام الاختلاف. سيدخل تجار الخضراوات، وباعة اللبن يجرون أبقارهم، والحمالون، وصيادو السمك، ومن على شاكلتهم بلا انقطاع. هذا باب كثير الزحام. وفى هذا الصباح يصعد المجالد هناك.

وأشار برأسه إلى الصليب الذى كان قد أصبح عند ذاك لا يكاد يبين، رمادي اللون، ونصف ظاهر فى عتمة الصباح . وسأله كراسوس:

– هل يزدحم خلق كثير؟

– حسن ، يا سيدى – لن يشتد الزحام فى البداية، ولكنه سيزداد مع تقدم النهار. ويجب أن أعترف أن لمشاهدة رجل مصلوب سحرا خاصا . وعندما يحل ظهر اليوم، سيزدحم الباب والأسوار المحيطة بنا هنا ازدحامًا شديداً. قد تظن أن فى مشاهدة الصلب مرة واحدة الكفاية ، لكن ما يحدث غير هذا.

– ومن الرجل؟

– هذا ما لا أعرفه. مجرد مجالد بقدر ما أعرف. مجالد قوى جدا فيما أعتقد. وأكاد أشعر بالأسف على الشيطان التعس.

فقال له كراسوس:

– وفر أسفك أيها القائد.

– لم أقصد ذلك يا سيدى. إنما قصدت فقط أن المرء يحس شيئا على الدوام نحو المتبقى من التصفية.

– لو أنك تتذوق الاحتمالات الحسابية، لعرفت أن عملية تصفيتهم بدأت منذ زمن بعيد، ومن الضرورى أن يكون لها رجل آخر.

– أظن ذلك .

وانتهت الساعة الأخيرة. وبدأت الساعة الأولى مع نور الصباح وكان ضوء القمر قد حال، وأصبحت السماء كاللبن العكر، وهبط ضباب الصباح كالأرض البور فى كل مكان، فيما عدا حيث امتد الخط الداكن للطريق العظيم بلا نهاية نحو الشمال. وينصب الصليب عاريًا كئيبًا تجاه السماء التى بدأ النور يغمرها. وفى الشرق، بعيداً، كان وهج

قرمزى شاحب يبشر بالشمس المشرقة. وسر كراسوس أنه قرر ألا ينام، ورحبت حالته النفسية بما فى بداية الشروق من حلاوة مرة معذبة بالآمال الكاذبة، فالفجر على الدوام مزيج من الأسف والمجد.

وجاء حينذاك صبى صغير فى نحو الحادية عشرة من عمره يسير وهو يحمل إبريقًا فى يده. وحياه قائد حرس الباب وأخذ الإبريق منه.

وقال يشرح لكراسوس:

– هذا ابنى، إنه يحضر لى النبيذ الساخن كل صباح. هلا حييته يا سيدى؟ سيعنى ذلك شيئًا كبيرًا بالنسبة له، وسيذكره فيما بعد. كنيته لكتوس أما اسمه الحقيقى فهو ماريوس. أنا أعرف أن من الجرأة أن أطلب ذلك منك يا سيدى، لكن ذلك سيعنى شيئًا كبيرًا له ولى.

فقال كراسوس.

– مرحى ماريوس لكتوس:

فقال له الصبى الصغير:

– أنا أعرفك، أنت القائد، رأيتك بالأمس. أين درع صدرك الذهبى؟

– إنه من النحاس وليس من الذهب، وخلعته لأنه كان يضايقنى .

– عندما يصبح لى درع فلن أخلعه أبداً.

ففكر كراسوس لنفسه قائلا:

– هكذا تعيش روما، ويعيش مجد روما وتقاليد روما أبداً.

وكان المشهد قد مسه مسا قويا – بطريقة ما. وقدم له قائد الحرس الإبريق.

– أتشرب يا سيدى ؟

فهز كراسوس رأسه، وعند ذاك دوى قرع الطبول على مبعدة، فأعطى قائد الحرس الإبريق للصبى ليحمله، وصاح يصدر أوامره إلى فصيلة الجنود المنوطة بالباب. واصطف الجنود على طول كل من المصراعين للباب المفتوح، ودروعهم ترتكز على الأرض إلى جانبهم، وحرابهم الثقيلة مشرعة عالية فى الهواء. كان من العسير على الجنود أن يتحركوا، فأزعج ذلك كراسوس، لأنه شك فى أنه لو لم يكن موجودا هناك، لما أغرقوا فى الاستعراضات العسكرية: وزاد قرع الطبول، وما لبثت الصفوف الأمامية من فرقة موسيقية عسكرية، أن ظهرت فى الطريق العريض الذى يصل بين الباب والساحة العامة، وكانت الشمس الطالعة، قد لامست حينذاك قمم المبانى العالية. وبدأ فى نفس الوقت تقريبًا قليل من الناس يظهرون فى الشوارع متجهين إلى الباب وإلى صوت الموسيقى العسكرية.

تقدمت ستة طبول، وأربع صفارات، ثم ستة من الجنود، ثم المجالد عاريا وذراعاه مقيدتان بدقة خلف ظهره. ثم اثنا عشر جنديا آخرون. كانت فصيلة كبيرة بالنسبة لرجل واحد، ولا يبدو على هذا الرجل أنه شديد الخطر أو شديد القوة. وعندما ازداد اقترابا، استرجع كراسوس رأيه، خطر بلا شك - مثل هؤلاء الرجال خطرون. وأنت ترى ذلك فى وجهه، إذ لا تجد فى وجهه شيئًا من حرارة العاطفة أو الصراحة التى يراها المرء فى وجه الرومانى. فوجهه كالصقر، أنف معقوف بارز. والجلد مشدود بقوة على عظام خد عالية، شفاه رقيقة، وعينان خضراوان فيهما كراهية كعين القط. ووجهه ملىء بالكراهية. لكنها ليست كراهية معبرة، ككراهية الحيوان، وكان الوجه كالتفاح. من ناحية الحجم، لم يكن ضخما، لكن عضلات جسده كالجلد والسوط المجدول. ولم يكن بجسده إلا جرحان حديثان: واحد مستعرض فى أعلى صدره، والثانى فى خاصرته، لكنهما ليسا عميقين، والدم قد تجمد فوقهما. إلا أن تحت الجرحين وفوق كل جسده كانت آثار الجروح تبدو كالقماش المزركش حقيقة. وكان ينقص إحدى يديه أصبع، بينما قطعت إحدى أذنيه كلها حتى الجمجمة.

وعندما شاهد الضابط قائد الفصيلة كراسوس، رفع ذراعه يأمر رجاله بالوقوف. ثم خطا مقتربا وحيا القائد. وكان من الواضح أن الضابط ملىء بمعنى تلك اللحظة. وقال:

– لم أحلم قط، بأنى سأنال الشرف والحظوة برؤيتك هنا يا سيدى.

فأحنى كراسوس رأسه وقال:

– إنه حادث سعيد.

ولم يكن هو الآخر بمستطيع أن يهرب من الشعور بالاتصال المطابق للموقف بينه وبين ذلك الرجل، آخر من تبقى من حرب العبيد.

– أتضعه على الصليب الآن؟

– هذه هى التعليمات التى صدرت إلىّ.

– من هو؟ أعنى المجالد. من الواضح أنه مجالد قديم العهد بالمجتلد فأثر السيف فى كل مكان على جسده، لكن، أتعرف من هو؟

– معلوماتنا عنه قليلة. فقد كان ضابطًا، ويقود كتيبة أو أكثر من ذلك ربما. ويبدو أنه يهودى كذلك. فقد كان لدى باتياتوس عدد من اليهود، وهم يفوقون التراقيين فى القتال بالسكين المقوس فى كثير من الأحيان. بل إن باتياتوس، فى حقيقة الأمر، قدم شهادة بخصوص يهودى يدعى داود، كان واحداً من القادة الأصليين للفتنة مع سبارتاكوس. قد يكون هذا هو اليهودى داود، وقد لا يكون. فهو لم ينطق بحرف واحد منذ أن أحضروه إلى هنا ليشترك فى التصفية. وقد قاتل ببراعة فائقة – يا إلهى، لم أر فى حياتى مثل هذا القتال بالسكين: اشترك فى قتال مزدوج خمس مرات، وهذا هو سليمان غير مصاب إلا بجرحين فى جسده. شاهدت جلاده ثلاث مرات بنفسى، ولم أر فى حياتى أى قتال بالسكين أفضل من ذلك. وعرف فى النهاية أنه سيصلب، ومع ذلك فقد قاتل كما لو كان نصره سيختتم بالحرية. أنا لا أستطيع أن أفهم هذا.

– لا، حسن، الحياة عملية غريبة أيها الشاب.

– أجل يا سيدى، أنا أوافقك على ذلك.

وقال كراسوس فى تفكير:

– لو كان هذا هو اليهودى داود، فهناك عدالة ساخرة فى نهاية الأمر. أأستطيع أن أتحدث إليه؟

– طبعا، طبعا. ومع ذلك، فلا أظن أنك ستحصل منه على ما يرضيك. فهو وحش ، عنيد، صامت.

– لأجرب.

وذهب إلى حيث يقف المجالد، وقد أحاط به عند ذاك جمهور متزايد من الناس، اضطر الجنود إلى ردهم إلى الوراء وأعلن الضابط فى زهو وخيلاء:

– أيها المجالد، لقد نالك شرف لم ينله سواك. هذا هو القائد ماركوس ليكينيوس كراسوس يتنازل بالحديث إليك.

وعندما أعلن اسم القائد، تعالت هتافات الجماهير، ولكن لا بد من أن العبد كان أصم، إذ لم يبد للاسم أو الهتافات أى رد فعل من جانبه. وظل يحدق إلى الأمام دون أن يتحرك والتمعت عيناه كقطعتين من الحجر الأخضر، ولكن لم يبد على وجهه أى دليل آخر أو حركة.

وقال كراسوس:

– أنت تعرفنى أيها المجالد. تطلع إلى.

ومع ذلك لم يتحرك المجالد العارى، وهنا تقدم الضابط قائد الفصيلة وصفعه على وجهه بيده المفتوحة. وصاح:

– من يخاطبك أيها الخنزير؟

وصفعه مرة ثانية. ولم يبد المقاتل أى محاولة لتفادى اللطمة، فأدرك كراسوس أن ذلك إذا استمر، فلن ينتزع منه شيئًا له قيمة. فقال كراسوس:

– فى هذا الكفاية أيها الضابط. دعه وشأنه، وانهض بما كلفت بعمله.

– أنا شديد الأسف. لكنه لم يتكلم. لعله لا يستطيع الكلام. فلم يره أحد يتكلم حتى مع رفاقه.

فقال كراسوس:

– لا أهمية لذلك.

وراح يراقبهم وهم يتقدمون خارجين من الباب إلى الصليب. وكان تيار مستمر من الناس قد أخذ يتدفق عند ذاك خارجا من الباب، وما يلبث أن ينتشر على الطريق حيث تتاح لهم رؤية سير العملية من عل دون أن يعترضهم شىء. واخترق كراسوس الجماهير حتى قاعدة الصليب. يدفعه حب الاستطلاع على الرغم منه، لمعرفة رد الفعل بالنسبة للعبد. فقد أصبحت مقدرة الرجل الحجرية على حبس الكلام لونا من التحدى، وبدأ كراسوس، الذى لم ير من قبل رجلا.. مهما كانت صلابته.. يصلب فى صمت، يفكر فى أى نوع من رد الفعل سيثيره هذا الصلب فى الرجل.

وكان الجنود مجربين قدامى فى عملية الصلب على صليب قائم. فمضوا فى عملهم فى سرعة وخبرة: مرروا حبلا تحت ذراعى العبد الذى كان ما زال مكتوفا ومقيدًا. وظلوا يمررون الحبل تحت ذراعيه حتى تساوى الطولان. وكان السلم الذى تركه العبيد هناك فى الليلة السابقة مسنودا إلى الصليب. وألقوا بطرفى الحبل فوق ذراعى الصليب، وأمسك اثنان من الجنود بنهاية الطرفين. وعند ذاك، وفى مهارة وسرعة، شُد المجالد إلى أعلى حتى وصل إلى العمود المستعرض من الصليب تقريبا. ثم صعد جندى آخر على السلم، وسهل رفع المجالد إلى أعلى، بينما ظل الآخران تحته

يشدان الحبال. أصبح المجالد عند ذلك معلقا وكتفاه تحت النقطة التى تلتقى فيها الشريحتان الخشبيتان بقليل. وقفز الجندى الواقف على السلم إلى العمود المستعرض من الصليب، وصعد جندى آخر على السلم يحمل مطرقة وعددا من المسامير الحديدية الطويلة، وامتطى الذراع الآخر من العمود المستعرض.

وخلال ذلك راح كراسوس يرقب المجالد فى اهتمام. وعلى الرغم من أن جسده العارى تقلص عندما رفعوه إلى أعلى فاحتك بخشب الصليب الخشن، فقد ظل وجهه بلا تأثر، مثلما ظل بلا تأثر مع ضغط الحبل المؤلم على لحمه، وظل معلقا جامدا، بلا حراك ، بينما لف الجندى الأول الحبل حول صدره وتحت ذراعيه، وعقد الحبل حول العمود المستعرض. ثم سحبوا الحبل الأول من حول جسده وألقوا به إلى الأرض. وقطعوا الحبل الذى كان يقيد يديه، وسحب كل جندى ذراعًا من ذراعيه وعقد الحبل حول العمود المستعرض. ثم سحبوا الحبل الأول من حول جسده وألقوا به إلى الأرض: وقطعوا الحبل الذى كان يقيد به، وسحب كل جندى ذراعًا من ذراعيه وقيدها بلفة من الحبل حول الرسغ إلى العمود المستعرض. ولم يبد الألم على المجالد فعلا، إلا بعد أن أرغمة الجندى الثانى على فتح راحته، ووضع طرف المسمار الحار عليها، وغرس المسمار فى الخشب بطرقة واحدة قوية. حتى حينذاك لم يتكلم ولم يصرخ، لكن وجهه التوى وراح جسده ينثنى فى تشنجات عصبية. وغرست ثلاث طرقات أخرى المسمار خمس بوصات من الخشب، وثنت طرقة أخيرة رأس المسمار كى لا تزلق اليد منه. ثم تكررت نفس العملية مع اليد الأخرى، وتلوى جسد المجالد فى ألم رهيب للمرة الثانية، والتوى وجهه مرة ثانية عندما اخترق المسمار عضلات وأعصاب يده. ومع ذلك لم يصرخ، حتى على الرغم من الدموع التى تساقطت من عينيه، واللعاب الذى تقاطر من فمه المفتوح.

عند ذاك قطعوا الحبل الدائر حول صدره كى يتعلق جسده كله من يديه اللهم إلا من حبل يدور حول كل من رسغيه ليقلل الثقل على المسمارين. وهبط الجنود السلم،

وأخذوه بعيداً، وهللت الجماهير – التى زادت عن المئات من الناس عند ذاك – للبراعة التى صلبت رجلا فى دقائق قليلة ليس إلا.

ثم أغمى على المجالد.

وقال الضابط يشرح لكراسوس:

– كلهم يغمى عليهم عادة. الصدمة التى يحدثها دخول المسامير هى السبب فى ذلك. لكنهم يسترجعون وعيهم دائمًا، وقد تمر أحيانا عشرون أو ثلاثون ساعة قبل أن يغمى عليهم من جديد. صلبنا يومًا عبداً غاليًا ظل على وعيه أربعة أيام بح صوته فلم يعد يستطيع الصراخ بعد ذلك، لكنه ظل واعياً.

ومع ذلك فقد فقد وعيه عندما دقوا المسامير فى يديه. يا إلهى! أنا عطشان.

ونزع الغطاء عن قارورة الماء وشرب طويلا ثم قدمها لكراسوس قائلاً:

– ماء الورد؟

فقال كراسوس:

– شكراً لك.

فقد أحس فجأة أن حلقه جاف وأنه متعب، فشرب كل ما تبقى فى القارورة. وكانت الجماهير ما زالت فى ازدياد. وسأل كراسوس وهو يشير إليها برأسه:

– هل يظلون هنا طيلة اليوم؟

– تبقى غالبيتهم حتى يستعيد وعيه فقط. لأنهم يرغبون فى مشاهدة ما يفعله عند ذاك. فهم يفعلون أشياء مضحكة. كثير منهم يصيح مناديًا أمه. أنت لا تفكر فى العبيد بهذه الصورة أبداً أليس كذلك؟

فهز كراسوس كتفيه ومضى الضابط يقول:

– سأضطر إلى أن أخلى ذلك الطريق، فهم يعوقون المرور. قد تظن أن عندهم من الإدراك ما يجعلهم يتركون جانبًا من الطريق مفتوحًا – لكن لا. أبدًا. كلهم سواء. الجمهور لا إدراك عنده على الإطلاق.

وأمر اثنين من الجنود بأن يفسحا من الطريق ما يكفى لحركة المرور.

وقال لكراسوس:

– أنا أتساءل. أتساءل هل أستطيع إزعاجك بشأن أمر ما يا سيدى؟ قد لا يكون ذلك من شئونى، لكن حب استطلاعى شديد لمعرفة السبب فى قولك منذ قليل إنه إذا كان هذا هو اليهودى داود، ففى ذلك عدالة ساخرة أو شيئًا من هذا القبيل.

فسأله كراسوس قائلاً:

– هل قلت ذلك ؟ لا أدرى ماذا قصدت، أو ما كنت أنوى قوله.

لقد انتهى الأمر. ويجب أن يبقى كثير من الماضى مطويا فى هدوء، وليس فى حرب العبيد إلا مجد ضئيل: أما الانتصارات، والتقديرات العظيمة فهى للآخرين، أما بالنسبة له، فليس له إلا المرضاة الصادرة عن المذبح الحقير المتمثل فى عملية الصلب. كم هو متعب من القتل والموت والتعذيب. لكن أين يذهب المرء ليهرب من ذلك؟ إنهم يخلقون يوما بعد يوم مجتمعا تنهض الحياة فيه على الموت. لم يحدث من قبل فى كل تاريخ العالم أن سموا بالذبح إلى مثل هذا المستوى من الدقة والكمية – وأنى ينتهى؟ ومتى ينتهى؟ وتذكر فى تلك اللحظة حادثا وقع بعد أن تولى قيادة قوات روما المهزومة المحطمة معنويا لفترة قصيرة. كان قد أعطى قيادة ثلاثة فيالق لصديقه ورفيق طفولته بيليكو ماميوس، وهو رجل اشترك بالفعل فى حملتين هامتين، ووجه ماميوس إلى أن يناوش سبارتاكوس ويعرف هل كان فى وسعه أن يقتطع جزءًا من قواته. لكن ماميوس، بدلا من ذلك، وقع فى كمين، وعندما وجدت الفيالق الثلاثة نفسها فى مواجهة العبيد فجأة، فرت فى ذعر مخجل أعمى، لم يصب مثله جيشا رومانيا من قبل، وتذكر الصفات

التى نعته بها، والاتهامات بالجبن التى قذفه بها. لكن المرء لا يستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك مع رجل مثل ماميوس. أما بالنسبة للفيالق فقد اختلف الأمر، فقد صف خمسة آلاف رجل من جنود الفيلق السابع، وانتزع رجلا من كل عشرة رجال من الصفوف وأعدمهم بتهمة الجبن. وقال له ماميوس فيما بعد:

– كان من الواجب أن تقتلنى.

فكر عندئذ فى ذلك بكل وضوح وبكل دقة – فقد كان ماميوس والقنصل السابق ماركوس سرفيوس هما اللذان يرمزان بالنسبة له لكراهيته العميقة للعبيد، لا يستطيع المرء أن يفصل الصدق فيها عن الكذب. فقد كان ماركوس سرفيوس مسئولا إلى حد ما عن موت رفيق سبارتاكوس الحبيب، وهو غالى يدعى كريكسوس، الذى عزلت قواته وحوصر وفنى هو وجيشه. لذلك قيل، عندما وقع سرفيوس وماميوس فى أسر سبارتاكوس بعد ذلك بفترة طويلة وحوكما أمام محكمة العبيد، قيل إن يهوديا يدعى داود جادل حول طريقة إعدامهما أو لعل اليهودى المدعو داود قد جادل ضد طريقة إعدامهما. كراسوس ليس متأكداً فقد ماتا كاثنين من المجالدين: نزعوا عنهما ثيابهما، هذين القائدين للجيوش الرومانية المتوسطى العمر، وأعطوا كلا منهما سكينا ودفعوا بهما إلى مجتلد أعد خصيصاً ليقاتل كل منهما الآخر حتى الموت. وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى أقدم فيها سبارتاكوس على مثل هذا العمل، لكن كراسوس لم ينس ولم يغفر له ذلك قط.

لكن هذه القصة لم تكن بالشىء الذى يستطيع أن يرويه للضابط، وهو واقف هناك فى ظل الصليب.

وقال كراسوس:

– لا أدرى ماذا كنت أقصد. لم يكن ذلك بالأمر الهام.

وكان متعبا فقرر أن يعود إلى بيته الريفى وينام.

كــان لب الموضـوع، هـو أن كراسوس لم يكن ليعبأ كثيراً بمسـألة هل صلب آخر المجالدين يمثل العدالة في ضوء هذه الحقائق المعينة بالذات أم لا. فقد ضعف إحساسه بالعدالة، وتضاءل إحساسـه بالانتقام، ولم يعد في الموت جديد من أى نوع. فقد ملأته إبان طفولته، شأن أطفال كثير من الأسرات الممتازة في الجمهورية، أساطير البطولة في الماضي. وآمن إيماناً كاملاً شاملاً بأن روما فوق البشر وفوق الأحداث. وأن الدولة والقانون يخدمان كل الناس وأن القانون عادل. وهو لا يستطيع أن يحدد بالضبط عند أية نقطة فقد إيمانه بذلك – ومع هذا فهو لم يفقد إيمانه كله قط. فهو ما زال يحتفظ في جـهة مـا داخل نفسـه بقليل من الوهم، ومع ذلك فـهو الذى استطاع يوماً أن يحدد ما العدالة بمثل هــذا الوضـوح، لم يعد يقوى على ذلك اليوم. وهو قد شاهد منذ عشرة أعوام مـضت أباه وأخاه يعدمان على أيدى زعماء الحزب المعارض، ولم تنتقم لهما العدالة قط. ومن هنا زادت الحدة في نفسه حول ما هو عدل وما هو ليس عدلا بدلا من أن تقل، ولم يستطع أن يصل إلى تفسير للأمـر يقبله العقـل، إلا على أسـاس القوة والثروة فقط. فقـد أصبحت العدالة تعني في كل منطق عدم المسـاس بالثروة والسلطان واختفت تدريجيا أهمية القواعد الأخلاقية التي تتناول ذلك. لذلك لم يشعر؛ وهو يرى بنفسه المجالد الأخير يصلب، بإحساس العظمة لتحقيق رغبات الآلهة. والواقع أنه لم يحس شيئاً على الإطلاق. والحقيقة البسيطة أنه لم يتأثر.

ومع ذلك فـقـد كـانت الأسـئلة التي تتناول العدالة والظلم تدور في ذهن المجـالد – وكانت الأسئلة مختلطة متداخلة في الغيبوبة التي نتجت عن الألم والصدمة والإرهاق. كانت متداخلة في خيوط ذاكرته التي لا حصر لها. وكان من الممكن ألا يستطيع فك

هذه الخيوط. وكان مـن المـمكـن أن يستخلصها من موجات العذاب النافذة المعمية. وفى جهةٍ ما من ذهنه، كانت ذكرى الحادث الذى أشار إليه كراسوس محفوظة فى وضوح ودقة.

كانت المسألة مسألة عدالة بالنسبة للمجالدين كما كانت بالنسبة لكراسـوس. فقـد قيل فيما بعد، عندما دون تاريخ ما فعله العبيد، أولئك الذين كرهوا العبيد فى مرارة كبيرة، وأولئك الذين لم يعرفوا مما فعله العبيد إلا أقل القليل، قيل إنهم كانوا يأخذون الأسرى الرومانيين الذين فى حوزتهم ويجعلون الواحد منهم يقتل الآخر.

وعلى هذا أصبح من المسلم به - كما اعتاد السادة أن يعتبروا كل شىء أمرا مسلما به - أن السلطان عندما ينتقل إلى المضطهدين، فإن هؤلاء يستعملون السلطان بنفس الطريقة التى كان مضطهدوهم يستعملونه بها.

وكان ذلك محفوظًا فى ذاكرة الرجل المدلى من الصليب.

لم يحدث قط أن أقيم احتفال للذبح على طريقة المجالدين، عدا هذه المرة الواحدة، عندما أشار سبارتاكوس إلى النبيلين الرومانيين فى عاطفة مكبوتة من الغضب والكراهية وقال:

- كما فعلنا، ستفعلان. اذهبا إلى الرمال عاريين ومعكما سكينان، كى تتعلما كيف كنا نموت لتثقيف روما ولبهجة مواطنيها.

وكان اليهودى جالسًا هناك فى تلك اللحظة، يصغى فى صمت، وعندما أخذوا الرومانيين، استدار له سبارتاكوس ومع ذلك لم يقل اليهودى شيئًا. كانت رابطة كبيرة، صلة عميقة قد نمت فيما بينهما ، فقد تضاءل مع مر السنين وخلال المعارك الكثيرة، عدد الجماعة القليلة من المجالدين الذين فروا من كابوا. فقد دفعت الجماعة ضريبة خاصة من أرواح بنيها، ومن هنا ازدادت الحفنة التى بقيت كقادة لجيش العبيد الضخم التحامًا والتصاقًا.

تطلع سبارتاكوس عند ذاك إلى اليهودى وسأله:

- هل أنا على صواب؟ أم أنا على خطأ؟

- ما هو صواب بالنسبة لهم، ليس صواباً بالنسبة لنا أبداً.

- ليتقاتلا.

- ليتقاتلا إذا أردت أنت ذلك. وليقتل كل منهما الآخر. لكن ذلك سيؤذينا بنسبة أكبر. سيصبح ذلك دودة تأكل حشايانا . فأنت وأنا مجالدان. منذ زمن بعيد قلت إننا سنمحو حتى ذكرى قتال الأزواج من على وجه الأرض.

- وسنفعل. لكن هذين الاثنين يجب أن يتقاتلا.

هـــذا ما حدث هناك، جزء صغير من ذاكرة رجل تعلقه المسامير فى صليب. وكراسوس قد تطلع إلى عينيه، وكراسوس قد راقبه وهو يصلب. دائرة كبيرة قد اكتملت. وعاد كراسوس إلى بيته لينام، لأنه لم ينم طيلة الليل، وأصابه التعب كما هو متوقع بينما ظل المجالد يتدلى فاقد الوعى من المسامير.

مر قرابة الساعة قبل أن تعود اليقظة إلى المجالد. فالألم كالطريق، واليقظة تسافر على طريق الألم. ولو أن كل حواسه ومشاعره شدت كجلد الطبل، فهناك من يقرع الطبل فى تلك اللحظة، والموسيقى لا تحتمل، وهو لم يستيقظ إلا على معرفة الألم. ولم يكن يعرف أى شىء آخر فى عالم الألم. فقد كان الألم هو العالم بأسره. وهو الأخير من ستة آلاف من رفاقه كانت آلامهم كآلامه، لكن ألمه هو كان من الضخامة إلى حد لا يمكن تقسيمه أو المشاركة فيه. وفتح عينيه، ولكن الألم كان كغشاوة حمراء تفصل بينه وبين العالم. كان كدودة صغيرة، كدودة تتطور إلى فراشة، فتصبح يرقة فى شرنقة، والشرنقة منسوجة من الألم.

لم يعد إليه وعيه دفعة واحدة بل فى موجات.. كانت المركبة التى يعرفها خير معرفة هى العربة الحربية، وكان هو يركب فى مركبة حربية تصدم بالأرض فتتقافز وتترنح فى طريق عودته إلى الوعى. كان صبيا صغيرا فى بلد جبلى، وكان القوم الكبار، السادة القادمون من بعيد، المتحضرون النظفاء يركبون فى مركبات حربية. وكان هو يجرى على طول الممر الجبلى الصخرى يضرع من أجل أن يركبوه. وكان يصيح قائلا: يا سيدى – سيدى دعنى أركب .

ولم يكن واحد منهم يتكلم لغته. لكنهم كانوا يسمحون له ولأصدقائه فى بعض الأحيان بالجلوس فوق ذيل المركبة. وكان القوم الكبار كرماء. إذ كانوا يعطونه وأصدقاءه الحلوى فى بعض الأحيان. وكانوا يضحكون من الطريقة التى يتعلق بها الصغار ذوو الشعور السوداء الذين لوحتهم الشمس فى ذيل المركبة. لكنهم غالبا ما كانوا يهوون بسياطهم على الجياد لتسير، فيتطاير الصغار نتيجة للقفزة والحركة

المفاجئة. حسن. لم يكن من المستطاع التكهن بهوية القوم الكبار القادمين من العالم الغربي، فتقبل الطيب منهم مع الخبيث. لكنك عندما تقع من المركبة الحربية، فالوقوع مؤلم.

ثم يدرك أنه لم يعد طفلا فى تلال الجليل، بل رجلا مدلى من صليب. ويدرك ذلك فى مناطق، لأنه لم يكن فى هذه اللحظة، يملك كيانه كاملا فيدرك ذلك فى ذراعيه، حيث استحالت الأعصاب إلى أسلاك ابيضت لفرط حرارتها، والدم الساخن يتدفق على طول ذراعيه هابطاً إلى السنام الملتوى لكتفيه، ويدركه فى بطنه حيث استحالت معدته وأحشاؤه إلى عقد غاضبة من الألم والتوتر.

وكانت جماهير الناس التى ترقبه أمواجا متماوجة حقيقية وغير حقيقية. فبصره ليس على طبيعته عند هذه النقطة. فهو لا يستطيع أن يحقق البصر كما يجب، ويرى الناس يطوون وينشرون كما يحدث للصورة تحت زجاج محدب. ورأى الناس بدورهم أن المجالد يعود إلى وعيه ، فراحوا يرقبونه في شوق: لو أن ذلك كان مجرد صلب آخر، لما كان فى المناسبة أى جديد. فالصلب كان شائعا جدا فى روما . فعندما غزت روما قرطاجنة قبل ذلك الوقت بأربعة أجيال أخذت عنها أحسن ما استولت عليه: نظام المزارع، والصلب، الذى كان غنيمة لها قيمتها بين الغنائم. فقد استهوى روما شكل الصليب والرجل يتدلى منه. واليوم نسى العالم أن الصلب كان قرطاجنيا فى الأصل، لأنه أصبح رمزاً للحضارة فى كل أنحاء العالم، وحيثما تمتد الطرق الرومانية يذهب الصليب ونظام المزارع، وقتال الأزواج، والاحتقار الهائل للحياة الإنسانية المستعبدة، والاندفاع الكبير إلى اعتصار الذهب من دم وعرق البشر.

ولكن، حتى أحسن الأشياء يفقد رونقه مع الزمن، ويصبح أطيب الأنبذة مملا عندما ينهل منه المرء الكثير. وتضيع عاطفة الرجل الواحد فى عواطف الآلاف. ولم يكن أى صلب آخر ليخرج الجماهير من بيوتها . لكن ذلك كان موت بطل مجالد عظيم، ضابط من ضباط سبارتاكوس، مجالد خالد، مجالد رائع فاز وعاش بعد القتال بلا

نهاية. وفى الدور الذى يقوم به المجالد تناقض مثير لحب الاستطلاع على الدوام، فهو العبد الذى يعدونه للموت، أو هو الدمية المقاتلة. أكثر العبيد حقارة بين المحتقرين. ومع ذلك فهو، فى وقت واحد، الباقى الوحيد فى الميدان الدموى للمعركة.

لهذا خرجت الجماهير لترى المجالد وهو يموت. ولترى كيف سيحيى السر الكبير الذى يشترك فيه كل البشر. ولترى كيف سيسلك بعد أن دقت المسامير فى يديه. وكان هو شخصاً غريباً انطوى على نفسه فى صمت. فجاءوا ليروا هل الصمت سيتحطم. وعندما لم يفلح دق المسامير فى تحطيم ذلك الصمت. فقد تلكئوا ليروا هل يتحطم الصمت عندما يفتح عينيه على العالم من جديد.

وقد تحطم الصمت. فعندما رأى الجماهير فى النهاية، وعندما كفت الصور المرتبة من التراقص أمام عينيه. صرخ صرخة ألم وعذاب رهيب. والظاهر أن أحداً لم يفهم كلماته. ودارت المحاولات حول ما قاله فى الانفجارة الصوتية المعذبة. إذ كان البعض قد راهن على مسألته هل يتكلم أم يظل صامتا. ودفع البعض قيمة الرهانات، ورفض البعض الآخر أن يدفع وسط مشاجرات غاضبة حول مسألته، هل نطق بكلمات، أو كانت الصرخة مجرد صرخة ألم، أو هل تكلم بلغة أجنبية. وقال البعض إنه كان يستجير بالآلهة. وقال آخرون إنه كان ينشج مناديا أمه.

والحقيقة أن صرخته لم تكن شيئاً من الاثنين لأنه فى الحقيقة صرخ يقول:

– سبارتاكوس، سبارتاكوس، لماذا فشلنا؟

لو كان من المستطاع، بطريقة معجزة، فتح عقول وأذهان الآلاف الستة من الرجال الذين أسروا بعد فشل قضية سبارتاكوس وسقوطها إلى تراب التاريخ، وتعريتها ورسم خريطة لها ليستطيع المرء أن يتتبع - عائدا من لحظة الصلب - خيوط الماضى المتشابكة المطوية التى انتهت بهم إلى الصليب - لو كان فى الإمكان رسم ستة آلاف خريطة لستة آلاف حياة بشرية، ربما أمكن أن نرى أن ماضى الكثيرين منهم لا يختلف فى كثير. ومن هنا فمن المحتمل ألا تختلف آلامهم فى النهاية فى كثير لأنها آلام مشتركة ممتزجة. ولو أن فى السماوات آلهة أوروبا وكانت دموعهم أمطاراً، إذن لأمطرت الدنيا أياما وأياما، لكن الشمس، بدلا من ذلك، قضت على بؤسهم، ونهشت الطيور لحمهم الدامي، ومات الرجال.

وكان ذلك الرجل آخر واحد يموت، وكان خلاصة الآخرين. كان ذهنه يمتلئ بمجمل الحياة الإنسانية، إلا أن الإنسان فى مثل هذا الألم لا يفكر، وتغدو الذكريات كالأحلام المفزعة. ولا يمكن ترتيب ذكرياته كما تعود إليه لأنها تصبح عديمة المعنى إذا فصلناها عن انعكاسات الألم. ولكن فى الإمكان تصنيف قصة من ذكرياته، ومن الممكن إعادة ترتيب الذكريات لتأخذ شكلا. وفى هذه الحالة، لن يختلف الشكل كثيراً عن أشكال حياة الآخرين.

فى حياته أربع فترات. الأولى فترة عدم المعرفة، والثانية هى فترة المعرفة، وهذه امتلأت بالكراهية، وأصبح خلالها مخلوقا كله كراهية. أما الثالثة فكانت فترة الأمل وزالت خلالها كراهيته وعرف فيها الحب العظيم والشعور بالزمالة لإخوانه من البشر. أماالفترة الرابعة فكانت فترة اليأس.

كان فى فترة عدم المعرفة صبيا صغيرا. وفى تلك الفترة كانت السعادة، وتألق ضوء الشمس السائد يحيط به من كل جانب. وعندما بحث ذهنه المعذب وهو معلق على الصليب، عن الرطوبة والمهرب من الألم، وجد تلك الرطوبة المباركة فى تذكر طفولته. فقد كانت الجبال الخضراء إبان طفولته رطبة جميلة. وكانت مياه القنوات الجبلية تنحدر متألقة، وقطعان الماعز السوداء ترعى على سفوح التلال. والتلال قد سويت إلى مدرجات عنيت بها أيد محبة. فكان الشعير ينمو كاللآلئ، والأعناب تنمو كالياقوت والزبرجد، وكان يلعب على سفوح التلال، ويخوض فى الجداول، ويعوم فى بحيرة الجليل الجميلة الواسعة. وكان يجرى كأنه حيوان صغير، حرا، بريا، صحيحا، وكأن إخوته وأخواته وأصدقاءه يكونون مجتمعا هو فيه حر مطمئن سعيد.

كان يعرف الله حتى فى تلك الفترة، وكانت لله عنده صورة واضحة أكيدة مفصلة بالنسبة لتصوره كطفل. فهو ينحدر من قوم سكنوا الجبال، لهذا وضعوا الله فوق قمة لا يستطيع أن يحيا فيها. فوق أعلى الجبال، حيث لم يصعد إنسان من قبل، كان الله. كان الله موجوداً هناك وحده، فالله واحد لا شريك له. (وكانت صورة الله فى مخيلتهم رجلا عجوزا لا يكبر ولا يتقدم فى السن، تكسو لحيته صدره وتموج أرديته البيضاء التى تملأ السماء فجأة). وكان إلهًا عادلاً، وإلهًا رحيمًا عادة، لكنه كان على الدوام إلها منتقما. وكان الصبى الصغير يعرف ذلك. ولم يكن الصبى الصغير ليغيب ليلا أو نهاراً عن عينى الله، فالله يرى كل ما يعمل، والله يعرف كل ما يدور بخلده.

وكان ينحدر من قوم أتقياء، قوم شديدى الورع. وكانت خشية الله ممتزجة بحياتهم، داخلة فى سداها ولحمتها، كما ينسج الخيط داخلا خارجا فى العباءة. فكانوا عندما يرعون قطعانهم يرتدون عباءات طويلة مخططة، ترمز كل رساعة (شرَّابة) فى هذه العباءات إلى جزء ما من خشيتهم من ربهم. وكانوا يصلون لله صباح مساء. فكانوا يصلون عندما يجلسون لتناول خبزهم، وكانوا عندما يتناولون قدحًا من النبيذ يحمدون الله ويشكرون فضله، حتى عندما كانت تحل بهم المصيبة كانوا يحمدون الله كيلا يظن أنهم مستاءون لما أصابهم وأن الكبر قد نالهم.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يمتلئ الصبى، الطفل الذى أصبح اليوم رجلا يتدلى من الصليب، بمعرفة ووجود الله. كان الطفل يخاف الله، وكان ربه ربا يخافه الإنسان، لكن الخوف كان نغمًا خفيضًا بالنسبة لضوء الشمس السائد، ولرطوبة الجبال والقنوات الجبلية. فكان الطفل يجرى ويضحك وينشد الأغانى، ويرعى الماعز والأغنام، ويرقب الصبيان ممن يكبرونه وهم يتبارون فى رمى السكين الجليلى الحاد كالموسى، السكين الذى كانوا يحملونه فى أحزمتهم فى كبرياء. وكان له سكينه الخاص الذى نحته من الخشب، والذى كان كثيراً ما يشترك به فى مبارزات تقليدية ساخرة مع إخوته وأصدقائه.

وكان إذا ما أجاد المبارزة، أشار الصبية الكبار برءوسهم إليه فى حسد ، وقالوا:

– كالتراقى، أيها الصغير، أيها القرد، أيها المسخ.

وكان التراقى بالنسبة لهم هو كل ما هو شر، وهو كل من هو بارع فى القتال كذلك. فمنذ زمن بعيد، بعيد جدا، جاء الجنود المرتزقة إلى البلاد. ومرت سنوات عديدة من القتال قبل أن يطردوا الجنود المرتزقة ويقتلوهم. وكان اسم أولئك الجنود، المرتزقة التراقيين، لكن الصبى الصغير لم ير واحداً منهم قط.

وكان يتطلع إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يثبت سكينًا فى حزامه إلى جانبه، وعند ذاك يرون هل كان فى مثل وحشية التراقى. ومع ذلك فلم يكن كثير الوحشية، إنما كان صبيا صغيراً رقيقًا وسعيداً إلى حد كبير.

كانت تلك هى فترة عدم المعرفة.

أما فى الفترة الثانية من حياته، فى فترة المعرفة، فلم يعد طفلا، وغام ضوء الشمس السائد وأفسح مكانه لريح تبعث الرعدة فى البدن. فقد سحب حول نفسه، مع الزمن، عباءة من الكراهية ليحتمى بها ولتحميه. تلك هى الفترة التى كانت تنفذ خلال ذهنه فى ومضات حادة من العذاب الأحمر وهو مدلى فوق الصليب. وكانت أفكاره عن

تلك الفترة وحشية معوجة رهيبة، وكانت الذكريات مبعثرة متداخلة كأجزاء اللغز التى تطالب بجمعها معا. شاهد تلك الفترة الثانية من حياته فى كتل الجماهير المتماوجة التى كانت ترقبه. شاهدها فى وجوههم، وسمعها فى الأصوات الصادرة عنهم. وبينما ظل غضبه ثائراً لا يهدأ، رجع بذاكرته، المرة بعد المرة، إلى تلك الفترة الثانية من حياته، فترة المعرفة.

أصبح فى تلك الفترة يعى الأشياء، وأمحت طفولته نتيجة لذلك الوعى. أصبح يعرف أباه، رجلا أسمر الوجه، قساه العمل، يعمل من مطلع الصباح حتى مهبط الليل - ومع ذلك فلم ينته ذلك الكدح قط. وعرف الأسى. وماتت أمه وبكوها جميعًا. وعرف الضرائب، ذلك لأنه على الرغم من كثرة ما كدّ أبوه، لم يجد يوما ما يكفى لملء بطونهم، مع أن الأرض كانت تعطى كأحسن ما تعطى أى أرض أخرى. وعرف الهوة الشاسعة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء.

وظلت الأصوات على ما هى عليه، كما كانت من قبل، إلا أن الفارق، أنه عند ذاك كان يسمع الأصوات ويفهمها، بينما كان يسمعها من قبل ولا يفهم معانيها. فعندما كان الرجال يتكلمون فى ذلك الحين، كانوا يسمحون له بأن يقف على مقربة، وأن يصغى، وكانوا من قبل يحثونه على الخروج من المنزل لينصرف إلى لعبه.

كما أنهم أعطوه سكينا، لكن السكين لم يجلب معه السرور. فقد ذهب فى أحد الأيام مع أبيه عبر التلال مسافة خمسة أميال كاملة، إلى حيث كان رجل يشتغل فى الحديد، ومكثا هناك ثلاث ساعات طويلة إلى جانب الكور، بينما كان الحداد يطرق سكينا له. وظل أبوه والحداد يتحدثان طول الوقت عن المصائب التى حاقت بالأرض، وكيف يعتصرون الرجل الصغير. وبدا كأن أباه وصانع الحديد يتباريان، كل يظهر للآخر أنهم يعتصرونه أكثر منه.

قال الحداد:

– خذ هذا السكين مثلا، سأبيعه لك بأربعة دنانير. من هذا الثمن سيأخذ جابى المعبد الربع عندما يأتى لتحصيل واجباته. وسيأخذ محصل الضرائب الربع. يبقى لى بعد هذا ديناران. ولو أردت أن أصنع سكينا آخر لوجب أن أدفع دينارين ثمنا للحديد. إذن أين ثمن عملى؟ وأين ثمن القرن الذى يجب أن أشتريه للمقبض؟ وأين ثمن الطعام الذى أطعم به أسرتى؟ أما إذا تقاضيت خمسة دنانير ثمنا للسكين، فسترتفع أثمان كل شىء تبعًا لذلك، ومن الذى سيقدم على الشراء منى إذا كان فى استطاعته أن يشترى سكينًا من حداد آخر ويثمن أقل؟ الله أرحم بك فأنت على الأقل تأخذ طعامك من الأرض وتستطيع أن تملأ معدتك على الدوام.

ومع ذلك فقد كان لوالد الصبى رأى آخر. إذ قال:

– أنت تملك على الأقل قليلا من النقود فى يديك فى بعض الأحيان أما حالتى أنا فهى كما يلى: أنا أحصد الشعير وأدرسه وأملأ السلال ويلتمع الشعير كاللآلئ. ونشكر الإله الكبير. رب الأرباب، لأن شعيرنا بمثل هذا الجمال وملىء بكل هذا الغذاء. ومن ذا الذى يتعرض للمتاعب ومخزن غلاله يفيض بسلال الشعير المتلألئ ؟ ولكن فى تلك اللحظة يصل جابى المعبد ويأخذ ربع الشعير للمعبد. ثم يأتى محصل الضرائب ويأخذ ربعا آخر للضرائب. وأضرع إليه وأوضح له أن ما تبقى من الشعير لا يكفى إلا لتغذية بهائمى خلال الشتاء. فيقول لى: كل بهائمك إذن. وهذا هو الشىء الرهيب الذى نضطر إلى عمله. وبذلك عندما يحين الوقت، لا نجد لحما أو حبا، ويبكى الأطفال طلبا للطعام، فنشد أقواسنا ونفكر فى الأرانب والغزلان القليلة الباقية على سفح الجبل. لكن لحمها نجس بالنسبة لليهودى إلا إذا بوركت، وإلا إذا أحلت شرعا. على هذا بعثنا بحاخامنا فى الشتاء الماضى إلى أورشليم ليستعطف رجال المعبد. وحاخامنا رجل طيب، يجوع كما نجوع. لكن أياما خمسة مرت وهو ينتظر فى فناء المعبد، قبل أن يرضى الكهنة بمقابلته. ثم أصغوا إلى ضراعته فى احتقار. ولم يعطوه حتى كسرة خبز ليسد جوعه الشديد. وقالوا أما لعواء أهل الجليل هذا من نهاية؟ فلاحوكم كسالى،

يريدون الرقاد فى الشمس ويأكلون المن. ليعملوا بجد أكثر وليزرعوا مزيداً من الشعير. كان ذلك ما نصحوا به. لكن أين يجد الفلاح مزيداً من الأرض ليزرع فيها مزيداً من الشعير؟ وحتى إذا وجدنا المزيد من الأرض وزرعنا المزيد من الشعير، أتدرى ما سيحدث؟

قال الحداد:

أعرف ما سيحدث. لن تحصلوا على أية زيادة فى النهاية، فالأمور تسير بهذه الطريقة. يزداد الفقير فقراً، ويزداد الغنى ثراءً.

حدث ذلك عندما ذهب الصبى ليحصل على سكينه، وما كان الأمر ليختلف عن ذلك فى قريته. ففى القرية، يحضر الجيران عندما ينزل الليل إلى بيت أبيه الصغير، البيت الذى كانوا يعيشون فيه كلهم مزدحمين فى غرفة واحدة. وهناك يجلسون ويتحدثون حديثاً لا نهاية له عن مدى صعوبة الحياة بالنسبة للفرد، وكيف أنهم يعتصرونهم ويعتصرونهم - وإلى متى سيدوم ذلك الحال؟ وهل تستطيع أن تعتصر الدم من حجر؟

كانت تلك أفكار الرجل المعلق على الصليب. وكانت تلك أجزاء مؤلمة من الذكرى مرتبطة بآلامه. لكنه كان يرغب فى الحياة حتى وهو يتألم، وحتى والألم يرتفع فى موجات فوق الاحتمال ثم يهبط إلى موجات من الألم محتملة. هو مع ذلك يرغب فى الحياة، حتى بعد أن كتب عليه الموت وعلقوه فوق الصليب. أية قوة هى الحياة، وأى دافع هى الحياة، وأية أشياء يقدم عليها الناس عندما تصبح هذه الأشياء ضرورية لحقيقة البقاء البسيطة .

ولكن لماذا يحدث ذلك؟ لم يكن يدرى. فهو لم يضرع إلى الله وهو فى آلامه، لأن الله لا يمثل الرد على أسئلته أو التفسير لها. وهو لم يعد يؤمن بإله واحد أو بآلهة كثيرة، فقد يئس من الله فى تلك الفترة الثانية من حياته، لأن الله فيما يرى لم يكن يجيب إلا دعوات الأغنياء.

لذلك لم يضرع إلى الله. فالأغنياء لا يعلقون فوق الصلبان، وهو قد أمضى حياته كلها فوق صليب، زمناً لا نهائيا والمسامير تخترق يديه. أم لعل ذلك كان إنسانا آخر؟ أم لعل ذلك الشخص كان أباه؟ كان ذهنه لا يعمل جيداً عند ذاك، فقد اختلطت الدوافع الجميلة الدقيقة المنظمة فى ذهنه، وعندما تذكر كيف صلبوا أباه، خلط بين نفسه أبيه. وراح يفتش فى حنايا ذهنه الكليل المعذب، ليتذكر كيف حدث ذلك. وتذكر وقت أن جاء الكهنة من المعبد، فطردوهم هم الآخرين بأيد خاوية.

وسادت لحظة قصيرة من المجد بعد ذاك. وأضاء ذهنه بذكرى بطلهم العظيم يهوذا المكابى، وعندما بعث الكهنة بأول جيش لمقاتلتهم، انتضى فلاحو التلال أقواسهم ومديهم وحطموا الجيش. واشترك هـو فى المعركة، مراهق فى الرابعة عشرة من عمره ليس إلا، ومع ذلك فقد استعمل سكينه وقاتل مع أبيه جنبا إلى جنب وذاق طعم النصر.

لكن طعم النصر لم يدم طويلا. فقد جاءت طوابير ضخمة من الجنود المرتزقة المسلحين ضد ثوار الجليل، وكانت خزانة المعبد بئراً من الذهب لا قاع له، قادراً على شراء المزيد والمزيد من الجنود المرتزقة. ولم يستطع الفلاحون بمديهم وأجسادهم العارية مقاومة جيش كبير، فتحطم الفلاحون وأسر منهم ألفان. واختاروا من بين الأسرى تسعمائة رجل ليصلبوهم. كان ذلك هو الأسلوب المتحضر، أسلوب الغرب. وعندما انتظمت الصلبان كالخرز على سفوح التلال، جاء كهنة المعبد ليرقبوها. وجاء معهم مستشاروهم من الرومان. ووقف الصبى داود وشاهدهم يعلقون أباه بالمسامير فى صليب، ويتركونه معلقا من يديه هناك حتى نهشت الطيور لحمه.

وها هو نفسه اليوم معلق على الصليب. كما بدأت القصة تنتهى ، ولشد ما هو متعب، ولكم هو ملىء بالأسى والألم. ومع مرور الوقت وهو معلق على الصليب – الوقت الذى لا صلة له بالوقت كما يعرفه البشر، لأن الرجل وهو على الصليب لا يصبح رجلا – سأل نفسه أسئلة لا نهاية لها عن معنى الحياة التى تبدأ من العدم وتنتهى إلى العدم، وبدأ يفقد تشبثه غير المعقول بالحياة، وهو التشبث الذى كان يمده بالقوة منذ زمنٍ بعيد. وللمرة الأولى فى حياته، أحس بالرغبة فى الموت.

(مــاذا كــان سبــارتاكوس قد قــال له؟ أيها المجالد أحب الحياة، ففى الحياة الإجابة عن كل سؤال. لكن سبارتاكوس قد مات، وهو حى).

أحس بالتعب عند ذاك، فقد تصارع التعب مع الألم، ومن هنا أصبحت ذكرياته الممزقة تدور حول التعب. بعد أن فشلت الثورة، غلوه هو وسبعمائة صبى غيره من أعناقهم فى السلاسل، وساقوهم شمالا. ويا لطول ما مشوا. عبر السهل والصحراء والجبل حتى غدت تلال الجليل حلما من أحلام الجنة. وتغير سادتهم، لكن السوط ظل هو هو على الدوام. ووصلوا فى النهاية إلى أرض ترتفع فيها الجبال أعلى من أية جبال فى الجليل وتتغطى قممها بغلالة من الثلج صيفا وشتاء.

وهناك أدخلوه إلى باطن الأرض لينقب عن النحــاس. وظل يكدح طيلة عــامين كاملين فى مناجم النحاس. ومات أخواه اللذان كانا فى صحبته، أما هو فقد ظل على قيد الحياة. فقد كان جسده من الصلب والعضلات المجدولة. ومرض الآخرون وتساقطت أسنانهم، أو مرضوا وأخذوا يتقيئون حتى ماتوا. أما هو فقد عاش، وظل يكدح طيلة عامين كاملين فى المناجم.

ثم هرب، هرب إلى الجبال الموحشة والطوق الحديدى الذى يرتديه العبيد ما زال حول عنقه. وهناك التقطه رجال القبائل الجبلية البدائيون البسطاء، وآووه، وأزالوا الطوق الحديدى من حول عنقه، وسمحوا له بالحياة معهم. وعاش معهم طيلة الشتاء. كانوا قوما طيبى القلوب، فقراء، يعيشون على الصيد والقنص، ولا يكادون يزرعون شيئًا. وتعلم لغتهم، ورغبوا فى أن يبقى معهم ويتزوج من واحدة من نسائهم، لكن قلبه كان يحن للجليل، وعندما جاء الربيع، بدأ الرحلة جنوبا، لكنه وقع فى أسر عصابة من التجار الفرس، باعوه بدورهم إلى قافلة من العبيد متجهة غربا فباعوه فى المزاد فى مدينة صور على بعد مرمى البصر من وطنه تقريباً. لكم أطل الحزن قلبه حينذاك! ولكم بكى بدموع مريرة لأن يكون على مثل هذا القرب من بلده وأقربائه وأهله الذين سيحبونه ويدللونه – وأن يكون رغم ذلك بعيداً كل هذا البعد عن الحرية! اشتراه تاجر

فينيقى، وقيده بالسلاسل إلى مجداف فى سفينة تنقل التجارة إلى موانئ صقلية، وأمضى عاما كاملا يجلس فى الظلام والقذارة، يجر مجدافه فى الماء.

ثم استولى قراصنة يونانيون على السفينة، وجروه من أعماقها وهو يطرف بعينيه كغراب قذر إلى سطح السفينة، وفحصه البحارة اليونانيون المتوحشون وسألوه، ولم يستغرق التخلص من التاجر الفينيقى والبحارة طويلا، فقد ألقوا بهم من فوق ظهر السفينة إلى الماء كحزم القش. أما هو وغيره من العبيد، فقد فحصوهم وسألوا كل واحد منهم بدوره بلغة البحر الأبيض الآرامية - هل تستطيع أن تقاتل؟ أم تستطيع أن تجدف فقط؟

وكان هو خائفا من العقد الخشبى والظلمة والمياه فى قاع المركب كما قد يخاف الشيطان نفسه، فكان رده:

- أستطيع أن أقاتل، أعطونى الفرصة فقط.

وكان على استعداد لأن يقاتل جيشًا بأسره لو استطاع حينذاك على ألا يرسل إلى قاع السفينة تحت أسطحها ليحنى ظهره فوق مجداف. على هذا أتاحوا له فرصة البقاء فوق السطح وعلموه - وذاق فى هذا السبيل كثيرًا من اللطمات واللعنات - مهنة البحر ، كيف يطوى الشراع، وكيف يصعد على حبال شراع السفينة، وكيف يوجه السفينة بمجداف القيادة الذى يبلغ طوله ثلاثين قدمًا وكيف يجدل الحبل، وكيف يوجه السفينة مهتديًا بالنجوم ليلا. وأبدى فى أول قتال لهم مع سفينة رومانية ضخمة سرعة حركة وبراعة فى استخدام السكين الطويل، مما أكسبه مكانا مأمونًا فى عصابتهم الوحشية الخارجية على القانون، لكن قلبه كان خلوًا من السعادة. وانتهى به الأمر إلى كراهية هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون إلا الذبح والقسوة والموت. فقد كانوا يختلفون أشد الاختلاف عن الفلاحين البسطاء الذين أمضى طفولته بينهم كاختلاف الليل والنهار. وما كانوا يؤمنون بأى إله من الآلهة، ولا حتى ببوسيدن إله البحر. وعلى الرغم

من أن إيمانه الشخصى كان قد اهتز، فهو قد أمضى خيرة أعوام حياته بين المؤمنين. وكانوا عندما ينقضون على أى شاطئ من الشواطئ فإنما ليقتلوا ويحرقوا ويغتصبوا النساء.

كانت تلك الفترة من حياته هى الفترة التى أقام فيها حول نفسه جداراً صلباً غلف به نفسه. وعاش داخل هذا الجدار. واختفت دلائل الشباب من وجهه ذى العينين الخضراوين الباردتين، وأنفه المعقوف كالصقر. لم يكن قد أكمل الثامنة عشرة من عمره عندما انضم إليهم، لكن مظهره أصبح لا يشى بعمر. ودبت بوادر المشيب فعلا فى الشعر الأسود الذى كان يغطى رأسه. وانفرد بنفسه. فكان فى بعض الأحيان لا ينطق خلال أسبوع كامل بكلمة واحدة على الإطلاق. فيتركونه وشأنه. فهم يعرفون مقدرته على القتال فخافوه.

كان يحيا على حلم، وكان الحلم كالغذاء والشراب بالنسبة له، ذلك الحلم هو أنهم فى يوم أو آخر، آجلا أو عاجلا سيهاجمون شاطئ فلسطين. وعند ذاك سينزلق نازلا على جانب السفينة ويسبح حتى الشاطئ ويشق طريقه سيراً على الأقدام إلى تلال الجليل الحبيبة. لكن أعواما ثلاثة مرت. وهذا اليوم لم يأت قط فقد هاجموا الشاطئ الإفريقى أول الأمر. ثم عبروا البحر ليعملوا على طول الشاطئ الإيطالى. وقاتلوا على شواطئ إسبانيا. وأحرقوا البيوت الريفية الرومانية. واستولوا على الثروات والنساء التى وجدوها فيها. ثم عبروا البحر مرة ثانية. وأمضوا شتاء كاملا فى مدينة مسورة خارجة على القانون على مقربة من أعمدة هرقل ثم أبحروا خارجين من مضيق جبل طارق. وذهبوا إلى بريطانيا حيث أرسوا سفينتهم ونظفوها وأصلحوها. ثم أبحروا إلى أيرلفن حيث استبدلوا بقطع الأقمشة والحلى الرخيصة أدوات الزينة الذهبية التى تصنعها القبائل الأيرلندية. ثم إلى بلاد الغال، صاعدين نازلين على الشاطئ الفرنسى، ثم عادوا إلى إفريقيا. وهكذا انقضت ثلاث سنوات - لم يسطوا فيها قط على شاطئ، لكن الحلم والأمل ظلا فى نفسه - خلال تلك الفترة التى ازداد فيها قساوة عما يحق للرجل أن يكون.

لكنه تعلم الكثير فى تلك الفترة. تعلم أن البحر طريق تتدفق فوقه الحياة، كما يتدفق الدم خلال جسم الإنسان. وتعلم أن العالم كبير ولا حدود له، وتعلم أنه أينما يذهب المرء، فهناك قوم بسطاء فقراء ، قوم كقومه هو، قوم ينبشون الأرض سعيا وراء قوتهم وقوت أولادهم – كى يدفعوا معظم ما يخرجونه من الأرض إلى زعيم أو ملك أو قرصان. وتعلم أن هناك رئيسًا وملكًا وقرصانًا فوق كل من عداه من الرؤساء والملوك والقراصنة – واسم هذا هو روما.

وغرقت سفينتهم فى النهاية على يد سفينة حربية رومانية. وأخذوه هو والأربعة عشر الناجين من البحارة إلى أوسيتا ليشنقوا. وبدا أن رمال كأسه الصغيرة من الحياة قد انتهت. لكن وكيلا للنتولوس باتياتوس اشتراه فى اللحظة الأخيرة لمدرسته فى كابوا .

هكذا كان شكل الفترة الثانية من حياة المجالد، فترة المعرفة والكراهية وقد استكمل ذلك الجزء فى كابوا. ففيها تعلم أقصى ما تصل إليه الحضارة من نقاوة. : تدريب الرجال على قتل بعضهم بعضًا لتسلية كسالى الرومان، ولإثراء رجل شرير قذر سمين يدعى متعهد المجالدين. وأصبح مجالدًا. قصوا شعره قصيرًا حتى قارب جمجمته. وزجوا به إلى المجتلد يحمل سكينًا فى يده، لا ليقتل من كان يكرهم، إنما ليقتل من كانوا مثله، عبيدًا أو محكومًا عليهم بالإعدام.

كان ذلك المكان هو الذى اجتمعت فيه المعرفة والكراهية.

إذ أصبح مستودعًا للكراهية، وكان المستودع يمتلئ ، يومًا بعد يوم، وعاش وحيدًا فى رنزانته الجرداء القبيحة وقتلها للآمال منطويًا على نفسه. ولم يعد يؤمن بالله بعد ذلك. وعندما كان يفكر فى رب آبائه، فإنما فى كراهية. وقال لنفسه يومًا:

– أريد أن أدخل إلى المجتلد مع ذلك الرجل العجوز الملعون الذى كان يقطن الجبال، وسأتقاضاه ثمن كل الدموع والوعود التى لم تتحقق التى يبتلى بها البشر.

وسأرد له رعده وبرقه. كل ما أريده هو سكين فى يدى، وسأضحى له كما يجب وأعلمه شيئًا عن الغضب والسخط.

وشاهد فى أثناء نومه ذات يوم حلماً، ورأى نفسه فى الحلم يقف عند عرش الله، لكنه لم يكن خائفًا. وصاح يقول ساخراً ماذا ستفعل بى؟ لقد عشت واحداً وعشرين عامًا، فماذا تستطيع أن تصيبنى به أكثر مما أصابتنى الدنيا. لقد رأيت أبى وهو يصلب، وكدحت كالحشرة الدءوبة فى المنجم. فقد اشتغلت عامين فى المناجم وعشت عاما فى القذارة والمياه فى قاع السفينة، والفئران تجرى فوق قدمى، كنت طيلة أعوام ثلاثة لصا يحلم بوطنه، وأنا الآن أقتل الرجل بالأجر. فلتحل عليك لعنة الجحيم. ماذا ستفعل بى؟

ذلك ما أصبحه فى الفترة الثانية من حياته .. وخلال تلك الفترة، جلبوا إلى المدرسة فى كابوا عبدا تراقيا، رجلا غريبا، رقيق الصوت، له أنف مكسور وعينان سوداوان عميقتان.

وهكذا عرف هذا المجالد سبارتاكوس.

حدث، بعد تلك الفترة بوقت طويل، أن صلبوا عبدا رومانيا، وبعد أن علقوه على الصليب أربعة وعشرون ساعة، عفا عنه الإمبراطور نفسه، وعاش العبد بطريقة ما. وكتب يروى ما أحسه وهو معلق على الصليب، وكان أكثر ما يلفت النظر فيما كتبه ما قاله عن مسألة الزمن، إذ قال : لا يوجد بالنسبة للمصلوب إلا شيئان، الألم واللانهاية. قالوا لى إنى لم أمكث على الصليب إلا أربعة وعشرين ساعة، لكنى مكثت على الصليب زمنا أطول من عمر هذا العالم. ولو أن الزمن لا وجود له، لكانت كل لحظة على الصليب هى الأبد.

وفى هذا «الأبد» الغريب الذى يعذبه الألم، انقسم ذهن المقاتل وبطلت تدريجيا قوة العقل المنظم، واستحالت الذكرى إلى هلوسة. وعاش مرة ثانية فترات طويلة من حياته، وتذكر كيف تحدث إلى سبارتاكوس لأول مرة وعاشها مرة ثانية. كان يدور حول أكثر ما يرغب فى إنقاذه من الحطام الذى لا معنى له والذى كان حياته، الحياة العديمة القيمة لعبد لا اسم له فى تيار الزمن المكتسح.

(إنه ينظر إلى سبارتاكوس. ويراقب، وهو كالقط، هذا الرجل، وتزيد عيناه الخضراوان من الشبه بينه وبين القط. وأنت تعرف الطريقة التى يمشى بها القط، فى توتر دائم. هذه هى الطريقة التى يمشى بها هذا المجالد، فتحس أنك إذا قذفت به فى الهواء. فإنه سيهبط على الأرض فى سهولة واقفاً على قدميه. وهو لا يكاد ينظر إلى أى شخص مباشرة، إنما يرقبه، بدلا من ذلك من جانبى عينيه. وهو يراقب سبارتاكوس بهذه الطريقة، يوماً بعد يوم. ولا يستطيع أن يفسر، حتى لنفسه، الصفة التى تستدعى انتباهه إلى هذا الحد فى سبارتاكوس لكن ذلك ليس بالسر الكبير فهو محله توتر

وسبارتاكوس كله استرخاء. وهو لا يكلم أحداً، لكن سبارتاكوس يتحدث إلى الجميع. وكلهم يذهبون إلى سبارتاكوس ويحملون إليه همومهم. سبارتاكوس يدخل شيئًا إلى مدرسة المقاتلين هذه. إن سبارتاكوس يدمرها.

كلهم، عدا هذا اليهودى يأتون إلى سبارتاكوس، وسبارتاكوس يعجب لذلك. لذلك ذهب فى يوم من الأيام فى فترة الراحة بين التدريبات إلى اليهودى وتحدث إليه. سأله:

- أتتكلم اليونانية يا رجل؟

فتحدق فيه العينان الخضراوان دون أن تطرفا، ويدرك سبارتاكوس فجاة أنه أمام شاب صغير جدا، لا يكاد يزيد على كونه صبيا، لكن ذلك يختفى وراء قناع. فهو لا ينظر إلى الرجل نفسه بل إلى القناع.

ويقول اليهودى لنفسه.. اليونانية: - هل أتكلم اليونانية ؟ أظن أنى أتكلم كل اللغات؟ العبرية والأرامية واليونانية واللاتينية وكثيراً غيرها من لغات أجزاء كثيرة من العالم. لكن لماذا أتكلم أى لغة ؟ لماذا؟

ويحثه سبارتاكوس فى رقة كبيرة قائلا:

- كلمة منى، ثم كلمة منك. نحن بشر ولسنا وحيدين. يحل بك الهم الكبير عندما تحس أنك وحيد، إنه لشيء رهيب حقا أن تحس أنك وحيد. لكنا هنا لا نشعر بالوحدة. لماذا نخجل عما صرنا إليه؟ هل اقترفنا الآثام الرهيبة، لنحضر أنفسنا إلى هنا لا أظن أننا فعلنا مثل هذه الآثام الرهيبة فأولئك الذين يضعون المدى فى أيدينا ويدفعوننا إلى القتل لبعث البهجة فى نفوس الرومانيين، يقترحون أشياء أكثر فظاعة، لذلك يجب ألا نخجل ويكره الواحد منا الآخر. فالرجل لا يملك إلا قليلاً من القوة، وقليلا من الأمل، وقليلا من الحب. وهذه الأشياء كالبذور المزروعة فى كل البشر.، لكن الإنسان إذا احتفظ بهذه الأشياء لنفسه، فستذيل وتموت بسرعة كبيرة. وعند ذاك فليساعد الله ذلك الإنسان المسكين، لأنه لن يملك شيئًا، ولن تصبح الحياة بالنسبة له جديرة بالحياة. هذا

بينما إذا هو أعطى قوته وأمله وحبه إلى الآخرين، فسيجد رصيداً لا ينتهى من مثل هذه الأشياء ولن تنضب هذه الأشياء فيه أبداً. وتصبح الحياة عند ذاك جديرة بالحياة. وصدقنى، يا مجالد، إن الحياة هى أحسن شىء فى العالم ونحن نعرف ذلك. فنحن عبيد كل ما نملكه هو الحياة. لذلك نعرف قيمتها، والرمان يملكون كثيراً من الأشياء غيرها إلى حد أن الحياة أصبحت لا تعنى لهم الكثير. فهم يلهون بها. أما نحن فنأخذ الحياة مأخذ الجد، وهذا هو السبب الذى يحتم علينا ألا نترك أنفسنا للوحدة وأنت كثير الوحدة يا مجالد. حدثنى قليلا.

لكن اليهودى لا يقول شيئًا، ويظل وجهه، وتظل عيناه كما هما لا يتغيران على الإطلاق. ومع ذلك فهو يصغى. يصغى فى صمت وبقصد، ثم يستدير ويبتعد. لكنه يتوقف بعد أن يمشى خطوات قليلة، ويدير رأسه نصف استدارة، ويراقب سبارتاكوس من جوانب عينه. ويبدو لسبارتاكوس أن فيه شيئًا لم يكن فيه من قبل، شرارة، حيرة، بارقة أمل ربما.

كانت تلك البداية الفترة الثالثة من الفترات الأربع التى يمكن تقسيم حياة المجالد إليها، ومن الممكن تسمية هذه الفترة، فترة الأمل، فهذه الفترة هى التى زالت فيها الكراهية، وعرف المجالد الحب العظيم والشعور بالرفق تجاه الآخرين من بنى جنسه. ولم يحدث ذلك دفعة واحدة، ولم يحدث سريعا. إذ بدأ يتعلم الثقة بالإنسان جزءاً فجزءاً. وعن طريق ذلك الرجل، تعلم حب الحياة. وكان ذلك هو الشىء الذى أسره فى سبارتاكوس منذ البداية الأولى، الحب العظيم للحياة الذى يفيض به التراقى. فقد كان سبارتاكوس كالوصى على الحياة. ولم يكن الأمر مجرد تذوقه أو استمتاعه بحب الحياة، إنما كانت الحياة تستوعبه، كانت شيئًا لم يناقشه هو قط ولم يتعرض لفقده قط. وكان يبدو، إلى حد ما، أن هناك حلفا سريا بين سبارتاكوس وبين قوى الحياة.

تعلم المجالد داود من مراقبة سبارتاكوس أن يتبعه. وهو لم يكن يفعل ذلك تباهيا، إنما كان يفعله فى الخفاء تقريبًا. ففى أى وقت تتاح الفرصة، ولم تكن ملحوظة

مفتوحة، وكان يقف على مقربة من سبارتاكوس. وكان سمعه حادا كسمع الذئب، فكان يصغي إلى كلمات سبارتاكوس، ويأخذ هذه الكلمات معه ويكررها لنفسه ويحاول أن يتعلم ما تنطوى عليه هذه الكلمات. وخلال كل ذلك الوقت، كان شىء يحدث فى داخله. كان يتغير، كان ينمو. وكان قليل من التغيير، وقليل من النمو، يحدثان بنفس الطريقة تقريبًا، فى داخل كل مجالد فى المعهد. لكن الأمر كان مفرداً بالنسبة لداود. إذ كان ينحدر من قوم، كانت حيلتهم مليئة بالإيمان بالله. وعندما فقد هو إيمانه بالله، حدثت ثغرة فى حياته. وهو اليوم يملأ هذه الثغرة بالإيمان بالإنسان. كان يتعلم حب الإنسان، وكان يتعلم عظمة الإنسان، ولم يكن يفكر فيه من تلك الناحية، إلا أن ذلك كان ما حدث له – ولبقية المجالدين إلى حد ما.

لم يكن ذلك بالشىء الذى يستطيع باتياتوس أو يستطيع أعضاء مجلس الشيوخ فى روما الإحاطة به. إذ كانت الثورة بالنسبة لهم قد نشبت كالانفجار الشامل ودون تدبير سابق، ولم يسبقها، بالنسبة لمعلوماتهم، إعداد أو مقدمة، وهكذا دونوها إذ لم تكن أمامهم طريقة أخرى لتدوينها.

لكن المقدمة كانت موجودة ؛ عميقة، غريبة، وتنمو نموا مطردا. ولم ينس داود يوما أول مرة سمع فيها سبارتاكوس يتلو أسفاراً من الأوديسة. إذ سمع موسيقى جديدة ساحرة، قصة رجل شجاع تحمل وقاسى الكثير، لكنه لم يهزم قط، وكان الكثير من أشعاره مفهوما له. فهو قد عرف عذاب خيبة الأمل الذى يقاسيه المرأ إذا اضطر إلى البعد عن وطن يحبه. وهو قد عرف حيل القدر ذى النزوات. فقد أحب فتاة على تلال الجليل، كانت شفتاها هى حمرة الخشخاش، وخداها فى نعومة الزغب، وتألم قلبه من أجلها لأنها ضاعت منه. لكن أى موسيقى كانت تلك ! وأى روعة فى أن يستطيع عبد، عبد هو ابن عبد ولم يكن حرا ولو مرة واحدة، تلاوة أشعار لا نهاية لها عن ظهر قلب من هذه القصة الرائعة ! هل عرف العالم من قبل رجلا مثل سبارتاكوس؟ هل عرف العالم رجلا بمثل هذه الرقة وهذا الصبر، وهذا التباطؤ عن الغضب؟

. وكان يتمثل أوديسيوس الحكيم الصابر، فى ذهنه فى سبارتاكوس، وظل الاثنان منذ ذلك الوقت بالنسبة له هما نفس الشخص. ووجد، وهو الصبى عند ذاك الذى تختفى حداثة سنة تحت كل الأقنعة، وجد بطله ونموذجه فى الحياة وللحياة ممثلا فى سبارتاكوس. وكان لا يثق أول الأمر فى هذا الميل من نفسه. فهو الذى طالما قال لنفسه : لا تثق فى إنســان فلا يخيب أملك إنســان، فانتظر وراقب وترقب لسبارتاكوس حتى لا يخيب ظنه حتى اكتمل إدراكه تدريجا أن سبارتاكوس لن يقل يوماً عن سبارتاكوس – وكان الإدراك أكثر من مجرد ذلك، إذ انتهى إلى أن يفهم أن الرجل لا يقل عن نفسه. ولم يكن فهمه ذلك كاملاً، إنما كان بريقا من المعرفة لما فى الروعة والبهاء اللذين يكمنان فى مخلوق بشرى واحد من ثراء.

لذلك عندما اختير كواحد من أربعة مجالدين يتقاتلون زوجين زوجين حتى الموت إرضاء لنزوة شابين شاذين معطرين من روما، عانى صراعا نفسيا وتناقضا وضيعا لم يجربه من قبل. كان صراعا نفسيا من نوع جديد، وعندما انتصر فى هذا الصراع، نفذ لأول مرة نفاذاً حقيقيا من الغطاء الواقى الذى كان قد غلف نفسه به. كان يعيش فى تلك اللحظة عند ذاك وهو مصلوب. إذ كان الصواب قد عاد إليه من جديد وكان يصارع نفسه، وانثالت من بين شفتيه الجافتين وهو معلق على الصليب الكلمات المعذبة التى قالها لنفسه من أربع سنوات مضت.

إذ يقول لنفسه: أنا أكثر الناس لعنة فى كل العالم لأن الاختيار قد وقع على كما ترى لأقتل الرجل الذى أحبه أكثر من أى رجل حى آخر. أى قدر قاس هذا. لكن هذا هو كل ما يتوقعه المرأ من الرب أو الأرباب، أو كائناً من كانوا، الذين لا هم لهم إلا تعذيب الإنسان. فهذه هى كل رسالتهم. لكننى لم أحقق لهم ما يصبون إليه. ولن أعمل لحسابهم. فهم مثل هذين الخنزيرين الرومانيين المعطرين اللذين يجلسان إلى جانب المجتلد فى انتظار تدحرج أحشاء رجل على الرمال. حسن. لن أحقق لهم ما يصبون إليه هذه المرة. وسأحرمهم متعة مشاهدة الاثنين وهما يتقاتلان، هؤلاء القوم التعسون

الفاسدون الذين لا يجدون متعة غير هذه. سيرونني وأنا أموت. لكن مشاهدة رجل يموت لن ترضيهم ففى استطاعتهم رؤية ذلك فى أى وقت آخر. لكننى لن أقاتل سبارتاكوس فأنا أفضل أن أقتل أخى أولا. لن أفعل ذلك أبداً.

لكن ماذا بعد ذلك؟ لم يكن فى حياتى كلها أول الأمر إلا الجنون، ثم شفت الحياة هنا هذا الجنون. ماذا أعطانى سبارتاكوس؟ يجب أن أوجه لنفسى هذا السؤال، ويجب أن أجيب عنه. يجب أن أجيب عنه، لأنه أعطانى شيئًا كبير الأهمية لقد أعطانى سر الحياة. الحياة نفسها هى سر الحياة. وكل إنسان يتحيز لجانب. فأنت فى جانب الحياة، وأنت فى جانب الموت. وسبارتاكوس فى جانب الحياة، ولذلك سيقاتلنى إذا اضطر لذلك لأنه يرفض أن يسلم بالموت، ولن يسمح لهم بأن يقدموه للموت دون أن يتفوه بكلمة وأن يرد اللطمة لهم. إذ ذلك ما يجب أن أعمل. يجب أن أقاتل سبارتاكوس، وستقرر الحياة أينا يبقى. يا له من قرار رهيب يتخذه المرء! أبلغت اللعنة بإنسان ذلك الحد من قبل؟ لكن ذلك هو ما يجب أن يكون. ذلك هو ما يمكن أن يكون ولا شىء غيره.

وعاش فى الأفكار والقرار الذى اتخذه من جديد، ولم يعد يدرى أنه كان يموت مصلوبا، وأن القدر كان رحيما به إذ لم يكن من نصيبه أن يقاتل سبارتاكوس. والتقط ذهنه الذى حطمه الألم الماضى جزءاً فجزءاً، وعاشه من جديد مرة ثانية، هؤلاء هم المجالدون يقتلون مدربيهم فى قاعة الطعام. مرة ثانية، ها هم يقاتلون قوات الحراسة بالمدى وبأيدهم العارية. مرة ثانية ها هم يتقدمون عبر الريف، والعبيد يهرعون تاركين المزارع لينضموا إليهم. ومرة ثانية، ها هم يطبقون على كتائب حراسة المدن ليلا ويبيدونهم على بكرة أبيهم ويغنمون سلاحهم ودروعهم. كل ذلك، عاش فيه مرة ثانية، عاشه، لا تبعا للمنطق أو لتاريخ الحوادث أو فى يسر، إنما ككرة من اللهب الساخن تقذف إلى الوراء خلال الزمن.

ويقول : سبارتاكوس، سبارتاكوس؟ كانوا قد خاضوا معركتهم الثانية الكبيرة عند ذاك. وأصبح العبيد جيشاً. كانوا يبدون كالجيش فعندهم أسلحة ودروع عشرة آلاف

جندى رومانى، وأصبحوا يصطفون بالمئات، وبمئاتهم الخمس. وأصبح معسكرهم الليلى حصنا يحيط به جدار من الخشب وخندق كالحصن الذى تقيمه الفيالق وهى تتقدم. وكانوا يتدربون أربع ساعات يوميا على قذف الحربة الرومانية، وطبقت شهرتهم، والخوف المفزع مما أقدموا عليه معروف فى كل أنحاء العالم. وأصبح فى كوخ كل عبد، وفى كل ثكنات للعبيد همس يدور حول شخص يدعى سبارتاكوس أشعل النار فى العالم. أجل لقد فعل ذلك. وأصبح له جيش عظيم. وعن قريب سيهاجم روما نفسها، وسيمزق جدران روما فى غضبته. وهو يحرر العبيد حينما يذهب، وكل ما يحصل عليه من مغانم وأسلاب يدخل إلى بيت المال ملكًا للجميع – كما كان الحال فى الأيام الخالية عندما كانت القبيلة تملك كل شىء ولم يكن الفرد يملك ثروة. وجنوده لا يملكون شيئًا سوى أسلحتهم والملابس التى يرتدونها فوق ظهورهم والأحذية التى ينتعلونها فى أقدامهم. هذا هو سبارتاكوس اليوم.

ويقول .. سبارتاكوس ..

وعادت القدرة على الكلام إلى هذا اليهودى داود شيئًا فشيئًا: إذ أصبح يتكلم فى بطء وتردد، لكنه يتكلم. وها هو ذا يتحدث إلى قائد العبيد.

– سبارتاكوس، أنا مقاتل بارع. ألست كذلك؟

– بارع، بارع جدا. أبرع مقاتل. أنت تقاتل ببراعة.

– ولست جبانا، هل تعرف ذلك؟

فيقول سبارتاكوس:

– عرفت ذلك منذ زمن بعيد، فأين المجالد الجبان؟

– ولم أجبن يوما عن القتال؟

– أبدًا.

– وعندما انقطعت أذنى عن رأسى، ضغطت على أسنانى ولم أصرخ من الألم قط.

فيقول سبارتاكوس:

– ليس من العار أن تصرخ من الألم. لقد عرفت رجالا أقوياء يصرخون من الألم. وعرفت رجالا أقوياء يبكون عندما تمتلئ نفوسهم بالمرارة. ليس فى ذلك ما يخجل.

– لكننا، أنت وأنا لا نبكى. وسأصبح فى يوم من الأيام مثلك يا سبارتاكوس.

– بل ستصبح خيراً منى. فأنت مقاتل تفوقنى براعة.

– لا. لن أصبح أبداً نصف ما أنت عليه، لكننى أظن أنى أقاتل جيداً. فأنا سريع جدا. كالقط. فالقط يستطيع أن يرى الضربة وهى قادمة. والقط يرى من خلال جلده. وأنا أشعر بمثل ذلك أحيانا، بل أرى على الدوام تقريباً، الضربة وهى قادمة. وهذا ما يدفعنى إلى أن أطلب منك شيئًا. أريد أن أطلب منك هذا، أريد أن تبقينى إلى جانبك. فى أى وقت تقاتل، أريد أن أكون إلى جانبك. فسأحميك. لأننا إذا فقدناك، فقدنا كل شيء. فنحن لا نقاتل من أجل أنفسنا إنما نقاتل من أجل العالم بأسره. ولهذا أريد منك أن تبقينى إلى جانبك دائماً عندما تقاتل.

– لكن هناك أشياء تستطيع القيام بها أكثر أهمية من الوقوف إلى جانبى. إنا فى احتياج إلى رجال يقودون جيشاً.

– والرجال فى حاجة إليك : هل طلبت الكثير؟

– بل أنت تطلب القليل جدا يا داود وأنت تطلبه لأجلى لا لنفسك.

– إذن قل لى إن ذلك هو ما تريد.

ويحنى سبارتاكوس رأسه موافقاً.

- ولن يصيبك ضرر فى يوم من الأيام. سأحرسك ليلاً ونهاراً. سأحرسك.

وهذا أصبح الساعد الأيمن لقائد العبيد. هو، الذى لم يعرف طيلة حياته الشابة إلا إراقة الدماء والكدح والعنف، أصبح يرى يومذاك آفاقا مشرقة ذهبية. وبدأت نتيجة ثورتهم تزداد وضوحًا ووضوحًا فى ذهنه. ما دامت غالبية سكان العالم من العبيد، فسيصبحون عما قريب قوة لا يطاولها شىء. وعند ذاك ستختفى الفواصل بين الشعوب والمدن، ويعود العصر مرة ثانية. إذ تقول أقاصيص وأساطير كل شعب إنه كان فى يوم من الأيام عصر ذهبى عاش فيه البشر بلا خطيئة ولا ضغينة، وعاش فيه البشر معا فى حب وسلام، لذلك فعندما ينتصر سبارتاكوس والعبيد على العالم بأسره، سيعود ذلك كله مرة ثانية. وسيكون إعلان ذلك بالموسيقى العظيمة بطرق الصنوج، والنفخ فى الأبواق وإنشاد كل البشر معا وهم يقدمون الحمد والشكر.

وسمع فى تلك اللحظة فى ذهنه المحموم ذلك الإنشاد الجماعى، وسمع النغم المزدهى لصوت البشر، إنشادا جماعيا تتعالى أصداؤه من سفوح الجبال.

وهو وحده مع فارينيا. وهو عندما ينظر إلى فارينيا، يختفى العالم الحقيقى ويذوب ولا يبقى إلا هذه المرأة التى هى زوجة سبارتاكوس. وهى بالنسبة لداود أجمل امرأة فى العالم وأكثرهن فتنة، وحبه لها كدودة تنهش أحشاءه. كم من مرة قال فيها لنفسه:

- أى مخلوق حقير أنت لتحب زوجة سبارتاكوس؟ فأنت مدين لسبارتاكوس بكل ما تملك فى هذه الدنيا. أهكذا تؤدى له دينه؟ تؤديه له بأن تحب زوجته؟ يا له من عمل قبيح حتى وإن كنت لا تجهر به، حتى وإن كنت لا تظهره، وزيادة على ذلك، فهو شىء لا جدوى منه. انظر إلى نفسك. أمسك بمرآة أمام وجهك، أشهد العالم يومًا مثل هذا الوجه الصارم الوحشى، كوجه الصقر، وتنقصه أذن، وتشوهه القطوع وآثار الجروح؟

وهذه فارينيا تقول له:

– يا لك من صبى غريب يا داود! من أى بلد أنت؟ هل كل قومك على شاكلتك؟ ما أنت إلا صبى لكنك لا تبتسم أبدًا ولا تضحك على الإطلاق. أى تكوين غريب هذا؟

– لا تقـــولى صـبيـا يــا فارينيا. لقد أثبت أنى أصبح فى بعض الأحيان أكثر من صبى.

– هل فـعلت ذلك حـقـا؟ حسن. لن تـخدعنى. ما أنت إلا صـبى يجب أن تكون لك فتاة تصاحبها وتمشيان معا عندما يكون المساء رائعا.

ألا يوجد الكفاية من الفتيات؟

– عندى عمل أؤديه، لا وقت عندى لذلك.

– لا وقت للحب؟ أوه، يا داود. داود أى كلام تقول؟

يا له من قول غريب!

فيجيبها فى دهشة قائلا:

– وأين نصـبح، إذا لم يعن كل واحـد بعـمله؟ أتظنين أن قـيـادة الجـيش، وإيجـاد الطعام لكل هذه الآلاف الكثيـرة كل يوم، وتدريب الرجـال، عـبث أطفـال؟ علينا أن نقوم بأهم شىء فى العالم، وتريدين منى أن أغازل الفتيات! لا وقت عندى لذلك .

– لا أريد منك أن تغازلهم يا داود، إنما أريدك أن تصاحبهم.

لا وقت عندك؟ حسن. كيف يكون حالى، إذا قال سبارتاكوس إنه لا وقت عنده لى؟ كنت أرغب فى الموت فيما أظن. ليس هناك ما هـو أهم من أن تكون رجلا، مجـرد رجل بسيط، عادى، إنسانى. أنا أعرف أنك تظن سبارتاكوس شيئًا أكثر من رجل. هو ليس كذلك، ولو أنه كان لما أصبحت له قيمة على الإطلاق. ليس سبـارتاكوس سرا كبيرا . أنا أعرف ذلك فالمرأة عندما تحب الرجل، تعرف عنه الكثير.

ويستجمع كل شجاعته ويقول:

– أنت تحبينه، أليس كذلك؟

– ماذا تقول يا صبى؟ أنا أحبه أكثر مما أحب الحياة . أنا أموت من أجله إذا أراد منى ذلك .

ويقول داود:

– أنا أموت من أجله.

– ذلك شىء آخر. فأنا أراقبك فى بعض الأحيان عندما تنظر إليه. ذلك شىء آخر. فأنا أحبه لأنه رجل. وهو رجل بسيط. لا تعقيد فيه. هو بسيط، ورقيق، لم يرفع صوته على قط، ولم يرفع على يداً. بعض الرجال يمتلئون بالأسف على نفوسهم، لكن سبارتاكوس لا يشعر بالأسف على نفسه أو بالرثاء. لا فهو لا يأسف على ولا يرثى إلا للآخرين. كيف تسأل عما إذا كنت أحبه؟ ألا يعرف كل إنسان هنا مقدار حبى له؟

– ٧ –

وهكذا كان ذلك المجالد الأخير يتذكر، فى فترات من آلامه، بوضوح وبدقة كبيرين، أما فى الفترات الأخرى فكانت الذكرى وحشية مخيفة، وأصبحت إحدى المعارك كابوسا من الأصوات المفزعة، ومن الدماء والعذاب، ومن كتل الرجال الهائجة فى حركة متوحشة لا سلطان عليها. فقد أدرك العبيد عند نقطة أو أخرى خلال العامين الأولين من ثورتهم، أن كتل العبيد التى تعمر العالم الرومانى لن تهب أو لن تستطيع أن تهب وتنضم إليهم. كانوا عند ذاك قد بلغوا منتهى قوتهم. أما قوة روما فتبدو كما لو كانت لا نهائية. ويتذكر من تلك الفترة، معركة خاضوها، معركة رهيبة شديدة الضخامة فى حجمها، شاسعة فى أعداد الرجال الذين خاضوها لدرجة أن سبارتاكوس والرجال المحيطين به لم يستطيعوا خلال معظم اليوم وطول الليل إلا تخمين سير المعركة. ورأى سكان كابوا الذين كانو يرقبون المجالد المصلوب، كيف أخذ جسده ينتهى ويتلوى خلال تلك الذكرى، وكيف سال اللعاب الأبيض من بين شفتيه، وكيف أخذت أطرافه تنتفض

كل على حدة فى ألم متشنج. وسمعوا أصوات تخرج من فمه، وقال كثير من بينهم:

– لم يبق عليه إلا القليل. لقد انتهى تماماً.

كانوا قد اتخذوا مواقعهم على قمة تل، تل طويل، له حافة طويلة منحدرة على كل من جانبيه. وكانت مشاتهم العديدة تنتشر على قمة التل مسافة نصف ميل فى كلا الاتجاهين. وكان أمامهم واد جميل يجرى فى وسطه نهر صغير ضحل، نهر صغير متعرج ينحني أماما وخلفا، والحشائش الخضراء تكسو قاع الوادى، والأبقار ثقيلة الأثداء تمضغ الحشائش. وكان فى الجانب الآخر من الوادى حافة من الأرض أخذت عندها الفيالق الرومانية مواقعها. وكان سبارتاكوس قد أقام مقر قيادته فى وسط جيشه، فسطاط أبيض أقيم على رابية تطل على المنطقة بأسرها. وكان يدور فى ذلك الفسطاط ما كان قد أصبح عند ذاك من الضروريات الدائمة لمقر قيادة معركة، إذ كان يجلس سكرتير وأمامه أدوات الكتابة والورق. ويقف خمسون عداء على استعداد للاندفاع فى الحال إلى أى جزء من ميدان المعركة. وأقيم صار لجندى الإشارة الذى يقف على صارية يحمل أعلامه المختلفة ذات الألوان البراقة. وكانت تعد خريطة كبيرة لمنطقة القتال على منضدة طويلة فى وسط الخيمة الكبيرة.

تلك كانت أساليب العبيد، وهى التى استنبطوها خلال عامين من الحملات المريرة، تماما كما استنبطوا لأنفسم خطط القتال فى المعركة. ها هم قادة الجيش يقفون حول المنضدة، يتطلعون إلى الخريطة، ويتحققون من صحة المعلومات التى تتناول حجم ونوع القوات التى تواجههم. ثمانية رجال حول المنضدة. فى أحد أطرافها يقف سبارتاكوس، وداود إلى جواره. ولو أن غريبا تطلع إليه لأول وهلة، لقال إن ذلك الرجل، سبارتاكوس، فى الأربعين على الأقل. فقد خط الشيب شعره الجعد وأضحى أنحف من قبل، ونشأت هالات سوداء تحت عينيه لحاجته إلى النوم.

وسيقول من يراه، إنه فى سباق مع الزمن. وإنه يحمل الزمن على كتفيه، وإن الزمن يركبه، وستكون تلك ملاحظة حاذقة لأن الرجل الذى يهيب بالعالم كله ويناديه، لا يوجد إلا مرة واحدة فى كل فترة، ومرة فى كل عدد من السنين وعلى مر القرون. وتمر القرون ويغير العالم وجهته، لكن ذكرى هذا الرجل تخلد على الدوام. ولم يكن ذلك الرجل منذ زمن قصير إلا مجرد عبد، أما اليوم فمنذا الذى لم يسمع باسم سبارتاكوس؟ لكنه لم يجد من الوقت المتسع للتوقف وإمعان الفكر فيما أصابه. وكان هو أقل الناس قدرة على إيجاد الوقت للتفكير فيما حدث داخل نفسه، خلال عامين، الأمر الذى أحاله من الرجل الذى كانه إلى الرجل الذى أصبحه اليوم. فهو اليوم قائد الجيش من نحو خمسين ألف رجل، وهو من بعض النواحى أحسن جيش عرفه العالم على الإطلاق.

فهو جيش يحارب من أجل الحرية فى أبسط صورها وأبعدها عن الزخرف. والعالم قد شهد فى الماضى جيوشا لا نهاية لها، جيوشا حاربت من أجل الاستيلاء على شعوب أو مدن أو ثروة أو مغانم أو قوة أو سيطرة على هذه المنطقة أو تلك، لكن هذا يحارب من أجل الحرية والكرامة الإنسانية، جيش لا يدعى مكليات أرض أو مدينة لأن أفراده تجمعوا من كل البلاد والمدن والقبائل، جيش يشترك كل جندى فيه فى ميراث عام من العبودية والكراهية الشاملة لمن جعلوا من غيرهم من الرجال عبيداً. هذا هو جيش أخذ على نفسه أن ينتصر، فهو لا يملك الجسور التى يتراجع عليها، ولا الأرض التى يحتمى بها أو يستريح عليها، وهذه لحظة تتغير فيها حركة التاريخ، فهى بداية، وهى انتفاضة، وهى همة بلا كلام وهى نذير، وهى وميض من النور ينذر برعد يهز الأرض وبرق يعمى الأبصار. هو جيش تفتحت بصيرته فجأة على أن النصر الذى أخذ على نفسه أن يحرزه، يجب أن يغير العالم، وهو لهذا يجب أن يغير العالم أو لن ينتصر.

ولعل سؤالا يقوم فى ذهن سبارتاكوس، وهو يقف أمام الخريطة متأملا: عن كيف خرج هذا الجيش إلى الوجود. ويفكر فى حفنة المجالدين الذين شقوا طريقهم خارجين

من مدرسة متعهد المجالدين البدين، ويعتبرهم حربة مندفعة تبعث الحركة فى بحر من الحياة، كى ينفجر فجأة سكون عالم العبيد الصابر واستقراره. ويفكر فى الصراع الذى لا نهاية له لتحويل هؤلاء العبيد إلى جنود، وفى حملهم على العمل معا والتفكير معا، ثم يحاول أن يفهم لماذا توقفت الحركة.

لكن الوقت الآن لا يسمح بالكثير من مثل هذا التفكير لأنهم ذاهبون الآن إلى القتال. ويثقل قلبه الخوف. فهذه عادته قبل المعركة، وعندما تبدأ المعركة يتبدد كثير من هذا الخوف، لكنه يشعر بالخوف فى تلك اللحظة: فينظر إلى رفاقه حول المنضدة، لماذا تبدو وجوههم بمثل هذا الهدوء ؟ ألا يشاركونه خوفه ؟ ويرى كريكسوس، الغالى ذا الشعر الأحمر ، وعينيه الصغيرتين الزرقاوين غائرتين وهادئتين فى وجهه الأحمر النمش، وشاربه الأصفر الطويل ينزل ملتفا حول ذقنه. وهذا جانيكوس، صديقه وأخوه فى العبودية وفى القبيلة. وهذا كاستوس، وفراكسوس، ونوردو، الإفريقى الأسود ذو الأكتاف القوية، وموسار، المصرى النحيل، الرقيق، الحاضر البديهة، واليهودى داود - لا يبدو على واحد منهم الخوف. لماذا هو خائف إذن؟

ويقول لهم عند ذاك فى حدة:

- حسن يا أصدقائى - ماذا سنفعل ؟ أنقف هنا اليوم كله، نخمن نحو ذلك الجيش المرابط فى الجانب الآخر من الوادى؟

فيقول جانيكوس:

- إنه جيش كبير جدا. إنه أكبر من أى جيش رأيناه أو قاتلناه، أنت لا تستطيع عدهم، لكنى أستطيع أن أخبرك أننا قد ميزنا أعلام عشرة فيالق. لقد استدعوا الفيلقين السابع والثامن من بلاد الغال، وستدعوا أكثر من ثلاثة فيالق من إفريقيا واثنين من إسبانيا. لم أر من قبل جيشا مثل هذا، لم أره طيلة أيام حياتى، يجب أن يكون عدد الرجال المرابطين فى الجانب الآخر من الوادى سبعين ألفًا.

وكريكسوس هو من يتطلع دوما إلى الخوف أو التردد. ولو أن الأمر كان بيد كريكسوس، لكانوا قد استولوا على العالم كله بالفعل. فليس له إلا شعار واحد- غزو روما - كفوا عن قتل الفئران وأحرقوا عشهم. ويقول عند ذاك:

- أنت تتعبنى يا جانيكوس. لأن جيش الأعداء بالنسبة لك هو دائمًا أكبر جيش؛ والوقت على الدوام هو أسوأ وقت للمعركة. سأقول لك شيئًا، أنا لا أهتم مثقال ذرة بجيشهم. ولو أن الأمر بيدى، لهاجمتهم الآن، فى هذه اللحظة، وليس بعد ساعة أو يوم أو أسبوع من الآن.

ويريد جانيكوس أن يدفع عن نفسه اللوم، فيقول: إن من المحتمل أن يقسم الرومانيون قواتهم. فقد فعلوا ذلك من قبل وقد يفعلونه مرة ثانية.

فيقول سبارتاكوس :

- لن يفعلوا. ولك أن تثق برأيي هذا. إذ ما الذى يدفعم إلى ذلك؟ نحن كلنا هنا أمامهم. وهم يعلمون أننا كلنا هنا. ما الذى يدفعهم إلى ذلك إذن؟

- عدد كبير - سبعون ألفًا على الأقل.

فيهز سبارتاكوس رأسه مكتئبًا ويقول:

- أوه .. هذا عدد كبير، عدد كبير جدا. لكنى أظنك على حق، نحن مضطرون إلى قتالهم هنا.

ويحاول أن يظهر بمظهر المستخف، لكن قلبه لا يحسن الاستخفاف على الإطلاق.

ويقررون أن يبدءوا هجومهم على جناح الجيش الرومانى بعد ثلاث ساعات، لكن المعركة تبدأ قبل ذلك. إذ ما يكاد مختلف القادة يعودون إلى كتائبهم، حتى يشن الرومانيون هجومهم على وسط جيش العبيد. وليس فى المعركة من تكتيك عسكرى معقد.

ويقول موسار المصرى:

- أنا أتفق لأول مرة مع كريكسوس، وذلك شيء نادراً ما يحدث، لكنه على صواب هذه المرة. ذلك جيش كبير هناك عبر الوادى، وستضطر إلى قتاله إن آجلا أو عاجلا. ولعل من الأفضل أن يحدث ذلك عاجلاً. فهم قادرون على البقاء أكثر منا لأنهم سيأكلون ولن نجد نحـن ما نأكله بعد فترة من الزمان. وإذا تحركنا، وجدوا الفرصة التى يبغونها.

فيسأله سبارتاكوس قائلا:

- كم عدد رجالهم فيما تظن؟

وليس فيها مناورات بارعة. إذ يقوم فيلق بالهجوم كرأس الحربة على قلب جيش العبيد، كحربة يلقونها على مقر القيادة، ويتدفق الجيش الرومانى الضخم بأسره مهاجما خلف الفيلق. ويظل داود إلى جانب سبارتاكوس، ويستطيعان من مقر القيادة أن يوجها دفاعا متناسقا لمدة تقل عن الساعة. ثم يحيط بهما القتال ويبدأ الكابوس. ويتحطم الفسطاط وتجرفهما المعركة كالطوفان، ويزأر إعصار حول سبارتاكوس.

هذا هو القتال. الآن يستطيع داود أن يدرك أنه فى معمعة القتال، وأن كل شيء آخر إلى جانب هذا، هو مجرد مناوشة في هذه اللحظة لا يصبح سبارتاكوس قائداً لجيش كبير، إنما يصبح مجرد رجل يحمل سيفا، والدرع المربع الذى يحمله الجندى ويقاتل كالجحيم نفسها. تتمخض المعركة من حولهما. وتقودهما المعــركة بعــيداً، منفــردين، فيقاتلان من أجل حياتهما. ثم يهرع مئات الرجال لمساعدتهما، ويتطلع داود إلى سبارتاكوس فيرى التراقى يضحك من خلف الدم والعرق.

ويصيح قائلاً :

- يا له مـن قتال . ما هذا القتال يا داود؟ هل ستقدر لنا الحياة فى قتال مثل هذا لنرى الشمس وهى تشرق؟ من يدرى؟

ويفكر داود قائلاً .. إنه يجب القتال. أى رجل غريب هذا، انظر كيف يحب المعركة. انظر كيف يقاتل. إنه يقاتل مثل بطل من أبطال أساطير الشمال القدامى، إنه يقاتل كواحد من أبطال تلك الأغنية التى يغنيها وهو لا يدرى أنه يقاتل بنفس الطريقة هو الآخر، وأنه يجب أن يقتل قبل أن تمس حرية سبارتاكوس. فهو كالقط الذى لا يتعب أبداً، قط كبير، قط الغاب، وسيفه كالمخلب. وهو لا ينفصل عن سبارتاكوس أبداً، والطريقة التى يستطيع بها البقاء دائمًا إلى جواره، تحمل المرء على الظن بأنه موصول بسبارتاكوس، وهو لا يرى إلا القليل جدا من المعركة. لا يرى إلا ما هو أمامه وأمام سبارتاكوس مباشرة، لكن فى ذلك الكفاية. ويعرف الرومانيون أن سبارتاكوس فى هذا المكان، فينسون الحركات الرسمية للفرق التى يتدرب عليها جنودهم سنوات ليتقنوها. ويتجمهرون، يدفعهم ضباطهم، يقاتلون ويخدشون للوصول إلى سبارتاكوس، لجره أرضا، لقتله، لقطع رأس الوحش. ويزداد اقترابهم منه إلى حد أن يستطيع داود سماع كل الشتائم القذرة تنهال من أفواههم. إذ يعلو صوتها على زئير المعركة المدوى. لكن العبيد يعلمون كذلك أن سبارتاكوس فى ذلك المكان، فيتدفقون من الجانب الآخر إلى قلب المعركة.

ويحملون اسم سبارتاكوس عاليًا كالعلم، ويتماوج فوق كل ميدان القتال كالعلم، سبارتاكوس! وتستطيع سماعه على بعد أميال من المعركة ويسمعون صوت المعركة فى مدينة مسورة على بعد أميال خمسة من الميدان.

لكن داود يسمعه دون أن يصغى لأنه لا يعرف شيئًا إلا ما يقاتله وإلا ما هو أمامه. وتزداد المعركة وحشية، بينما قوى المجالد تخور وتضعف، وتجف شفتاه، ولا يدرى أن المعركة تمتد عن ميلين من الأرض. ولا يدرى أن كريكسوس قد حطم فيلقين وأنه يطاردهما. هو لا يعرف إلا ذراعه وسيفه وسبارتاكوس المجاور له. وهو لا يدرك حتى أنهما شقا طريقهما مقاتلين نازلين سفح التل إلى قاع الوادى حتى تبدأ أقدامه تغوص إلى المفصل فى الأرض المعشبة الرخوة ثم ينزلان إلى النهر. ويستمر القتال

وهما واقفان فى الماء غارقين فيه حتى الركبة، والماء يجرى أحمر قانيا كالدماء. وتغرب الشمس، وتستحيل السماء كلها حمراء، تحية مرّة منها إلى آلاف الرجال الذين يملئون الوادى بكراهيتهم وصراعهم. وتخف المعركة فى الظلام لكنها لا تتوقف قط. ويغمس العبيد رءوسهم فى مياه النهر الدامية تحت ضوء القمر البارد، ويشربون ويشربون لأنهم إن لم يشربوا ماتوا.

ومع بزوغ الفجر يتحطم الهجوم الرومانى. من فى حياته كلها قاتل رجالا مثل هؤلاء العبيد؟. مهما كان العدد الذى تقتله منهم، يأتى غيرهم وهم يصيحون ويصرخون ليحلوا محلهم. وهم عندما شاع بين الناس، أن المقاتل يموت، فتر الاهتمام به. وما إن شارفت الساعة العاشرة على صلبه، وكانت فى منتصف بعد الظهر، حتى لم يكن قد تبقى لرؤيته إلا حفنة من أكثر أنصار الصلب تمسكا برأيهم - هم وقليل من الصعاليك الشحاذين والمتعطلين الجربى الذين لا مكان لهم بين المباهج المثمرة الكثيرة التى تحفل بها مدينة مثل كابوا بعد الظهيرة. صحيح أنه لم يكن فى كابوا أى سباق فى ذلك الوقت، ولكن لا شك أن أحد المجتلدين الرائعين كان مشغولا بشىء ما. ولما كانت كابوا مدينة شهيرة بالنسبة للسياح، كان من بين مفاخر مواطنى كابوا الأثرياء أن يعقدوا المقاتلات الزوجية لمدة أقلها ثلاثمائة يوم كل عام. وكان فى كابوا مسرح ممتاز، وعدد من بيوت الدعارة العامة الكبيرة تعمل بطريقة مفضوحة لا يرضون عنها فى روما. وكانت النساء من كل جنس وكل شعب يعملن فى مثل هذه الأماكن، وقد دربن خصيصا لاجتذاب أكبر عدد من الناس. وكان فى المدينة كذلك حوانيت فاخرة، وسوق للعطور، وحمامات، وألوان كثيرة من الرياضات البحرية فى الخليج الجميل.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يكون مجالد مصلوب يموت مجرد متعة عابرة. ولو لم يكن بطل التصفية، لما ألقى عليه إنسان أكثر من نظرة واحدة. ولم يعد، حتى مع كونه بطلا، موضع اهتمام كبير. وأعلن التجار الأثرياء الثلاثة الذين يتزعمون الجالية اليهودية الصغيرة فى المدينة فى رسالة موجهة إلى مواطنى روما كاملى الأهلية الذين

يقطنون كابوا تبرئتهم من أى معرفة به أو مسئولية عنه. وأعلنوا أن كل عناصر الثورة والتمرد قد استؤصلت من بلادهم. وأشاروا كذلك إلى أن الختان ليس دليلا على الأصل اليهودى. فالختان واسع الانتشار بين المصريين والفينيقيين وحتى بين الفرس. كما أنه ليس من طبيعة اليهود أن يتهجموا على القوة التى أقرت حالة من السلام والرخاء والنظام الحميد العاقبة فى مظعم أنحاء العالم. وهكذا وصل المجالد إلى أبواب الموت فى وحدة وازدراء وألم بعد أن تخلى عنه الجميع من كل جانب. ولم يعد مصدر تسلية للجنود، ولم يعد يعنى إلا القليل من المتفرجين. اللهم إلا امرأة عجوزا تعسة جلست وقد عقدت يديها حول ركبتها وراحت تحدق فى الرجل المعلق فوق الصليب. وبدأ الجنود يغيظونها من باب الترويح عن النفس.

فقال واحد منهم:

– هيه يا جميلة، بماذا تحلمين أمام هذا الرجل المعلق هناك؟

وسألها آخر:

– هل نفك قيوده ونعطيه لك؟

فقالت:

– يا له من أسلوب للحديث. أى ناس أنتم! يا لها من طريقة لمخاطبتى.

– أوه، أنا أعتذر يا مولاتى.

وبدأ الجنود ينحنون لها واحد بعد الآخر انحناءات عميقة ولفتت حركاتهم أنظار المتفرجين القلائل فتجمهروا حولهم.

وقالت العجوز:

– أنا لا أعبأ مثقال ذرة باعتذاراتكم. قذارة. أنا قذرة وأنتم أقذار أستطيع أنا أن أزيل قذارتى فى الحمامات، أما أنتم فلا.

ولم يعجبهم أن يكون للسخرية طرفان. وعاد شعورهم بالسلطان يؤكد نفسه، فتصلبوا والتمعت عيونهم. وقال واحد منهم:

– اهدئى يا سيدتى العجوز وامسكى لسانك.

– أنا أقول ما أشاء.

– إذن فاذهبى واستحمى ثم عودى. فأنت منظر للمشاهدة فى جلستك هذه عند أبواب المدينة وبمنظرك هذا.

فضحكت هازئة منهم وقالت:

– أنا منظر للمشاهدة حقا، أنا منظر مخيف. هيه؟ أى ناس أنتم أيها الرومانيون؟ أنظف ناس فى العالم، ألا يعتبر رومانيا من لا يستحم كل يوم حتى ولو كان عاطلاً كغالبيتكم، ويمضى كل أصباحه فى المقامرة وكل أمسياته فى المجتلد. إنه نظيف ملعون.

– كفى أيتها السيدة العجوز. أغلقى فمك.

– ليس كافيا على الإطلاق. أنا لا أستطيع أن أستحم. فأنا أمة والعبيد لا يذهبون إلى الحمامات. وأنا عجوز مستهلكة ولا تستطيعون عمل أى شىء لى. ولا شىء واحد. فأنا أجلس فى الشمس ولا أضايق أحدا. لكنكم لا تحبون ذلك. أليس كذلك؟ أنا أذهب مرتين كل يوم إلى بيت سيدى فيعطينى حفنة من الخبز الطيب، خبز روما الذى يزرعه العبيد ويحصده العبيد ويطحنه العبيد ويخبزه العبيد. وأمشى فى الشوارع، فأى شىء مما أرى ليس من صنع أيدى العبيد؟ أتظنون أنكم تخيفوننى؟ أنا أبصق عليكم.

وبينما كان ذلك يدور، عاد كراسوس إلى الباب الأبيوسى كان لم ينم إلا قليلا، كما يفعل الناس عادة عندما يحاولون أن يعوضوا بالنهار بقية ما كان من الضرورى أن يعملوه فى الليلة السابقة. ولو أن أحداً سأله لماذا عاد إلى مكان الصلب، لكان من

المحتمل أن يهز كتفيه. لكنه كان فى حقيقة الأمر يعرف لماذا عاد. فقد كان شطر كبير من حياة كراسوس ينتهى مع موت ذلك الرجل، آخر المجالدين وسيد الناس كراسوس، لا كرجل واسع الثراء فحسب، بل على أنه الرجل الذى أخمد ثورة العبيد.

وذلك شيء من اليسير أن تقوله، ولكن ليس من اليسير أن تعمله. فكراسوس لن يفصل نفسه طيلة حياته عن ذكرياته عن حرب العبيد. فسيعيش مع تلك الذكريات، ينهض من نومه بها، ويذهب إلى فراشه معها. ولن يقول يوما لسبارتاكوس وداعا حتى يموت هو كراسوس.

عند ذاك ينتهى الصراع بين سبارتاكوس وكراسوس، ولكنه لن ينتهى إلا حينذاك، لذلك عاد كراسوس فى ذلك الوقت إلى باب المدينة ليعيد النظر إلى كل ما تبقى على قيد الحياة من خصمه.

وكان ضابط جديد هو المسئول عن تلك النوبة، لكنه عرف القائد - كغالبية الناس فى كابوا - فبذل كل جهده ليكون مفيداً وكيسا. لدرجة أنه اعتذر لقلة من تبقى من الناس لرؤية المجالد يموت.

- إنه يموت بسرعة كبيرة، وهذا أمر مثير للدهشة. فقد كان يبدو من النوع القوى الذى يبقى طويلا. وكان من الممكن أن يظل حيا على الصليب ثلاثة أيام. لكنه سيموت قبل الصباح.

فسأله كراسوس قائلاً:

- كيف عرفت؟

تستطيع أن تعرف ذلك بالتجربة. فقد شاهدت كثيراً من عمليات الصلب الكبيرة، وكلهم يتبعون نفس النظام. اللهم إلا إذا اخترقت المسامير عرقا رئيسيا فينزف المصلوب حتى الموت بسرعة كبيرة. ومع هذا، فهذا الرجل لا ينزف كثيراً. كل ما فى

الأمر أنه لا يرغـب فى الحياة بعد الآن، وعندما يحدث ذلك فهم يموتون بسرعة لم تكن تظن أن الأمر سيكون كذلك؟

فقال كراسوس:

– لا شىء يدهشنى.

– أظن ذلك. أعتقد بعد كل ما شاهدت.

وفى تلك اللحظة، وضع الجنود أيديهم على المرأة العجوز، فلفتت صرخاتها الثاقبة، وهى تحاول التخلص منهم، انتباه القائد والضابط المنوط بحراسة باب المدينة. فخطا كراسوس أماما وألم بما يدور فى نظرة سريعة، وقال يخاطب الجنود فى قسوة:

– أى مجمومة رائعة من الأبطال أنتم! دعوا السيدة العجوز وشأنها .

وحملتهم لهجة صوته على الطاعة، فأخلوا سبيل المرأة. وعرف واحد منهم كراسوس، فهمس بذلك للآخرين، وعند ذاك تقدم إليهم ضابط الحراسة وأراد أن يعرف حقيقة الأمر وهل لم يجدوا ما يشغلون به وقتهم خيراً من ذلك.

– كانت سليطة تتحدث بلغة قذرة.

فقهقه واحد من الرجال الواقفين. فقال الضابط يخاطب المتسكعين:

– ابتعدوا عن هنا، كلكم.

فتراجعوا عدة خطوات، لكنهم لم يبعدوا كثيراً . ورمقت العجوز الدردبيس كراسوس فى مكر، وقالت:

– إذن فالقائد الكبير هو من يحمينى.

فسألها كراسوس قائلا:

– من أنت أيتها الساحرة العجوز؟

– أيها الرجل العظيم، هل يجب أن أركع أمامك، أم أن أبصق على وجهك؟

فصاح الجندى يقول:

– أرأيت؟ ألم أقل لك؟

فسألها كراسوس:

– أجل .. حسن الآن، ماذا تريدين أيتها العجوز؟

– كل ما أريده أن يدعونى وشأنى. لقد خرجت إلى هنا لأرى رجلا طيبا يموت، ويجب ألا يموت وحيداً . فجلست أرقبه وهو يموت. وأقدم له قربانا من الحب. وأقول له إنه لن يموت أبداً ، فسبارتاكوس لم يمت قط. سبارتاكوس حى لا يموت.

– عم تتكلمين بحق السماء يا عجوز؟

ألا تعرف عم أتكلم يا ماركوس ليكينيوس كراسوس؟ إنما أتكلم عن سبارتاكوس. أجل، أنا أعرف لماذا جئت إلى هنا .

– لا أحد غيرى يعرف. هم لا يعرفون، لكنك أنت وأنا نعرف أليس كذلك؟

فأمر ضابط الحراسة الجنود أن يمسكوا بها ويجروها بعيدا فما هى إلا غرارة عجوز قذرة، لكن كراسوس أبعدهم بإشارة منه فى غضب وقال:

– قلت لكم دعوها وشأنها، وكفوا عن إظهار شجاعتكم أمامى إذا كنتم على هذا القدر من الشجاعة، فقد تحبون أن تكونوا جميعا فى فيلق بدلا من مصيف. فى استطاعتى أن أعنى بنفسى. فى استطاعتى أن أدافع عن نفسى أمام سيدة عجوز.

فابتسمت العجوز وقالت:

– أنت خائف.

– من أى شىء أخاف؟

– خائف منا، ألست كذلك؟ كلكم تعانون مثل هذا الخوف. ولهذا السبب جئت أنت إلى هنا. لتراه وهو يموت. لتتأكد من أن آخرهم قد مات. يا إلهى، ماذا فعل بكم بعض العبيد؟ فأنتم ما زلتم خائفين. وحتى بعد أن يموت، هل تظنون أن فى ذلك النهاية؟ أتظن فى ذلك النهاية يا ماركوس ليكينيوس كراسوس؟

– من أنت أيتها العجوز؟

فأجابته العجوز قائلة:

– أنا أمة.

وبدا عليها حينذاك أنها أصبحت بسيطة، طفلة مخرفة وقالت:

– جئت إلى هنا لأكون مع واحد من ناسى، ولأقدم إليه بعضا من الراحة، جئت أبكى من أجله. فكل الآخرين خائفون من المجىء وكابوا مليئة بناسى، لكنهم خائفون. لقد قال لنا سبارتاكوس .. انهضوا وتحرروا، لكننا خائفون. نحن أقوياء إلى حد كبير، ومع ذلك فنحن نجبن وننشج ونجرى.

وانهمرت الدموع عند ذاك من عينيها الكليلتين الرمداوين. وضرعت إليه تسأله:

– ماذا ستفعلون بى؟

– لا شىء أيتها العجوز اجلسى هناك، وابكى إذا شئت.

وألقى إليها بقطعة من النقود، وابتعد وهو غارق فى أفكاره، ومشى إلى الصليب وهو يتطلع إلى المجالد الذى يموت، ويقلب كلمات العجوز فى ذهنه.

- ٨ -

انقسمت حياة المجالد إلى أربع فترات. الطفولة وكانت فترة عدم المعرفة السعيدة، وفترة شبابه وهى المليئة بالمعرفة والأسى والكراهية. وفترة الأمل وهى الفترة التى قاتل فيها مع سبارتاكوس، وفترة اليأس، وهى الفترة التى اتضح فيها له أن قضيتهم خاسرة، وكانت هذه هى نهاية فترة اليأس لأنه كان يموت عند ذاك.

كان الصراع هو الخبز واللحم بالنسبة له. لكن الصراع كان قد توقف بالنسبة له عند ذاك. كانت الحياة فيه سورة من الغضب والمقاومة وصيحة عالية تطالب بالمنطق فى العلاقة بين الرجل والآخر. فبعض البشر قد جبلوا على قبول الأشياء على علاتها. والبعض لا يستطيع ذلك. ولم يكن هناك ما يستطيع أن يقبله، حتى وجد سبارتاكوس. عند ذاك عرف أن الحياة الإنسانية شيء له قيمة. وكانت حياة سبارتاكوس شيئًا له قيمة، كانت شيئًا نبيلاً، وكان الرجال المحيطون به يحيون حياة نبيلة - لكنه كان وهو يموت معلقا على الصليب ما زال يتساءل: لماذا فشلوا؟ وراح السؤال يفتش عن الإجابة عنه فى حيرة العقل التى بقيت له، لكن السؤال لم يجد إجابة له.

وكان مع سبارتاكوس عندما ورد نبأ موت كريكسوس وكان موت كريكسوس هو منطق حياة كريكسوس. فقد كان كريكسوس يتشبث بحلم. وعرف سبارتاكوس متى انتهى الحلم واستحال تحقيقه. وكان حلم كريكسوس، والحافز الذى يدفع كريكسوس هو تحطيم روما. ولكن حانت لحظات أدرك فيها سبارتاكوس أنهم لن يستطيعوا تحطيم روما أبدًا. وأن روما تستطيع وحدها أن تحطمهم. كانت تلك البداية، وكانت النهاية أن خرج عشرون ألف عبد تحت قيادة كريكسوس.

وهذا هو كريكسوس قد مات وجيشه قد تحطم. مات كريكسوس ومات رجاله. لن يضحك الغالى الضخم الجثة، العنيف، ذو الشعر الأحمر بعد اليوم ولن يصيح بعد اليوم. فقد مات.

وكان داود مع سبارتاكوس عندما ورد هذا النبأ، إذ حمل النبأ رسول، هو واحد ممن نجوا؛ وأمثال هؤلاء الرسل يحيط بهم الموت من كل جانب. ويصغى سبارتاكوس ثم يستدير لداود ويسأله:

– هل سمعت هذا؟

– سمعت.

– هل سمعت أن كريكسوس قد مات، وأن كل جيشه قد مات؟

– سمعت.

– أتسع الدنيا كل هذا القدر من الموت؟ هل فيها كل هذا؟

– الدنيا مليئة بالموت. وقبل أن أعرفك لم يكن فى الدنيا إلا الموت وحده.

فيقول سبارتاكوس:

– الآن ليس فى الدنيا إلا الموت. وهو قد تغير، اختلف عما كان. لن يعود كما كان من قبل أبداً. لن يستعيد يوما العلاقة الغالية بالحياة التى كان يحتفظ بها حتى تلك اللحظة، والتى كان يحتفظ بها حتى فى مناجم الذهب فى بلاد النوبة، والتى كان يحتفظ بها حتى فى المجتلد عندما كان يقف عاريا وفى يده سكين. فالموت بالنسبة له قد انتصر على الحياة عند ذاك. فيقف ووجهه لا ينطق بشىء، وعيناه مليئتان بلا شىء، ثم تنبثق الدموع من هذا اللاشىء وتتدحرج نازلة فوق خديه العريضين الأسمرين. يا له من شىء رهيب يحطم القلب بالنسبة لداود أن يضطر إلى الوقوف هناك ويراقبه وهو يبكى ! هذا سبارتاكوس يبكى، وتدور الكفرة فى ذهن اليهودى هكذا: هل أحدثك عن سبارتاكوس؟

لأنك لـن ترى شيئًا من مجرد النظر إليه، ولن تعرف شيئًا من مجرد النظر إليه. لن ترى إلا أنفـه المكسـور المفلطح وفمـه العريض، وجلده الأسـمر، وعينيه الواسـعتين. كيف تعرفه إذن؟ إنه رجل من نوع جديد. يقولون إنه كأبطال الأزمنة الغابرة. لكن ما وجه الشبه بين أبطال الأزمنة الغابرة وبين سبارتاكوس. هل ينحدر البطل من صلب أب أنجبه عبد؟ ومن أين جاء هذا الرجل؟ وكيف يسـتطيع أن يحيـا مجرداً من الكراهية والحسد؟ وأنت تعرف الرجل من مرارته وحقده لكن هناك رجلا لا يعرف المرارة ولا الحقد. هذا رجل نبيل. هـذا رجل لم يخطئ مـرة طيلة حياته. إنه يختلف عنك - لكنه يختلف عنا كذلك.

لقد أصبح ، ما نشرع نحن فى أن نكونه، ولكن ليس فينا من أصبح ما أصبحه سبارتاكوس، فقد تفوق علينا وفاقنا . وهو الآن يبكى.

ويسأله داود قائلا:

- لماذا تبكى؟ ستزداد الأمور شدة بالنسبة لنا الآن- فلماذا تبكى؟ لن يدعونا ننعم بأى سلام الآن حتى نموت كلنا .

فيسأله سبارتاكوس قائلا:

- ألا تبكى أبداً؟

- عندما دقوا أبى إلى الصليب بالمسامير، بكيت. ولم أبك منذ ذلك الحين قط.

فيقول سبارتاكوس:

- أنت لم تبك من أجل أبيك، وأنا لا أبكى من أجل كـريكسـوس، إنما أبكى من أجلنا . لماذا حدث ذلك؟ فيم كان خطؤنا؟ لم أشعر بأدنى شك فى البداية، فقد أمضيت حياتى كلها فى انتظار اللحظة التى يجد فيها العبيد القوة والسلاح فى أيديهم، ولم يخامرنى أدنى شك عند ذاك فى أن عهد السياط قد انتهى، وأن الأجراس تدق فى كل

أنحاء العالم. إذن لماذا فشلنا؟ لماذا فشلنا؟ لماذا مت يا كريكسوس، يا رفيق؟ لماذا كنت قوى العزيمة رهيبا؟ لقد مت الساعة ومات كل رجالك العظام.

فيقول اليهودى:

- من مات قد مات. كف عن البكاء.

لكن سبارتاكوس ينهار على الأرض فى كوم مهدل ووجهه فى الرغام، ويبكى ووجهه فى الرغام قائلا:

- ابعث إلىَّ بفارينيا. ابعث بها إلى. قل لها إنى خائف وإن الموت يحيط بى من كل جانب.

وحانت للمجالد لحظة من الوضوح الكامل قبل أن يموت ففتح عينيه، واتضحت له الرؤية، ولم يشعر بأى ألم على الإطلاق، مجرد برهة قصيرة. ورأى المنظر المحيط به فى وضوح وبساطة. شاهد الطريق الأبيوسى، الطريق الرومانى العظيم، مجد ومجرى دماء روما، يمتد بعيداً إلى الشمال حتى المدينة العظيمة نفسها. وهناك على الجانب الآخر منه، تقوم أسوار المدينة والباب الأبيوسى واثنا عشر جنديا من جنود المدينة قد انتابهم الملل، والضابط المنوط به حراسة باب المدينة يغازل فتاة جميلة. ويجثم على حافة الطريق هناك حفنة من المتسكعة المرضى، وعلى طوال الطريق نفسه حركة مرور متقطعة غير متتابعة، لأن الوقت كان قد تأخر بالفعل. وذهب غالبية سكان المدينة الأحرار إلى الحمامات، وتصور المجالد، بقدر ما سمح له تحديقه، أنه يشاهد وراء الطريق لألاء البحر فى أجمل خليج فى العالم. وهبت ريح ندية قادمة من البحر، فكان مس النسيم لوجهه كمس الأيدى الندية لامرأة يحبها رجل.

وشاهد الشجيرات الخضراء التى تنهض على حافة الطريق وأشجار السرو الداكنة من وراء ذلك، وشاهد إلى الشمال التلال المنحدرة، والأشواك التى تغطى الجبال القفراء التى يختبئ فيها العبيد الفارون، وشاهد سماء بعد الظهر الزرقاء، الزرقاء الجميلة كالألم الناتج عن رغبة لم تتحقق. وخفض عينيه فشاهد امرأة عجوزاً وحيدة تقبع على بعد ياردات قليلة من الصليب، وتحدق إليه فى ثبات وتبكى وهى ترقبه.

وقال المجالد لنفسه:

– يا للعجب إنها تبكى من أجلى. من أنت أيتها العجوز يا من تجلسين هناك وتبكين من أجلى؟

وعرف أنه يموت، فقد كان ذهنه صافيًا. وعرف أنه يموت، فشعر بالشكر، فعما قريب لن تصبح هناك ذاكرة أو ألم. إنما سيبقى النوم وحده الذى يتطلع إليه كل الناس فى ثقة مطلقة. ولم يعد يشعر بأية رغبة فى صراع الموت أو مقاومته. وأحس أنه عندما يغمض عينيه، فسيغادر الحياة جسده فى يسر وسرعة.

ورأى كراسوس. رآه وعرفه. والتقت عيونهما. كان القائد الرومانى يقف منتصف القامة ساكنا كالتمثال، وعباءته البيضاء تغطيه من الرأس إلى القدم فى ثنايا طياتها. وكان رأسه الجميل الوسيم الذى لوحته الشمس يبدو كرمز لعظمة روما وقوتها ومجدها.

وفكر المجالد قائلا لنفسه:

– إذن فأنت هنا يا كراسوس لترانى وأنا أموت، جئت لتشاهد آخر العبيد وهو يموت على الصليب. وهكذا يموت عبد، فيكون آخر شىء يراه هو أغنى رجل فى العالم.

عند ذاك تذكر المجالد المرة الأخرى التى رأى فيها كراسوس، وتذكر سبارتاكوس عند ذاك. وتذكر كيف كان سبارتاكوس، كانا قد أدركا أن الأمر قد انتهى، كانا يعلمان أنه قد انقضى. وكانا يعلمان أن تلك المعركة هى الأخيرة. وكان سبارتاكوس قد ودع فارينيا، ودعها وأرغمها على الرحيل رغم كل ضراعاتها، ورغم كل ضراعاتها الملتهبة للبقاء إلى جانبه. وكانت مثقلة بحملها حينذاك. وكان سبارتاكوس قد آمل أن يرى الطفل يولد قبل أن يوقعهم الرومان فى المحظور.

لكن الطفل كان ما زال جنينًا لم يولد عندما افترق عن فاريتيا.

وقال لداود عند ذاك :

– لـن يقـدر لـى أن أرى الطـفل يا صـديقى ورفـيـقى القـديم. هذا هو الشىء الوحيد الذى لا آسف عليه، فأنا آسف على شىء آخر. لأى شىء آخر.

وكانوا قد استعدوا للمعركة، عندما أحضروا لسبارتاكوس الجواد الأبيض. ويا له من حصـان. مهر فـارس جميل، أبيض كالثلج، فيه كبرياء وقوى كالصخر. وكان جواداً ملائمًا لسبارتاكوس. وكان سبارتاكوس قد أزاح همومه جانبًا. ولم يكن ذلك قناعا يصطنعه، لأنه كان سعيداً حقيقة، ومليئًا بالشباب، ومليئًا بالحياة والحيوية والنار. وكان شعره قد استحال رماديا خلال تلك الأشهر الستة الأخيرة. لكنك لم تكن لترى ذلك الشعر الرمادى عند ذاك، إنما كنت ترى الشباب المتقدم فى وجهه. وغدا ذلك الوجه القبيح جميلا، وأحس كل إنسان رآه بمدى جماله: وتطلع إليه الرجال وعجزوا عن الكلام. ثم أحضروا له الجواد الأبيض الرائع.

فكان ما قاله هو:

– أولا .. أشكر لكم هذه الهدية الرائعة يا أصدقائى الأعزاء ورفاقى المخلصين. أولا أشكركم. أشكركم من كل قلبى.

ثم جرد سيفه، وفى حركة أسرع من أن تلاحقها العين، أغمد السيف حتى مقبضه فى صدر الجواد. وتعلق بالسيف بينما كان الجواد يشب ويصرخ، ثم انتزع السيف عندما أخذ الجواد ينهار هابطا على ركبتيه، ثم تدحرج جانبا ومات. وواجههم والسيف فى يده يقطر دما، وتطلعوا هم إليه فى رعب ودهشة. أما هو فلم يتغير فيه شىء.

وقال :

– لقد مات حصان. فهل تريدون أن تبكوا لأن حصانا قد مات؟ نحن نقاتل من أجل حياة الإنسان، وليس من أجل حياة الحيوانات. والرومانيون يدللون الخيول، لكنهم لا يكنون للإنسان شيئًا سوى الاحتقار. واليوم سنرى من الذى سيخرج من ميدان المعركة هذا: الرومانيون أم نحن. لقد شكرت لكم هديتكم. كانت هدية رائعة، أوضحت

مدى حبكم لى، لكنى لم أكن فى حاجة إلى مثل هذه الهدية لأعرف ذلك، فأنا أعرف ما في قلبى، قلبى مليء بالحب لكم، ولا توجد فى العالم بأسره كلمات تعبر عن الحب الذى أكنه لكم يا رفاقى الأعزاء. لقد عشنا معا، وحتى إذا قدر لنا الفشل اليوم، فقد قمنا بشيء سيذكره البشر إلى الأبد. لقد قاتلنا روما أربع سنوات - أربع سنوات طوال: لم ندر ظهرنا يوما جبنا أمام جيش رومانى، ولم نفر يومًا. ولن نفر من ميدان المعركة اليوم. أكنتم تريدون منى أن أقاتل فوق ظهر جواد؟ لنترك الجياد للرومانيين فسأقاتل على قدمى إلى جانب إخوانى. فإذا كسبنا المعركة اليوم فسنحصل على الكثير من الجياد وسنعلقها إلى المحاريث بدلا من العربات الحربية. أما إذا خسرنا، حسن، فلن نحتاج إلى الجياد.

ثم عانقهم. عانق كل واحد من رفاقه القدامى الذين تبقوا وقبلهم فوق شفاههم. وعندما وصل إلى داود قال له:

- وأنت يا صديقى المجالد العظيم، هل ستبقى إلى جانبى اليوم؟

- دائمًا.

وفكر المجالد، وهو معلق فوق الصليب ينظر إلى كراسوس قائلا:

- يا لضخامة ما يستطيع الإنسان أن يعمله.

لم يعد له عند ذاك ما يأسف عليه. فهو قد قاتل إلى جانب سبارتاكوس، قاتل هناك بينما كان هذا الرجل الذى يقف فى مواجهته الآن، هذا القائد الكبير، يمتطى جواده ويرفع ساقيه الأماميتين إلى أعلى ويحاول أن يفسح لنفسه طريقًا فى صفوف العبيد، فصاح هو وسبارتاكوس قائلين :

- تعال لنا يا كراسوس تعال وذق تحياتنا.

وقاتل حتى أصابه حجر من مقلاع فصرعه. وكان قد قاتل ببراعة. وسره أنه لم يضطر لرؤية سبارتاكوس وهو يموت. وسره أنه هو، وليس سبارتاكوس الذى اضطر إلى تحمل هذا العار والتحقير الآخيرين المتمثلين فى عملية الصلب. لم يعد له ما يأسف عليه عند ذاك، ولا ما يأبه له ولا ما يؤلمه في تلك اللحظة. وفهم ذلك الفرح الشاب الذى اعترى سبارتاكوس فى اللحظات الأخيرة، لم تكن تلك هزيمة لهم. وهو مثل سبارتاكوس الآن، لأنه يقاسمه سر الحياة العميق الذى كان سبارتاكوس يعرفه. أراد أن يقول ذلك لكراسوس وحاول في يأس أن يتكلم. فحرك شفتيه، وتقدم كراسوس من الصليب.

وتوقف كراسوس، وتطلع إلى الرجل المحتضر المعلق فوقه، لكن المجالد لم يصدر صوتاً. ثم تدحرج رأس المجالد إلى الأمام وغادر أطرافه آخر ما تبقى فيها من قوة، ومات.

وظل كراسوس على وقفته هناك حتى انضمت إليه المرأة العجوز. وقالت العجوز:

- لقد مات الآن.

فأجابها كراسوس قائلا :

- أعرف ذلك.

ثم عاد إلى باب المدينة، وسار يضرب فى شوارع كابوا.

في تلك الليلة تناول كراسوس عشاءه وحيداً. وأصدر تعليماته بأن يقال إنه في الخارج لأى زائر. ولاحظ عبيده الحالة النفسية السوداء التى كثيراً ما تعتريه، فراحوا يمشون فى رقة وفى حذر. وشرب قدراً كبيراً من زجاجة نبيذ قبل العشاء، ثم زجاجة أخرى مع العشاء، بعد تناول الطعام جلس إلى زجاجة من شراب سرفيوس، وهو شراب قوى من البلح كانوا يقطرونه فى مصر ويستوردونه منها. وبلغ به السكر حدا كبيرا، وهو وحيد مكتئب، سكر هو مزيج من اليأس وكراهية النفس.

وعندما بلغ الحد الذى لم يستطع معه المشى بثبات، ترنح ذاهبًا إلى غرفة نومه، وترك عبيده يساعدونه فى خلع ثيابه والنوم.

ومع ذلك فقد نام نومًا طيبًا وعميقًا. وأحس بالراحة فى الصباح فلم يكن فى رأسه صداع، ولم يذكر أى أحلام مزعجة لعلها طافت بنومه فكدرته. وكان من عادته أن يستحم مرتين كل يوم، بعد قيامه من نومه مباشرة، وقبل نزول الليل، أى قبل العشاء. وكان ككثير من أثرياء الرومان يظهر فى الحمامات العامة مرتين على الأقل بعد الظهر من كل أسبوع كمظهر سياسى. لكن ذلك كان اختياراً ينهض على أسباب سياسية وليس على الضرورة. وكان يملك لنفسه، حتى فى كابوا حمامًا فاخراً، حوضا سعته اثنتا عشرة قدمًا مربعة، مغطى بالقرميد، ينخفض عن مستوى الأرض، مزوداً بالكفاية من الماء الساخن والماء البارد. إذ كان يصر إينما سكن على مقتضيات الاستحمام الملائمة. وكان عندما يشيد منزلا يحرص على أن تكون الأنابيب والصنابير كلها من النحاس اللامع أو الفضة حتى لا يصيبها التآكل والبلى.

وبعد أن استحم حلق له الحلاق ذهنه. كان يحب تلك الفترة من اليوم، التسليم الضرورى للموسى الحاد يجرى فوق خديه، وشعور الأطفال الذى يبعثه ذلك فيه، والثقة الممتزجة بالخطر، والمناشف الدافئة بعد ذلك، والدهانات يدلك بها بشرته، وتدليك فروة رأسه الذى يلى ذلك دائماً. وكان شديد التيه بشعره، وكان أكثر ما يزعجه هو أن شعره بدأ يتساقط.

وارتدى ثوباً بسيطاً داكن الزرقة، وشيت أطرافه بخيوط الفضة، وانتعل كما هى عادته حذاء أبيض يصل ساقه حتى الركبة من جلد أنثى الغزال الطرى. ونظراً لأنه لم يكن من اليسير تنظيف هذه الأحذية كما يجب، ونظراً لأن ارتداءها يومين أو ثلاثة أيام يعرضها للتلوث بالطين، لذلك كان كراسوس يحتفظ بمؤسسته الخاصة لصناعة الأحذية حيث يعمل أربعة من العبيد تحت إشراف صانع أحذية بأجر يومى. إلا أن ذلك كان جديراً بالثمن، لأن مظهره فى الرداء الداكن الزرقة والأحذية البيضاء كان مظهراً جذاباً. وقرر فى ذلك اليوم أن يتخلص من العباءة نظرا لازيادة حرارة الجو. وبعد أن تناول إفطارا حقيقيا من الفاكهة والفطائر الهشة، استقل محفة إلى البيت الذى ينزل فيه الشبان الثلاثة.

وكان خجلا ومنزعجا بعض الشىء من معاملته لهيلينا، لكنه مع ذلك كان قد وعد بتسليتهم ومصاحبتهم فى كابوا.

وكان قد زار ذلك البيت مرة أو مرتين من قبل، وكان يعرف خال هيلينا معرفة بسيطة؛ لذلك حياه كبير عبيد الأبواب بحرارة، ودخل به على الفور إلى الشرفة حيث كان العائلة وضيوفها ما زالوا يتناولون إفطارهم. وصعد الدم إلى وجنتى هيلينا عندما رأته، وفقدت بعض رباطة جأشها الفتية التى عنيت بتنميتها، وبدا على كايوس السرور الحقيقى لرؤيته، وأحس العم والعمة التقدير العميق للشرف الذى أسبغه عليهم القائد بزيارته لهم، وقدموا له كل ضروب الحفاوة. وكانت كلوديا وحدها هى التى تطلعت إليه فى مكر وتهكم ساخر وفى عينيها شىء من البريق الشرير.

وقال كراسوس:

– إذا لم تكونوا قد قررتم شيئًا بالنسبة لليوم، فيسرنى أن أستضيفكم فى أحد مصانع العطور. فقد يبدو مخجلاً أن تحضروا إلى كابوا ولا تزوروا واحداً من هذه المصانع. بخاصة أن مدينتنا الفقيرة لا تشتهر إلا بالقليل بعد المجالدين والعطور.

فابتسمت كلوديا وقالت:

– خليط غريب بعض الشىء.

وقالت هيلينا فى عجلة:

– لم نقرر شيئًا بالنسبة لليوم.

– إنها تعنى أن لدينا مشروعات، ولكن يسرنا أن نضعها جانبا ونذهب معك.

وتطلع كايوس فى حدة تقارب الغضب إلى أخته. ووضح لهم كراسوس أن الدعوة تشمل السادة الكبار طبعًا، لكنهما طلبا إعفاءهما، فمصانع العطور ليست جديدة عليهم. وقالت ربة البيت إن استنشاق العطور كثيراً يسبب لها صداعًا.

وبعد فترة قصيرة رحلوا فى طريقهم إلى مصنع العطور. وحملتهم المحفات إلى الجزء القديم من كابوا حيث تزداد الشوارع ضيقا، وتزداد منازل السكنى ارتفاعا. وكان من الواضح أنه حتى قوانين المبانى البسيطة المطبقة فى روما لا تطبق هنا. لأن منازل السكنى كانت ترتفع شاهقة كخليط أحمق من الكتل الخشبية التى يلعب بها الأطفال، وكانت المنازل فى كثير من الأحيان تبدو كما لو كانت ستلتقى برءوسها حيث كانت تصلب وتدعم بالقوائم الخشبية. وكانت تلك الشوارع مقبضة لما يسودها من ظلمة على الرغم من أن الوقت كان صباحًا، والسماء زرقاء صافية، وكانت الشوارع قذرة مليئة بالقمامة التى تلفظها المساكن وتظل فى الطريق حتى تتعفن وتمتزج الروائح الكريهة المنبعثة من القمامة امتزاجًا متزايداً مع الروائح الحلوة التى تبعث على الغثيان، الصادرة عن الزيوت العطرية.

وقال كراسوس:

– هذا هو السبب فى إنشاء مصانعنا هنا، فالرائحة نفسها تؤدى غرضا مفيداً.

لم يكن فى هذه الشوارع أى من عبيد المنازل ذوى الملابس الجيدة، المعتنى بشعورهم، الذين تلحظهم كثيراً فى أجزاء المدينة الأكثر ثراء. ولم يكن فيها كذلك الكثير من المحفات. وكان الأطفال القذرون نصف العراة، يلعبون فى البالوعات. وكانت النساء فقيرات الثياب، يشاكسن ويساومن فى أثناء شراء الأطعمة من المنصات الجانبية، أو يجلسن على أبواب المنازل ترعين أطفالهن. وكان خليط من كلام غريب يسود المكان، بينما كانت روائح أطعمة غريبة تطهى تنبعث من النوافذ.

قالت هيلينا:

– يا له من مكان مخيف. أتعنى حقا أن العطور تخرج من هذه البالوعة؟

– إنها تخرج منها حقا يا عزيزتى. يخرج منها عطور أكثر وأفضل من أى عطور يصنعونها فى أى مدينة أخرى فى العالم، أما بالنسبة لهؤلاء الناس، فغالبيتهم من السوريين والمصريين، ومنهم بعض اليونانيين واليهود. لقد حاولنا أن نستغل العبيد فى مصانعنا لكننا لم ننجح. فأنت تستطيعين أن ترغمى العبد على العمل، لكنك لا تستطيعين أن ترغميه على ألا يفسد ما يعمل. لأنه لا يبالى بنهاية ما يعمل. أعطيه محراثًا أو منجلاً أو فأساً أو مطرقة فتستطيعين أن ترى ما يعمله، وعلى أى حال فمن العسير إفساد مثل هذه الآلات. ولكن أعطيه حريراً ينسجه أو نسيجًا دقيقًا أو إنبيقا رقيقاً، أو حددى له مقاييس وحركات محدودة، وأعطيه نصيبا من العمل فى مصنع، وثقى، كما تثقين فى الله، من أنه سيفسد العمل. ولا جدوى من أن تضربيه بالسياط، لأنه سيفسد العمل مع ذلك. أما بالنسبة لعمالنا – فأى حافز يدفعهم إلى العمل؟ على أية حال هناك عشرة منهم لكل عمل. ما الذى يدفع الواحد منهم إلى العمل، بينما ينعم التسعة الآخرون بحياة أفضل على الصدقات، ويمضون أيامهم فى المقامرة أو فى

المجتلد أو فى الحمامات؟ وكلهم ينضمون إلى الجيش، ففى الجيش بعض الفرص للإثراء إذا كنت سعيدة الحظ، ولو أننا حتى فى الجيش نزيد من اتجاهنا المرة بعد المرة إلى البرابرة فنجندهم، لكنهم أى عمالنا، يرفضون العمل فى أى مصنع لقاء الأجور التى نستطيع أن ندفعها لهم. فحطمنا نقاباتهم، لأنه كان علينا أن نختار بين تحطيم النقابات أو غلق مصانعنا. ولذلك نستأجر الآن السوريين والمصريين واليهود واليونانيين. وحتى هؤلاء، يعملون حتى يتمكنوا من اقتصاد ما يكفى لشراء رعوية المواطن من أى رئيس لحى من الأحياء. لست أدرى كيف ستكون النهاية، لأن المصانع على مثل هذا الحال ستغلق أبوابها بدلاً من أن تفتحها.

وكانوا قد وصلوا عند ذاك إلى المصنع. وكان بناء خشبيا منخفضا قبيحا كالجالس القرفصاء بين منازل السكنى. وكان يبلغ فى مساحته نحو مائة وخمسين قدماً مربعة، رثًا، متداعيًا، تعفنت جدرانه الخشبية فى بعض المواضع، وتحطمت الألواح من الخشب هنا وهناك، تبرز من سقفه غابة من المداخن ينبعث منها الدخان وامتد على أحد جوانبه رصيف للسفن يقف إلى جانبه عدد من عربات النقل. وكانت العربات محملة بأكوام عالية من شرائح لحاء الشجر وسلال الفاكهة وجرار الفخار.

ووجه كراسوس حملة المحفات للدوران حول المصنع ليصلوا إلى واجهته. وهنا فتحت الأبواب الخشبية العريضة، وتلقى كايوس وهيلينا وكلوديا أول انطباع لهم عما يدور داخل مصنع العطور.

كان البناء حظيرة كبيرة واحدة، يقوم سقفه على دعامات من الخشب، وكان السقف نفسه محطما فى الكثير من مواضعه ليسمحوا بدخول الهواء والنور، وكان المكان مليئًا بالحرارة والضوء الصادر من الأفران المفتوحة. وكانت المداخن الطويلة تحمل المئات من الأوانى الفخارية والبواتق، وبدت لهم الأنابيب اللولبية المكثفة الخارجة من أجهزة الاستقطار، كشىء منتزع من حلم شيطانى. وكانت رائحة الزيوت العطرية الفنية التى تبعث على الغثيان تسود المكان كله.

وتلقى الزوار كذلك انطباعهم عن مئات العمال. كانوا رجالا صغار الحجم، سمر اللون، لكثير منهم لحى، عراة إلا مما يستر عوراتهم «يرقبون أجهزة الاستقطار، ويغذون الأفران، ويقفون عند مناضد التقطيع، يقطعون لحاء الأشجار وقشور الفواكه، أو يملئون أنابيب فضية صغيرة بالعطر؛ يقطرون السائل النفيس قطرة فقطرة ويقفلون كل أنبوبة بالشمع الساخن. بينما أخذ آخرون يقشرون الفاكهة ويقطعون شرائح بيضاء من دهن الخنزير.

ورحب مدير المصنع - وهو رومانى قدمه لهم كراسوس باسم أفالوس، دون أى تقدير له بذكر اسمه الثانى يرحب بالقائد وضيوفه فى مزيج من النعومة والطمع والحذر. وجعله قليل من النقود الفضية من كراسوس، أكثر إقبالاً على إرضائهم، وتقدمهم من ممشى إلى آخر، بينما مضى العمال فى أعمالهم ووجوهم قاسية عابسة مريرة، وعندما كانوا يلقون إلى الزوار بنظرة جانبية، لم يكن ليطرأ على تعبيرات وجوههم أى تغيير ملحوظ. ومن كل ما رأى كايوس وهيلينا وكلوديا هناك، كان العمال هم أكثر الأشياء غرابة بالنسبة لهم. إذ لم يكونوا قد رأوا من قبل مثل هؤلاء الرجل قط. ففيهم شىء مخالف ومخيف. لم يكونوا عبيداً - ولم يكونوا رومانيين، بل ولا يشبهون الفلاحين الذين كان عددهم فى تناقص، وكانوا ما زالوا يتشبثون بقطع من الأرض متناثرة هنا وهناك فى إيطاليا. كانوا رجالاً مختلفين. وكان ذلك الاختلاف يبعث على القلق.

وشرح لهم كراسوس قائلا:

- عملنا هنا هو التقطير. ونحن ندين بالشكر للمصريين فى ذلك.

لكنهم لم يستطيعوا قط أن يحولوا عملية التقطير إلى الإنتاج على نطاق واسع. روما هى الوحيدة التى تستطيع تنظيم أى شىء.

فسأله كايوس قائلاً:

– لكن هل اختلف الأمر عن ذلك فى أى وقت من الأوقات؟

– أجل ففى الأزمنة القديمة، اضطر البشر إلى الاعتماد على استخراج العطور الطبيعية – وبخاصة اللبان والمر والكافور طبعاً، وكلها نباتات صمغية تفرز الصمغ من لحاء الأشجار، وسمعت أن الناس يمتلكون فى الشرق مزارع تضم مثل هذه الأشجار ينزعون عنها اللحاء ويجمعون الصمغ كمحصول منتظم دائم. وكانت الرائحة تحرق فى معظم الأحوال كبخور. ثم اخترع المصريون جهاز الاستقطار الذى لا يعطينا الخمر والطريق القصير إلى السكر فحسب، إنما يعطينا العطر كذلك.

وتقدمهم إلى إحدى مناضد التقطيع حيث كان عامل يقوم بتشريح قشر الليمون إلى شرائح فى رقة الورق وحمل كراسوس إحدى هذه الشرائح وعرضها للنور ثم قال:

– لو أنكم أمعنتم النظر، لاستطعتم رؤية حقائب الزيت. وأنتم تعرفون طبعاً مدى جمال رائحة القشر، وهذا هو أساس العمل – ليس بالنسبة لليمون وحده طبعاً، إنما بالنسبة لمئات من الفواكه الأخرى وللحاء الأشجار لاستخراج الجوهر العطرى الثمين. والآن إذا تبعتمونى..

وتقدمهم عند ذاك إلى أحد المواقد. كانت آنية ضخمة تحوى أجزاء من القشور قد وضعت على النار لتنضج، والآنية عندما توضع فوق الموقد تغلق بإحكام بغطاء معدنى تخرج منه أنابيب نحاسية تلف وتدور إلى حيث تجرى تحت رشاش من الماء وتنتهى الأنبوبة فى وعاء آخر.

وقال كراسوس يشرح لهم:

هذا هو جهاز الاستقطار. تطه المادة الأصلية، سواء كانت من لحاء الأشجار أو أوراق الشجر أو قشور الفاكهة حتى تنفصل عنها حقائب الزيت، فتتصاعد عند ذاك مع البخار ثم تكثف البخار برشاش الماء.

ثم قادهم إلى فرن آخر حيث كان الإنبيق يغذى غيره من الأوعية وقال :

– هنا ترون الماء يغمر الأوعية. عندما يمتلئ عندنا وعاء مثل هذا نبرده، فيتجمع الزيت على سطح الماء. والزيت هو العطر، فيرفع بعناية ونحفظه فى هذه الأنابيب الفضية. أما ما يتبقى فهو المياه المعطرة الرقيقة التى أخذت فى الانتشار هذه الأيام كشراب للإفطار.

فصاحت كلوديا تسأله:

– أتعنى أن هذا هو ما تشربه؟

– أجل بعد أن يمزج بمياه مقطرة. لكنى أؤكد لك أنها صحية للغاية.

وهذه المياه تختلف فى مذاقها كذلك؛ كما تختلف الزيوت بعضها عن البعض من ناحية الرائحة. أما على ما هى عليه، فتستعمل المياه فى التطيب.

ورأى هيلينا تبتسم له فسألها:

– أتظنيننى لا أقول لكم الصدق؟

– لا . لا . إنما أمتلئ إعجابا بكل هذه المعرفة. فأنا أستطيع. أن أذكر المرات التى سمعت فيها طيلة حياتى وصفا لطريقة صنع شىء من الأشياء. لم أكن أظن أن أى شخص يعرف طريقة صنع أى شىء.

فأجابها كراسوس فى رصانة قائلاً:

– إن عملى هو أن أعرف. فأنا رجل واسع الثراء، ولا أجد فى ذلك ما يدعو إلى الخجل، كما يفعل الكثير من الناس. كثير من الناس يا عزيزتى يتعالون علىَّ لأنى كرست نفسى لجمع المال. وذلك لا يعنينى، لأننى استمتع بزيادة ثروتى. لكنى لا أتعالى على المزرعة كمصدر للثروات كما يفعل زملائى. وعندما أعطونى حرباً، لم يعطونى مدنا استولى عليها كما فعلوا مع بومبى. إنما أعطونى حرب العبيد التى لم تعد علىَّ إلا بربح قليل حقا. لذلك أحتفظ لنفسى بأسرارى الخاصة الصغيرة، وهذا المصنع واحد

منها . كل أنبوبة من هذه الأنابيب الفضية التى تحوى العطر تساوى عشرة أمثال وزنها من الذهب الخالص. والعبد يأكل طعامك ثم يموت، لكن هؤلاء العمال يصنعون من أنفسهم ذهبا ولست بعد هذا مسئولاً عن إطعامهم وإسكانهم.

فقال كايوس متأملاً:

– ومع ذلك ففى استطاعتهم أن يعملوا ما عمله سبارتاكوس. فابتسم كراسوس وهز رأسه وهو يقول:

– العمال يثورون؟ لا لن يحدث ذلك أبدًا . لأنهم ليسوا عبيدًا كما ترى. إنما هم رجال أحرار يستطيعون المجىء والذهاب كما يشاءون. لماذا يثورون إذن؟

ودار كراسوس بنظره فى الحضيرة الكبيرة، ثم تابع حديثه قائلاً:

– لا . الحقيقة أننا لم نعطل أفراننا لحظة واحدة خلال حرب العبيد كلها . فلا علاقة بين هؤلاء الرجال وبين العبيد.

ومع ذلك، فقد كان كايوس يشعر وهم يغادرون المكان بالانزعاج، لأن أولئك الرجال الصامتين، الملتحين، الأغراب، الذين كانوا يعملون فى خبرة وسرعة ملئوه بالخوف والتوجس. ولم يدر السر فى ذلك.

الجزء السابع

ويتضمن رحلة شيشرون وجراكوس عائدين إلى روما، وما تحدثا عنه فى أثناء الطريق، ثم حلم سبارتاكوس وكيف علم جراكوس به.

- ١ -

كما اتجه كايوس وكراسوس والفتاتان جنوبا إلى كابوا على الطريق الأبيوسى، كذلك فعل شيشرون وجراكوس قبل ذلك بوقت قصير متجهين شمالاً إلى روما. وكانت فيلا سالاريا على معبدة سفر يوم قصير من المدينة، وأصبحت تعتبر بعد ذلك بوقت قصير ليس أكثر من ضاحية. لذلك مضى شيشرون وجراكوس فى طريقهما على مهل، تتقدم محفتاهما جنبا إلى جنب. ونجح شيشرون، وهو من يميل إلى التعالى وفيه نصيب من ميل إلى التعاظم، فى فرض احترامه على ذلك الرجل وهو القوة الكبيرة فى المدينة، والواقع أنه كان من العسير بالنسبة لأى شخص ألا يستجيب إلى كياسة جراكوس السياسية.

فالرجل عندما يكرس حياته لكسب رضاء الناس وتجنب عدواتهم، ملزم بتنمية سجايا معينة فى علاقاته الاجتماعية، فكان من النادر أن يقابل جراكوس شخصًا لا يستطيع كسب محبته. ومع ذلك، فلم يكن شيشرون ممن يبالغ الإنسان فى محبتهم. إذ كان واحدًا من أولئك الشبان الماهرين الذين لا يسمحون للمبدأ بالتدخل فى النجاح. ومع أن جراكوس كان لا يقل عنه انتهازية؛ فإنه كان يختلف عن شيشرون فى أنه كان يحترم المبادئ، وكانت المبادئ بالنسبة له، لا تعدو مجموعة مضايقات، كان هو نفسه يبتعد عنها. وإذا كان شيشرون، الذى كان يجب أن يتصور نفسه ماديا، يرفض أن يعترف بأية مظاهر للاحترام فى أى كائن بشرى، فقد جعله ذلك أقل واقعية من جراكوس. كما عرضه ذلك لأن يصدم بعض الشىء من وقت لآخر من الخبث اللطيف الذى كان العجوز السمين يبديه. وكانت حقيقة الأمر، أن جراكوس لم يكن أكثر خبثًا

من شيشرون. كل ما فى الأمر، أنه حارب خداع النفس بقوة أكبر مما فعل شيشرون، إذ وجد فيه عائقا يحول دون تحقيق مطامحه.

وكان احتقاره لشيشرون، من ناحية أخرى، أقل مما كان محتملا أن يكنه له. إذ كان شيشرون يحيره إلى درجة معينة. فكان جراكوس يعلم أن العالم يتغير، وأن تغييراً كبيراً جديداً قد طرأ خلال حياته، لا على روما فحسب ، بل على العالم كله. وكان شيشرون هو النذير بذلك التغيير. فهو واحد من جيل كامل من الشبان الماهرين الذين لا يعرفون الرحمة. وكان جراكوس لا يعرف الرحمة، إلا أن الاعتراف بالأسى على الأقل، والإحساس بالشفقة، إن لم يكن فعل يقوم على أساس من الشفقة، كانت تشوب قسوته. أما أولئك الشبان، فما كانوا ليقدرون على الشفقة أو الأسى. وكان يبدو عليهم أنهم يرتدون درعا مصمتا ضد الشفقة والأسى. وكان ذلك يشمل بعض الحسد الاجتماعى، لأن شيشرون كان متعلما إلى حد كبير، وكان واسع الصلات، ومع ذلك كان فيه أيضًا عامل من الحسد لما غلف به جراكوس الموقف من برود خاص، وكان جراكوس يحسد شيشرون إلى حد ما على قدر من القوة يفتقده هو نفسه، وفى ذلك كانت أفكاره تدور وتجول.

وسأله شيشرون فى رقة قائلاً:

– أنائم أنت؟

وكان شيشرون نفسه يجد فى حركة المجفة هدهدة تبعث على النعاس.

– لا .. إنما أفكر.

فسأله شيشرون فى خفة، وهو يؤكد لنفسه أن القرصان العجوز يدبر تحطيم واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الأبرياء.

– فى مهام الدولة الثقيلة؟

– فى أشياء بلا خطر ، فى ملحمة قديمة، إذا شئت الحقيقة. قصة بالغة فى القدم، سخيفة بعض الشىء. ككل القصص القديمة.

– هل تحكيها لى ؟

– أنا على ثقة من أنها ستبعث الملل إلى نفسك.

– لا يبعث الملل فى نفس المسافر إلا مناظر الطبيعة.

– على أية حال، هى حكاية أخلاقية، وليس أبعث على السأم أكثر من الحكاية الأخلاقية. أتظن أن للقصص الأخلاقية أى محل فى حياتنا اليوم يا شيشرون؟

– إنها تصلح للأطفال الصغار. كانت قصتى المفضلة تدور حول احتمال وجود قريب ناء. هى قصة أم جراكشى.

– لا علاقة بين الاثنين.

– كنت فى السادسة من عمرى حينذاك، وعندما بلغت السابعة، أخذت أناقش القصة.

فابتسم جراكوس وقال:

– وهل كنت شريراً إلى هذا الحد وأنت فى السابعة؟

– أنا واثق من أننى كنت كذلك، أحسن ما أحبه فيك يا جراكوس، هو أنك لم تحاول يوماً أن تشترى لنفسك شجرة عائلة.

– ذلك تبذير وليس فضيلة.

– والقصة .

– أخشى أن تكون قد كبرت على القصة كثيراً.

فقال شيشرون:

– جربنى. لم تخيب قصصك آمالى قط.

– حتى وإن كانت بلا هدف؟

– إنها لم تكن بلا هدف يوما. كل ما على المرء أن يكون ماهراً إلى حد كاف ليرى الهدف.

فضحك جراكوس وقال:

– إذن سأروى قصتى. هى تدور حول أم كان لها ولد واحد وكان طويل القامة، جميلاً وسيماً، وكانت تحبه كأكثر ما تحب الأم ولدها.

– أظن أن أمى كانت ترى فى عائقا يحول دون تحقيق مطامحها المغرية.

– لنقل إن ذلك حدث منذ زمن بعيد، عندما كانت الفضائل ممكنة التنفيذ. أحبت هذه الأم ولدها. وكان هو دنياها. ثم أحب الابن ووهب قلبه لامرأة كانت جميلة بقدر ما كانت شريرة. ولما كانت المرأة بالغة الشر، تستطيع أن تتأكد من أنها بالغة الجمال ومع ذلك فلم تمنح الابن حتى نظرة خاطفة، أو حتى إيماءة، أو حتى نظرة رقيقة. لا شىء على الإطلاق.

فوافق شيشرون قائلاً:

– لقد قابلت مثل هذا النوع من النساء.

– فذاب حنينا لها. وعندما سنحت له الفرصة، حدثها بما سيعمله من أجلها، وبالقلاع التى سيشيدها لها والثروات التى سيجمعها لها. لكن هذه الأشياء كلها كانت مجرد أفكار إلى حد ما. فقالت إنها لا تهتم بأى منها، وطلبت منه بدلا من ذلك هدية فى مقدوره أن يقدمها لها.

فسأله شيشرون قائلاً:

– هدية بسيطة؟

وكــان جـراكـوس يـجـد لذة فى رواية القـصـص، فـتـأمـل السـؤال ثم أحـنى رأسـه موافقًا وقال:

– هدية بسيطة جدا. وطلبت من الشاب أن يحضر لها قلب أمه. ففعل.

أمسك بسكين وأغمدها فى صدر أمه، ثم انتزع قلبها. وراح يجرى فى الغابة إلى حيث تقطن تلك المرأة الشريرة، ولو أنها شابة جميلة، وهو مجفل من الرعب والإثارة من جراء ما فعل. وبينما هو يجرى، تعثر قدمه فى جذر شجرة فسقط إلى الأرض. وعندما سقط، وقع القلب من بين يديه بعيداً، فجرى ليلتقط القلب الثمين الذى سيشترى له حب امرأة. وبينما هو ينحنى فوقه، سمع القلب يقول: «يا ولدى، هل أصبت بسوء عندما سقطت يا ولدى؟».

وعاد جراكوس بظهره إلى الوراء فى محفته، وجمع أطراف أصابع كلتا يديه وراح يتأملها.

فقال شيشرون يسأل:

– وبعد ذلك؟

– هذه هى القصة كلها. قلت لك إنها قصة أخلاقية لا هدف لها.

– هل مغزاها المغفرة؟ إنها ليست قصة رومانية. فنحن الرومانيين تنقصنا المغفرة: على أية حال، ليست هذه القصة كقصة أم جراكشى.

– ليست المغفرة. إنما الحب.

– آه.

– ألا تؤمن بالحب؟

– الحب الذى يفوق كل شىء آخر؟ على الإطلاق. فليس مثل هذا الحب رومانيا.

– بحق السماء يا شيشرون، أتستطيع أن تصنف كل شىء مبارك على الأرض، فتقول إن هذا الشىء رومانى أو غير رومانى؟

فقال شيشرون فى أدب :

– معظم الأشياء.

– وهل تؤمن بذلك؟

فضحك شيشرون وقال:

– إذا شئت الحقيقة، لا أؤمن بذلك فعلاً.

ففكر جراكوس لنفسه قائلاً:

– ينقصه الإحساس بالفكاهة. وهو يضحك لأنه يحس أن اللحظة ملائمة للضحك.

ثم قال بصوت مرتفع:

– كنت على وشك أن أنصحك بالإقلاع عن السياسة.

– صحيح؟

– على كل، لا أظن أن نصيحتى ستؤثر عليك بصورة أو بأخرى.

– لكنك تظن أننى لن أنجح يوماً فى ميدان السياسة أليس كذلك؟

– لا . لن أقول ذلك. هل فكرت يوماً فى السياسة، وما هى؟

– هى مجموعة من الأشياء، فيما أظن، ليس من بينها ما هو نظيف جداً.

وفكر جراكوس قائلاً لنفسه:

- لقد أمضيت حياتى فى الاشتغال بالسياسة. وهو لا يحبنى. فأنا ألطمه فيلطمنى ولماذا يصعب علىَّ إلى هذا الحد قبول حقيقة أن شخصا ما لا يحبنى؟

وقال شيشرون يخاطب الرجل السمين:

- سمعت أن فضيلتك الكبرى هى عدم نسيانك للأسماء. هل صحيح أنك تستطيع أن تتذكر أسماء مائة ألف شخص؟

- هـــذا وهم آخــر عــن السياسة. أنا أعرف قليلا من الناس بالاسم، وليس مائة ألف.

- سمعت أن هانيبال كان يستطيع أن يتذكر اسم كل رجل فى جيشه.

صحيــح. وسنقـــول إنه كـــان لسبارتاكوس ذاكرة مشابهة فنحن لا نستطيع أن نقر بأنه إذا كسب شخص نصراً فذلك لأنه خير منا.

لماذ أنت مغرم كل الغرام بأكاذيب التاريخ صغيرها وكبيرها؟

- أكلها أكاذيب؟

فهدر جراكوس يقول:

- معظمها. التاريخ تفسير للمهارة والطمع. لكنه لم يكن تفسيراً أمينا فى يوم من الأيام. ولهذا سألتك عن السياسية. فقد قال أحد الأشخاص هناك فى البيت الريفى، إن جيش سبارتاكوس لم يكن يعرف السياسة. لكن ذلك غير ممكن.

فابتسم شيشرون وقال:

- ما دمت سياسيا، هلا قلت لى ما هو السياسى؟

فأجابه جراكوس فى اختصار:

- مزيف.

- أنت صريح على الأقل.

- تلك فضيلتي الوحيدة، وهى فضيلة ثمينة إلى حد كبير. والناس يخلطون فى السياسى بين الصراحة والأمانة، ونحن نعيش فى جمهورية، كما ترى. ومعنى ذلك أنه يوجد عدد كبير جدا من الناس لا يملكون شيئًا، وحفنة تملك الكثير. ويجب أن يحمى من لا يملكون شيئًا، من يملكون الكثير وأن يدافعوا عنهم. ليس هذا فحسب، إنما يجب أن يحرس من يملكون الكثير ممتلكاتهم، ولذلك يجب على من لا يملكون شيئًا، أن يرحبوا بالموت فى سبيل ممتلكات أشخاص مثلك ومثلى ومثل مضيفنا الطيب أنطونيوس. والناس من أمثالنا يمتلكون الكثير من العبيد كذلك. وهؤلاء العبيد لا يحبوننا. ويجب ألا تقع تحت تأثير الوهم بأن العبيد يحبون سادتهم. هم لا يحبونهم. ولذلك لن يحمينا العبيد من العبيد. لذلك يجب أن يرحب الناس الكثيرون، الكثيرون، الذين لا يمتلكون عبيداً على الإطلاق بالموت، لنستطيع نحن أن نحتفظ بعبيدنا. وروما تحتفظ بربع مليون رجل تحت السلاح. ويجب أن يرحب هؤلاء الجنود بالذهاب إلى الأقطار الأجنبية، وأن يهلكوا أنفسهم مشيًا على أقدامهم، وأن يعيشوا فى الحمأ والقذارة، وأن يلغوا فى الدم كى نأمن نحن ونعيش فى راحة، ونزيد من ثرواتنا الشخصية. عندما خرجت تلك القوات لتحارب سبارتاكوس، كان ما يدافعون عنه أقل مما كان العبيد يد افعون عنه. ومع ذلك فقد ماتوا بالآلاف وهم يقاتلون العبيد. يستطيع المرء أن يستطرد فيقول إن الفلاحين الذين ماتوا وهم يقاتلون العبيد، كانوا قد انضموا إلى صفوف الجيش قبل كل شيء لأن نظام الضيعات كان قد طردهم من أراضيهم. فنظام الزراعة القائمة على العبيد. يحيل الفلاحين إلى فقراء لا يملكون أرضا. ثم يموتون فى سبيل الإبقاء على نظام الضيعات سليما متماسكًا، مما يغرى المرء بأن يقول: «أنا أتراجع إلى الغباء أو العجز» لأنك يا عزيزى شيشرون، إذا فكرت فيما يتعرض الجندى الرومانى الشجاع لفقده إذا انتصر العبيد، لأدركت أن العبيد سيحتاجون إلى الجندى احتياجا شديدا حقيقيا، لأنه لا يوجد من العبيد ما يكفى

لفلاحة الأرض كما يجب، وسيوجد من الأرض ما يكفى الجميع، وسيحصل الجندى فى فيالقنا على ما طالما حلم به، وهو نصيبه من الأرض وبيته الصغير. ومع ذلك فهو يتقدم لتحطيم أحلامه الشخصية، ولكى يجعل ستة عشر عبداً يحملون خنزيراً عجوزاً سميناً مثلى فى محفة مبطنة أتنكر الحقيقة فيما أقول؟

– أظن أنه إذا صرح رجل عادى بما قلته أنت، بصوت عال فى الساحة العامة، لصلبناه.

– فضحك جراكوس وقال:

– شيشرون، شيشرون، أهذا تهديد؟ أنا أكثر سمنة، وأثقل وزنا، وأكبر فى السن من أن أصلب، ولما تثيرك الحقيقة إلى هذا الحد؟ من الضرورى أن نكذب على الآخرين، فهل من الضرورى أن نصدق أكاذيبنا؟

– الأمر كما تقرر أنت كل ما فى الأمر أنك تحذف السؤال الرئيسى.

– هل يتشابه الرجال، أم لا يتشابهون؟ هنا تكمن المغالطة فى خطابك القصير. فأنت تسلم بأن الرجال متشابهون كحبات البازلاء فى سقفها. أما أنا فلا. لأنه توجد صفوة، قلة مختارة – مجموعة من الرجال الممتازين. وسواء كانت الآلهة هى التى خلقتهم كذلك، أو كانت الظروف هى التى جعلتهم كذلك، فليس ذلك مجال المناقشة، لكنهم رجال صالحون للحكم، وهم يحكمون لأنهم صالحون للحكم ونظراً لأن باقى الناس كالبهائم، فهم يسلكون كالبهائم. وأنت كما ترى تقدم رسالة، والصعوبة هى أن تفسرها. فأنت ترسم صورة للمجتمع؛ لكن لو أن الحقيقة كانت مناقضة المنطق، كما هو الحال فى الصورة التى ترسمها، لانهار البناء الاجتماعى كله فى يوم واحد. وكل ما تفشل فيه أنت، هو تفسير هذه الأحجية المناقضة للمناطق.

فأحنى جراكوس رأسه موافقاً ثم قال:

– أنا، أنا أجعلها تتماسك.

– أنت؟ أنت وحدك؟

– شيشرون، هل تظن حقيقة أنى أحمق؟ لقد عشت حياة طويلة خطرة، وما زلت مع ذلك فى القمة. لقد سألتنى من قبل عمن يكون السياسى. السياسى هو الإسمنت فى هذا البيت المجنون. لا يستطيع النبيل نفسه أن يفعل ذلك. لأنه يفكر فى المحل الأول بنفس الطريقة التى تفكر بها أنت، والمواطنون الرمانيون لا يحبون أن يقول لهم أحد إنهم بهائم. لأنهم ليسوا كذلك، وهذا ما ستتعلمه فى يوم من الأيام. والنبيل فى المحل الثانى لا يعرف شيئًا عن المواطن العادى. ولو أن الأمر ترك بين يديه لأنهار البناء فى يوم واحد لذلك يأتى النبيل إلى أناس مثلى، فهو لا يستطيع العيش من غيرنا لأننا نسوغ غير المعقول ونبرره، ونقنع الناس بأن أعظم ما يحققه المرء فى حياته هو أن يموت فى سبيل الأغنياء، ونقنع الأغنياء بأن من واجبهم أن يتخلوا عن بعض ثرواتهم لنطعم البائسين. نحن سحرة. نحن نضفى وهما، وهذا الوهم لا ينفذ منه الحمقى، نحن نقول للناس:

أنتم مصدر السلطات، وأصواتكم هى مصدر قوة روما ومجدها وأنتم الشعب الحر الوحيد فى العالم. وليس هناك ما هو أثمن من حريتكم، ولا ما هو أجدر بالإعجاب من مدينتكم وأنتم تسيطرون عليهم، فأنتم مصدر السلطات. وعند ذاك يعطون أصواتهم لمرشحينا، ويبكون لهزائمنا، ويضحكون طربا لانتصاراتنا، ويشعرون بالفخر والعظمة لأنهم ليسوا عبيداً. ولا أهمية لمدى عمق الحضيض الذى يهبطون إليه، فهم إذا ناموا فى المجارى، وإذا جلسوا فى المقاعد الشعبية فى السباق أو فى المجتلد طيلة اليوم، أو إذا خنقوا أطفالهم عند ولادتهم، أو إذا عاشوا على الصدقة العامة ولم يحركوا ساكنا للقيام بعمل يوم واحد منذ ولادتهم حتى مماتهم، فهم على الرغم من كل هذا ليسوا عبيداً. هم قذارة، لكنهم كلما رأوا عبداً، ترتفع نواتهم ويحسون الكبرياء والقوة تملؤهم. ثم يدركون أنهم مواطنون رومانيون، وأن العالم بأسره يحسدهم على ذلك. وهذا هو فنى الخاص يا شيشرون، فلا تقلل من شأن السياسة أبداً.

- ٢ -

كل ذلك لم يحبب جراكوس لشيشرون، وعندما وصلا فى النهاية إلى أول صليب كبير، وكان مقاما على بعد أميال قليلة خارج جدران روما، وأشار شيشرون إلى الرجل السمين الذى جلس يغالب النعاس تحت مظلته، وعلق على ذلك لجراكوس قائلا:

- من الواضح أنه سياسى من ناحية المظهر والتدريب.

- واضح، بل هو فى الحقيقة صديق قديم لى.

وأشار جراكوس إلى حملة المحفات ليتوقفوا، ونزل من محفته فى عناء وجهد، وفعل شيشرون نفس الشىء. وقد سره أن أتيحت له الفرصة ليمدد ساقيه. كان الماء يقترب فى تلك اللحظة، وكانت سحب المطر الداكنة تتحرك قادمة من الشمال. وتقدم شيشرون مقتربا منهما.

وقال جراكوس:

- إذا كنت راغبا فى مواصلة السفر فلتفعل.

فما كانت به أية رغبة فى التودد إلى شيشرون! وكانت أعصابه ثائرة. فقد تركت الأيام القليلة التى أمضاها فى فيلا سالاريا طعما كريها فى فمه. وكان يتساءل قائلا .. ماذا دهاه؟ هل تقدمت به السن ولم يعد يشعر بالأمن والطمأنينة؟

وقال شيشرون:

- سأنتظر.

ووقف إلى جانب محفته، وراح يرقب جراكوس وهو يتقدم إلى الرجل الجالس تحت المظلة. وكان من الواضح أن كلا منهما يعرف الآخر. كانت الديمقراطية التى تسود الأحياء والسياسيين ديمقراطية غريبة حقا. فقد كانت عالما قائما بذاته.

وسمع شيشرون جراكوس وهو يقول:

– الليلة.

فهز الرجل الجالس تحت المظلة رأسه وصاح جراكوس يقول:

– سكستوس لقد قلت لك ما أريد. أنا لا أعبأ مثقال ذرة بسكستوس. إما أن تفعل كما أقول، وإلا فلن أخاطبك أو أنظر إلى وجهك طيلة حياته – أو طيلة حياتك. وهذا أمر لن يطول طالما أنت تجلس تحت هذا اللحم العفن.

– أنا آسف يا جراكوس.

– لا تقل لى إنك آسف. افعل ما أقول.

وخطا جراكوس عائداً إلى محفته وصعد إليها. ولم يوجه إليه شيشرون أى سؤال عما حدث منذ قليل، لكنه ذكر جراكوس وهما يقتربان من أبواب المدينة بالقصة التى رواها فى فترة سابقة من النهار، قصة الأم التى تفانت فى حب ولدها.

– كانت قصة طريفة، لكنك أضعتها فى ثنايا الحديث.

– صحيح؟ هل أحببت يوما يا شيشرون؟

– لم أحب بالطريقة التى يتغنى بها الشعراء لكن تلك القصة .

– القصة؟ لا أستطيع الآن أن أتذكر لماذا حكيتها، كما ترى لا بد من أنى كنت أود أن أوضح نقطة فيما أظن، لكنى نسيتها.

وافترقا فى داخل المدينة، وذهب جراكوس إلى بيته. وكان الليل على وشك أن ينسدل عندما وصل إليه، فاستحم على ضوء المصباح. ثم أنبأ مدبرة منزله أنه سيتأخر قليلاً فى تناول العشاء لأنه ينتظر ضيفا، فأحنت المرأة رأسها موافقة، ثم ذهب جراكوس إلى غرفة نومه، ورقد، وراح يحدق إلى الظلام مكتئبًا دون أن يرى شيئًا . وطاف به الموت وهو راقد هناك. فقد كان هناك مثل لاتينى قديم عن الظلام يقول إن الظلام يفسح مكانا للموت، اللهم إلا إذا صاحب الإنسان امرأة يحبها. لكن جراكوس لم يفعل ذلك قط. لم يصاحب امرأة يحبها. فقد كان جراكوس العجوز يشترى نساءه من السوق، ذلك ما كان جراكوس العجوز الشرير يفعله. متى جاءته امرأة بمحض رضائها وبسرور؟ كان يرغم نفسه على الشعور بإحساس الملكية، وبتيار من التآلف مع من كان يشترى من النساء كمحظيات، لكن الشعور بالحب لم يكن له وجود قط.

وعاد إلى ذهنه فى تلك اللحظة، وهو راقد هناك، ذلك الجزء من الأوديسة الذى ينفذ فيه أوديسيوس انتقامه بعد أن ذبح الخاطبين غير المخلصين. ولم يكن جراكوس قد نعم فى طفولته بمزية الحصول على معلم يونانى ليفسر له الروائع القديمة صفحة صفحة. إنما كان هو الذى سعى إليها بنفسه وقرأها كما يقرأ الرجل الذى يعلم نفسه بنفسه مثل هذه الأشياء. لذلك ظل على الدوام متحيرا للكراهية الوحشية غير الإنسانية التى أظهرها أوديسيوس نحو إمائه.

واسترجع فى ذهنه فى تلك اللحظة كيف أرغم أوديسيوس النساء الاثنتى عشرة على حمل جثث عشاقهن خارجا إلى الفناء. وعلى إزالة دمائهم من أرض بهو المأدبة القذرة ثم حكم عليهن بالإعدام. وأصدر لابنه التعليمات بتنفيذ الحكم، وفاق الابن أباه. وكان تليماك هو الذى يصور فكرة الاثنتى عشرة أنشوطة فى حبل واحد وفى خنقهن كلهن دفعة واحدة معا . كصف من الدجاج المنتوف الريش.

وتساءل جراكوس، ما السبب فى مثل هذه الكراهية؟ لماذا يمثل هذه الكراهية الرهيبة المتوحشة؟

لعله كان أكثر تمدينا من أن يقتل أمة من أمائه اتصلت برجل آخر فى مكان آخر.

لعله كان قليل الاحتفال بذلك - إلا أنه أساساً، لم يكن يفرق بين علاقاته بالنساء. فهو لم يشغل نفسه يومًا طيلة حياته الطويلة بالاهتمام كثيراً بما تكونه المرأة. وكان قد تباهى على شيشرون بأنه لم يخف يومًا من الاعتراف بالحقيقة الجوهرية للأشياء .. ومع ذلك فقد كانت حقيقة المرأة فى العالم الذى يعيش فيه ، شيئًا لم يجرؤ على مواجهته. واليوم، وبعد طول انتظار - يقدم على حركة رائعة حقا - قد وجد امرأة لا تقل عن المخلوقات البشرية. على أن العسير فى الأمر، أنه كان عليه أن يجدها .

وطرقت واحدة من الإماء الباب، وعندما تكلم أخبرته أن ضيفه المدعو للعشاء قد حضر.

- سأحضر بعد دقيقة. وفرى له الراحة. هو قذر ممزق الثياب، لكنى سأجلد بالسياط أية واحدة تنظر إليه من طرف أنفها . قدمى له ماء دافئًا ليغسل وجهه ويديه، ثم أعطيه عباءة خفيفة ليغطى نفسه بها . اسمه فلافيوس ماركوس. ناديه باسمه وتحدثى إليه بأسلوب مهذب.

ووضح فيما بعد أن كل ذلك قد نفذ حسب الأوامر، لأن جراكوس عندما دخل إلى غرفة الطعام، وجد الرجل السمين الذى كان يجلس تحت المظلة إلى جانب الصليب الأول، يتمدد على أريكة، بالغ النظافة، محترم المظهر، لا ينقصه شىء إلا حاجته إلى حلاقة ذقنه. وعندما دخل جراكوس، دلك لحيته بيده وهو مدرك لذلك النقص وقال:

- لو أنك أضفت حلاقة الذقن إلى كل هذا .

- أنا جوعان. وأظن أنه يجدر بنا أن نأكل يا فلافيوس. تستطيع أن تمضى الليل هنا ، وسآمر حلاقى أن يحلق لك ذقنك فى الصباح. وسيكون ذلك أفضل بعد راحة ليلة طيبة، وبعد الحمام، وسأعطيك رداء نظيفا وبعض الأحذية اللائقة. فحجمانا متقاربان وستلائمك ثيابى كل الملاءمة.

وكـان حـجـمـاهـمـا متقاربين، وكانا كثيرى الشبه إلى حد يحمل على الظن أنهما أخوان.

- هذا - إذا لم تكن خائفا من أن يقرعك سكستوس لتركك وظيفته الرخصية التى لا عمل فيها يوازى راتبها، ولقبولك كسرة منى.

فقال فلافيوس وفى صوته رنة عواء:

- أجل. ليس أيسر من الحديث بالنسبة لك. فقد سارت الأحوال على ما يرام بالنسبة لك يا جراكوس: ثروة، راحة، احترام، شرف، قوة. وأصبحت الحياة بالنسبة لك كوعاء ملىء بالقشدة، لكنها أصبحت شيئًا آخر بالنسبة لى، أؤكد لك. أؤكد لك أن الرجل لا يشعر بالاحترام أو بالكبرياء، وهو جالس تحت جثة عفنة، ويحيك الأكاذيب كى ينعم عليه المسافرون بالقليل يلقونه فى راحة يده. إنه شىء مرير كريه أن يصبح المرء شحاذا . لكنى حصلت على الأقل على شىء بسيط من سكستوس عندما وصل بى الحال إلى الحضيض. وأنا اليوم عندما أعود إليه من جديد، سيقول لى: آه، أنت لم تعد فى حاجة لى. إذهب إلى حاميك العظيم وصديقك جراكوس، هذا ما سيقوله، لأنه يكرهك وسيكرهنى بالتالى.

فقال جراكوس:

- فليكرهك. سكستوس ضفدع، صرصار، رئيس حى، صغير، رخيص. فليكرهك. افعل ما أطلبه منك، وسأحصل لك على عمل هنا فى المدينة، عمل كتابى، عمل كحارس، أى عمل تستطيع أن تدخل منه قليلا من الأمل وتحيا حياة محترمة. ولن تحتاج إلى مد اليد إلى سكستوس مرة أخرى.

- كان لى كثير من الأصدقاء فى أحد الأيام، عندما كنت مفيداً لهم، أما اليوم فقد أموت فى بالوعة..

فقاطعه جراكوس قائلاً:

– أنت مفيد لى، ولترتب الأمر على هذا الأساس وحده. الآن، تناول عشاءك وكف عن العواء. يا إلهى، إن الحظ الحسن يحيط بك من كل جانب. لكنك خائف من أن تقول له كيف حالك. لست أدرى مم تخاف.

وأنعش الطعام والنبيذ فلافيوس. وكان جراكوس يملك أمة مصرية فى مطبخه. وكانت متخصصة فى نزع العظام من صغار الحمام ثم حشوه بالصنوبر والمكسرات والشعير الرائع. ثم تطهوه على نار هادئة وتسقيه البراندى وشراب التين. قدمته لهما الإماء ومعه مقانق صغيرة مصنوعة من لسان الحمل المدخن المفرى مع قشر الليمون، وكانوا يسمونه «فولا» وكان مشهوراً بحق فى طول المدينة وعرشها. بدأ العشاء بالبطيخ، وأتبع بهذين الصنفين، ثم بحساء أبيض من لحم سرطان البحر المفرى، يضفى عليه الثوم نكهة رقيقة. ثم فطيرة حلوة من العنب والبلح، إلى جانبها شرائح رقيقة كالورق من فخذ الخنزير المدخن. ثم عيش الغراب المشوى فوق قاعدة من لحم السمك الأبيض اللامع، وفى النهاية صينية فيها فطيرة لوز ثم فطائر السمسم الحلوة. ومع الخبز الأبيض الساخن والنبيذ الأحمر الجيد. وعندما فرغا من العشاء، مال فلافيوس بظهره إلى الوراء وهو يبتسم مستريحا، وبطنه الضخم يهتز فى رقة ثم قال:

– لم آكل أكلة مثل هذه يا جراكوس منذ خمس سنوات. الطعام الجيد هو خير بلسم فى العالم. يا إلهى ، مثل هذا الطعام. وأنت تأكل بهذا الشكل كل ليلة ! حسن. أنت رجل ماهر يا جراكوس، وما أنا إلا أحمق عجوز. أظن أنك تستحق ذلك ولا حق لى فى أن أستاء. أنا الآن على استعداد لسماع ما تريد منى أن أعمله لك. ما زلت أعرف قليلاً من الناس. وقليلاً من رجال العصابات، وقليلاً من قاطعى الرقاب وقليلاً من النساء. ولا أعرف ما أستطيع أن أعمله أنا ولا تستطيع أن تعمله أنت بنفسك، أو أن تجد شخصا آخر يعمله خيراً منى، لكنى على استعداد.

فقال جراكوس:

– سنتكلم فى أثناء احتساء الشراب.

وصب قدحا لكل منهما ثم قال:

– أعتقد أن فيك فضائل يا فلافيوس. كان فى استطاعتى أن أجد شخصاً آخر غيرك يعرف كل من يتعاملون فى روما فى الأجساد والأرواح والآلام، لكنى لا أريد أن أدخل فى هذا الأمر أى شخص يستطيع أن يرجع علىَّ بأى شىء. أريد أن أعمل عملاً يتم كما يجب، وفى هدوء وصمت.

فقال فلافيوس:

– أستطيع أن أكتم السر.

– أنا أعرف ذلك. ولهذا أطلب منك أن تقوم لى بهذا العمل، أريد منك أن تعثر لى على امرأة، أمة. أريدك أن تعثر عليها وتشتريها دون مراعاة للثمن. وسأضع تحت أمرك مبالغ غير محدودة تنفق منها فى العثور عليها.

– أى نوع من النساء هذه؟ الله يعلم أن فى السوق الكفاية من الإماء. بل لقد أصبح فى السوق فيض منهن بعد انتهاء حرب العبيد. ومن غير العادى أن يفتش المرء عن أى نوع من الأسعار. أعتقد، أنى مستطيع أن أجد لك أى لون من النساء تريده: سوداء، بيضاء، صفراء أو سمراء، عجوز أو شابة جميلة أو قبيحة، شقراء، سوداء الشعر، حمراء الشعر– أى شىء على الإطلاق. أى نوع تريده أنت؟

فقال جراكوس فى بطء:

– لا أريد نوعًا بالذات. أريد امرأة معينة.

– أمة؟

– أجل.

– من هى؟

– اسمها فارينيا، وكانت زوجة سبارتاكوس.

– آه.

وتطلع فلافيوس إلى جراكوس محاولا الفهم. ثم رشف رشفة من شرابه، ثم نظر إلى جراكوس من جديد، ثم سأله فى نعومة:

– وأين هى؟

– لا أدرى.

– لكنك تعرفها؟

– نعم ولا. فأنا لم أرها قط.

– آه.

– كف عن قولك آه كالعراف اللعين.

– إنما أحاول التفكير فى شىء ذكى أقوله.

وهدر جراكوس يقول:

– وأنا أستأجرك كوكيل لا كوسيط. وأنت تعرف ما أريد منك أن تعمله.

– تريد منى أن أجد لك امرأة، لكنك لا تعرف أين هى، ولم ترها قط. أتعرف ما شكلها؟

– أجل هى فارعة الطول، متينة البنيان، لكنها هيفاء، عالية الصدور، مليئة الأثداء. هى ألمانية. لها ذلك الشعر الألمانى فى لون القش، وعينان زرقاوان، أذناها صغيرتان، عالية الجبين، أنف مستقيم لكنه ليس صغيراً، عينان غائرتان، وفم ملىء، شفته السفلى

تميل إلى الامتلاء. وهى قد تتكلم اللاتينية بصعوبة، وقد تتظاهر بأنها لا تتكلمها على الإطلاق. وتتكلم اليونانية بصورة أفضل بلكنة تراقية. وهى قد وضعت طفلا خلال الشهرين الماضيين ولكن من المحتمل أن يكون الطفل قد مات. وحتى إذا كان الطفل قد مات، فهى ما زالت تحمل اللبن فى ثدييها، أليس كذلك؟

– ليس ضروريا، كم عمرها؟

– لست على ثقة من ذلك. ثلاثة وعشرون على الأقل، ومن المحتمل أن يصل عمرها إلى السابعة والعشرين. لست متأكداً.

– من المحتمل أن تكون قد ماتت.

– هذا احتمال. إذا صح ذلك، أريد منك أن تعرف. وأريد منك أن تحضر لى الدليل على موتها. لكنى لا أظن أنها قد ماتت.

فهى ليست ممن يقدمون على الانتحار إطلاقًا، وامرأة كهذه ليس من الممكن قتلها سريعًا.

– وكيف تعرف أنها لا تقدم على الانتحار؟

– أنا أعرف. لا أستطيع تفسير ذلك، لكنى أعرف.

فقال فلافيوس:

– ألم يستولوا على معسكر سبارتاكوس بعد هزيمته، وكان فيه نحو عشر آلاف امرأة وطفل؟

– كان فيه اثنتان وعشرون ألف امرأة وطفل. اثنتا عشرة ألف وزعوا على الجنود كغنائم. كانت هذه أنتن فضيحة من نوعها سمعت عنها طيلة حياتى، لكن كراسوس كان يقف وراءها، وأعطى نصيبه من الغنائم إلى الخزانة العامة ليسكتهم. ولم يكن ذلك

باللفتة الكريمة من جانبه، لأن نصيبه كان قليل القيمة. وقام بلفتة كبيرة برفضه قبول العبيد لنفسه، لأنه كان يعرف ما سيصبح عليه السوق.

– وهل كانت فارينيا بين تلك النساء؟

– ممكن، وغير ممكن. فقد كانت زوجة قائدهم. ومن المحتمل أن يكونوا قد اتخذوا بعض الوسائل الخاصة لحمايتها.

– لا أدرى، فقد جعل العبيد من المساواة صنما لهم.

وأفرغ جراكوس بقية كأسه في جوفه، وأشار بأصبعه الغليظة إلى الرجل الآخر وقال:

– هل تريد أن تعمل ما أقول، أم لا تريد؟. لن تستطيع أن تصل إلى أى حل لذلك بالكلام يا فلافيوس. لأن الأمر يتطلب عملا شاقا.

– أنا أعرف أنه يتطلب العمل الشاق. كم من الوقت ستعطينى؟

– ثلاثة أسابيع.

ففتح فلافيوس ذراعيه وقال:

– آه، لا – آه – ليس هذا بالوقت الكافى على الإطلاق. قد لا تكون فى روما، فأضطر إلى إرسال الرسل إلى كابوا أو إلى سرقسطة وإلى صقلية، وربما إلى إسبانيا وإفريقيا. كن معقولا.

– أنا معقول إلى الحد الذى أنويه، اللعنة على كل شىء. اذهب إلى سكستوس وعش على صدقته.

– حسن يا جراكوس، لا داعى لأن تغضب إلى هذا الحد. لكن لنفرض أننى سأضطر إلى شراء عدد من النساء؟ أتعرف عدد الألمانيات اللاتى ينطبق عليهن ذلك الوصف بالذات؟

– كـثـير جـدا، أنا واثق، أنا لا أريد أى امـرأة ينطبق عليـها ذلك الوصف. أنا أريد فارينيا.

وكم أدفع ثمنا لها إذا وجدتها؟

– أى ثمن يطلب. سأدفعه.

– حسن. أوافق يا جراكوس. صب لى كـأسًا آخـر من هذا الشـراب المتـاز من فضلك.

فصب له جراكوس الشراب. وتمدد فلافيوس على أريكته وراح يرشف الشراب، ويتطلع إلى الرجل الذى وظفه وقال:

– أنا لى مواهب معينة. ألست كذلك يا جراكوس؟

– كذلك ، بلا شك.

– ومع ذلك، أظل فقيراً وأظل فاشلا. أتسمح لى يا جراكوس بأن أسألك سؤالاً واحداً قبل أن نترك هذا الموضوع؟ لا تجب عليه إذا لم ترد. لكن لا تغضب.

– سله.

– لماذا تريد هذه المرأة يا جراكوس؟

– لست غاضبا، لكنى أظن أن الوقت قد حان لكى تنام، فكلانا لم يعد شابا، كما كنا من قبل.

لكن العالم فى تلك الأيام، لم يكن كبيراً أو معقداً كما هو اليوم، إذ ظهر فلافيوس فى منزل جراكوس قبل انقضاء الأسابيع الثلاثة المحددة. وأعلن إليه نجاحه فى إتمام مهمته. فالمال كما يقولون له سطح ناعم يترك أثره على من يتعاملون به، وكان فلافيوس مختلفًا، إذ أضحى أنيق الهندام، حليقا، واثقا من نفسه لنجاحه فى الوصول بمهمته العسيرة إلى نهايتها. وجلس إلى جراكوس يحتسيان زجاجة من النبيذ ويعرض معلوماته، وجراكوس نفسه يشد حبال صبره حتى لا ينفد.

قال فلافيوس مفسراً:

– بدأت بالعمل المحير حقا، وهو الوصول إلى الضباط الذين شاركوا فى الغنائم. إذ أدركت أنه لو كانت فارينيا جميلة ومتينة البنيان، فإنها تختار فى تلك المجموعة الأولى. لكنك عندما تدرك أن مسألة تملك العبيد بوضع اليد، كلها عملية غير مشروعة، وأن خمسمائة أو ستمائة ضابط، قد اشتركوا فى ذلك، وأن القليل جدا منهم هو من أبدى أى رغبة فى الكلام، تستطيع أن ترى أن ذلك لم يكن أمراً يسيراً. حسن، وكان الحظ مواتيا لنا. فالناس يتذكرون. عادت فارينيا إلى العمل، عندما بلغتهم أنباء هزيمة العبيد وتذكر الناس تلك المرأة التى كانت ترفض الانفصال عن طفل حديث الولادة. ولم يعرفوا أنها كانت زوجة سبارتاكوس، أو أن اسمها كان فارينيا، ويجب أن تفهم أن كراسوس أرسل بعد المعركة مباشرة كتيبة من الخيالة لتهاجم مدينة العبيد، أو معسكرهم، أو قريتهم، أو سمها ما شئت. ثم تبعتها المشاة. ولم تقاتل نساء العبيد وأطفالهم الموجودون هناك طويلاً. إذ كان من بينهم بعض الصبيان فى الثالثة والرابعة عشرة – فقد كانوا مذهولين، إذ كانوا قد سمعوا لتوهم نبأ تحطيم جيش العبيد. لكنك

تعـرف كيـف يصبح الجنود بعد المعركة، وأظن أن قتال العبيد ليس مجرد نزهة. إذ قام الجنود..

فقال جراكوس:

– لست فى حاجة إلى تلخيص لنفسية جنود الفيالق. علىَّ بالحقائق.

– إنما أحاول أن أصف لك الموقف فقط. أقصد أنه حدث أول الأمر كثير من القتل الذى لا معنى له، لأن جنودنا كانوا غضبى ودماؤهم فائرة. وكانت فارينيا قد وضعت لتوها. حسن. طفل العبد لا يكاد يساوى وزنه ذهبا فى هذه الأيام. وكان ما هدانى إليها هو قصة جندى حمل هذا الطفل من ساقه. وبدأ يديره فى الهواء ليحطم نافوخه على عمود إحدى الخيام، لولا أن أوقفه كراسوس نفسه. وأنقذ كراسوس الطفل وضرب الجندى بيديه حتى كاد يقتله. لا يمكن أن يتوقع المرء ذلك من كراسوس أليس كذلك؟

– لا يهمنى ما يتوقعه المرء وما لا يتوقعه من كراسوس. أى ثرثار عجوز أنت يا فلافيوس؟ هل وجدت فارينيا؟ هل أصبحت مالكا لها؟ هل اشتريتها؟

– لم أستطع شراءها.

فزأر جراكوس يقول فجأة – «لماذا؟ وهو ينهض واقفا على قدميه وقد انفجر غضبه انفجارة مخيفة بقدر ما هى غير متوقعة. وبينما راح يتقدم من فلافيوس، انكمش الآخر متراجعا فى مقعده وأنشب جراكوس يده فى عنق ردائه وانحنى عليه وصاح يقول:

– لماذا؟ لماذا؟ أيها الشحاذ السمين العديم النفع؟ هل ماتت؟ إذا لفقت قصة، فأقسم على أن أرجعك إلى البالوعة إلى الأبد. إلى الأبد.

– هى لم تمت.

- أوه، لكنك ملىء بالثرثرة، كالقربة التى تصدر أصواتًا بدلاً من الكلام، لماذا لم تشترها؟

وأطلق سراح فلافيوس، وإن ظل على وقفته فوقه. وقال فلافيوس فجأة وفى صوت عال:

- اهدأ. لقد كلفتنى بعمل فقمت به. قد لا أكون فى مثل ثرائك يا جراكوس، وقد أكون من البالوعة أصلاً، لكن ذلك لا يعطيك أى حق فى مخاطبتى بهذه الطريقة. أنا لست عبدك. وعندما يصبح الرجل فى مثل حالتى، ففى ذلك الكفاية من سوء الحال. ولست فى حاجة إلى أن تزيده سوءا.

- أنا آسف.

- لم أشترها لأنها ليست معروضة للبيع. هذا كل ما هناك.

- الثمن؟

- ليس الثمن فلا ثمن لها على الإطلاق. إنما لأنها ملك لكراسوس. وتعيش فى بيته وليست معروضة للبيع. ألا تعتقد أنى حاولت؟

كان كراسوس فى كابوا، فطرقت الموضوع مع وكلائه فى أثناء غيبته هناك. أوه، لا - لم يكن فى الإمكان عمل أى شىء. فقد رفضوا حتى مناقشة الموضوع. فما إن وصل الحديث إلى تلك الأمة بالذات، حتى توقفوا عن الحديث. فهم لا يعرفون شيئًا عن مثل هذه الأمة، ويرفضون الكلام فى ثمنها، ويرفضون حتى المضاربة. فجعلت المال يتساقط فى أيديهم، لكن ذلك لم يغير الموقف إطلاقًا لو أننى كنت أريد الحلاق أو الطباخ أو مدبرة البيت، لأمكن ترتيب ذلك. بل لقد رحبوا بعقد صفقة تتناول امرأة سورية جميلة اشتراها كراسوس فى العام الماضى، وتعهدوا بتسليمها لى. كانوا على أتم الاستعداد لعمل ذلك من أجلى، أما فارينيا فلا.

– إذن فكيف عرفت أنها فارينيا؟ وكيف عرفت أنها هناك؟

– لقد اشتريت تلك المعلومات من العبد المختص بصيوان الملابس. أوه. لا تظن أن أهل بيت كراسوس يكونون عائلة صغيرة متماسكة سعيدة. فله ابن يكرهه كراهية التحريم، وزوجة تعيش منفصلة عنه. على استعداد لقطع رقبته، والمؤامرات التى تدور فى بيته تشبه شيئًا قادمًا من الشرق. على كل، استطعت أن اشترى معلومات. لكنى لم أستطع شراء فارينيا.

– وهل عرفت لماذا اشتراها؟ ولماذا يحتفظ بها؟

فضحك فلافيوس وقال:

– طبعا عرفت. كراسوس يحبها.

ماذا؟

– نعم. لقد عرفت كراسوس العظيم الحب.

عند ذاك قال جراكوس بترو وفى بطء:

– فليلعنك الله يا فلافيوس، إذا تحدثت عن هذا الموضوع.

إذا شاع هذا الأمر يومًا، وإذا سمعت فى يوم من الأيام أى جزء منه يتردد فى أى مكان، فليساعدنى الله، سأعمل على صلبك.

– ما هذه الطريقة التى تتكلم بها؟ لست الله يا جراكوس.

– لا. لا. ولا تربطنى حتى علاقة بعيدة بأى رب من الأرباب كما يدعى بعض أنصاف المجانين من نبلائنا. على الإطلاق.

لكنى قريب من الله قرب أى إنسان عمل يوما فى السياسة الرومانية. وأنا قريب منه إلى حد يكفى للإيقاع بك يا فلافيوس ولتعليقك على الصليب. فإذا تسرب أى جزء من هذا الموضوع فسأصلبك. فخذ حذرك.

- ٤ -

تأهب جراكوس بعد ظهر اليوم التالى للذهاب إلى الحمامات، وهو عمل له ضرورته السياسية، وله مكافأته. فقد كانت الحمامات العامة تتحول يومًا بعد يوم إلى مراكز سياسية واجتماعية، فكان يتم عزل وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ والقضاة فى الحمامات، وكان يتم تداول ملايين القطع الذهبية فى الحمامات، وكانت الحمامات تجمع بين البورصة المالية والنادى السياسى. ومن هنا كان الظهور فى فترات معينة يكاد يكون إلزاما. وكان هناك ثلاثة حمامات كبيرة معدة أحسن إعداد، كان جراكوس يسيطر عليها. أولا الطلوتم، وهو أحدثها نسبيا، أما الآخران فكانا أقدم منه، ولو أنهما ما زالا على أناقتهما. وعلى الرغم من أنه لم يكن مسموحًا لكل المواطنين بدخول هذه الحمامات الثلاثة، فقد كان أجر الدخول بالغا فى التواضع، لا يكفى لمنع حتى الرجل الفقير من الدخول، ولو أن وضعا اجتماعيا معينا كان يحول دون دخول عامة الناس إلى تلك الأماكن بالذات. وكانت روما كلها تخرج من بيوتها بعد الظهر عندما يكون الجو رائقا. حتى العمال الرومانيون الذين كانت أعدادهم تتضاءل، كانوا يفرغون من أعمالهم الساعة الواحدة بعد الظهر: إذا كانت زيادة ساعات العمل تشجعهم على نبذ العمل والعيش على الصدقات العامة. فكان بعد الظهر هو وقت الرجل الحر: يكد العبيد ويستريح المواطن الرومانى.

وكان جراكوس، مع ذلك، قليل الاحتفال بالألعاب، ولا يهتم إلا بالسباق من وقت إلى آخر. وكان يختلف بعض الشىء عن زملائه فى أنه لم يكن يقوى على مشاهدة مأساة رجلين عاريين يمسك كل منهما بسكين فى يده، ويطعن كل منهما الآخر حتى يصبحا مفازع من اللحم الممزق والدم المتدفق. ولم يكن ليجد كذلك متعة فى مراقبة

رجل يتلوى فى شباك صيد السمك، بينما تفقأ عيناه وتفتح بطنه مدراة صيد الأسماك الطويلة. على أنه كان يستمتع من وقت لآخر بتمضية بعد ظهر أحد الأيام فى سباق الجياد، أما سباق العربات الذى كان العنف يتزايد فيه يوماً بعد يوم فيصبح نزالا جديا بين السائقين المتنافسين أمام جمهور لا يقنع أبداً إلا إذا تهشم رأس أو انسحق جسد، فكان لا يبعث فى جراكوس إلا الملل. ولم يكن مرجع ذلك إلى أن قلبه كان أرق من قلب أى رجل آخر، إنما لأنه كان يكره الغباء، وكانت كل تلك الأعمال بالنسبة له بالغة الغباء. أما المسرح؛ فلم يكن ليفهمه على الإطلاق، ولم يكن يحضر إلا حفلات الافتتاح الرسمية حيث يضطر إلى الظهور كموظف من موظفى المدينة.

أما أكبر متعة له بعد الظهر، فكانت هى السير حتى الحمامات مخترقا الشوارع القذرة الملتوية التى لا نهاية لها فى المدينة المحبوبة روما التى أحبها على الدوام. إذ كانت روما أمه. وأمه، كما كان يقرر بينه وبين نفسه، عاهرة، لفظه رحم أمه إلى قذارة الشارع. لكنه حتى تلك اللحظة كان يحب أمه، وكانت أمه تحبه. كيف كان يستطيع أن يفسر لشيشرون ما كان يعنيه بإعادة رواية تلك الملحمة القديمة؟ إذ كان من الضرورى أن يحب شيشرون روما أولاً، وأن يرتبط مثل ذلك الحب بمعرفة مدى خسة وشرور تلك المدينة.

كانت تلك الخسة، وتلك الشرور شيئًا يفهمه جراكوس. فهو قد سأل مرة أحد أصدقائه المثقفين بقوله:

– لماذا يجب أن أذهب إلى المسرح؟ هل يستطيعون أن يقدموا على خشبة المسرح ما أراه فى شوارع روما؟

وكانت شوارع المدينة شيئًا يستحق المشاهدة فعلاً. وكان يشاهدها فى ذلك اليوم فى احتفال تقريباً، كما لو كان قد ساءل نفسه قائلاً:

– كم مرة سأفعل هذا من جديد ؟ أبداً؟

وبدأ بالذهاب إلى السوق التى تقام بالنهار حيث لم يكن قد تبقى على المنصاب لتقوم بعملها إلا ساعة أخرى قبل أن تكف عن العمل. وكنت تضطر إلى أن تشق طريقك بالقوة بين جموع النسوة المتصايحات لتستطيع المشى فى ذلك الشارع. لكنه استطاع أن يشق طريقه فى رقة على ضخامته فى عباءته البيضاء، كسفينة حربية كبيرة فى ريح رقيق. هناك كان يوجد ما كانت روما تأكله. هناك كانت توجد تلال الجبن، أقراص من الجبن مستديرة، وأقراص مربعة، وجبن أسود، وجبن أحمر، وجبن أبيض. هناك كانت تتعلق الأسماك المدخنة، والأوز المدخن، والخنازير المذبوحة، وضلوع الأبقار، والحملان الطرية، وتعابين الماء، والسردين المملح فى براميلها، وبراميل المخللات تفوح منها رائحتها الحريفة الطيبة. وهناك كانت توجد حرار الزيت القادمة من تلال سابين ومن بيستام وأفخاذ الخنزير المدخنة الرائعة القادمة من بلاد الغال، والأحشاء تتدلى فى كل مكان، والأوعية الخشبية الكبيرة التى تضم المقانق.

وتمهل فى السير بجانب منصات الخضروات. فقد عادت به ذاكرته إلى وقت كان فيه كل فلاح يقطن على بعد عشرين ميلا من المدينة يملك حديقته الخاصة التى يبيع خضرواتها، وكانت روما كلها تأكل الخضروات المتنوعة الرائعة التى كانت تعرض فى الأسواق، لكن الضيعة اليوم لم تعد تهتم إلا بالمحصولات التى يدفع ثمنها نقداً، سواء كانت قمحا أو شعيراً، فارتفعت أسعار الخضروات إلى مستوى يعلو على متناول كل إنسان عدا الطبقة الحاكمة. ومع ذلك فقد كان فى استطاعة المرء أن يرى أكوام الفجل واللفت والخس فى خمسة أشكال، والعدس والبقول والكرنب والليمون والبطيخ والأسبرج والكمأ (جدرى الأرض) وعيش الغراب فى تشكيلة كبيرة بهيجة الألوان من الخضروات والفاكهة، كذلك أكوام من الليمون الإفريقى والرمان الأصفر والأحمر اللامع الريان والتفاح والخوخ والتين، والبلح العربى، والعنب والبطيخ القادمة من مصر.

وفكر لنفسه قائلاً:

- يا لها من متعة مجرد النظر إلى ذلك.

وتابع السير مخترقا طرف الحي اليهودى فى المدينة. كان كسياسى قد سبق له التعامل مع اليهود فى بعض الأحيان. أى شعب غريب هم!

- يمضى عليهم كل ذلك الوقت الطويل فى روما، وما زالوا مع ذلك يتكلمون لغتهم الخاصة، ويعبدون إلههم الخاص، وما زالوا يطلقون لحاهم، ويرتدون تلك العباءات الطويلة المخططة الخاصة بهم مهما كان الجو. والمرء لا يراهم أبداً فى الألعاب أو فى ميادين السباق، والمرء لا يراهم فى المحكمة أبداً. ويكاد المرء لا يراهم على الإطلاق إلا فى حيهم الخاص بهم. مؤدبون، متباعدون، ذو كبرياء. وكان جراكوس عندما يراهم يفكر قائلاً لنفسه:

- سيمتصون من دماء روما على مر الزمن، أكثر مما امتصته قرطاجنة.

أمام واجهة حانوت، بينما كانت إحدى كتائب حراسة المدينة تمر يصحبها قرع الطبول والنفخ فى الأبواق، والأطفال يجرون، كما هى العادة، خلف الجنود وكما هى العادة أيضًا، كان فى استطاعته أن يلقى مجرد نظرة سريعة من جانب إلى جانب فيرى، وهو يرقب الاستعراض، شخصا عربيا وسوريا ويمنيا.

ومشى إلى حيث تنتهى المنازل السكنية الشاهقة وتبدأ الحدائق والأروقة الرخامية الفاتحة اللون، والأقواس الرطبة، والطرقات العريضة. وكان لاعبو النرد يحتلون مكانهم فى الساحة العامة بالفعل إذ كانت المقامرة، فى روما كالمرض، وكان النرد هو أسوأ مظهر لذلك المرض، فبعد ظهر كل يوم، كانت جماعات المقامرين تتناثر فى كل أنحاء الساحة العامة يرمون النرد، ويضرعون إلى النرد، ويتحدثون إلى النرد. وكانت لهم لغة خاصة بهم: وكان المتعطلون والجنود فى أوقات راحتهم، وفتيات الرابعة والخامسة عشرة اللاتى تجدهن فى كل مكان فى المدينة، لا يعملن شيئًا، نشأن فى الشقق الصغيرة القذرة يعشن فيها كما عاش أباؤهن على الصدقات العامة، ويضفن إليها القليل مما يربحنه من الدعارة وليدة عدم المبالاة.

وحدث مرة أن اعتبر ذلك الأمر، هو وكثير غيره، أمرا وحشيا رهيبا، لكن الأمر لم يعد فى تلك الأيام جديراً بالاهتمام والمناقشة، بعدما لم يعد من العار على الرجل المتزوج زواجًا فاضلاً، أن يحتفظ باثنتى عشرة جارية.

وفكر جراكوس قائلاً لنفسه:

- إن عالما بأسره ينتهى جزءًا فجزءًا ، لكننا لا نكف عن التعجب منه إطلاقًا. ولماذا يجب أن نكف ؟ إن ذلك يحدث ببطء كبير، وحياة المرء قصيرة جدا.

وكان يتوقف هنا وهناك ليرقب ألعاب النرد، إذ كان يستطيع أن يتذكر، كيف كان يرمى النرد وهو بعد صبى. لم يكن فى وسعك حين ذاك أن تحيا حياة طيبة على الصدقة العامة. وكانت توجد يوم ذاك نواحى أخلاقية معينة تحمل الرجل ذا الكبرياء على رفض الصدقة العامة، حتى ولو كان ذلك يعنى الموت جوعا.

ثم مضى فى سيره إلى الحمامات. كان قد رتب الأمر بعناية.

وكانت نسبة احتمال وجود جراكوس فى الحمامات يومذاك، ووصوله فى ذلك الوقت بالذات، ثلاثة إلى واحد. وصح حدسه. إذ كان كراكوس موجوداً بالفعل فى غرف ارتداء الملابس، عندما دخل إليها جراكوس، وقد خلع ثيابه وتوقف برهة أمام المرايا يتأمل جسده الطويل النحيل فى إعجاب. وكانت الغرفة مليئة بالمستحمين. ففى تلك الغرف، كنت تجد قسما مسليا من حياة المدينة، وعاء لخلط السياسة، ونفراً من ذوى الدم الأزرق الكسالى ولكنها قوة سياسية كافية لهز المدينة من أصولها، وأصحاب البنوك والتجار ذوى النفوذ، ورؤساء الأحياء، ومستوردى العبيد، وتجار الأصوات الانتخابية، ومعرضاً من الأذناب صغار الشأن وزعماء العصابات، واجتماعا تمهيديا هاما لانتخاب عضو فى مجلس الشيوخ، حتى متعهداً أو اثنين من متعهدى المجالدين، وثالوثا من القناصل السابقين، وقاضيا، وممثلاً أو اثنين، واثنى عشر رجلا عسكريا من ذوى الشأن، وينتشر بينهم عدد كاف من الرجال الذين ليست لهم أهمية خاصة ليدللوا

على الديمقراطية التى كانت تسود الجماعات - وهى الديمقراطية التى كانت روما تتباهى بها إلى حد كبير. ولم يكن فى استطاعة الملوك والمرازبة القادمين من الشرق أن يغفلوا قط حقيقة أن حكام روما - أى حكام العالم - كانوا يختلطون بتلك البساطة بمختلف طبقات المدينة ويمشون فى شوارع المدينة دون أى مبالاة.

جلس جراكوس على أريكة وترك عبداً يفك له حذاءه وهو يراقب كراسوس مراقبة متقطعة. وأخذ فى نفس الوقت يتلقى التحيات، ويحنى رأسه ويبتسم، ويلقى بكلمة هنا وكلمة هناك. وكان يجود بالنصيحة عندما تطلب منه، قصيرة حاسمة. وأدلى، عندما طلب منه ذلك، بآراء قصيرة أكيدة عن القلاقل فى إسبانيا والموقف فى إفريقيا، وضرورة بقاء مصر على الحياد - تلك المصدر الدائم لقمح روما - ومشكلة ما يجب عمله تجاه هياج اليهود المتواصل فى فلسطين. وأعاد الثقة إلى النخاسين الذين كانوا يشكون من أن أثمان العبيد ستظل على نزولها حتى تحطم الاقتصاد، وبدد شائعة تقول إن الجيش فى بلاد الغال يدبر انقلاباً. لكنه ظل يراقب كراسوس طيلة الوقت، حتى تبختر المليونير فى النهاية وهو ما زال عارياً يستعرض لياقته الجثمانية النحيلة ويمضى بقية اليوم. ولم يستطع كراسوس أن يقاوم البقاء هناك ليقارن الجميع بينه وبين جراكوس عندما بدأ هذا يخلع ملابسه. وعندما خلع العبيد عباءة السياسى، ظهر جسد الرجل الضخم كالجبل، ومع ذلك فقد ظل على تأثيره فى النفوس، وعندما خلع العبيد عنه الرداء، كان تفجع الرجل المفرط السمنة لتعريه على الملأ أسوأ من شعوره عند التعرى العادى البسيط.

والغريب فى الأمر، أن جراكوس لم يكن يشعر بالخجل من جسده قط قبل ذلك.

ومشيا معا حتى دخلا إلى غرفة الاستراحة، وهى منتدى الحمامات. ففيها أرائك وسجاجيد يستطيع المرء أن يتمدد فوقها ويستريح، لكن المتبع كان بصورة عامة هو التمشى جيئة وذهاباً بين المغاطس، وكان فى استطاعة المرء أن يذهب من تلك الصالة العريضة الأنيقة المرصوفة بالرخام، المحلاة بالفسيفساء والتماثيل، إلى حوض المياه

البارد الخارجى، وإلى الحوض الدافئ، وإلى الحمامات الساخنة، وإلى غرف البخار، وعن طريق كل هؤلاء إلى غرف التدليك والتدريبات الرياضية المتعددة.

وكان فى استطاعة المرء بعد ذلك، إذا ما التف فى ملاءة رطبة أن يخرج إلى مماشى الحديقة وإلى المكتبات – وكانت جزءًا من الحمامات – وإلى غرف الجلوس وإلى أماكن حمامات الشمس. وكان ذلك النظام الكامل صالحًا لمن يملكون ساعات من الفراغ يمضونها فى الحمامات. وكان جراكوس يكتفى عادة بالنزول إلى المغطس البارد: وينصف ساعة فى غرفة البخار، ثم بالتدليك.

لكنه كان فى تلك اللحظة يلين عريكته لكراسوس، فكان من الطبيعى أن يتغاضى عن الكلمات القاسية، والانفعالات الحادة، فمشى إلى جانب القائد، عاريًا سمينًا، مترهلاً، وهو يقطر ظرفًا ورعاية وكان شديد البراعة فى ذلك.

وعلق الناس الذين رأوهما معًا قائلين:

– يقيمان جسورًا.

وتساءلوا عن كنه المحالفات السياسية الجديدة التى تدبر هناك، نظرًا لأنه لم يعرف عن كراسوس وجراكوس ذلك اللون من الزمالة. على كل ؛ انتظر كراسوس فى صبر. وقال يخاطب نفسه:

– سيفصح عما يقصد مهما كان.

واستحال أسلوبه مهينا بعض الشىء، إذ سأل السياسى قائلاً:

– منذ متى أصبحت حجة فى شئون مصر، كما أنت حجة فى غيرها من الأشياء؟

– أتعنى ما قلته أنا من قبل ؟ حسن إنها كلمات عامة قليلة تسد الفراغ. إنها مسألة سمعة.

وكان ذلك جراكوس جديدا حقا.

– سمعتك أنك تعرف كل شيء ؟

فضحك جراكوس وقال:

– لقد ذهبت إلى مصر، أليس كذلك ؟

– لا. ولا أتظاهر بذلك.

– حسن حسن . لست أدرى يا كراسوس، كلانا يزمجر وينهش فى الآخر، بينما نستطيع أن نصبح أصدقاء. فكل منا صديق جدير بالمصادقة.

– أظن ذلك. وأنا ساخر كذلك. هناك ثمن للصداقة.

– حقا ؟

– نعم طبعا. ما الذى أملكه ليجعل صداقتى غالية إلى هذا الحد. المال.، أنت تملك مثل ما أملك تقريبًا.

– أنا لا أعبأ بالمال.

فقال جراكوس فى عجلة:

– أريد أن أشترى منك عبداً.

وهكذا صرح جراكوس بما يريد وانتهى.

– الطاهى بلا شك. لو أن لك شعراً يا جراكوس، لقلت إنك تريد مصفف شعرى. أم تراك تريد طاقمًا من حملة المحفات ؟ أو لعلها امرأة. سمعت أنك لا تملك إلا النساء فى بيتك.

فصاح جراكوس يقول:

– اللعنة. أنت تعرف من أريد. أريد فارينيا.

- من ؟

- فارينيا. ولنكف عن محاورة كل منا للآخر.

- أنت الذى تتلاعب يا عزيزى جراكوس، من الذى كان يبيعك المعلومات؟

فتوقف الرجل السمين عن السير وواجه الآخر وقال:

- أنا على علم دائمًا. اسمع - اسمع يا كراسوس. لا تهويش، ولا مماحكة، ولا مساومة. سأصارحك. سأدفع لك أكبر سعر دفع فى روما على الإطلاق ثمنا لعبد. سأدفع لك مليونا من القطع الذهبية. سأدفع لك هذا المبلغ ذهبا، وسأسلم لك كل قطعة منه فوراً، إذا أعطيتنى فارينيا.

فعقد كراسوس ذراعيه، وصفر بفمه صفيراً خافتا ثم قال:

- نعم يا له من ثمن. ثمن كبير. يستطيع الشعراء أن يقرضوا الشعر حول مثل هذا الثمن. في الوقت الذى يستطيع أى رجل أن يذهب اليوم إلى السوق ويشترى حسناء ناضجة بألف قطعة ذهبية، أراك على استعداد لأن تدفع ألف مثل لهذا السعر ثمنا لفتاة ألمانية هزيلة. هذا شيء غريب. لكن كيف أستطيع أن أقبل مثل هذا المبلغ؟! ماذا يقول الناس؟ سيقولون إن كراسوس لص ملعون.

- كف عن التلاعب بى.

- أتلاعب بك ؟ إنما أنت يا عزيزى كراسوس الذى يتلاعب بى. أنا لا أملك شيئًا تستطيع شراءه.

- أنا أتقدم بعرض جدى.

- وأنا أجيبك إجابة جدية.

فزمجر جراكوس قائلاً:

- أنا أضاعف الثمن. مليونان.

- لم أعلم قط بوجود مثل هذا القدر من المال فى السياسة.

- مليونان. اقبل أو ارفض.

فقال كراسوس:

- أنت تسئمنى.

وتركه وابتعد.

- فارينيا، فارينيا، يجب أن ترتدى ثيابك الآن. يجب أن نلبسك ثيابك الآن يا فارينيا، لأن السيد سيعود، وعليك أن تجلسى إليه وتتناولى العشاء معه. لماذا تعقدين الأمور لنا إلى هذا الحد يا فارينيا ؟

- أنا لا أريد أن أعقد الأمور لكن.

- لكنك تعقدينها. وأنت ترين كيف تعقدين لنا الأمور يا فارينيا. تقولين لنا إنك أمة، وإنك لا تريدين أربعة من الإماء ليعنين بك عناية كاملة. وإنك ما أنت إلا أمة مثلنا. وتحدثيننا عن مدى تعسك، وأنك تعرفين كيف يكون حال الإنسان عندما يصبح عبداً. أم لعلك قد نسيت عندما كنت مع سبارتاكوس تقهران العالم كله، كيف يكون حال الإنسان عندما يكون عبداً. كنت حين ذاك ملكة. ألم تكونى كذلك يا فارينيا؟ إذن.

- لا تفعلى ذلك بعد الآن. لماذا تفعلين ذلك؟ هل تباعدت عنكن يوماً؟

- لست فى حاجة إلى ذلك يا فارينيا. إنما هو السيد الذى يباعد بينك وبيننا.

لكنه يحبك أنت يا فارينيا. وذلك هو السبب فى أنك تعقدين الأمور لنا. فنحن نجلد إن لم ترتدى أنت ثيابك كما يجب. أما أنت فلا تجلدين ونجلد نحن.

- دعنه يجلدنى أنا الأخرى.

- ندعه. مجرد ندعه. فى وسعنا أن نراه يجلدك.

فقالت لهن:

– حسن حسن. أنا أرضع الطفل الآن. اتركنني أفرغ من إرضاعه ثم أرتدى ملابسى. أنتن تردن منى أن أرتديها بأى شكل. لن أعقد الأمور بالنسبة لكن، فقط دعونى أفرغ من إرضاع طفلى.

– كم من الوقت يستغرق ذلك ؟

– إنه لا يرضع طويلا. انظرن إليه. لقد أبطأ فى رضاعته بالفعل. وسأكون على استعداد خلال نصف ساعة. إذ سيكون قد نام عند ذاك. وأعدكن أنى سأعمل كل ما تطلبن منى عمله، وسأرتدى كل ما تردن منى أن أرتديه.

فتركنها برهة من الزمن. وكانت ثلاثة منهن إسبانيات. أما الرابعة فكانت امرأة سابينية. وكان ما يؤلمها أشد الإيلام أن أمها كانت قد باعتها بالنسيئة. وكان فى وسع فارينيا أن تفهم ذلك. فما يبعث المرارة إلى النفس أن يبيع الأهل ابنهم، إذ يجعل ذلك من الابن شخصاً حاقداً. وكانت الغيرة والحسد والمرارة تفرخ فى ذلك البيت، فالبيت كله عفن.

وأرضعت الطفل وغنت له فى رقة قائلة:

«نم يا طفلى، نم يا حبيبى

بينما أبوك فى الغابة،

يبحث عن كلب البحر ويطعن كلب البحر،

ويحضر الجلد بشعره ورقة منتصف الليل،

أبداً لن تمس برودة الشتاء

طفلى، طفلى الحبيب..».

واسترخى الرضاع، إذ استطاعت أن تحس الضغط على الحلمة بتراخ. فعندما يرضع الطفل بقوة وبعنف نتيجة لجوعه، يجتاح جسدها كله بنار حادة ثم تمتلئ معدته

جـزءاً فـجزءاً فيخفت الإحسـاس الجميل ويضـعف. يا له من شيء جميل أن يكون لك طفل يرضع.

وأعطتـه الثدى الآخـر، لمجرد أنه قد يحتـاج إلى المزيد من اللبن وربتت علـى خده ليبدأ الرضـاع من جـديد، لكنه كـان قـد فرغ وأغـمض عينيه، وران عليه عـدم مبـالاة الأطفـال الشبيـه بالتمـاثيل عندمـا تمتلئ بطونـهم. وظلت تحتضنه برهة إلى صـدرها العارى الدافئ، ثم وضعته فى مهده وأغلقت فتحة ردائها.

وفكرت وهـى تقف إلى جواره، كم هو جميل، سمين مستدير وقوى. يا له من طفل رائع شعره كالحرير الأسود، وعيناه داكنتا الزرقة. ستسود هاتان العينان فيما بعد كما كانت عينا أبيه، لكنها لا تستطيع أن تقرر ذلك بالنسبة للشعر، فعندما يتساقط شعر البطن الأسود هذا، فقد ينمو الشعر فى خصل سوداء جعدة أو صفراء مستقيمة.

نام بسرعة ويسر، فـدنياه نظيفة عـادلة. دنياه هى دنيا الحيـاة عندما تسودها قوانين الحياة البسيطة نفسها بلا إزعاج وبلا تعقيد، ودنياه هـى الدنيا التى تدوم وتبقى بعد كل ما عداها.

تركتـه عند ذاك وذهبت إلى حيث كن ينتظرن ليلبسنها ثيابها. أربعة من الإمـاء ليلبسنهـا كى تتناول العشـاء مع الرجل الذى يمتلكهـا. ووقـفت فى طاعة، بينمـا رحن يخلعن عنها ثيابها ويغسلن جسدها العارى بالأسفنج. كان جسدها مـا زال بالغ الجمال، طويل السـاقين وقد ازداد جسدها جمالاً لامتلاء ثدييها باللبن. ولففن جسدها بملاءة. ورقدت على أريكة لتبدأ الأمة المختصة بالتجميل فى تزيين وجهها وذراعيها.

وضعت أولا طبقة من المسحوق الأبيض الناعم على ذراعيها وجبهتها. وكان المسحوق يخف حتى يتلاشى على خديها، ثم اللون الأحمر، اللون الأحمر الخفيف على خديها، والأحمر المائل إلى البنى الداكن على شفتيها. ثم معجونا من الفحم الأسود لإبراز الحواجب.

وعندما انتهى ذلك جلست وسمحت لها بتصفيف شعرها. فشكلن الشعر الأصفر الناعم المستقيم فى عناية إلى كوم من الخصل الثابتة التى ثبتنها فى مكانها بالمعجون وبالشرائط الصغيرة.

ثم جاء دور الحلى، ووقفت عارية حتى من الملاءة فى طاعة ودون حراك، بينما رحن يثبتن التاج فوق شعرها. وتلى ذلك الأقراط الذهبية، ثم طوق للعنق من الذهب والياقوت الأزرق. وزين مفاصل قدميها ورسغها بأطواق مماثلة صغيرة. وزين الأصبع الصغيرة فى كلتا يديها بخاتم من الماس. كن يلبسنها من الملابس أحسنها وأفخرها. ألبسنها ما يلبسه أغنى رجل فى روما لحبيبته لا لأمته. لا عجب إذن إذا كانت تلك الشيطـانات التعسات الموكلات بصيوان ملابسها، لم يشعرن بالشفقة أو العطف نحوها. انظر كيف كانت ترتدى ثروة إمبراطورية ممثلة فى مجوهرات فقط. كيف كان المرء يستطيع أن يرثى لها ؟

ولم يكن أثمن الأقمشة فى روما فى ذلك الوقت هو الحرير، إنما كان القطن الرقيق الخالص الرائع المنسوج فى الهند وله من الرقة والشفافية ما لا يباريه فيه الحرير. عنذاك ألبسنها رداء من القطن. كان رداء طويلاً بسيط التفصيل، يتجمع حول الخصر بحزام مقفل وكان الزخرف الوحيد فوق ذلك الرداء هو خيط من الذهب يوشى حافته. والواقع أنه لم يكن فى حاجة إلى زخرف، إذ كانت خطوطه غاية فى البساطة وغاية فى الجمال. لكن فارينيا لم تكن لتستطيع أن تغفل لحظة عن حقيقة أن كل خط من خطوط جسدها كان يتضح من خلاله. وكان ذلك هو العرى الذى يعنى لها الرعب والانحطاط لذلك رحبت بما فاض به ثدياها، فبلل صدر الرداء وشوه منظره.

وفوق ذلك كله، وضعن شالاً كبيراً من الحرير الأصفر الباهت ارتدته فارينيا كما لو كان عباءة، فغطت به الرداء، الأمر الذى كان يحمل كراسوس فى كل مرة تتناول فيها العشاء معه على أن يقول:

- يا عزيزتى، يا عزيزتى. لماذا تصرين على إخفاءك جسدك الجميل بهذه الطريقة ؟ اتركى شالك على حريته، فثمن الرداء الذى ترتدينه تحته، عشرة آلاف قطعة ذهبية، فأستطيع على الأقل أن أسعد بالنظر إليه إذا لم يستطع ذلك أحد غيرى.

وقال ذلك مرة ثانية فى تلك الليلة عندما دخلت إلى غرفة الطعام. وفى تلك الليلة أيضاً أطاعته وتركت الشال ينفتح على حريته.

وقال كراسوس:

- أنت تحيريننى، أنت تحيريننى إلى حد كبير يا فارينيا. أظن أنى قلت لك من قبل إنه كان لى حظ - أو سوء حظ - الاضطرار إلى تمضية أمسية فى معسكرى ببلاد الغال عبر الألب، مع ذلك المتوحش متعهد المجالدين باتياتوس. وقد وصفك بأنك قطة متوحشة. وهو وصف كثير الحيوية للمرأة التى لا يمكن ترويضها لكنى لا أرى دليلاً على ذلك. فأنت مطيعة موافقة إلى حد غير عادى .

- أجل.

- وأنا أتساءل عما أحدث هذا التغيير فيك. أنت لا يعنيك أن تخبرينى فيما أظن.

- لا أدرى. أنا لا أستطيع أن أخبرك.

- أظن أنك تعرفين فعلا، ومع ذلك فدعى الأمر جانبا. أنت رائعة الجمال الليلة. معنى بتصفيف شعرك. ومعنى بثيابك يا فارينيا. إلى متى سيستمر هذا الحال؟ لقد كنت كثير الرقة فى معاملتك. ألم أكن كذلك ؟ الحزن هو الحزن، لكن قارنى بين هذا وبين مناجم الملح. أستطيع أن أنتزع طفلك وأبيعه نظير الثلاثمائة قطعة ذهبية التى هى ثمنه فى السوق، ثم أبعث بك إلى المناجم. أتحبين ذلك؟

- لن أحب ذلك.

فقال كراسوس:

– أنا أكره أن أتكلم بهذه الطريقة.

– لا عليك. تستطيع أن تتكلم بأى طريقة تشاء، فأنت تمتلكنى.

– وأنا لا أريد أن أمتلكك يا فارينيا. لأن الحقيقة أنك تمتلكيننى بنفس الطريقة تماماً.

أنا لا أريد منك أن تبوحى لى بأى أسرار. أنا أريدك أن تعرفيننى على حقيقتى. لأنك إذا أحببتنى، أصبح شيئًا آخر. شيئًا جديداً رائعًا. يا إلهى. هل تعرفين أنهم يسموننى أغنى رجل فى العالم، قد لا أكون كذلك، لكننا نستطيع معا أن نحكم العالم.

فقالت فارينيا وصوتها رتيب لا جرس فيه، صوت ميت كما كان صوتها دائمًا عندما تتحدث إليه:

– لا أريد أن أحكم العالم.

– ألا تصدقين أننى سأتغير إذا أحببتنى؟

– لا أدرى. ولا أبالى.

– لكنك ستبالين إذا وصل الأمر إلى طفلك ذلك؟ لماذا لا تقبلين وجود مرضع له ؟ بدلا من الجلوس هنا واللبن يتدفق من ثدييك.

– ولماذا تهددنى بالطفل دائمًا؟ الطفل ملك لك، وأنا ملك لك. أتظن أنك بالتهديد بقتل طفلى، تجعلنى أحبك ؟

– أنا لم أهدد بقتل طفلك.

– أنت ؟

– أنا آسف يا فارينيا. نحن نعود بالحديث دائمًا إلى نفس هذه الحلقة. أرجو أن تأكلى. أنا أعمل ما أستطيع، فسأقدم لك وجبة كهذه. لا تقولى لى إنك لا تبالين، فالمرء

يستطيع أن يشترى بيتا ريفيا بثمن هذا العشاء. كليه على الأقل. كلي ولو القليل منه. اسمعي، سأروى لك شيئًا طريفًا حدث اليوم. قد تجدينه طريفا على الأقل وكلى قليلاً.

فقالت ڤارينيا:

– أنا آكل على قدر ما أحتاج.

ودخل عبد ووضع صحنا من الفضة فوقه بطة. ونزع عبد آخر عظامها. وكان كراسوس يملك مائدة مستديرة – وكانت الموائد المستديرة قد بدأت لتوها فى الشيوع – تحيط بثلثيها أريكة مستديرة واحدة، فكان الطاعمون يتبادلون طعامهم معقودى الساقين، يجلسون بين أكوام الحشايات الحريرية.

– هذه البطة مثلا، مدخنة محشوة بالكمأ ومطبوخة بفطير الخوخ المسقى بالشراب.

فقالت فارينيا:

إنها كثيرة الجودة.

– أجل.

كنت أحدثك من قبل عن شيء ظريف حدث اليوم دخل جراكوس إلى الحمامات. وهو يكرهنى إلى حد الحقد، لدرجة أنه لم يعد فى استطاعته أن يخفى ذلك والغريب فى الأمر أنى لا أكرهه، نسيت – فأنت لا تعرفينه. هو عضو مجلس الشيوخ وقوة سياسية كبيرة فى روما – أو كان كذلك، فقوته اليوم تتعرض لكثير من الهزات. وهو واحد من زمرة هؤلاء الذين ارتفعوا بأنفسهم من المجارى وجمع ثروة من الوساطة وبيع الأصوات. رجل كالخنزير السمين. لا كبرياء – لا جسد، فهذا هو الحال دائمًا ولا إحساس كذلك. لذلك سيظل جالسًا على عرشه حتى يذوب من تحته. حسن استطعت أن أرى فى التو، أنه يريد منى شيئًا إذ أقام عرضًا كبيرًا، باستعراض هيكله السمين

جيئة وذهابا معى فى قاعة الاستراحة، وفى النهاية صرح لى بما يريد. كان يريد أن يشتريك، وعرض ثمناً كبيراً لك كذلك. وعندما رفضت ضاعف الثمن. فأهنته عامداً متعمداً، لكن ذلك لم يؤثر فيه.

فسألته فارينيا قائلة:

– ولماذا لم تبعنى ؟

– له ؟ يجب يا عزيزتى أن تريه مرة واحدة وهو يمشى غارقا فى لحمه. أم أن ذلك لا يعنيك ؟

فقالت فارينيا:

– لا أهمية لذلك.

فدفع كراكوس صحنه بعيداً، وحدق إليها. وأفرغ ما فى كأسه من النبيذ فى جوفه، ثم صب كأساً آخر، ثم قذف بالكأس عبر الغرفة فى سورة غضب مفاجئة. ثم بدأ يتحدث وهو مسيطر على أعصابه إلى حد ما.

– لماذا تكرهيننى إلى هذا الحد؟

– أيجب أن أحبك يا كراسوس ؟

– أجل. لأنى أعطيتك أكثر من كل ما أخذت من سبارتاكوس.

فقالت:

– لم تفعل.

– لماذا ؟ لم لا ؟ ماذا كان هو ؟ أكان إلها؟

فقالت فارينيا:

- لم يكن إلها. كان رجلا بسيطًا. كان رجلا عاديا. كان عبداً. ألا تعرف معنى ذلك؟ لقد عشت طيلة حياتك بين العبيد.

- وإذا أخذتك إلى الريف، وأعطيتك لعبد من عبيد المحراث في جهة ما، أتستطيعين أن تعيشي معه وأن تحبيه ؟

- أنا لا أستطيع أن أحب إلا سبارتاكوس. لم أحب يومًا رجلاً غيره، ولن أحب يومًا رجلاً سواه. لكنى أستطيع الحياة مع عبد من عبيد الحقول. فسيكون مثل سبارتاكوس بشكل ما، ولو أن سبارتاكوس كان عبداً من عبيد المناجم وليس من عبيد الحقول. هذا كل ما كانه سبارتاكوس. أنت تظن أننى بسيطة التفكير جدا، وأنا كذلك. وأنا حمقاء كذلك. ففى بعض الأحيان أعجز حتى عن فهم ما يقول. لكن سبارتاكوس كان أكثر بساطة منى. ولو قورن بك لكان كالطفل. كان نقيا.

فسألها كراسوس قائلاً وهو يسيطر على نفسه:

- ماذا تعنين بأنه كان نقيا؟ لقد أصغيت إلى الكثير من هذا الهراء منك. كان سبارتاكوس عدواً للمجتمع لا يعرف القانون. كان جزاراً محترفًا، أصبح فيما بعد قاتلاً خارجًا على القانون، وعدواً لكل شيء جميل ومحترم وطيب أقامته روما. لقد أقامت روما السلام والمدنية فى العالم بأسره، لكن ذلك العبد القذر لم يعرف إلا أن يحرق ويدمر. ما أكثر البيوت الريفية التى أصبحت حطامًا لأن العبيد لم يعرفوا أو يفهموا المدنية. ماذا فعلوا ؟ ماذا حققوا فى السنوات الأربع التى حاربوا روما خلالها ؟ كم من الآلاف ماتوا نتيجة لثورة هؤلاء العبيد ؟ ما أكثر التعس والآلام التى قاساها العالم لأن هذه النفاية حلت بالحرية - حرية التدمير.

جلست هى صامتة لا تتكلم وقد أحنت رأسها وخفضت عينيها.

- لماذا لا تردين على ما أقول ؟

فقالت فى هدوء:

– أنا لا أدرى كيف أجيبك. لا أعرف ما تعنيه هذه الأسئلة.

– لقد أصغيت إلى أشياء قلتها أنت لا أقبلها من أى إنسان غيرك على هذه الأرض. لماذا لا تردين علي ؟ ماذا كنت تعنين عندما قلت إن سبارتاكوس كان نقيا ؟ هل أنا أقل منه نقاء ؟

فقالت فارينيا:

– لا أدرى. فأنا لا أفهمك. أنا لا أفهم الرومانيين. أنا أعرف سبارتاكوس وحده.

– ولماذا كان هو نقيا؟

– لا أدرى. ألا تظن أننى سألت نفسى هذا السؤال ؟ ربما لأنه كان عبداً، وربما لأنه قاسى الكثير. كيف تستطيع أنت أن تفهم كيف يقاسى العبد ؟ فأنت لم تكن عبداً فى يوم من الأيام.

– لكنه كان نقيا. قلت إنه كان نقيا.

– كان نقيا بالنسبة لى. لم يكن ليستطيع أن يقترف عملاً سيئًا.

– وهل تظنين أنه كان عملاً طيبًا أن يشعل تلك الثورة؟

وأن يشعل النار فى نصف العالم ؟

– نحن لم نشعل النار فى العالم. كانت حريتنا هى كل ما نبغى. كان كل ما نريد هو أن نحيا فى سلام. أنا لا أعرف كيف أتكلم كما تتكلم أنت. فأنا لست متعلمة. بل لا أستطيع حتى أن أتحدث بلغتكم جيداً. ويسودنى الارتباك عندما تتحدث إلىَّ. لم أكن لأرتبك وأنا مع سبارتاكوس. كنت أعرف ما يريد.

كنا نريد أن نصبح أحراراً.

– لكنكم كنتم عبيداً.

– أجل. ولماذا يجب أن يكون البعض عبيداً والبعض أحرارًا؟

فقال كراسوس فى مزيد من الرقة:

– أنت تعيشين فى روما الآن يا فارينيا، وقد صحبتك فى جولة فى المدينة فى محفتي. وشاهدت قوة روما، قوة روما التى لا نهاية ولا حدود لها. فالطرق الرومانية تمتد عبر العالم بأسره. والفيالق الرومانى تقف على أطراف المدنية وتدفع قوى الظلام. وترتعد الشعوب لمجرد مرأى صولجان السفير، وحيثما يوجد الماء، يسيطر الأسطول الرومانية على البحار. وقد شاهدت العبيد يحطمون بعض فيالقنا. لكن المدينة هنا لم يصبها حتى خدش واحد من جراء ذلك. فهل تتصورين، بكل ما لديك من عقل، أنه كان فى استطاعة قليل من العبيد المتمردين، أن يقلبوا أعظم قوة عرفها العالم فى تاريخه – القوة التى لم تستطع الإمبراطوريات السابقة أن تباريها ؟ ألا تفهمين ؟ إن روما خالدة. والحياة الرومانية هى أفضل حياة عاشها البشر على الإطلاق. وستبقى إلى الأبد. هذا ما أريدك أن تفهميه. لا تبك من أجل سبارتاكوس. فقد انتهى أمره، أما أنت فلك حياتك الخاصة التى يجب أن تحييها.

– أنا لا أبكى من أجل سبارتاكوس. ولن يبكى إنسان يوماً من أجل سبارتاكوس. كما أنهم لن ينسوا سبارتاكوس أبداً.

– آه يا فارينيا، فارينيا – كم أنت حمقاء إن سبارتاكوس لم يعد إلا مجرد شبح بالفعل. وسيختفى هذا الشبح غداً. وبعد عشر سنوات من الآن، لن يتذكر أحد اسمه. ما الذى يدفعهم إلى ذلك ؟ أيوجد أى تاريخ لحرب العبيد ؟ إن سبارتاكوس لم يشيد إنما حطم فقط. والعالم لا يذكر إلا الذين يشيدون.

– لقد شيد الأمل.

– فارينيا، أنت ترددين الكلمات كالفتاة الصغيرة: لقد شيد الأمل. الأمل لمن ؟ وأين هى هذه الآمال اليوم ؟ طارت كالرماد ، كالتراب. ألا ترين أنه لا يوجد طريق آخر

فى العالم ولن يوجد أبداً - إلا أن يحكم القوى الضعيف ؟ فارينيا، أنا أحبك لأنك أمة ، إنما على الرغم من هذه الحقيقة.

- أجل .

وقال فى مرارة:

- لكن سبارتاكوس كان نقيا .

- نعم كان سبارتاكوس نقيا .

- حدثينى .. قولى لى كيف كان نقيا ؟

- لا أستطيع أن أقول لك. لا أستطيع أن أحدثك بأشياء لا تفهمها .

- أريد أن أفهمه. أريد أن أقاتله. لقد قاتلته عندما كان حيا، وسأقاتله اليوم وهو ميت.

فهزت رأسها وقالت:

- لماذا تلاحقنى بهذه الصورة ؟ لماذا لا تبيعنى ؟ لماذا تفعل لا بى ما تشاء ؟ لماذا لا تدعنى وشأنى؟

- إنما أسألك أن تحدثينى عن شىء بسيط يا فارينيا . أكان هناك رجل مثل سبارتاكوس على الإطلاق ؟ لماذا لا يستطيع أى إنسان أن يحدثنى عنه ؟

- لقد حدثتك..

ثم توقفت. فقال فى رقة:

- أكملى يا فارينيا، أكملى. أريد أن أصبح صديقاً لك. لا أريد منك أن تخافى من الحديث إلىَّ.

– لست خائفة. لم أشعر بالخوف يومًا بعد أن عرفت سبارتاكوس، لكن الحديث عنه أمر عسير. لقد وصفته بأنه قاتل وجزار. لكنه كان خير رجل عاش على الإطلاق، وأكثر الرجال نبلاً.

– أجل. قولى لى كيف. أريدك أن تقولى لى كيف كان ذلك. أريد أن أفهم ما فعله، ليجعلك تظنين ذلك. قد أستطيع أن أصبح مثل سبارتاكوس إذا فهمت ذلك .

وكان قد مضى فى الشرب دون أن يذوق الطعام ، وهدأت سخريته عند ذاك . وقال:

– قد أستطيع أن أصبح مثل سبارتاكوس.

– أنت تحملنى على الكلام عن ذلك، لكن كيف أشرح لك؟ ليس الرجال والنساء سواء حتى بين العبيد، كما هو الحال بينكم. والرجل والمرأة متساويان بين العبيد. فنحن نعمل نفس العمل، ونذوق نفس السوط. ونموت نفس الميتة، وندفن فى نفس القبور التى لا اسم لها. وفى بداية الأمر حملنا الحراب والسيوف، وقاتلنا مع رجالنا جنبا إلى جنب. وكان سبارتاكوس رفيقى. كنا كيانا واحداً، كنا مرتبطين معًا. وحينما كنت تجد على جسده أثر جرح، كان يكفى أن ألمسه فيؤلمنى ويصبح أثر الجرح فى جسدى. وكنا متساويين على الدوام. وعندما مات خير صديق له، كريكسوس، وضع سبارتاكوس رأسه فى حجرى وبكى ونهنه كالصبى الصغير. وعندما وضعت طفلى الأول بعد ستة أشهر، بكيت بنفس الطريقة، فعنى هو بى. لم يعرف يوماً امرأة غيرى طيلة حياته.. ولن أعرف رجلاً غيره مهما حدث. شعرت بالخوف يوم رقدت بين ذراعيه لأول مرة، ثم اعترانى شعور رائع، وعرفت أننى لن أموت أبدًا لأن حبى خالد لا يعرف الموت، وأنه لن يضيرنى شىء بعد ذلك. أصبحت مثله؛ وأظن أنه أصبح مثلى بعض الشىء. لم يخف واحد منا سر عن الآخر. واعتدت أن أخاف أول الأمر أن يرى آثار العقاب على جسدى. ثم أدركت أن أثر العقاب لا يفترق عن الجلد السليم من الآثار. كان كثير الحب

لى. لكن أى شىء عنه أستطيع أن أحدثك به؟ إنهم يريدون أن يجعلوا منه عملاقًا، لكنه لم يكن عملاقًا. كان رجلا عاديا. كان رقيقا طيبا ومليئا بالحب. كان يحب رفاقه. كان يحتضن بعضهم بعضًا، ويقبل الواحد منهم الآخر فى شفتيه عندما يتقابلون. لم أر بينكم يومًا أيها الرومانيون رجالاً يتعانقون، وفى أى وقت كان سبارتاكوس يقول لى شيئًا، كنت أعرف ما يعنيه. لا أعرف ما يعنيه الرومانيون عندما يتكلمون. وعندما كان العبيد يتقاتلون ويتخاصمون، كان سبارتاكوس يجمع بينهم، ويتكلم الجميع، ثم يتحدث هو إليهم فيصغى الجميع. كانوا يرتكبون أعمالاً قبيحة، لكنهم كانوا يرغبون دائمًا فى التحسن. لم يحسوا بالوحدة، فقد كانوا جزءًا من شىء، كان الواحد منهم جزءًا من الآخر. اعتادوا أول الأمر أن يسرقوا من الغنائم، وأوضح لى سبارتاكوس، كيف أنه لا حيلة لهم فى ذلك. فهم قد جاءوا من أماكن كانوا يرون فيها السرقة. لكن المخزن العام لم يغلق بابه يومًا، ولم يقم عليه حارس، وعندما رأوا أن فى استطاعتهم أن يأخذوا كل ما يحتاجون إليه دون سرقة، وأنه لا يوجد طريقة لاستغلال ما يسرقون، كفوا عن السرقة، وفقدوا خوفهم من الجوع والفقر. وعلمنى سبارتاكوس أن كل ما يقترفه الرجال من أعمال شريرة، فإنما يقومون عليهم لأنهم خائنون. وأرانى كيف يستطيع البشر أن يتغيروا وأن يصبحوا غاية فى الجمال والروعة لو أنهم عاشوا فى إخاء، وتقاسموا فيما بينهم كل ما عندهم. شاهدت ذلك وعشت فيه. لكن الرجل الذى اخترته لنفسى كان بطريقة ما مثل ذلك دائمًا. ولذلك استطاع أن يقودهم كلهم. ولذلك كانوا يصفون إليه. لم يكونوا مجرد قتلة أو جزارين، كانوا شيئًا لم يشهده العالم من قبل. كانوا ما يمكن للناس أن يصبحوه. هذا السبب فى أنك لا تستطيع أن تؤذينى. وهذا هو السبب فى أننى لا أستطيع أن أحبك.

فقال لها كراسوس:

– اخرجى من هنا. اغربى عن وجهى. لعنة الله عليك .

- ٦ -

بعث جراكوس يطلب فلافيوس مرة ثانية. كان الرجلان يتقاسمان مصيراً واحداً. وكانا يبدوان كأخوين أكثر من أى وقت قضى ... رجلين سمينين عجوزين، وجلسا وكل منهما يتطلع إلى الآخر فى فهم ومعرفة. كان جراكوس واعيًا بمأساة فلافيوس فقد حاول فلافيوس دائمًا أن يكون مثل غيره من الرجال ممن أصابوا النجاح، لكنه لم ينجح فى ذلك يومًا. حاول أن يكون صورة طبق الأصل منهم، قسمة قسمة، لكنه لم يصبح فى النهاية إلا مجرد تقليد. ولم يكن حتى محتالاً، إنما كان تقليداً للمحتال ليس إلا. وتطلع فلافيوس إلى جراكوس، فرأى أن جراكوس القديم قد انقضى، ذهب على ألا يعود بعد ذلك. أى شىء مروع قد أصاب جراكوس؟ ، كان مجرد شك من جانبه، لكن الشك كان فيه الكفاية. كان قد وجد هنا حاميا له، لكن هذا الحامى لم يعد يستطيع بعد اليوم أن يحميه. وذلك شىء مقدر له الوقوع.

سأله فلافيوس قائلاً:

– ماذا تريد ؟ لا تسبنى مرة ثانية. إنها فارينيا. لقد تأكد ذلك بالنسبة لى إذا كان ذلك ما تريد. إنها زوجة سبارتاكوس.

ماذا تريد منى الآن؟

فسأله جراكوس قائلاً.

– مم تخاف ؟ أنا لا أرجع على من ساعدنى. من أى شىء تخاف على هذه الأرض ؟

فقال فلافيوس فى تعس:

– إنما أخاف منك. أخاف مما ستطلب منى أن أعمله. تستطيع أن تطلب كتائب حراسة المدينة لو أنك أردت. ولك عصاباتك الخاصة، ولك رجالك الأشداء، وهناك أحياء كاملة تستطيع أن تجعل كل مواطن فيها يؤدى عملا لك. لماذا لا تفعل إذن ؟ لماذا تقصد رجلاً عجوزاً مضت أيامه مثلى ؟ لم تمض أيامى، لأنه لم تكن لى أيام قط. فلم أكن إلا تابعًا رخيصًا. لماذا لا تذهب إلى أصدقائك ؟

فقال جراكوس:

– لا أستطيع. فى هذا الأمر لا أستطيع.

– لماذا ؟

– ألا تعرف لماذا ؟ أنا أريد تلك المرأة. أريد فارينيا .

حاولت أن أشتريها . عرضت على كراسوس مليون قطعة ذهبية. ثم ضاعفت السعر، فأهاننى وسخر منى فى وجهى.

– أوه .. لا .. لا .. مليونان ؟ مليونان ؟

وبدأ فلافيوس يرتعد من الفكرة. ولعق شفتيه السمينتين، وأخذ يقبض يده ويفردها وقال :

– مليونان ! هما العالم بأسره. العالم بأسره فى حقيبة صغيرة تحملها معك فى ترحالك، فتملك العالم بأسره. وعرضت أنت تلك القيمة ثمنا لامرأة؟ يا إلهى يا جراكوس – لماذا تريدها؟ لست أسأل لمجرد محاولة معرفة أسرارك. أنت تريد منى أن أعمل لك شيئًا، لكنى سأغادر هذا المكان فى التو إذا لم تقل لى. يجب أن أعرف لماذا تريدها .

فأجابه جراكوس مكتئباً:

– أنا أحبها.

– ماذا ؟

فـأحنى جراكـوس رأسـه، وقد زايله وقـاره فى تلك اللحظة أحنى رأسـه واحمـرت عيناه وبللتهما الدموع.

– لست أفـهم. الحب ؟ ومـا الحب بحق الشيطان ؟ أنت لم تتزوج قط، ولم تستطع امرأة أن تنشب أظفارهـا فيك قط. وتقـول الآن إنك تحب أمـة إلى حد أن تدفع مليونى قطعة ذهبية ثمنا لها . أنا لا أفهم ذلك.

فزمجر السياسى قائلاً :

– أمن الضرورى أن تفهم ذلك ؟ أنت لن تستطيع أن تفهمه، فـأنت تنظر إلىَّ فترى فى رجلاً عجوزاً سمينا، فسرها كما يحلو لك.

لم أعرف قط امرأة كانت مـخلوقة بشرية ؟ كم من نسـائنا مـخلوقات بشرية ؟ لقد خـفـتـهن وكـرهتن. لعلنا نحن الذين جـعلناهن كذلك – لست أدرى. أنا اليـوم أريد أن أزحف على ركبـتـى إلى هذه المرأة. أريدها أن تنظر إلىَّ مـرة واحـدة، وتقـول لى إننى أعنى شـيئًا بالنسبـة لها . أنا لا أعـرف وضـع كراسوس بالنسبـة لها .. لكنى أستطيع أن أفهم مـا تعنيه هـى بالنسـبة له. أستطيـع أن أفـهم ذلك جيداً . لكن ماذا يعنى هو بالنسبة لها فـهو الرجل الذى حطـم زوجـها – الرجل الذى سـحق سبارتاكوس، كيف تستطيع هـى أن تنظر إليه دون اشمئزاز وكراهية ؟

فأحنى فلافيوس رأسه وقال:

– النسـاء يسـتطعن ذلك. ويسـتطيع كـراسـوس أن يرفـع من ثمنهـا بغـير تحـديد، وسيدهشك ذلك .

– أوه. أنت مـخطئ غاية الخطأ، أيها الأحمق السمين، أيها الأحمق السمين الغبى.

– لا تبدأ فى ذلك من جديد يا جراكوس.

– إذن فلا تتكلم كالأبله. أريد المرأة، وأنت تعرف ما هو الثمن.

– أتعنى أنك ستدفع .

– أجل.

فقال فلافيوس فى حذر:

– أتعرف ماذا ستكون النتائج؟ ليس بالنسبة لى. فأنا إذا نجحت فى تحقيق ما تريد، سآخذ المال وأذهب إلى مصر، وأشترى بيتا ريفيا وعدداً من الإماء فى الإسكندرية وأعيش هناك كالمرزبان بقية حياتى. أنا أستطيع ذلك لكنك لا تستطيعه يا جراكوس. فأنت جراكوس، وأنت عضو فى مجلس الشيوخ، وأنت أعظم قوة فى روما فى هذه اللحظة. فأنت لا تستطيع الفرار. ماذا ستفعل بها ؟

– أنا لا أفكر فى ذلك الآن.

– لا ؟ أنت تعرف ما سيفعله كراسوس لم يهزم إنسان كراسوس قط، ولم ينتزع إنسان من كراسوس شيئًا قط. هل تستطيع أن تحارب ذلك النوع من المال؟ سيحطمك يا جراكوس حتى الموت. سيحطمك ويقتلك.

– فسأله جراكوس قائلاً فى هدوء :

– أتظنه من الضخامة إلى هذا الحد ؟

– هل تريد الصدق ؟ المليونان أكثر مما حلمت به فى يوم من الأيام، لكن الحقيقة أنه كذلك؛ فهو يستطيع وسيفعل.

فقال جراكوس :

– سأجرب حظى.

– وماذا ستجنى بعد أن تجرب حظك ؟ مليونان مبلغ كبير. أستطيع أن أدفع منهما لإخراجها من بيت كراسوس؛ ولإحضارها إليك، ذلك ليس بالأمر العسير. ولكن

من أدراك أنها لن تبصق فى وجهك. وما الذى يمنعها ؟ لقد حطم كراسوس سبارتاكوس لكن من الذى دفع بكراسوس إلى ذلك ؟ من الذى تحايل على وضعه فى ذلك المنصب ؟ من الذى أعطاه الجيش والمهمة ؟

فأحنى جراكوس رأسه وقال:

- أنا.

- بالضبط. إذن ما الذى ستجنيه ؟

- أستطيع الاحتفاظ بها.

- وماذا تستطيع أن تقدم لها. ماذا ؟ لا يوجد إلا شىء واحد ترغب فيه كل أمة. أتستطيع أن تعطيه لها ؟

- ما هو ؟

- فقال فلافيوس:

- أوه. أنت تعرف ما هو. لماذا لا تواجه هذا الأمر؟

فقال جراكوس فى هدوء:

- أتعنى حريتها؟

- وهى بعيدة عنك، حريتها من غيرك، وذلك يعنى حريتها خارج روما، ذلك يعنى حريتها بعيداً عن متناول كراسوس.

- أتظنها توافق على أن تهبنى ليلة واحدة مقابل حريتها ؟

- ليلة واحدة من أى شىء ؟

- من الحب. لا، ليس الحب. التشريف، الاحترام، الرعاية. لا - ليس ذلك، العرفان، لتحدد الأمر على هذه الصورة، ليلة واحدة من العرفان بالجميل.

فقال فلافيوس:

– يا لك من أحمق.

فأحنى جراكوس رأسه وقال:

– وتزداد حماقتى إذ أجلس هنا وأدعك تقول ذلك. قد أكون أحمق وقد لا أكون، سأجرب حظى مع كراسوس، وستضطر إلى أقناعها بأننى لا أحنث بوعدى أبداً، فقد عشت على كلمتى. وروما تعرف ذلك، لكن هل تستطيع أن تقنعها بذلك؟

فأحنى فلافيوس رأسه موافقاً.

– ويجب أن تعمل الترتيبات اللازمة لخروجها من روما بعد ذلك. هل تستطيع عمل ذلك؟

فأحنى فلافيوس رأسه موافقاً مرة ثانية.

– إلى أين ؟

– إلى بلاد الغال عبر الألب على الأقل. إذ ستكون فى مأمن هناك. لأن الموانئ، والطرق المؤدية إلى الجنوب ستوضع تحت المراقبة. أما إذا ذهبت شمالاً إلى بلاد الغال فأظنها ستكون في مأمن. وهى ألمانية، وأظن أنها تستطيع الذهاب إلى ألمانيا إذا أرادت.

– وكيف تستطيع إخراجها من بيت كراسوس ؟

– ليس ذلك بالمشكل. فهو يذهب إلى الريف ثلاثة أيام كل أسبوع، وقليل من المال ينفق بحكمة كفيل بتحقيق ذلك.

– هذا إذا أرادت هى الذهاب فقط.

فأحنى فلافيوس رأسه موافقاً. وقال:

- فاهم.

- وستــرغــب فى إحضـار الطفل فـيما أظن، لا مـانع فى ذلك ، سأوفر للطفل الراحة والعناية هنا.

- أجل.

- وتريد المليونين مقدما، أليس كذلك ؟

فقال فلافيوس حزينا بعض الشىء :

- أظن أننى سأضطر إلى أخذهما مقدماً.

- تستطيع أن تأخذهما الآن. فالمال موجود هنا، تستطيع أن تحصل على المبلغ كله نقداً، أو تستطيع أن تسحب من عملائى أصحاب المصارف فى الإسكندرية.

فقال فلافيوس :

- سآخذه نقداً.

- أجــل. أظنك على صواب. لا تخدعنى يا فلافيوس لأنى سأجدك إذا فعلت:

- اللعنة يا جراكوس. إن كلمتى لا تقل قيمة عن كلمتك.

- حسن جدا.

- كل ما فى الأمر أنى لا أعرف لماذا تفعل ذلك. لا أعرف لماذا تفعل ذلك بحق كل الآلهة التى عاشت يومًا، وإذا ظننت أن كراسوس سيتلقى الأمر فى سكون، فأنت لا تعرف كراسوس.

- أنا أعرف كراسوس.

- إذن، فليساعدك الله يا جراكوس، كم وددت ألا أحس مثل هذا الشعور، ولكن هذا هو ما أحسه.

حلمت فارينيا هذا الحلم. حلمت أنها تواجه مجلس تحقيق من أعضاء مجلس الشيوخ الموقر. جلس الرجال الذين يحكمون العالم هناك. جلسوا فى مقاعدهم الكبيرة يرتدون عباءاتهم البيضاء ولكل واحد منهم وجه كوجه كراسوس، طويل ووسيم وصارم، وكل شيء يحيط بهم، طريقتهم فى الجلوس، وانحناءاتهم إلى الأمام، وذقونهم تستند إلى أيديهم، والتعبير المرتسم على وجوههم كئيب منذر، وثقتهم بأنفسهم، وتأكيدهم لوجودهم. كان كل ما يحيط بهم يزيد من مظهر القوة. كانوا يمثلون القوة والسلطان، ولم يكن فى استطاعة أى شيء فى الدنيا أن يقف فى وجوههم. جلسوا فى مقاعدهم الحجرية البيضاء فى قاعدة مجلس الشيوخ الكبيرة ذات القباء، فكانت مجرد رؤيتهم شيئًا يبعث على الفزع الكبير.

حلمت فارينيا أنها تقف أمامهم، وأنها مطالبة بالشهادة ضد سبارتاكوس. وكانت تقف أمامهم فى رداء من القطن الخالص، وهى تشعر شعورا مؤلما حارا، بأن اللبن يلوث الرداء. وبدءوا يوجهون إليها الأسئلة.

- من كان سبارتاكوس؟

وبدأت تجيب عن السؤال، لكنها قبل أن تفرغ جاء السؤال التالى:

- لماذا حاول أن يدمر روما ؟

وحاولت أن تجيب من جديد، لكن السؤال التالى جاء مرة ثانية:

- لماذا قتل كل من وقع بين يديه ؟ ألم يكن يعلم أن قانوننا يحرم القتل ؟

حاولت أن تنفى ذلك، لكن السؤال التالى جاء قبل أن تخرج كلمتان من إنكارها من بين شفتيها.

– لماذا كان يكره كل ما هو طيب، ويحب كل ما هو شرير؟

وحاولت مرة ثانية أن تتكلم، لكن واحداً من أعضاء المجلس نهض وأشار إلى صدرها، وسألها قائلاً:

– ما هذا؟

– لبن.

ارتسم الغضب عند ذاك على كل وجه، غضب رهيب فازداد ذعرها أكثر من أى وقت مضى. ثم انفثأ خوفها فى حلمها بلا سبب تستطيع أن تفهمه. وقالت لنفسها فى الحلم:

– حدث ذلك لا لشىء إلا لأن سبارتاكوس معى.

وأدارت رأسها عند ذاك، فتحقق ظنها، إذ وجدته يقف إلى جوارها. وكان يرتدى ما كان يرتديه فى غالبية الأوقات فى أثناء كفاحهم. كان يرتدى أحذية جلدية طويلة الرقبة، وثوبا رماديا بسيطا، وقبعة صغيرة من الفلين تجثم على شعره الأسود الجعد. ولم يكن يحمل سلاحاً، فقد كان دائم التدقيق فى ألا يحمل أحد سلاحاً إلا عند مواجهة المعركة. ولم يكن يتزين بأى حلى أو خواتم أو عقود، وكان وجهه حليقا بعناية وشعره الجعد قصيراً.

وكان فى وقفته الكثير من اليسر والثقة بالنفس، وتذكرت فى حلمها أن وقفته كانت كذلك على الدوام. فقد ينضم سبارتاكوس إلى جماعة فينفذ هذا الشعور باليسر إلى كل شخص من الموجودين، لكن رد الفعل كان يختلف بالنسبة لها، فقد كانت تشعر بالسرور دائمًا عندما تراه. وكانت تحس أنها كالحلقة المكسورة، فما إن يظهر حتى

تقفل الحلقة نفسها، وتصبح سليمة كاملة. كانت في فسطاطه يومًا، وكان في الفسطاط خمسون شخصًا على الأقل فى انتظار سبارتاكوس، وجاء فى النهاية، فانتحت هى جانبا لتتركه يتعامل مع الناس الذين كانوا فى انتظاره. واكتفت هى بمراقبته؛ لكن سعادتها زادت وزادت، وأصبحت كل كلمة يقولها، وكل حركة يعملها جزءًا من تدرج سعادتها تلك. ووصلت إلى حد لم تعد تتحمل عنده المزيد، فاضطرت إلى الخروج من الفسطاط، لتجد مكانا تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسها.

وأحست عند ذاك في حلمها، شيئًا من ذلك الشعور . وسألها هو قائلاً:

- ماذا تفعلين هنا يا عزيزتى ؟

- إنهم يستجوبوننى.

- من؟

فأشارت إلى أعضاء مجلس الشيوخ النبلاء وقالت:

- هؤلاء. إنهم يبعثون فى الخوف.

ولحظت حينذاك أن أعضاء المجلس لا يتحركون أدنى حركة كما لو كانوا قد تجمدوا

وقال سبارتاكوس:

- لكنهم كما ترين أكثر منك خوفا.

وكان ذلك القول يطابق شخصيته تمام المطابقة، فهو يرى الشيء ويقرره في بساطة، وبطريقة مباشرة. فتبدأ هى دائمًا فى التساؤل، لماذا لم تر هى الأخرى نفس الشيء ؟ الواقع أنهم كانوا خائفين.

وابتسم سبارتاكوس وقال :

- لنذهب يا فارينيا.

وأحاط خصرها بذراعه، وأحاطت خصره بذراعها وخرجا معا من قاعة مجلس الشيوخ إلى شوارع روما. كانا محبين، فمشيا معًا. ومشيا فى شوارع روما ولم يلحظهما إنسان، ولم يوقفهما أحد.

وواصلا السير فترة أخرى، ثم قال سبارتاكوس:

- يجب أن أذهب إلى مكان ما، يجب أن نذهب إلى مكان ما معا.

فقالت فارينيا فى الحلم:

- أنا أعرف مكانا نذهب إليه.

- أين ؟

هو بيت رجل يدعى كراسوس، فأنا أعيش هناك.

فتوقف عن السير، وسحب ذراعه بعيداً، وأدارها لتواجهه وهو يفتش فى عينيها. وفى تلك اللحظة، لاحظ أثر اللبن على ردائها. فقال يسألها، وقد نسى فيما يبدو ما قالته عن كراسوس:

- ما هذا؟

- اللبن الذى أرضع به طفلى.

فقال :

- أنا لم أرزق طفلاً.

وبدا عليه الخوف فجأة، وتراجع مبتعداً عنها. ثم اختفى. وانتهى الحلم.

واستيقظت فارينيا فلم تجد شيئا إلا الظلام المحيط بها.

ذهب كراسوس فى اليوم التالى إلى الريف، وعندما جاء المساء، أحضر فلافيوس فارينيا لجراكوس، وهو العمل الذى اتفق على القيام به. جاءا وكراسوس يجلس إلى عشائه وحيداً. وجاءت أمة إلى جراكوس، وأنهت إليه أن بالخارج شخصين، فلافيوس وامرأة. وأن المرأة تحمل بين ذراعيها طفلاً.

فقال جراكوس:

- أجل. أجل. أنا أعرف. هناك مكان معد للطفل. أدخليهما.

ثم قال:

- لا. لا. سأقوم بذلك بنفسى.

وجرى تقريباً، من غرفة الطعام إلى الباب الخارجى. وأدخلهما إلى البيت بنفسه. وكان جم الأدب، كثير التقدير، ورحب بهما كما يرحب المرء بأضياف عظيمى الشأن.

كانت المرأة تلتف فى عباءة طويلة، ولم يستطع أن يتبين وجهها بوضوح فى المدخل المعتم. لكنه الآن ينتظر حتى يتطلع إليها. وقادهما إلى الداخل، وقال للمرأة إنها تستطيع أن تعطيه الطفل، أو أن تأخذه بنفسها إلى غرفة الحضانة. وكان الطفل نائماً بين ذراعيها، وخشى جراكوس أن يقول شيئاً أو يشير إلى شىء قد يخلق فى نفسها نوعاً من التوجس بشأن الطفل.

وقال:

- عندى حضانة منتظمة له وعندى مهد صغير، وكل ما قد تريدين. وسيجد الراحة الكاملة، وسيكون فى مأمن، ولا يمكن لشىء على الإطلاق أن يصيبه.

فأجابت فارينيا قائلة:

- إنه لا يحتاج إلى الكثير.

وكانت تلك أول مرة يسمع فيها جراكوس صوتها. كان صوتها ناعمًا، لكنه غنى وعميق، صوت يبعث البهجة فى نفس السامع. ثم ألقت بالجزء الخاص بالرأس من عباء تها إلى الوراء، فرأى وجهها. وكان شعرها الأصفر الطويل، معقوصا فى مؤخرة عنقها، ولم يكن وجهها يحمل أى طلاء - والغريب فى ذلك حقا، أنه جعل خطوط وحدود وجهها الجميلة أكثر لفتًا للنظر، وأكثر جمالاً.

وبينما كان جراكوس ينظر إليها، راح فلافيوس يراقب جراكوس إذ انتحى فلافيوس جانبًا، وهو بادى الاهتمام، مكتئبا، ومتحيراً فى نفس الوقت. وكان غير مرتاح هناك، وما إن استطاع أن يجد لكلماته منفذًا، حتى قال:

- يجب أن أعد بقية الترتيبات الآن يا جراكوس. سأعود فى الفجر، وآمل أن تكون مستعدًا لى عند ذاك.

فأحنى جراكوس رأسه موافقًا وقال:

- سأكون مستعداً.

عند ذاك خرج فلافيوس، وقادها جراكوس إلى الغرفة التى كان قد أعدها للطفل. وكانت تجلس فيها أمة، وأشار جراكوس برأسه إلى المرأة وقال مفسراً:

- ستجلس هنا طول الليل. ولن تنتزع عينيها عن الطفل لحظة واحدة. وبذلك لا تضطرى إلى الخوف من أن يصيب طفلك شىء. وإذا بكى الطفل، ستناديك فى الحال، فلا حاجة بك إلى القلق على الإطلاق.

فقالت فارينيا:

- سينام الطفل. أنت طيب القلب إلى حد كبير. لكن الطفل سينام.

- لكنك لن تضطرى إلى الإصغاء إلى بكاء الطفل. إذ ما إن يبك، حتى تناديك. هل أنت جائعة؟ هل أكلت؟

فأجابته فارينيا بعد أن أرقدت الطفل فى المهد قائلة:

- لم آكل لكنى لست جائعة. فأنا ثائرة الأعصاب. إلا حد لم يبق لى معه أية شهية. أحس كأنى فى حلم. كنت أول الأمر خائفة من الثقة بالرجل الآخر، لكنى أصدق الآن. لست أدرى لماذا تضطر إلى الإقدام على هذا من أجلى. أخشى أن أكون فى حلم أستيقظ منه فى أية لحظة.

- لكنك ستجلسين معى بينما أفرغ من عشائى وربما رغبت فى تناول شىء كذلك .

- أجل. سأفعل ذلك.

ورجعا إلى قاعة الطعام، وجلست فارينيا على الأريكة فى زاوية قائمة على الجانب الذى جلس عليه جراكوس ولم يستطع هو أن يسترخى فى جلسته ، إنما جلس هناك متصلبًا بعض الشىء، غير قادر على انتزاع عينيه من فارينيا ودار بذهنه فى قليل من الدهشة، أنه لا يحس انزعاجًا فى أى صورة من الصور، ولا يتوجس خيفة من شىء، إنما يميل إلى الامتلاء بسعادة أكبر من أية سعادة عرفها فى حياته من قبل. كان يشعر بالرضاء، ولم يكن فى حياته كلها من قبل، قد أحس بمثل هذا الشعور من الرضاء قط. وبدا له أن كل شىء على ما يرام فى الدنيا، وأن انعدام التجانس المؤلم فى الدنيا قد اختفى. إذ كان يحس أنه يجلس مطمئنًا فى بيته، فى مدينته المباركة، فى مدينته روما الرائعة. وامتلأ بحب عظيم دافق لتلك المرأة التى كانت تجلس قبالته. لم يحاول عند ذاك أن يتتبع العقدة التى ركزت الحب الوحيد فى وجوده كله فى زوجة سبارتاكوس. وظن أنه فهم السر فى ذلك، ولكنه لم يحس رغبة فى التفتيش فى نفسه ووضع يده عليه.

وبدأ يتكلم عن الطعام فقال:

- أخشى أن تجدى الطعام أميل إلى البساطة بالمقارنة إلى المائدة التى ينصبها كراسوس. فأنا آكل الفاكهة واللحم البسيط، والسمك فى غالبية الأحوال. وأتناول أحيانًا صنفًا خاصًا. وعندى الليلة سرطان البحر المحشو، وهو طيب جدا، ونبيذ أبيض أشربه مخففًا بقليل من الماء.

ولم تكن هى مصغية إليه، فقال فى نفاذ بصيرة غير عادية .

- أنت فى الحقيقة لا تفهمين متى نتكلم نحن الرومانيين عن الطعام.

فأمنت على رأيه قائلة:

- هذا صحيح.

- أستطيع أن أدرك السر فى ذلك. فنحن لا نتحدث قط عن مدى فراغ حياتنا. ذلك لأننا ننفق الكثير من الوقت فى ملء حياتنا، فجعلنا من كل تصرفات البرابرة الطبيعية، وهى الطعام والشراب والحب والضحك - جعلنا من كل هذه الأشياء طقوسًا كبيرة وصنما. لم نعد نحس بالجوع قط. نتحدث عن الجوع، لكننا لا نجربه أبدًا، ونتحدث عن العطش، لكننا لا نحس العطش مطلقًا، ونتحدث عن الحب، لكننا لا نحب. ونحاول أن نجد بديلاً لكل هذا بما ندخله من تجديدات وبألوان الضلال التى لا تنتهى. لقد احتلت التسلية بالنسبة لنا محل السعادة، وعندما تفقد كل تسلية طعمها، يجب أن نجد شيئًا آخر أكثر تسلية وأكثر إثارة - أكثر وأكثر وأكثر، وزدنا من قساوة نفوسنا، إلى حد أننا لم نعد نحس بما نعمل، وعدم الإحساس هذا ينمو ويتضخم أتفهمين ما أقول؟

فأجابته فارينيا قائلة:

- أفهم بعضًا منه.

– وأنا يجب أن أفهمك يا فارينيا. يجب أن أفهم لماذا تخافين أن يكون هذا مجرد حلم. فكراسوس كثير التقدير والحب لك. وأظنه قد يقدم حتى على الزواج منك، إذا رغبت فى ذلك. وكراسوس رجل عظيم. بل إنه واحد من أعظم الرجال فى روما وسلطانه ونفوذه لا يصدقان. أتعرفين ما هو الفرعون المصرى؟

– أجل أعرف.

– حسن، كراسوس فى هذه اللحظة، له من السلطان أكثر مما للفرعون المصرى. وفى وسعك أن تصبحى أعظم من ملكة مصر. ألا يحمل إليك هذا بعضًا من السعادة؟

– مع الرجل الذى قتل سبارتاكوس؟

– آه. لكن فكرى. هو لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه. فهو لم يعرف سبارتاكوس، ولم يحمل له أية كراهية شخصية. فأنا مجرم بنفس القدر. روما هى التى حطمت سبارتاكوس. لكن سبارتاكوس قد مات، وأنت على قيد الحياة. ألا تريدين ما يستطيع كراسوس أن يعطيه لك؟

فأجابت فارينيا قائلة:

– لا أريده.

– ماذا تريدين يا عزيزتى فارينيا؟

فقالت:

– أريد أن أصبح حرة، أريد أن أرحل عن روما، ولا أرى روما مرة ثانية طول حياتى. أريد أن أرى ابنى ينشأ فى ظل الحرية.

فسألها جراكوس قائلاً وهو فى حيرة ذهنية حقيقية:

– وهل حرية المرء ثمينة إلى هذا الحد؟ حرية من أجل أى شىء؟ حرية من أجل الموت جوعًا؟ حرية كى يذبح المرء؟ وكى يصبح شريداً بلا مأوى؟ – حرية ليعمل المرء فى الحقول كما يعمل الفلاح؟

فقالت فارينيا:

– لا أستطيع أن أحدثك عن ذلك. حاولت أن أحدث كراسوس لكنى لم أعرف كيف أحدثه. ولا أعرف كيف أحدثك أنت.

– وأنت تكرهين روما وأنا أحب روما يا فارينيا، روما هى دمائى وحياتى؛ أمى وأبى. وروما عاهرة، لكنى أموت لو اضطررت إلى ترك روما، وأنا أحس هذا الآن، ومليء بالشعور بمدينتى لأنك تجلسين أمامى هناك، لكنك تكرهينها. وأنا أتساءل عن السبب هل كان سبارتاكوس يكره روما؟

– كان ضد روما، وكانت روما ضده. أنت تعرف ذلك .

– لكن لو أنه حطم روما، ماذا كان ليقيم بدلاً من روما .

– كان يريد عالما لا عبيد فيه ولا سادة، إنما ناس يعيشون معًا فى سلام وأخوة. قال إنه سيأخذ من روما ما هو طيب وجميل وأنه سيشيد مدنا بلا أسوار، وأن كل الناس ستعيش فى سلامٍ وأخوة، وأنه لن تعود هناك حروب بعد ذلك، ولن تبقى تعاسة ولا آلام.

ظل جراكوس صامتًا فترة طويلة حينذاك، راحت فارينيا ترقبه خلالها فى حب استطلاع وبلا خوف. فقد كان على الرغم من مظهره الخارجى الضخم، وعلى الرغم من جسده الضخم السمين كان رجلاً رغبت فى أن تثق فيه، ومغاير الكل. رجل عرفته من قبل. كما كانت فيه أمانة غريبة معكوسة إلى الداخل، وكانت فيه صفة ذكرتها بطريقةٍ ما بسبارتاكوس، لم تكن شيئًا تستطيع أن تضع يدها عليه، إذ لم تكن شيئًا جثمانيا – بل ولا حتى أحد أساليب السلوك. إنما كانت، بصورة أكبر، هى طريقته فى

التفكير. وكان فى بعض الأحيان - بعض الأحيان فقط - يقول شيئًا كما كان سبارتاكوس يقوله.

ظل صامتًا فترة طويلة قبل أن يتكلم من جديد. ثم علق عند ذاك على ما قالته من قبل، كما لو لم تكن قد انقضت لحظة واحدة. قال:

– إذن فقد كان ذلك هو حلم سبارتاكوس، أن يقيم عالمًا بلا سياط ولا أحد فيه يجلد – لا قصور فيه ولا أكواخ من الطين؟ من يدرى؟ ماذا أسميت ابنك يا فارينيا؟

– سبارتاكوس. وأى اسم غير هذا يجب أن أسميه؟

– سبارتاكوس، أجل. طبعًا، وسيشب ليصبح طويل القامة قويا، فيه كبرياء. وهل ستحدثينه عن أبيه؟

– نعم، سأحدثه عنه.

– وكيف ستحكين له؟ كيف ستشرحين؟ إنه سيشب فى عالم ليس فيه رجال مثل سبارتاكوس. كيف ستشرحين له ما جعل أباه نقيا ورقيقا؟

فسألته فارينيا قائلة:

– وكيف عرفت أن سبارتاكوس كان نقيا ورقيقا؟

فتساءل جراكوس قائلاً:

– وهل من العسير معرفة ذلك؟

– إنه عسير بالنسبة لبعض الناس. هل تعرف ما سأقوله لابنى؟

أظنك ستفهمنى. سأقول له شيئًا غاية فى البساطة. سأشرح له أن سبارتاكوس كان نقيا، وكان رقيقًا لأنه وضع وجهه ضد الشر وعارض الشر، وحارب الشر – ولم يهادن قط طيلة حياته كلَ ما كان خطأ.

– وهذا ما جعله نقيا؟

فقالت فارينيا:

– لست بالغة الحكمة، لكنى أظن أن ذلك يجعل أى رجل نقيا. فسألها جراكوس قائلاً:

– وكيف تسنى لسبارتاكوس أن يميز بين ما هو صواب وما هو خطأ؟

– كل ما كان فيه خير لقومه فهو صواب، وما كان يؤذيهم فهو شر.

فأحنى جراكوس رأسه موافقًا وقال:

– الآن أستطيع أن أرى حلم سبارتاكوس وطريقة سبارتاكوس فى الحياة. لقد تقدمت بى السن كثيراً بالنسبة للأحلام يا فارينيا وإلا لأكثرت من الأحلام حول ما فعلته بالحياة الواحدة التى توهب للرجل ليحياها حياة واحدة. وتبدو شديدة القصر بلا معنى وبلا هدف. تمر كاللحظة الخاطفة. يولد الرجل وما يلبث أن يموت دون منطق أو وزن. وهأنذا أجلس هنا بجسدى هذا السمين الضخم القبيح. هل كان سبارتاكوس وسيما شديد الجمال؟

فابتسمت لأول مرة منذ دخلت إلى بيته، ابتسمت ثم بدأت تضحك. ثم استحال الضحك دموعًا ووضعت وجهها على المنضدة وبكت.

– فارينيا، فارينيا. ماذا قلت أنا؟

– لا شىء.

ثم اعتدلت فى جلستها، وجففت وجهها بالمنشفة. وقالت:

– لا شىء قلته أنت. لقد أحببت سبارتاكوس إلى حدٍ كبير. لم يكن مثلكم معشر الرومانيين، ولم يكن مثل رجال قبيلتى كذلك. كان تراقيا، له وجه عريض مسطح.

وحدث ذات يوم أن انكسر أنفه، بينما كان أحد الملاحظين يضربه. وقال الناس: إن ذلك أكسب وجهه شبهاً بالغنم، لكنه كان كاملاً بالنسبة لى. هذا كل ما فى الأمر.

كانت الحواجز التى تفصل بينهما قد ذابت. وانحنى جراكوس إلى الأمام وأمسك بيدها . لم يكن قد شعر يوماً طيلة حياته بمثل هذا القرب من امرأة، وبمثل هذه الثقة فى امرأة. وقال:

– يا عزيزتى، يا عزيزتى، هل تعرفين ما قلته لنفسى؟ قلت لنفسى أول الأمر، إننى أريد منك ليلةً من الحب. ثم رفضت أنا نفسى ذلك. ثم رغبت فى ليلة من التبجيل والاحترام، وهذا رفضته كذلك. ثم أصبح كل ما أريده هو الشكر وعرفان الجميل. لكن هناك ما هو أكثر من عرفان الجميل. أليس كذلك يا فارينيا؟

فقالت فى صراحة:

– نعم. هو كذلك.

وأدرك عند ذاك أنها خلو من النفاق والتصنع، إذ كانت لا تعرف إلا أن تجاهر بما فى ذهنها كاملاً، فرفع يدها إلى فمه وقبلها، فلم تسحبها هى منه. وقال:

– أريد هذا . أمامى من الآن حتى طلوع النهار. هل تجلسين معى وتتحدثين إلىَّ، وتشربين قليلاً من النبيذ، وتأكلين بعضاً من الطعام؟ عندى الكثير الذى يجب أن أقوله لك، والكثير الذى يجب أن أسمعه منك. هل تجلسين معى حتى طلوع النهار، وعند ذاك سيأتى فلافيوس ومعه الجياد، وتغادرين روما إلى الأبد؟ هل تفعلين هذا من أجلى يا فارينيا؟

فقالت:

– ومن أجل نفسى كذلك. فأنا أريد أن أفعل ذلك.

– لن أحاول أن أشكرك، لأنه لا توجد طريقة أعرف بها كيف أشكرك.

فقالت فارينيا:

- ليس هناك ما تشكرني عليه. فأنت تبعث في من السعادة قدراً لم أكن أظن أني سأبلغه مرة ثانية في يوم من الأيام. لم أكن أظن قط أني سأستطيع الابتسام من جديد بعد موت سبارتاكوس. ظننت أن الحياة ستظل كالصحراء أبداً، ولو أنه اعتاد أن يقول لي إن الحياة تفوق في أهميتها كل ما عداها من الأشياء، ولم أعرف يوماً ما كان يعنيه، قدر ما عرفت الآن. أريد الآن أن أضحك. ولست بقادرة على فهم السبب في ذلك، لكني أريد أن أضحك.

- ٩ -

عندما عاد فلافيوس، كانت الساعة التى تسبق الفجر قد حانت، الساعة الرمادية الموحشة، عندما تكون الحياة فى جزرها؛ وتصل الأشياء إلى منتهاها قبل أن تبدأ من جديد. وأدخلته مدبرة البيت دون أن تقول شيئًا إلى جراكوس وفارينيا. وكان جراكوس ممددًا فى مقعدٍ متعبًا، شاحب الوجه، وإن كان لا يبدو عليه التعس أما فارينيا فكانت تجلس على أريكة ترضع طفلها. وكان التعب باديًا عليها هى الأخرى، لكنها كانت رائعة الجمال فى جلستها هناك ترضع الطفل السمين المتورد. وعندما رأى جراكوس فلافيوس، وضع إصبعه على فمه، فانتظر فلافيوس فى هدوء. ولم تكن له حيلة فى أن يأسره الإعجاب بجمال المرأة. فقد كانت تبدو فى جلستها هناك تحت ضوء المصباح ترضع طفلها، كأنها شىء منتزع من ذاكرة روما عن الزمان القديم، القديم جدا.

وعندما انتهت من إرضاع طفلها، غطت صدرها، ولفت الطفل النائم فى دثار من الصوف. ونهض جراكوس ووقف قبالتها، وظلت هى معلقة أبصارها به لحظة طويلة.

وقال لهما فلافيوس:

– لقد قررت استخدام المركبات. فبهذه الطريقة نستطيع أن نكسب أكبر وقت ممكن، وتصبح المسألة عدد الأميال التى نقطعها سواء كنا سننجح فى الوصول أو لا. ولقد ملأت إحدى المركبات بالأغطية والحشيات كى تنالى أكبر قسطٍ من الراحة. لكن يجب أن نرحل فى الحال. فنحن بهذا الوضع قد تأخرنا، تأخرنا إلى حد كبير.

ولم يبد عليهما أنهما يسمعانه، فقد كانت عينا كل منهما متشبثة بالآخر، زوجة سبارتاكوس الجميلة، والسياسى الرومانى السيمن المتقدم فى السن. ثم استدارت فارينيا إلى مدبرة البيت وقالت لها:

- هل تحملين الطفل عنى لحظة؟

فأخذت مدبرة البيت الطفل، وذهبت فارينيا إلى جراكوس وربتت على ذراعيه، ثم مدت قامتها ومست وجهه، فانحنى لها فقبلته.

وقالت له:

- الآن يجب أن أقول لك هذا، أنا أشكرك لأنك كنت بالغ الطيبة معى. إذا جئت معى، سأحاول أن أكون طيبة معك أنا الأخرى، كأطيب ما يمكن أن أكونه مع أى رجل.

- شكرًا لك يا عزيزتى.

- هل تأتى معى يا جراكوس؟

- أوه، شكرًا لك يا عزيزتى، وليباركك الله. أنا أحبك إلى حد كبير، لكنى سأكون عديم النفع بعيداً عن روما. فروما أمى، وأمى عاهرة، لكنها، فيما عداك، المرأة الوحيدة التى أحببتها يومًا ولست عديم الإخلاص. ثم أنا رجل عجوز سمين، وسيضطر فلافيوس هذا إلى أن يفتش المدينة ليجد مركبة تحملنى. اذهبى أنت يا عزيزتى.

فقال فلافيوس وقد نفد صبره:

- قلت لكما إننا قد أضعنا كثيراً من الوقت. خمسون شخصًا يعرفون بهذا الأمر فى هذه اللحظة. أتظن أنه لن يثرثر واحد منهم؟

فقال جراكوس:

- ارعها جيداً. فستصبح الآن رجلا غنيا يا فلافيوس وستعيش بعد اليوم فى راحة. فافعل هذا الشيء الأخير من أجلى. ارعها هى والطفل رعايةً طيبةً، رافقهما كل الطريق شمالاً حتى تصل إلى التلال التى تقوم عند أقدام جبال الألب، والفلاحون الغاليون الذين يعيشون هناك فى الأودية الصغيرة، قوم طيبون، بسطاء، مجدون، وستجد لنفسها مكانًا بينهم. لكن لا تتركها حتى تستطيع رؤية جبال الألب - واضحةً

على السماء. وأسرع. اهوِ بالسياط على الجياد. اقتلهم إذا لزم الأمر، واشترِ جياداً جديدة، لكن لا تتوقف أبداً. هل تفعل هذا من أجلى يا فلافيوس؟

– هل أخللت بوعدٍ قطعته لك بعد؟

– لا، لم تفعل. فليرعكم الله.

وذهب معهم حتى الباب، وحملت هى الطفل بين ذراعيها. ووقف فى الباب الخارجى، فى الفجر الرمادى الذى أخذ الضوء يشوبه، وراقبهم وهم يصعدون إلى المركبات، وكانت الجياد ثائرة الأعصاب، نشيطة، راحت تقرع الرصيف بأقدامها وتلوك ألجمتها.

وصاح يخاطبها قائلاً:

– ليرعك الله يا فارينيا.

فلوحت له بيدها، ثم انطلقت المركبات تقرقع فى الشوارع الضيقة المقفرة، موقظة الجيرة بأسرها بدويها وضجيجها.

عند ذاك عاد جراكوس إلى مكتبه. وجلس فى مقعده الكبير وقد استبد به التعب فى تلك اللحظة، وأغمض عينيه برهة. لكنه لم ينم فقد كان رضاؤه باقيًا لم يزل. وأعمض عينيه، وترك أفكاره تسرح، وفكر فى أشياء كثيرة. فكر فى أبيه. كان حذّاءً فقيراً فى ذلك الزمن الذى كان من الواضح أنه انقضى إلى الأبد، أيام أن كان الرومانيون يكدون ويفخرون بكدهم. وتذكر تدريبه السياسى فى الشوارع، والحروب الدموية التى كانت العصابات تشنها، والتدرب على بيع وشراء الأصوات بما فى ذلك من سخرية شريرة، واستغلال الدهماء، وتسلقه سلم السلطان والقوة. نهم لا يشبع إلى السلطان، ونهم لا يشبع للمال. فى تلك الأيام، كان ما زال هناك الرومانيون الأمناء الذين حاربوا فى سبيل الجمهورية، والذين حاربوا من أجل حقوق الشعب، والذين تكلموا بشجاعة فى الساحة العامة عما فى انتزاع أراضى الفلاح وإقامة

مزارع العبيد الشاسعة من ظلم. كانوا يحذرون، وكانوا يهدرون كالرعد، وكانوا يقفون أمام الطغيان وجهًا لوجه. وكان جراكوس يفهمهم، ويقر بعدالة قضيتهم. لكنه كان يعرف كذلك، أن قضيتهم قضية محتومة الخسران. فليس من الممكن إرجاع عقارب ساعة التاريخ إلى الوراء، لأن الزمن يتقدم إلى الأمام. فانضم إلى أولئك الذين كانوا يضعون ثقتهم فى الإمبراطورية. وبعث بعصاباته لتحطم أولئك الذين كانوا يتحدثون عن الحريات القديمة. وذبح العادلين وذوى المبادئ.

فكر فى ذلك فى تلك اللحظة، لا أسفا أو رثاء، إنما رغبة فى الفهم. كان أعداؤه القدامى هؤلاء يحاربون فى سبيل حريات قديمة. لكن، هل كانت هناك حريات قديمة؟ كانت هنا امرأة خرجت من بيته، والحرية تشتعل بداخلها كالنار، وقد أسمت ابنها سبارتاكوس، وسيسمى هو ابنه سبارتاكوس - ومتى يرضى العبيد بالبقاء عبيداً؟ لم يجد إجابة لنفسه عن أسئلته، ولم يستطع أن يوجد لنفسه حلا. ولم يبعث ذلك أيضًا الأسف إلى نفسه، فقد عاش حياةً حافلة لا يأسف عليها. وكان فيه إحساس بالتاريخ حينذاك، إحساس بسرعة مرور الوقت الذى لا يعدو أن يكون هو مجرد لحظة فيه، وبعث ذلك بالراحة إلى نفسه. ستدوم مدينته الحبيبة. ستدوم إلى الأبد. ولو أن سبارتاكوس عاد يومًا وحطم أسوارها حتى يعيش البشر فى مأمن من الخوف، فسيدركون أن رجالاً مثل جراكوس قد عاشوا يومًا، رجالاً أحبوا المدينة على الرغم من أنهم قبلوا ما فيها من شر.

وانتقل إلى التفكير فى حلم سبارتاكوس. هل يعيش ذلك الحلم؟ هل يدوم؟ هل كان الشيء الغريب الذى قالته فارينيا صحيحًا؟ إن فى وسع البشر أن يصبحوا أنقياء خلصاء بمحاربة الشر؟ إنه لم يعرف قط مثل هؤلاء الرجال، لكنه لم يعرف سبارتاكوس قط لكنه قد عرف فارينيا. وسبارتاكوس قد ذهب، وفارينيا قد ذهبت. لقد أصبح ذلك كالحلم عند ذاك. وهو لم يلمس إلا طرف المعرفة الغريبة التى تمثلها فارينيا، لكن تلك المعرفة لم يكن لها وجود بالنسبة له، ولا تستطيع أن توجد.

ودخلت مدبرة منزله، فتطلع إليها فى استغراب، وسألها فى رقةٍ قائلاً:

– ماذا تريدين أيتها العجوز؟

– حمامك جاهز يا سيدى.

فقال يفسر لها:

– لكنى لن أستحم اليوم.

وأدهشه ما بدا عليها من دهشة وحيرة، ومضى يقول:

– كل شىء قد تغير اليوم يا عجوز. انظرى. هناك، على تلك المنضدة ، تجدين صفا من الحقائب. فى كل حقيبة توجد شهادة عتق لكل واحدة من عبيدى. وفى كل حقيبة، يوجد عشرون ألف قطعةٍ ذهبية. أريدك أن تعطى الحقائب للعبيد؛ وتطلبى منهم مغادرة بيتى. أريدك أن تفعلى هذا الآن يا عجوز.

فقالت:

– أنا لا أفهمك.

– لا ؟ لماذا لا تفهمينني؟ ما قلته واضح تمامًا . أريد منكن أن تذهبن جميعًا . أنتن حرائر ومعكن قدر من المال، هل سمحت لك يومًا من قبل بعصيان أوامرى؟

– لكن من سيطهو لك طعامك؟ من سيعتنى بك؟

– لا تسألينى كل هذه الأسئلة يا عجوز. افعلى ما أقول.

وخال جراكوس الوقت الذى سبق خروجهم جميعا من البيت دهراً، ثم ران على البيت سكون غريب، سكون جديد. وكانت شمس الصباح ترتفع، وامتلأت الشوارع بالحياة والأصوات والضجيج، لكن بيت جراكوس كان ساكنًا صامتاً .

وعاد إلى مكتبه، وذهب إلى خزانة وفتحها وأخرج منها سيفًا، سيفًا إسبانيًا قصيراً من النوع الذى يحمله الجنود، لكنه جميل الطرق وله غمد مزخرف رائع. كان السيف قد أعطى له منذ سنين وسنين مضت بمناسبة احتفالٍ ما، لكنه لم يستطع، على الرغم مما بذل من جهد، أن يتذكر أية مناسبة كانت. غريب أن يحمل مثل هذا الاحتقار للأسلحة، لكن ذلك لم يبد غريبًا للغاية، عندما تذكر أن السلاح الوحيد الذى اعتمد عليه طيلة حياته كان مواهبه الخاصة.

وأخرج السيف من غمده وتحسس حافته وطرفه المدبب. كان ماضيا شديد المضاء. ثم عاد إلى مقعده وجلس وراح يتأمل كرشه الضخم، وبدأ يبتسم لفكرة قتله لنفسه. لم يكن فى ذلك أية كرامة، بل كان أمرًا سخيفًا كل السخافة، وشك جديًا فى أن يجد من نفسه القوة على إغماد السيف فيه - بالطريقة الرومانية الشريفة. أنَّى له أن يعرف أنه لن يطعن أكثر من الشحم، ثم يفقد السيطرة على أعصابه ويرقد متخبطًا فى دمائه يعوى ويصيح طلبًا للعون. يا له من وقت فى حياة رجل يبدأ فيه القتل. إنه لم يقتل شيئًا واحداً طيلة حياته، حتى ولا فرخًا من أفراخ الدجاج.

ثم أدرك أن الأمر ليس مسألة أعصاب. فهو لم يخف من الموت إلا لماما. وكان منذ طفولته يسخر من القصص المضحكة عن الآلهة. وكان كرجل، قد قبل بسهولة وجهة نظر المتعلمين من أبناء طبقته، فى أنه لا توجد آلهة، وأنه لا حياة بعد الموت. لقد قر رأيه على ما ينوى عمله، إنما يخاف فقط ألا يعمله فى وقار.

ولا بد أنه أغفى بينما كانت تلك الأفكار تدور فى ذهنه، لأنه استيقظ على دقات شخص يقرع الباب الخارجى قرعًا مدويًا، فنفض عن نفسه النعاس وأصغى.

وفكر لنفسه قائلاً:

- يا له من مزاج مزاجك يا كراسوس. يا له من سخط عادل، أن يستطيع هذا الأحمق العجوز السمين أن يلفك حول اصبعه وينتزع منك مكافأتك الكبيرة عن الحرب.

لكنك لم تحبها يا كراسوس. أردت سبارتاكوس لتعلقه على الصليب بالمسامير، وعندما لم تستطع الحصول عليه، أردتها هى. أردتها أن تحبك، وأن تزحف على قدميها أمامك. أوه يا كراسوس، أنت أحمق كبير، أحمق غبى كثير الخطأ. ومع ذلك فالناس من أمثالك هم رجال العصر. لا شك فى ذلك.

وبحث عن السيف فلم يجده. فهبط راكعًا على ركبتيه حتى وجده تحت المقعد. وركع والسيف فى يديه، ثم أغمده بكل قوته فى صدره. وكان الألم من العنف إلى حد أن صرخ فى ألم. لكن السيف نفذ، ثم سقط إلى الأمام فوقه، فدفعه حتى نهاية الطريق.

وهكذا كان عندما حطم كراسوس الباب ودخل. واحتاج القائد إلى كل قوته، حتى قلبه على ظهره، وعند ذاك رأى القائد وجه السياسي وعليه جهامة أو ضحكة فاترة.

وعاد كراسوس بعد ذلك إلى بيته، يفيض غضبًا وكراهية. لم يحس من قبل طيلة حياته كلها أنه يكره إنسانًا أو شيئًا بنفس الطريقة التى كان يكره بها جراكوس الميت. لكن جراكوس قد مات، ولم يعد لكراسوس ما يستطيع عمله فى ذلك الشأن.

وعندما دخل كراسوس إلى بيته، تبين أن لديه ضيفًا. كان كايوس الشاب فى انتظاره. ولم يكن كايوس يعرف شيئًا عما حدث. كان قد عاد لتوه، كما أوضح ذلك على التو، من عطلته التى أمضاها فى كابوا، فجاء مباشرةً ليزور حبيبه كراسوس. وراح إلى كراسوس وبدأ يربت على صدره. وعند ذاك أهوى عليه كراسوس بقبضة يده فطرحه أرضًا.

واندفع كراسوس كالعاصفة إلى الغرفة المجاورة، وعاد يحمل سوطًا. وكان كايوس قد بدأ يجمع شتات نفسه وينهض من وقعته على الأرض، والدم يجرى نازلا من أنفه، ووجهه ملىء بالدهشة والألم والسخط، ثم بدأ كراسوس يجلده بالسوط.

وصرخ كايوس، وصرخ مرة ومرة، لكن كراسوس مضى يهوى بالسوط فوقه. وكان من الضرورى فى النهاية أن يتدخل عبيد كراسوس ويوقفوه، فتعثر كايوس خارجًا من البيت، وهو يبكى كالصبى الصغير من ألم الجلد بالسوط.

الجزء الثامن

وفيه تنال فارينيا حريتها.

- ١ -

نفذ فلافيوس اتفاقه مع جراكوس، فاندفعت المركبات تشق طريقها شمالاً ثم تعرج إلى الشرق وهى مسلحة بخبر أوراق الاعتماد الموقعة من جراكوس نفسه. ولم تتذكر فارينيا الكثير من الرحلة، إذ أمضت معظم اليوم الأول نائمة والطفل متشبث بصدرها. وكان طريق كاسيا طريقًا ممتازًا ناعمًا سطحه صلب، فتقدمت المركبات فى يسر وانتظام. قاد السائق الجياد خلال الجزء الأول من النهار بلا رحمة. ثم استبدلت بالجياد مجموعة جديدة عند الظهر، وتقدمت المركبات خلال الجزء الأخير من النهار تجرها الجياد فى عدو سريع منتظم. وعندما نزل الليل كانوا قد ابتعدوا عن روما أكثر من مائة ميل شمالاً. واستبدلوا الجياد مرة ثانية فى الظلام، واستمرت المركبات فى اندفاعها طول الليل تحت ضوء القمر فى سرعة منتظمة تلتهم الأميال ميلا إثر ميل.

واعترضت طريقهم الدوريات العسكرية عدداً من المرات، لكن تفويض مجلس الشيوخ الذى كان جراكوس قد أعطاه لفلافيوس كان كافيا على الدوام لشق طريقهم. ووقفت فارينيا ساعات بأسرها فى أثناء تلك الليلة فى المركبة المتأرجحة والطفل ينام فى سلام عند قدميها وهو ملتف بالأغطية تحيط به الحشيات. وشاهدت الريف يمر أمام عينيها يضيئه نور القمر. وشاهدت فى أثناء مرور المركبات فوق الجسور الرومانية الرائعة، سيول الماء وهى تندفع هابطة إلى أسفل. كانت الدنيا نائمة لكنهم واصلوا السير.

وعندما أفل القمر قبل الفجر بساعات قليلة، عرجت المركبات خارجة من الطريق إلى مرج صغير، وحلوا الخيول من المركبات وقيدوها، وتناولوا شيئًا من الخبز والنبيذ ثم رقدوا فوق الأغطية ليستريحوا. واستعصى النوم على فارينيا. أما السائقون

المجهدون فسرعان ما غرقوا فى نوم عميق. وبدا لفارينيا أنها لا تكاد تكون قد أغفت عندما أيقظها فلافيوس، فأرضعت الطفل بينما كانوا يسرجون الخيول، وكانوا يعملون متبرمين فى بطء شأن الرجال عندما لا يكونون قد تغلبوا بعد على إرهاقهم، وعند ذاك قادوا المركبات عائدين إلى الطريق فى ضوء الفجر الشاحب، ثم اتجهوا إلى الشمال من جديد. وكانت الشمس تشرق عندما توقفوا فى إحدى المحطات التى تقوم على جانب الطريق كل ميل ليلينوا أطرافهم وليستبدلوا الجياد مرة ثانية. وبعد فترة قصيرة مروا بمدينة مسورة، وظل السائقون يلهبون الجياد بالسياط طيلة ذلك الصباح فتندفع المركبات متقدمة فى دوى كالرعد. وعند ذاك بدأت حركة المركبة اللانهائية تؤثر على فارينيا. فتقيأت عدة مرات، وظلت فى خوف دائم من أن يتوقف لبنها عن التدفق. إلا أن فلافيوس، عندما جاء المساء، اشترى لبنا طازجًا وجبنا من لبن الماعز من أحد الفلاحين – وهو الطعام الذى كان فى استطاعة فارينيا أن تبقيه فى معدتها – واستراحوا معظم الليل نظرًا لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم.

وقاموا مرة ثانية قبل الفجر وبدءوا المسير، ومع انتصاف النهار، وصلوا إلى حيث يلتقى طريق كبير آخر بطريقهم ويقطعه كانوا حينذاك يتقدمون شمالاً فى اتجاه الغرب. وشاهدت فارينيا لأول مرة على بعد والشمس آخذة فى الغروب، قمم جبال الألب المكالة بالثلوج. وكانت الليلة مقمرة، فمضوا فى طريقهم دون توقف ودون إمعان فى إرهاق الجياد. إلا أنهم توقفوا مرة فى أثناء الليل ليستبدلوا الجياد للمرة الأخيرة، ثم انحرفوا قبل الصباح عن الطريق الرئيس إلى طريق مترب غير مرصوف يمتد شرقًا. وتعرج الطريق هابطًا إلى أحد الأودية، واستطاعت فارينيا عندما أشرقت الشمس أن ترى الوادى كله ممتدًا أمامها مغلفًا بالضباب، ونهرًا جميلاً يتدفق فى منتصفه، والتلال ترتفع على كل من جانبيه. كانت جبال الألب قد أضحت أكثر قربًا عند ذاك.

هنا لم يعد فى استطاعتهم أن يتقدموا بسرعة كبيرة نظرًا لأن المركبات كانت تترنح من جانب إلى جانب من الطريق المترب غير الممهد. فجلست فارينيا بين

الحشيات، وهى تمسك بطفلها بين ذراعيها. وعبروا النهر فوق جسر خشبى ثم بدءوا يصعدون فى بطء على سفوح التلال. وجاهدت الجياد طيلة النهار صاعدة مقتفية الأثر على الطريق الجبلى المتعرج. وكان الفلاحون الغاليون عندما يرونهم، يوقفون عن عملهم ليشاهدوا المركبتين الكبيرتين والجياد الأصيلة ذات الصدور الضخمة التى تجـرهمـا، وكان الأطفال يجرون على الدوام إلى جانب الطريق ورءوسهم مغطاة بنسيج الكتان، ليحدقوا بعيون واسعة إلى هذا المشهد غير العادى.

وقبل المساء بقليل، عندما أصبح الطريق مجرد درب غير ممهد، وصلوا إلى قمم التلال، وشاهدوا واديًا عريضًا يمتد أمامهم. واستطاعت فارينيا أن ترى هنا وهناك فى هذا الوادى العريض مدينة صغيرة، ومجموعة من المنازل، ومجموعات من أكواخ الفلاحين فى أماكن أخرى. وكان الوادى يضم مساحات عريضة من الغابات، وكثيرًا من القنوات الصغيرة، وما يوحى بمدينة كبيرة مسورة غير واضحة المعالم على بعد. وكانت المدينة تقع إلى الغرب بالنسبة لهم، فراحوا يشقون طريقًا لأنفسهم هابطين فى اتجاه الشمال متجهين إلى جبال الألب التى كانت ما تزال تبدو بعيدة .

وكان هبوط التلال فى نفس صعوبة ارتقائها، فقد كان من الضرورى كبح جماح الجياد وشدها إلى الوراء، كما أن الطريق كان ينثنى ويدور. وكان الظلام قد حل بالفعل عندما وصلوا إلى قاع الوادى، فتوقفوا لينالوا قسطًا من الراحة ولينتظروا بزوغ القمر وسافروا زمنًا فى تلك الليلة تحت ضوء القمر ثم توقفوا من جديد. ثم استأنفوا السفر مع تباشير نور اليوم التالى. وكانت الطرق كلها رديئة فى هذه المنطقة، ومع ذلك فقد واصلوا التقدم حتى وصلوا فى النهاية إلى التلال المنحدرة حيث تبدأ جبال الألب.

وهنا افترق فلافيوس عن فارينيا، تركها فى وقت مبكر ذات صباح على رقعة من الطريق حيث لم يكن يبدو شىء على مرمى البصر عدا الحقول والغابات.

وقال لها:

– صحبتك السلامة يا فارينيا. لقد نفذت ما وعدت جراكوس بعمله. وأظن أننى أستحق بعضًا من المال الذى دفعه لى. وآمل ألا يرى واحد منا روما مرة ثانية فى يوم من الأيام، فليست هى بالمدينة الصالحة لكلينا من الآن فصاعداً. أرجو الحظ الحسن والسعادة، لك ولولدك الصغير هذا. توجد قرية ريفية صغيرة على بعد حوالى ميل صعوداً فى هذا الطريق، ويحسن ألا يروك قادمة فى مركبة. إليك هذه الحقيبة ففيها ألف قطعة ذهبية تكفى لشراء طعامك وإيجار مأوى لك لمدة عام إذا احتاج الأمر فى هذه المناطق. والفلاحون هنا قوم بسطاء، وسيساعدونك إذا أردت أن تعبرى الجبال إلى وطنك. لكنى أنصحك بألا تحاولى ذلك. إذ يعيش فى الجبال قوم متوحشون يكرهون الأغراب. كما أنك لن تجدى قومك قط يا فارينيا. فالقبائل الألمانية دائمة التجوال فى الغابات من مكان إلى مكان، ولا يستطيع إنسان أن يحدد مكان قبيلة ما من سنة إلى سنة. كما أن تلك الغابات الموجودة فى الجانب الآخر من جبال الألب، فيما سمعت، مكان كثير الرطوبة غير صحى لا يصلح لتنشئة طفل صغير. لو كنت مكانك يا فارينيا لقررت أن أعيش فى جهة ما من هذه المنطقة المجاورة. ويجب أن أعترف لك بأن هذا لا يستهوينى، لكن هذا ما أردته أنت. أليس كذلك؟

فأحنت رأسها موافقة وقالت:

– هذا ما أردته. وأنا كثيرة الشكر لك يا فلافيوس.

وعند ذاك أداروا المركبات ليعودوا أدراجهم ووقفت فارينيا هناك والطفل بين ذراعيها، ترقبهم وهم يبتعدون وسط عواصف الغبار، وظلت ترقبهم حتى أخفاهم مرتفع من الأرض عن نظرها.

وجلست إلى جانب الطريق وأرضعت الطفل. ثم قامت وتقدمت على الطريق. وكان الصباح صباح يوم من أيام الصيف الرائقة الندية، وكانت الشمس تصعد فى سماء زرقاء صافية، والطيور تشدو وتغنى وأسراب النحل تنتقل من زهرة إلى زهرة تمتص الرحيق وتملأ الهواء بطنينها.

وكانت فارينيا سعيدة. لم تكن سعادتها هى السعادة التى عرفتها مع سبارتاكوس، لكنه كان قد أورثها معرفة الحياة وقيمة الوجود الثمينة. وهى حية وحرة، وطفلها حى وحر. لذلك كانت راضية بطريقة ما، وتتطلع إلى المستقبل فى أمل وتفاؤل.

وهذا ما حدث لفارينيا. والمرأة لا تقوى على الحياة وحيدة، فوجدت مأوى لها فى القرية التى انتهت إليها، وهى قرية تضم قومًا من الفلاحين الغاليين البسطاء، وجدت مأوى لها مع رجل ماتت زوجته فى أثناء الوضع. من المحتمل أن يكون الفلاحون قد عرفوا أنها أمة هاربة، لكن ذلك لم يعن لهم شيئًا. فقد كانت ممتلئة الأثداء ومنحت الحياة لواحد من أطفالهم. وكانت هى امرأة طيبة، فأحبها القوم لقوتها وبساطتها الصريحة.

وكان الرجل الذى دخلت بيته فلاحًا بسيطًا، لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعرف إلا دروس الكد. لم يكن سبارتاكوس، ومع ذلك فلم يكن ليختلف كثيرًا عن سبارتاكوس. فله نفس الصبر على الحياة. وليس سريع الغضب ويحب طفليه حبا عميقًا - طفله هو، والطفل الذى جاءته به فارينيا.

أما فارينيا، فقد قدسها وعبدها - لأنها جاءته من الخارج وجلبت له الحياة معها. واستطاعت هى مع الزمن أن تعرفه، وأن تبادله بعضًا من شعوره. وتعلمت لغتهم بسهولة كبيرة، فهى لغة لاتينية الأصل خالطها كثير من الكلمات الغالية، وتعلمت طرائقهم التى لم تكن لتختلف كثيرًا عن طرائق وعادات قبيلتها الأصلية. فهم يفلحون الأرض ويخرجون منها المحصول، وينذرون بعض المحصول لآلهة قريتهم، ويدفعون جزءًا آخر لجامع الضرائب ولروما. يعيشون ويموتون، يرقصون ويغنون، يبكون ويتزاوجون، وتمضى حياتهم مع الدورات العادية للفصول.

وكانت تغييرات كبيرة تطرأ على العالم، إلا أنهم ما كانوا يشعرون بالتغييرات فيما بينهم إلا ببطء كبير، لدرجة أن حياتهم لم يكن ليصيبها أى صدع حقيقى.

وكانت فارينيا مثمرة ولوداً. فكانت تخرج من بين حقويها كل عام طفلا جديداً. فأنجبت سبعة أطفال من الرجل الذى تزوجت منه قبل أن تتوقف عن الحمل. وشب سبارتاكوس الصغير معهم، طويلا قويا منتصب القامة. وعندما بلغ السابعة من عمره حدثته لأول مرة عمن كان أبوه، وروت له قصة ما فعله أبوه. وأدهشها أنه استطاع أن يحسن الفهم. ولم يكن أحد فى هذه القرية قد سمع من قبل باسم سبارتاكوس، فأحداث أكبر من هذه قد هزت الدنيا ولم تدر بها هذه القرية. ومع نمو بقية أطفالها: وثلاث منهم بنات وخمسة صبيان، روت لهم فارينيا القصة مرات كثيرة.

قصت عليهم كيف استطاع رجل عادى، كان عبداً، أن يقف فى وجه الطغيان والظلم، وكيف ظلت روما العاتية ترتعد من مجرد ذكر اسمه طيلة سنوات أربع. وحدثتهم عن المنجم المشئوم الذى كد فيه سبارتاكوس وروت لهم كيف قاتل فى المجتلد الرومانى وفى يده سكين. وحدثتهم عن مدى رقته وطيبته وحنوه، ولم تحاول قط أن تفصل بينه وبين القوم البسطاء الذين كانت تعيش بين ظهرانيهم فكانت، فى الحقيقة، عندما تتحدث عن رفاق سبارتاكوس تنتقى هذا أو ذاك من سكان القرية لتضرب به المثل. وكان زوجها يصغى، عندما تروى هذه القصص، فى عجب وحسد.

ولم تكن الحياة التى عاشتها فارينيا حياة سهلة لينة. فقد كانت تعمل منذ طلوع النهار حتى نزول الليل، تستأصل الحشائش، وتعزق الأرض، وتنظف. وتغزل وتنسج. ولوحت الشمس بشرتها البيضاء فأحالتها سمراء، واختفى جمالها، لكن جمالها لم يكن يوماً بالشىء الذى تعلق عليه كبير أهمية. فما من مرة توقفت فيها لتفكر فى الماضى وتتأمله، إلا أحست بالشكر لما أعطته لها الدنيا. ولم تعد تبكى على سبارتاكوس. وأضحت حياتها مع سبارتاكوس عند ذاك كالحلم.

وعندما بلغ ابنها الأول العشرين من العمر، أصابتها حمى، وماتت بعد ثلاثة أيام. وكان موتها سريعاً وبلا كثير من الألم، وبعد أن بكاها زوجها وأولادها وبناتها لفوها فى كفن ودفنوها فى الأرض لتستريح إلى الأبد.

وحدث بعد موتها أن طرأت تغييرات على ذلك المكان. فقد بدأت الضرائب تزداد، وكانت الزيادة مطردة بلا نهاية. وجاء صيف جاف فمات أغلب المحصول، وعند ذاك جاء الجنود الرومانيون. وطردوا العائلات التى لم تستطع دفع ما عليها من ضرائب من بيوتها ومن أرضها، وقيدوا أفرادها بالسلاسل من أعناقهم، وساقوهم إلى روما ليباعوا هناك استيفاء لما عليهم من ضرائب.

على أنه، ليس كل من ماتت محصولاته قد قبل هذا الموقف فى خنوع. فقد فر سبارتاكوس وإخوته وغيرهم من أهل القرية إلى الغابات التى تنمو إلى الشمال من قريتهم، الغابات التى تنمو على السفوح صاعدة مع جبال الألب الموحشة. وعاشوا هناك حياة فقيرة تعسة على ثمار البلوط والجوز وعلى القليل من الصيد الذى يستطيعون قتله، لكنهم، عندما أقيم بيت ريفى كبير على الأراضى التى كانت ملكا لهم من قبل، انقضوا عليه وأحرقوا هذا البيت الريفى وأخذوا كل ما كان فيه.

عند ذاك جاء الجنود إلى الغابات، وانضم الفلاحون إلى قبائل الجبال لمقاتلة الجنود. وانضم إليهم العبيد الفارون، واشتعلت نيران حرب أثارها من جُردوا من أملاكهم، عامًا بعد عام. فكان الجنود يسحقونهم أحيانًا، وفى أحيان أخرى كانت قوة الثوار تزداد إلى حد أن يجتاحوا السهول ويحرقوا ويسلبوا وينهبوا.

فى مثل هذه الحياة عاش ومات ابن سبارتاكوس، مات وسط الصراع والعنف كما مات أبوه. وكانت القصص التى رواها هو لأولاده أقل وضوحًا وأكثر بعدًا عن الحقيقة. واستحالت القصص إلى أساطير، وأصبحت الأساطير رموزًا، لكن حرب المضطهدين ضد من يضطهدونهم استُمرت ودامت. كانت شعلة يعلو نورها ويخبو لكنها لم تنطفئ قط. ولم يمح اسم سبارتاكوس. ولم يكن ذلك نتيجة لوراثة الدم، إنما كان نتيجة لوراثة الصراع المشترك.

وسيأتى يوم تتحطم فيه روما - لا على أيدى العبيد وحدهم بل على أيدى العبيد، وعبيد الأرض، والفلاحين، والبرابرة الأحرار الذين ينضمون إليهم.

وما دام هناك من البشر من يكد ويأخذ غيرهم ثمرة الذين يعملون ويستغلونها، فسيظل اسم سبارتاكوس فى الأذهان، يهمس به البشر أحيانًا، ويصيحون به عاليًا واضحًا فى أحيان أخرى.

التصحيح اللغوى : سماح محمد
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد